الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي



كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية　　　　قسم التاريخ

مظاهر التحالفات والصراعات ببلاد المغارب وأثرها في توازن القوى خلال الفترة (1520-1792م)

أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه(ل م د) في التاريخ

تخصص: تـــاريخ بلاد المغرب الحديث

إعداد الطالب:
تشيش نبيل

إشراف الأستاذ الدكتور:
عطية عبد الكامل

أعضاء لجنة المناقشة

الإسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
رشيد قسيبة	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيسا
عطية عبد الكامل	أستاذالتعليم العالي	جامعة الوادي	مشرفًا ومقررًا
معاذ عمراني	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	ممتحنا
محمّد السّعيد عقيب	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	ممتحنا
هزرشي بن جلول	أستاذ التعليم العالي	جامعة الجلفة	ممتحنا
لخيسي فريح	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	ممتحنا

السنة الجامعية: 1443-1444هـ/2022-2023 م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ربّ أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن اعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾

[سورة النمل الآية :19]

الإهداء

أهدي ثمرة هذا العمل إلى كل من :

والديّ الكريمين، أمدّهما الله بالصحة والعافية.

إخوتي، وزوجتي، وإبني يحي.

كل من علمني حرفا.

طلاّب العلم.

شكر وتقدير

الحمد والشكر لله سبحانه وتعالى أن وفقني إلى إنجاز هذا العمل، وأتوجه بجزيل الشكر والتقدير والعرفان إلى أستاذي الفاضل المشرف على هذه الرسالة " الأستاذ الدكتور عطية عبد الكامل" على كل ما قدّمه لي من مساعدة وتوجيهات علمية، كما لا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر إلى اللجنة المحترمة.

قائمة المختصرات باللغة العربية:

تح	تحقيق
تر	ترجمة
تع	تعريب
تق	تقديم
ج	جزء
د ت ن	دون تاريخ نشر
ع	عدد المجلة
ص	الصفحة
ص ص	أكثر من صفحة
ط	طبعة
م	التاريخ الميلادي
مج	مجلد
هـ	التاريخ الهجري

قائمة المختصرات باللغة الأجنبية:

Page	p
Ouverage precite	Op.cit
Le Mame Page Cite	Ib idem
Page Continues	pp
Revue Africaine	R.A
Tome	T
Numero	N

مقدمة

تعتبر بلاد المغارب منطقة جغرافية هامة من حوض البحر الأبيض المتوسط فهي تؤثر في الأحداث والتطورات السياسية والعسكرية، وتتأثر بما كان يحدث في الضفة الشمالية منه فالتاريخ المشترك الذي يربط بين ضفتي المتوسط الشمالية والجنوبية يبقى شاهدا على مختلف الصراعات والتحالفات بين القوى المغاربية الإسلامية والأوروبية المسيحية التي ساهمت في رسم معالم الخارطة الجيوسياسية لبلاد المغارب في ظل التوازنات الإقليمية والدولية خلال الفترة الحديثة.

على الرغم من أن تاريخ المغارب في الفترة الحديثة حظي باهتمام ودراسة الباحثين خاصة في جوانبه السياسية والعسكرية،المحليين منهم، وحتى من جنسيات مختلفة، نظرا لما شهدته هذه المنطقة الحيوية ذات الموقع الإستراتيجي الهام من أحداث وتطورات بارزة أثّرت في الوضع الإقليمي والدولي بدرجات متفاوتة وعبر فترات زمنية مختلفة، بداية من مطلع القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، هذا الاهتمام هو نتيجة حتمية لاختلاف بعض القراءات والنتائج المتوصل إليها في الدراسات التاريخية السابقة من جهة، وظهور وحصول الدّارسين في هذا الميدان على بعض الوثائق والمخطوطات التي تدعم أو تدحض مواقف المؤرخين السابقة من بعض القضايا من جهة أخرى، إضافة إلى إختلاف القراءة في المواضيع السياسية والعسكرية من زوايا متعددة، وهذا مدعاة لمواصلة البحث في هذا التخصص.

لقد تأثرت البلاد المغاربية (الجزائر، تونس، طرابلس الغرب، المغرب الأقصى) قبل مطلع القرن السادس عشر بالأحداث التي عرفها الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فكانت سنة 1492م محطّة هامة أحدثت اختلالات في توازنات القوى بين ضفتي المتوسط فبسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس تطوى صفحة ناصعة من تاريخ الأمة الإسلامية، وتبدأ صفحة جديدة من التاريخ في هذا القطر الشاسع، فقد برزت الدولتان الأوروبيتان اسبانيا والبرتغال على مسرح الأحداث، في حين شهدت الضفة الجنوبية من

الحوض الغربي للمتوسط صراعات وانقسامات داخلية في كلّ من المغرب الأوسط الذي كان تحت سلطة الدولة الزيّانية، والمغرب الأقصى ممثلا في الحكام المرنيين، والمغرب الأدنى الذي كان تحت راية الحفصيين، هاته الدول سادت بينها حروب طاحنة ومستمرة منذ سقوط الدولة الموحدية أواخر القرن 13م، لأجل التوسع ومحاولة توحيد بلاد المغارب من جديد على شاكلة المغرب الموحدي ما نتج عنه تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والحضارية في بلاد المغارب عموما، وهذا ما جعلها عرضة للغزو الأوروبي.

إنّ ظهور العثمانيين في الحوض الغربي للمتوسط و تحالفهم مع إخوانهم السكان في بلاد المغارب من أجل الدفاع عن المسلمين الفارّين من بطش الصليبيين بالأندلس ومساهمتهم في تحرير بعض السواحل المغاربية من الإحتلال الإسباني والبرتغالي أحدث نوعا من التوازن في القوى في بادئ الأمر.

أصبح المشهد السياسي والعسكري في بلاد المغارب أكثر تعقيدا خلال العقدين الأولين من القرن 10هـ/ 16م، لتعدد القوى المتصارعة وتشابك العلاقات بين الأطراف المحلية التي هي بالأساس منقسمة ومتفرعة على أطياف عديدة تحمل طابعا دينيا وقبليا واجتماعيا، والأجنبية أيضا، وهذا ما سمح ودفع بقوة لظهور تكتلات وتحالفات جديدة أسّست لتشكل أنظمة سياسية جديدة وسقوط أخرى خلال الفترة الحديثة إجمالا.

إنّ وجود كلّ هاته الدول والكيانات والتفاعلات في بلاد المغارب أدّى إلى تصادم المصالح خلال الفترة الحديثة و نتج عنه ظهور تحالفات سياسية وتكتلات عسكرية خلال القرن 10هـ/16م، كان لها الأثر في توجيه مسار الصراعات و رسم الخارطة الجيوسياسية المغاربية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين. وهو ما جعلني أختار هذا الموضوع كأطروحة لنيل شهادة الدكتوراه والذي كان موسوما ب : مظاهر التحالفات والصراعات ببلاد المغارب وأثرها في توازن القوى خلال الفترة (1520- 1792م).

دواعي اختيار الموضوع:

في الحقيقة ساهمت الكثير من الدوافع الذاتية والموضوعية لاختيار هذا الموضوع لعلّ من أبرزها :

- الرغبة الملحّة والشديدة في البحث حول هذا النوع من المواضيع السياسية والعسكرية وقد تناولت في الطور الثاني (الماستر) موضوع في العلاقات، وهذا من أجل معرفة حقيقة الصراع المغاربي وطبيعة العلاقات الإقليمية والدولية السائدة في تلك الفترة من خلال تلك التوازنات،كما أنّ توتر العلاقات بين دول المغارب خلال الفترة الحالية دفع بي إلى محاولة إيجاد تفسيرات للوضع الحالي الذي يمكن أن يكون له جذور لما كانت عليه الأوضاع في العصر الحديث.
- خلال هاته السنوات الأخيرة تشكّلت العديد من التحالفات والتكتلات سواء في العالم ككل أو في منطقتنا العربية خاصة في منطقة المشرق العربي والتي تشهد صراعات منذ بداية العقد الثاني من الألفية الجديدة، تكونت لدينا فكرة حول الموضوع.
- موافقة وتشجيع منقطع النظير من أستاذنا المشرف للخوض في هذا النوع من المواضيع، والذي اعتبره بمثابة قراءة جديدة ومن زاوية مختلفة عن المواضيع السابقة والذي بإمكانه المساهمة في إثراء المكتبة التاريخية المغاربية.
- وجود تضارب في المعلومات من خلال المصادر والمراجع السياسية والعسكرية لتاريخ بلاد المغارب خلال العهد العثماني بصفة عامة بين الأوروبيين ونظرائهم من بلاد المغارب، وبصفة خاصة بين المؤرخين المغاربة أنفسهم، وذالك في قضايا معينة من بينها أسباب ومظاهر التحالفات ونتائجها.
- توفر بعض المصادر والمراجع المغاربية و الأجنبية التي تطرقت للتحالفات المشكّلة في ظل الصراعات القائمة بين الدول والكيانات المختلفة خلال تلك الفترة سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة .

- توفر دراسات ومقالات جديدة من خلال بعض الوثائق في الموضوع .
- محاولة معالجة موضوع التحالفات والصراعات وانعكاساتها كوحدة كاملة غير مجزأة بين دول المغارب.

الدراسات السابقة:

ومن ضمن الدراسات التي تناولت بعض الجوانب من هذا الموضوع، والتي برزت كدراسات أوليّة يمكن الرجوع إليها. كثيرة هي الدراسات التاريخية الأكاديمية التي تناولت الجانب السياسي والعسكري المغاربي من زوايا مختلفة خلال الفترة الحديثة، بالإضافة إلى مواضيع في العلاقات الثنائية الإقليمية سواء بين الدول المغاربية نفسها أو مع الأوروبيين و حتى في العلاقات الدولية مع الخلافة العثمانية أو الولايات المتحدة الأمريكية أو التطرق إلى مسألة الحدود بين الدول المغاربية ولكنّها لا تخدم الموضوع بشكل مباشر. ومن الرسائل التي غاصت في جزء من موضوعنا، وكانت في اعتقادي لبنة أولى في تناول موضوع التحالفات بهذه الطريقة على الأقل في الجزائر، و هي رسالة ماجستير بعنوان: **التحالف الأوربي ضد الجزائر عام 1541م وتأثيراته الإقليمية والدولية للباحث "صالح حيمر" ، قسم التاريخ ، جامعة باتنة ، 2007/2006م** ، وهي أكبر حملة أوروبية على الجزائر خلال القرن 16م من حيث العدة والعتاد والنتائج المترتبة عنها، وحتى خلال الفترة الحديثة إلى غاية الحملة الفرنسية وسقوط مدينة الجزائر في سنة 1830م، وبالنظر لقلة المادة العلمية المعتمدة في هذا البحث نستطيع القول أننا يمكن أن نضيف لمسة من خلال ما تحصلنا عليه من مادة في هذا الطرح، على الرغم من أنّ وجود المراجع والأطروحات التي تناولت هذا الحدث، ومن البحوث الأكاديمية التي استفدت منها أيضا هي رسالة ماجستير الموسومة ب: **معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوربا البرتغال – اسبانيا – فرنسا 1578–1603م للباحث" جلول بن قومار" قسم التاريخ ، المركز الجامعي بغرداية ، 2011/2010م** ، والتي تطرّق فيها إلى أكبر معركة في تاريخ المغرب الأقصى من عدّة

جوانب لما كان لها من تداعيات على المنطقة، وتسمى أيضا معركة الملوك الثلاثة ، لمقتل ثلاثة ملوك فيها، وتسمى أيضا معركة القصر الكبير لوقوعها فيه، هذه الدراسة تفيد الباحث في فهم تشكل علاقات إقليمية ودولية جديدة بين المغرب الأقصى وجيرانه، ومع الدولة العثمانية، فهي بمثابة منعرج حاسم في تاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته مع الدول الأوروبية.

ونجد كذلك من بين الرسائل التي أشارت إلى بعض التحالفات ضد إيالة الجزائر والتي شاركت فيها كل من المغرب الأقصى وتونس مع دولة أوروبية في ظل الصراعات الداخلية أو الخارجية في بلاد المغارب، رسالة ماجستير في التاريخ للباحث "المكي جلول" كان عنوانها : **مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 631 إلى 1263هـ/1234-1847م** ، وهي مساهمة قيمة في هذا الجانب خاصة للفترة الزمنية الطويلة، حيث تطرق فيها الباحث إلى ذكر العديد من التحالفات التي وجّهت ضد الجزائر خلال العهد العثماني لأكثر من قرنين ونصف القرن من الزمن، سواء كانت تحالفات إقليمية أو تحالفات دولية، فقد استفدت منها خاصة من الناحية المنهجية وأيضا من ناحية التعرف على المصادر التي اعتمدها الباحث في وصف وتتبع تلك التحالفات، رغم أنّ هذه الدراسة لم تتوسع في التفاصيل حول تلك التحالفات.

والدراسة التي قام بها الباحث "محمد سعيد الطويل" وهي أطروحة دكتوراه موسومة بـ" **العلاقات السياسية والتجارية بين ليبيا ودور غرب أوروبا المتوسطية (1795-1832م/1210-1248هـ)**"، قسم التاريخ، جامعة الجزائر. عاد فيها الباحث إلى ما قبل الفترة المدروسة، حيث تناول من خلالها مختلف مظاهر العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس ودول غرب أوروبا، والقيمة في هذه الدراسة تكمن في ربط الأحداث في طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي خاصة بما كان يقع في إيالتي الجزائر وتونس محاولا إظهار أوجه الإختلاف والتشابة بين التطورات السياسية والعسكرية بينها وبين دول أوروبا في الإيالات المغاربية.

ومن الكتب التي اعتمدت عليها في الدراسة خاصة خلال القرن السادس عشر، كتاب **السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب الإسلامي 1492-1574م/897-982هـ**، وهو في الأصل رسالة دكتوراه في التاريخ للباحث عامر أحمد عبد الله القبج، تناول فيها الباحث سياسة الإمبراطورية الإسبانية تجاه بلاد المغارب خلال القرن 16م/10هـ، فالإسبان كانوا في صراع دائم مع المغاربة، في إطار صراع ذات طابع ديني مدعوم من طرف الكنيسة، خاصة وأنّ الباحث اعتمد على مادة أرشيفية متنوعة من المراكز الأوروبية.

الإشكالية:

إنّ الإشكالية الرئيسية لهذه الدراسة تتمحور حول ماهية وطبيعة التحالفات والصراعات القائمة في بلاد المغارب؟ وكيف كان تأثيرها على توازن القوى خلال الفترة ما بين(1520-1792م)؟ وتتفرع عنها مجموعة من التساؤلات تتمثل فيما يلي :

- كيف كانت الأوضاع السياسية والعسكرية في بلاد المغارب قبل سنة 1520م؟
- ما هي أهم الظروف والمتغيرات التي كانت سببا في عقد التحالفات ببلاد المغارب خلال القرن 10هـ/16م ؟.
- ما أبرز التحالفات السياسية والعسكرية التي ظهرت خلال النصف الأول القرن 10هـ/16م؟.
- هل تعتبر مسألة التحالفات ظاهرة جديدة في المغارب خلال الفترة الحديثة؟.
- ما هو الدور الذي لعبته الدولة العثمانية والدول الأوروبية في تلك التحالفات والصراعات الناتجة عنها؟ .
- كيف أثّرت التحالفات على موازين القوى خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/16م.
- هل كانت التحالفات ظرفية أو دائمة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر؟
- ما تأثيرات التحولات السياسية ببلاد المغارب خلال القرنين 17 و 18 الميلاديين في إعادة النظر لمسألة التحالفات لدى أجهزة الحكم الجديدة في بلاد المغارب؟ وهل

خارطة التحالفات بقيت ثابتة على ما كانت خلال القرن 16م؟ وهل تغيرت طبيعة التحالفات بتغير الأنظمة السياسية بالمغارب؟.

- إلى أي مدى ساهمت التحالفات في التقارب أو القطيعة بين الدول المغاربية؟.
- هل حقّقت التحالفات أهدافها المنشودة ؟.
- كيف بدت توازنات القوى في آواخر القرن 18م/12هـ؟.

أهمية الدراسة:

إنّ الهدف من هذه الدراسة يكمن في محاولة التعرف على أهم النماذج من التحالفات التي تشكلّت في بلاد المغارب بداية من القرن 10هـ/16م و التي كان لها الأثر الجلّي على توازنات القوى في فترة ما بين (1520-1792م) وساهمت بشكل كبير و واضح في توجيه العلاقات الإقليمية والدولية في ظل الصراع المغاربي المغاربي من جهة، والصراعات الأوربية المغاربية من جهة ثانية، بالإضافة إلى تتبع تطور هذه التحالفات في ظل تغير نمط الأنظمة السياسية في المغارب، وهناك أهداف ضمنية فرعية تتمثل فيما يلي :

- التركيز على الفجوة المعرفية البحثية حول مساهمة تلك التحالفات من خلال الصراع في بلاد المغارب في إحداث التوازن في القوى من خلال كل الأطراف الفاعلة، سواء كان توازن بين دول المغارب وحتى بينها وبين الضفة الشمالية من الحوض الغربي للمتوسط وذلك في الفترة الزمنية ما بين (1520-1792م).
- إبراز طبيعة العلاقات بين الدول المغاربية (الجزائر ، تونس ، طرابلس الغرب ، المغرب الأقصى) خلال العصر الحديث.
- محاولة معرفة طبيعة الوجود العثماني ببلاد المغارب.
- تسليط الضوء على محطات مهمة من الصراع المغاربي الأوروبي.
- توضيح جوانب عديدة من مظاهر التحالف والصراع الذي شهدته المنطقة المغاربية وأبعاده الإقليمية والدولية.

- التعرف على أهم الحملات العسكرية والمعاهدات والاتفاقيات المبرمة في ظل تلك التحالفات المؤسسة.

- تقصّي انعكاسات وآثار تلك التحالفات على المغارب في جميع النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

- المساهمة في إثراء المكتبة التاريخية المغاربية بهذا النوع من المواضيع المشتركة.

الإطار الزماني والمكاني للدراسة:

أردت في هذه الدراسة البدء من سنة 1520م وذالك لعدة اعتبارات موضوعية واجتماع عدة عوامل و أحداث وقضايا جرت في هذا العام أو قبله بقليل، من بينها :

- في الجزائر: إنّ أوّل اتصال رسمي بين الجزائريين والباب العالي، هو رسالة الجزائريين إلى السلطان العثماني سليم الأول(1512-1520م) من أجل انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية، كان ذالك في أواخر سنة 1519م، وهي بداية تحالف جزائري عثماني على المستوى الرسمي وتأسيس الجزائر كأوّل إيالة عثمانية في بلاد المغارب وما كان له من تداعيات على المدى القريب والمتوسط.
- في الدولة العثمانية واسبانيا : تولي السلطان سليمان القانوني مقاليد الحكم في الدولة العثمانية في سنة 1520م ، وقبل ذالك بفترة وجيزة في سنة 1519 انتخب شارلكان ملكا على الإمبراطورية المقدسة، واللذان سيكون لهما دور كبير في الأحداث والوقائع ببلاد المغارب خاصة خلال النصف الأول من القرن السادس عشر .
- في الجزائر وتونس معا : بداية فتنة داخلية في المغارب حين تحالف حاكم تونس الحفصي مع حاكم تلمسان ضد خير الدين بربروس ممّا دفع هذا الأخير إلى مغادرة مدينة الجزائر باتجاه مدينة جيجل والتي بقي فيها مدة خمس سنوات، ما بين (1520-1525م) .
- في تونس : الاحتلال الإسباني لمدينة جربة سنة 1520م وما كان له من تداعيات.

- لا يمكن إهمال فترة قبل 1520م المهمة والممهدة لموضوع الدراسة والتي سنتطرق إليها بالتفصيل في الفصل التمهيدي نظرا لما كان فيها من أحداث وتطورات أثّرت على موازين القوى الإقليمية والدولية.
- أمّا تحديد سنة 1792م كنهاية للبحث، مردّه بالدرجة الأولى إلى استرجاع وهران والمرسى الكبير وتحريرهما النهائي من الاحتلال الإسباني، واستكمال السيادة الترابية للجزائر، إضافة إلى أنّ الإسبان كانوا قد عقدوا عدّة معاهدات واتفاقيات مع الدولة العثمانية والمغرب الأقصى وطرابلس الغرب وتونس في فترة ما بين (1775-1791م)، فإسبانيا كان لها دور كبير في تحالفات كثيرة ببلاد المغارب خلال الفترة الحديثة.
- وفيما يخص الإطار المكاني فيشمل بلاد المغارب بدء من سواحل المغرب الأقصى غربا إلى سواحل طرابلس شرقا، ومنطقة الحوض الغربي للمتوسط عموما.

منهج الدراسة:

يتطلّب هذا النوع من المواضيع الاعتماد على مجموعة من المناهج البحثية، ولذلك اعتمدت خلال هذه الدراسة على المنهج التاريخي المهم في الدراسات التاريخية بحيث قمت بتتبع وقراءة علمية لمظاهر التحالفات التي كانت في أغلبها على شكل حملات عسكرية من خلال المصادر المحلية والأجنبية التي في مجملها تصف وتسرد وتنقل لنا هذه الأحداث كونها شواهد دون تحليلها، وهذا ما دفعني لتوظيف كل من آليات الوصف والتحليل محاولا إزالة اللّبس عن تداخل وتشابك المعلومات في بعض القضايا والمسائل الأساسية والفرعية المرتبطة بأسباب التحالفات ونتائجها وتحليلها تحليلا تاريخيا علميا، إضافة إلى استخدام آلية المقارنة في المقاربة بين المواقف المغاربية بعضها ببعض والمواقف الأوروبية لأجل التحرّي من التضارب في المعلومات، وفي بعض الإحصائيات الخاصة بالتحالفات والحملات ونتائجها من خلال المصادر والمراجع المعتمدة في البحث، وهذا سعيا منّي لسلك طريق

الموضوعية والابتعاد عن الذاتية، كما يجب الإشارة إلى أنني تطرقت وركزت على نماذج من التحالفات الكبرى التي كان لها الأثر الواضح في تغيير موازين القوى بشكل واسع، مع الإشارة إلى التحالفات التي لم تجسد على أرض الواقع، وكل هذا في إطار اختيار نماذج توضحية للفكرة الأساسية للموضوع.

المصادر والمراجع المعتمدة في الدراسة:

إعتمدت في إنجاز هذه الدراسة على مادة تاريخية متنوعة، فمنها الوثائق الأرشيفية والمخطوطة وبعض الوثائق المنشورة، إضافة إلى عدد من المصادر في مؤلفات مطبوعة باللغة العربية والأجنبية، أماّ بالنسبة للمراجع فكانت بين المحلية المغاربية والعربية والأجنبية الحديثة وبعض الأطروحات والرسائل في الماجستير والدكتوراه. وهي كالآتي:

1- المصادر العربية والمعربة:

أ- الوثائق الأرشيفية:

اعتمدت على وثائق أرشيفية من المركز الوطني للأرشيف بالجزائر العاصمة تتمثل في مهمة دفتري، وبالتحديد التي تتعلق بأحداث القرن السادس عشر حين كانت تونس وطرابلس الغرب تتبعان إيالة الجزائر، فالوثائق المرسلة من الدولة العثمانية خلال هاته الفترة كانت موجهة إلى بايلرباي الجزائر وتحمل محتوى يتعلق بتونس وطرابلس الغرب وبطبيعة الحال بإيالة الجزائر. كما واعتمدت على بعض المخطوطات المتواجدة في المكتبة الوطنية بالحامة. ومن بينها ما يلي:

- الأرشيف الوطني الجزائري :مهمة دفتري رقم 24 ، ص ص 91-92 حكم رقم 246. بتاريخ 981/12/14،
- مهمة دفتري رقم 24، صحيفة 72، حكم رقم 198، بتاريخ 981/12/5.
- مهمة دفتري رقم 21، صحيفة 266، حكم رقم 637، بتاريخ 980/12/16.
- مهمة دفتري رقم 21، صحيفة213، حكم رقم 509، بتاريخ 980/11/21.

- المجموعة 3205، ملف 1، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية مؤرخة عام 1206هـ. إضافة إلى الوثائق المنشورة في عديد المؤلفات العربية والمعربة والأجنبية.

ب– المؤلفات المطبوعة باللغة العربية:

- **مذكرات خير الدين بربروس** لمؤلف مجهول: وهو مصدر مهم للتعرف عن حيثيات الدخول العثماني لبلاد المغارب، فقد تضمن هذا المؤلف معلومات قيمة في شأن الجزائر العثمانية، خاصة أنّه تناول تفاصيل عن حملة شارلكان على مدينة الجزائر في سنة 1541م، ويعتبر خير الدين بربروس مؤسس الإيالة الجزائرية، استفدت منه في الفصل التمهيدي والفصل الأول.
- **مذكرات أحمد الشريف الزهار:** وهو نقيب أشراف الجزائر، يعد مصدرا مهما للفترة الأخيرة من القرن الثامن عشر، خاصة في تناوله للحملات الإسبانية الصليبية على الجزائر.
- **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء** لأبي فارس عبد العزيز الفشتالي (توفي في سنة 1621م) وهو أحد أهم المصادر في عهد السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي وكان الفشتالي مقربا من العائلة الحاكمة.
- **الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا** : لمؤرخ الدولة العلوية أبو القاسم الزياني (توفي1249هـ/1833م)، ويُعَدّ من مصادر تاريخ المغرب الأقصى خاصة في عهد المولى محمد بن عبد الله العلوي.
- **تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار** لأبي عبد الله محمد ابن غلبون الطرابلسي، ويعتبر من أهم المصادر في تاريخ طرابلس الغرب.
- **المونس في أخبار افريقيه وتونس** لابن أبي دينار (توفي في سنة 1690م): تناول تاريخ تونس خلال الفترة الحديثة وبالضبط في فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر، خاصة فيما تعلق بعلاقات تونس الخارجية.

- **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار** لمحمود مقيدش الصفاقسي: من بين المصادر المهمة في تاريخ تونس خلال القرن الثامن عشر تطرق فيه إلى عديد الحملات الأوروبية على تونس خلال هذ الفترة.

ج- المصادر المعربة:

- **وصف إفريقيا** لمحمد بن حسن الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي **(**توفي بعد 957هـ/1550م**)** وهو مصدر في غاية الأهمية لدراسة جوانب من العلاقات الجزائرية الإسبانية خلال القرن السادس عشر، بالإضافة إلى أنّه مهم للتعرف على المناطق الجغرافية في بلاد المغارب، استفدت منه في الفصل الأول.
- **إفريقيا** لمارمول كربخال:استفدت منه من خلال وصفه لمختلف مناطق بلاد المغارب إضافة إلى تناوله بعض الأحداث السياسية والعسكرية في بلاد المغارب عموما والجزائر بوجه خاص فقد عرج على احتلال وهران من الإسبان.
- **عشرة أعوام في طرابلس** للآنسة توللي وهي من أقارب القنصل الإنجليزي ريشارد توللي كانت موجودة في طرابلس خلال الفترة ما بين **(**1783-1793م**)**، تناولت العديد من الأحداث السياسية والاجتماعية في طرابلس خلال هاته الفترة.
- **تاريخ الشرفاء** لدييكو دي طوريس: مصدر مهم في تاريخ الدولة السعدية وهو يتناول حوالي سبعة عقود من هذا التاريخ، خاصة فيما تعلق بالصراع السعدي الوطاسي خلال المرحلة التمهيدية لظهور الأشراف السعديين بالمغرب الأقصى.

2 -المصادر الأجنبية:

- مجموعة الوثائق التي جمعها المستشرق الفرنسي هنري دوكاستري وعنونها "**بالمصادر الدفينة لتاريخ المغرب**" **les sources inédits de histoire du Maroc**, Henry de Castries" في 21 مجلد، تناولت هذه الوثائق علاقات المغرب الأقصى بالدول الأوروبية

من خلال مسألة القرصنة وبعض القضايا الأخرى واعتدمت خاصة عليها في مظاهر العلاقات المغربية الإسبانية.

- مراسلات دايات الجزائر مع البلاط الفرنسي لأوجين بلانتي " **Plantet Eugene, Correspondance des Days d Alger avec la cour de France 1579-1833** " استفدت منه كثيرا خاصة خلال محاولات الداي شعبان من جهة والسلطان المغربي إسماعيل العلوي توحيد بلاد المغارب تحت سلطة واحدة.
- **الوثائق المنشورة في المجلة الإفريقية** " **La Revue Africaine**" وهي مهمة جدا خاصة أنّها تتناول العلاقات المغاربية الأوروبية وخاصة الإسبانية، ولعل ما نشره إيلي دو لا بريمودي"**Elie de la Primaudie**" يعتبر من أهم الوثائق التي استعملتها في الدراسة.
- **كتاب معاهدات فرنسا مع دول شمال إفريقيا** لمؤلفه رواوّار دو كار **Rauad de**. **Card,Traites de la France avec les pays de lAfrique du Nord (Algerie,Tunisie, Tripolitaine, Maroc)**" يحتوي على معاهدات منشورة بين فرنسا ودول المغارب خاصة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر. استفدت منه بالتحديد فترة القرن السابع عشر.
- **تاريخ ملوك الجزائر** لمؤلفه هايدو " **Histoire des rois d alger**, Haedo, F. D." أمضى عدة سنوات في الجزائر وهو من أسرى الحرب خلال القرن السادس عشر، من بين أهم المصادر التي تناولت العلاقات الجزائرية الإسبانية.

3- المراجع العربية:

- **تاريخ تونس** لمحمد الهادي الشريف: تناول تاريخ التونس السياسي والعسكري الحديث من بداية الدولة الحفصية ثم سقوطها وإنضمام تونس للدولة العثمانية، إلى فترة حكم البايات المراديين والحسينيين، كما تطرق إلى مظاهر العلاقات الخارجية للإيالة التونسية

للأنظمة السياسية التي حكمت تونس خلال الفترة الحديثة، إضافة إلى كتابات عبد الجليل التميمي و محمد العروسي المطوي، وغيرهم من المؤلفين التونسيين.

- **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** لأبي العباس أحمد الناصري: يحتوي على تسعة أجزاء، ويعتبر الجزء الخامس والسادس والسابع والثامن هي التي تناولت أخبار الدولة السعدية والعلوية. إضافة إلى كتابات عبد الهادي التازي و إبراهيم حركات، ومحمد وزهراء النظام، وغيرهم من المؤلفين المغاربة.
- **تاريخ الجزائر العام** لعبد الرحمان الجيلالي: وبالتحديد الجزء الثالث الذي تناول تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني، حيث ركّز فيه على تناول شخصيات حكام الجزائر بالإضافة إلى تناوله الجانب السياسي والعسكري للجزائر العثمانية ومحيطها الإقليمي إضافة إلى كتابات يحي بوعزيز وأحمد توفيق المدني وعمار بن خروف، وغيرهم من المؤلفين الجزائريين.
- **ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي** للطاهر أحمد الزاوي: وهو من أهم المؤرخين الليبيين تناول فيه شخصيات ولاة طرابلس في كل العهود واستفدت منه بعض تعريفات لولاة الإيالة الطرابلسية خلال العهد العثماني والعهد القرمانلي. إضافة إلى كتابات عمر الباروني وخليفة محمد التليسي وغيره.

4- المراجع المعربة:

- **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية** لسامح عزيز التر: تم ترجمته إلى اللغة العربية عن طريق محمود علي عامر وهو مرجع مهم يتناول التاريخ السياسي والعسكري لبلاد المغارب، والعلاقات الخارجية بالتفصيل خلال العهد العثماني، استفدت منه في جميع فصول الأطروحة، ويبدو من خلال الإطلاع عليه واستعماله أنّه منحاز للعثمانيين.
- **تاريخ إفريقيا الشمالية، تونس، الجزائر، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م** لشارل أندري جوليان، تم ترجمته إلى اللغة العربية بواسطة محمد مزالي والبشير

سلامة، نشر من الدار التونسية في سنة 1983م، يقع في جزأين، اعتمدت على الجزء الثاني منه.

5-المراجع الأجنبية:

- **تاريخ إفريقيا الشمالية** لمؤلف أرنست مرسي" Mercier **Histoire de l'Afriqueseptentrionale**" استفدت منه في الفصل الثاني خاصة .
- **تاريخ الجزائر تحت السيطرة التركية** لدي غرامون" DE Gmmont, **Hraistoire d'Alger sousladominationturque(1515 –1830)**" استفدت منه في جميع فصول الأطروحة.

خطة الدراسة:

وللإجابة عن الإشكالية الرئيسية والأسئلة الفرعية للدراسة تم تقسيم الخطة إلى مقدمة وفصل تمهيدي للموضوع وأربعة فصول، كل فصل يمثل فترة زمنية معينة مترابطة بأحداث وتحولات تتناسب مع الطرح العام للموضوع، وخاتمة. وهي كالآتي:

الفصل التمهيدي موسوم ب: "**أهم الأحداث والتطورات السياسية والعسكرية في بلاد المغارب قبل 1520م**"، تناولت فيه جذور مظاهر التحالفات والصراعات في بلاد المغارب قبل مطلع القرن السادس عشر، وحاولت العودة إلى تداعيات سقوط دولة الموحدين مع نهاية القرن 13م وما كان لها من تداعيات حول ظهور الزيانيين والمرنيين والحفصيين واقتسامهم رقعة بلاد المغارب، ثم عرّجت على التحولات في الضفة الشمالية من المتوسط وآثارها المتمثلة في غزو بلاد المغارب من الأيبيرين وإحتلالهم لكثير من السواحل المغاربية، وبعد ذلك ظهور الإخوة بربروس في المنطقة وإستجابتهم لنجدة السكان وتأسيس أول إيالة عثمانية في المغرب الأوسط.

الفصل الأول الذي جاء بعنوان: "**مظاهر الصراعات في بلاد المغارب من خلال التحالفات(1520-1550م)**"، عالجت فيه احتدام الصراع الإسلامي المسيحي(الصليبي) في ظل التحالفات السياسية والعسكرية في بلاد المغارب خلال ثلاثون سنة بداية من العقد الثاني

من القرن السادس عشر، وكان أشهر تلك التحالفات الحملة الصليبية ضد الجزائر بقيادة الإمبراطور الإسباني شارلكان في سنة 1541م وما خلفته من نتائج إقليميا ودوليا.

الفصل الثاني فقد حمل عنوان" **تأثير التوازن الجديد ببلاد المغارب داخليا وخارجيا خلال الفترة ما بين(1551-1587م)**"، حيث مثّلت سنة 1551م إنضمام طرابلس الغرب إلى الدولة العثمانية وطرد الصليبيين من خلال تظافر جهود العديد من الأطراف من بينها بايلرباي الجزائر لتصبح ثاني إيالة عثمانية في بلاد المغارب بعد الجزائر. واستمر التعاون الإسلامي ضد الإسبان وحلفائهم من خلال التحرير النهائي لتونس من الإسبان وحلفائهم من الحفصيين في سنة 1574م وتكون هي الأخرى ثالث إيالة عثمانية في المغارب، ليتبق المغرب الأقصى فقط لم يدخل ضمن الأراضي التابعة للعثمانيين رغم المحاولات المتكررة وأثرنا ضمنيا مسألة الخلافة بين الطرفين إلى غاية سنة 1578م وبروز المغرب الأقصى كقوة إقليمية بعد معركة واد المخازن وتولي أحمد المنصور الذهبي السلطة. استفادت الدولة العثمانية هي الأخرى من التوازنات الجديدة في بلاد المغارب من خلال التضامن و التعاون المغاربي في حروب العثمانيين في أوروبا وكمثال على ذلك معركة ليبانت في سنة 1571م رغم نتائجها. وكذلك تطرقت إلى إستفادة الأوروبيين من الامتيازات في بلاد المغارب من خلال إبرامهم للإتفاقيات مع السلطان العثماني واختيار فرنسا أنموذجا. أي تتبع تلك التأثيرات من خلال البعد المغاربي والإسلامي والإقليمي المتوسطي وحتى الدولي.

الفصل الثالث بعنوان: **"مصير التوازنات ببلاد المغارب خلال الفترة (1587-1705م) – الثوابت والمتغيرات–** "، وهو يتناول تتبع التوازنات التي وجدت قبل سنة 1587م في بلاد المغارب من خلال رصد الثوابت والمتغيرات، ففي البداية تطرقنا فيه إلى التحول السياسي في إيالات المغارب خلال الفترة ما بين (1587-1705م)، بداية من فصل الإيالات الثلاث عن بعضها البعض لتصبح كل إيالة مستقلة عن الأخرى بعدما كانت تونس وطرابلس الغرب تتبع الجزائر سياسيا وكذلك تطرقت إلى محاولات إستقلال هذه الإيالات عن

الباب العالي، معرجا في نفس الوقت على حركة الجهاد البحري المشترك بين كل المغاربة ضد القوى البحرية الأوروبية وما شهدته من ردود الأفعال، كان لها الأثر الواضح على العلاقات المغاربية الأوروبية، ومحاولة بعض الدول الأوروبية عقد تحالف مع إحدى دول المغارب ضد أخرى، وتم اختيار فرنسا كنموذج، أمّا آخر عنصر من هذا الفصل فخصصته لصراع التحالفات بين دول المغارب حين تحالفت تونس والمغرب الأقصى ضد الجزائر وتحالفت هذه الأخيرة مع طرابلس الغرب ضد تونس في فترة آواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر

أمّا بالنسبة للفصل الرابع فقد جاء تحت عنوان: " **مظاهر التحالفات والصراعات في ظل التحولات السياسية في بلاد المغارب خلال الفترة (1705-1792م)**"، وقسمته إلى أربعة عناصر، بداية من سنة 1705م والتي تمثل وصول البايات الحسينين إلى السلطة في تونس واستقلالهم عن الدولة العثمانية، وكذلك شهدت الجزائر في سنة 1710م تحولا في نظام الحكم حين تم طرد مبعوث السلطان العثماني من طرف الداي علي شاوش لينتهي بذلك عهد الإزدواجية في المنصب، واستمرت هذه الحركة الاسقلالية بالمغارب في سنة 1711م بوصول الأسرة القرمانلية إلى الحكم في إيالة طرابلس الغرب، أمّا في المغرب الأقصى فقد تناولت دخول البلاد في دوامة صراع بعد وفاة السلطان إسماعيل العلوي في سنة 1727م، التي استمرت ثلاثين عاما، وحين استقر الحكم للمولى محمد بن عبد الله أعاد الهيبة للدولة، هذه التحولات انعكست على علاقات المغرب الأقصى بالدولة العثمانية وتحوّلت من مظاهر التوتر والعداء إلى التعاون والتضامن الذي فرضته كذلك ظروف الباب العالي، وحاولنا بعدها تتبع المتغيرات والثوابت في العلاقات المغاربية الأوروبية وتداعياتها في ظل كل هذه التحولات، وأفردنا العنصر الأخير من هذا الفصل لثنائية المغارب إسبانيا لأنّ الإسبان كانوا في عداء دائم مع بلاد المغارب منذ مطلع القرن السادس عشر إلى غاية أواخر القرن الثامن

عشر الذي شهد إبرام إسبانيا لمعاهدة سلم مع كل دول المغارب إبتداءا من سنة 1782م، وتم اختيار الجزائر أنموذجا.

وفي الخاتمة تم التوصل إلى مجموعة من الاستنتاجات، حيث حاولت من خلال هذا الطرح الإجابة عن الإشكالية الرئيسية وبعض الأسئلة الفرعية للموضوع، إضافة إلى استخدام مجموعة من الملاحق التوضيحية وهي عبارة عن وثائق أرشيفية ومخطوطة، وبعض الخرائط التي لها صلة مباشرة بالمتن.

الصعوبات:

لا تخلوا أي دراسة علمية أو بحث أكاديمي من جملة صعوبات وعراقيل قد تعترض الباحث، ولعلّها تكمن بالدرجة الأولى حول طبيعة الموضوع في حد ذاته، حيث واجهتني صعوبة في تصميمه، فرغم كثرة المصادر والمراجع التي تتناول الجانب السياسي والعسكري في بلاد المغارب خلال الفترة الحديثة، إلاّ أنّها لا تطرح مسألة التحالفات وتوازنات القوى في ظلّ الصراع القائم في بلاد المغارب بالصيغة المباشرة فضلا على أنّ بعض المراجع لا توجد به فكرة ولا إشارة واحدة عن الموضوع، إضافة إلى أنّ المراجع التي تتضمن أفكار حول الدراسة فهي لا تتناوله بطرحه كوحدة تركيبية مشتركة بين كل دول المغارب خاصة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، لأنّ المادة العلمية المتوفرة حول الموضوع في أغلبها تتناول فترة القرن السادس عشر، وهو في الحقيقة ما صعّب عليّ من ناحية الإلمام في الفصلين الثالث والرابع.

- صعوبة الترجمة الدقيقة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية فهي تأخذ الكثير من الوقت، وفي أغلب الأحيان كنت أعتمد على مجهودي الفردي.

وفي الختام لا يسعني إلى أن أتقدم بالشكر والامتنان إلى الأستاذ المشرف الأستاذ الدكتور "**عطية عبد الكامل**" على نصائحه المفيدة وتوجيهاته القيمة، ودعمه المتواصل في

إعداد هذا الموضوع من البداية حتى النهاية، فجزاه الله عنّي خير الجزاء، كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من قدّم لي يد العون أثناء إنجاز هذه الأطروحة.

فصل تمهيدي:

أهم الأحداث والتطورات السياسية والعسكرية في بلاد المغارب قبل 1520م.

تمهيد

1- بلاد المغارب في ظل الصراعات الداخلية والحملات الأوروبية.

2- العثمانيون في بلاد المغارب.

3- الجزائر أوّل إيالة عثمانية في بلاد المغارب.

1- بلاد المغارب[1] في ظل الصراعات الداخلية والحملات الأوروبية:

شهدت نهاية القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي(9ه/15م) ومطلع القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي(10ه/16م) تأزم أوضاع بلاد المغارب، فكانت الفوضى والصراعات السياسية والاضطرابات وتداخل الممالك ببعضها البعض قد بلغت مبلغا لا يمكن تلخيصه في صفحات معدودة، وإنّ الإنسان ليصاب بنوع من الذهول وهو يتلو قائمة الممالك والإمارات التي اقتسمت رقعة الشمال الإفريقي[2]. وهو ما يؤكده خير الدين بربروس في مذكراته بقوله :" ... إلاّ أنني لو تركت الجزائر فإنها سوف تتمزق مرة أخرى إلى ألف قطعة ..."[3]، دليل على أنّها كانت ممزقة ومنقسمة قبل قدوم الإخوة بربروس. دفع هذا التفكك وضعف السلطة السياسية والافتقار إلى سلطة قوية تفرض نفوذها ونظامها بعدما أضحت مسرحا للفوضى والتطاحن بين مختلف القبائل و بظهور الخطر المسيحي الذي نقل الصراع من الأندلس إلى بلاد المغارب خاصة بعد معاهدة توردي سيلاس سنة 1494م[4]

---

[1] المغارب: يعبر هذا المصطلح عن جمع لمفرد كلمة "المغرب" فهناك المغرب الأوسط(الجزائر)، والمغرب الأدنى(تونس وطرابلس) والمغرب الأقصى(المملكة المغربية) حاليا، و عموما تمتد دول المغارب من أقصى الحدود الشرقية مع مصر إلى غاية جبل طارق بساحل متوسطي طويل الذي شكل نقطة تماس بين الشمال الإفريقي وأوربا، بالإضافة إلى الساحل المراكشي المطل على المحيط الأطلسي أين توجد جزر الكناري . ينظر: Dan pierre, **Histoire debarbarie et de ses Corsaires(des royames d Alger, de Tunis , de Tripoli et de sale)**, Seconde edition, chez limprimeur et libraire du roi, paris,1646,p6.

ويقول ابن سحنون الراشدي حول حدود المغارب:" ... فالمغرب الأقصى حده من نهر ملوية إلى آسفي حاضرة البحر المحيط...والمغرب الأوسط حده من وادي ملوية إلى بجاية...وأمّا المغرب الأدنى فمبدأه بجاية، وهي قسنطينية...وأما إفريقية إلى طرابلس ..."، ينظر:أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني،** تح و تق: المهدي البوعبدلي، ط1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص 454.

[2] أحمد توفيق المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م**،ط2منقحة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،1976م،ص68.

[3] خير الدين بربروس، **مذكرات خير الدين بربروس،** تر: محمد دراج، ط1، شركة الأصالة للنشر، الجزائر،2010، ص 112.

[4] محمد خير الدين فارس، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح الاسلامي إلى الاحتلال الفرنسي** ،ط1،دار العصر الحديث ،بيروت،لبنان ،1969م،ص16.

فبعد سقوط غرناطة سنة 898هـ/1492م في يد الصليبيين الإسبان، أنشأت ما يسمى "محاكم التفتيش"[1] للضغط على مسلمي الأندلس ودفعهم إلى ترك أراضيهم، بل وقامت باضطهادهم وعملت على طردهم خاصة بعد المباركة والمساعدة البابوية بالأموال والسلاح والدعاية لهذه الأعمال الوحشية، فما كان عليهم إلا القيام بهجرات قصرية إلى بلاد المغارب باعتبارها أقرب منطقة جغرافية إسلامية يستطيعون اللجوء إليها ووبالتحديد في المغرب الأقصى[2] القريب من شبه الجزيرة الأيبيرية، إضافة إلى استنجادهم بملوك الدول الإسلامية من بينهم السلطان العثماني بايزيد الثاني[3]. وواصل الصليبيون الإسبان ملاحقة الأندلسيين الفارين إلى بلاد المغارب[4] والتي أصبحت مسرحا لهذا الصراع فيما بعد، وهو ما وصفه فيرناند بروديل : " بالصليبية الإسبانية في إفريقيا الشمالية "[5]، ولم تكن إسبانيا الوحيدة بل انضمت البرتغال إلى دائرة الصراع في المنطقة وهو ما أدخل شبه الجزيرة الأيبيرية في تنافس بين القوتين المتوسطتين، لكن انعقاد " مؤتمر تورديسلاس" برعاية بابوية في 7جوان 1494م خفّف من حدة هذا التنافر والتباعد وتم الاتفاق على تحديد مجال نفوذ وتوسع كل دولة انطلاقا من حجرة بادس[6]، فمنح لإسبانيا حرية التحرك على ساحل الريف شرق الحجرة

---

[1]محاكم التفتيش: هي ليست وليدة القرن 16 م بل تأسست في القرن 13م لمراقبة الأفكار المخالفة لتعاليم الكنيسة وطبقت أولا في إيطاليا وفرنسا وألمانيا ، قبل أن تنتقل إلى إسبانيا حيث تحولت إلى أداة قهر واضطهاد المسلمين بعد سقوط غرناطة. ينظر: محمد دراج ،**الدخول العثماني ودور الإخوة بربروس (1512-1543)**،ط1، دار الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر ،2012،ص46.

[2]محمد قشتيلوا، **حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها**، ط1،مطابع الشيوخ، تطوان ،المغرب، 2001، ص 3.

[3] ينظر الملحق رقم 01.

[4] Henry De Castries: **Les Sources inedites de lhistoire du Maroc**, Archives et bibliotheque espagne,t1,Paris et Madrid 1921,p1.

[5]Fernand Braudel," **Les Espagnolset LAfrique du nord de 1494-1577**", R.A ,t 69,1928,p 186.

[6]معاهدة torديسيلاس(7جوان 1494م) : نصت على اقتسام الفضاء المغاربي بين اسبانيا والبرتغال بمباركة بابوية في 12 نوفمبر 1494م ، واعتبر فيها خط مليلية الحد الفاصل بين المجالين ، فمنحت البرتغال حق التوسع على سواحل المغرب الأقصى إلى الأطلسي ، بينما منحت إسبانيا حق التوسع من مليلة إلى طرابلس الغرب ، للمزيد من التفاصيل ينظر: دلندة

واعترف للبرتغال بامتلاك المراكز الواقعة غربها ومهّد لهما الطريق للسيطرة على سواحل المغرب والجزائر مع إمكانية التوسع نحو الداخل، فانطلقت الدولتين في تنفيذ قرارات المؤتمر[1] مع العلم أنّ البرتغاليين كانوا قد احتلوا قبل هذه المعاهدة عددا من مدن المغرب الأقصى[2]، حيث لم ينجح الحكم المحلي في التصدي للحملات الأولى للصليبيين ممثلين في البرتغال وإسبانيا على التوالي من السواحل المغاربية المحتلة[3]، كما أنّ النزاعات الحدودية بين الزيانيين والحفصيين والمرينيين لا يمكن وصفها بسهولة، فحسب الوزان عند وصفه لمملكة تونس وتطرقه لإقليم بجاية مثلا، ذكر أنّها كانت في نزاع مستمر فتارة يتبع سلطة ملك تونس وتارة أخرى يتبع سلطة ملك تلمسان[4] وكذلك الحال لكثير من الأقطار وهو ما سنعرفه من خلال تحالفات القبائل الحدودية مع الكيانات السياسية المتواجدة في تلك الفترة سواء المحلية أو الأجنبية. كل هذه الأوضاع والمعطيات ستجعل من الحوض الغربي للبحر المتوسط عموما و بلاد المغارب مسرحا لصراع متعدد الجبهات، فيا ترى ما أهم الأحداث والتطورات في بلاد المغارب في ظل هذه التحولات خلال فترة أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين؟.

وللغوص والتعمق في هذه الأحداث والتطورات التي شهدتها بلاد المغارب قبيل سنة 1520م وفهم جذور الصراعات وأهم التحالفات التي وجدت قبيل 1520م، وجب التطرق إلى

الأرقش (وآخرون)، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، مركز النشر الجامعي ميديا كوم ، تونس ، 2003، ص 10.

[1] زهراء النظام، **العلاقات المغربية الجزائريةمقاربة سياسية ثقافية خلال القرن 10هـ/16م**، منشورات دار الأمان ، الرباط ، 2015، ص ص 42-43.

[2] مولود قاسم نايت بلقاسم ، **شخصيةالجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م**،ج1،ط2،دار الأمة ، الجزائر ، 2007، ص58.

[3] صالح عباد ،**الجزائر خلال الحكم التركي1514-1830م**، دار هومه ، الجزائر، 2012،ص27.

[4] حسن الوزان، **وصف إفريقيا** ، ج1،تر: محمد حجي و محمد الأخضر، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1983، ص 31.

بدايات حكم الدول الثلاث الحفصية والزيانية والمرينية كلمحة لمعرفة جذور هذا الصراع بما أنّه ليس وليد الفترة المدروسة.

1-1-المغرب الأدنى (الدولة الحفصية وأقطارها):

كان ميلاد الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى على يد أبو زكرياء يحي بن حفص عام 1228م حين قامت على أنقاض دولة الموحدين[1]التي سقطت رسميا عام 667ه/1269م لأسباب كثيرة[2]، ومع أواخر القرن الثالث عشر ميلادي انقسمت الدولة إلى فرعين أحدهما حكم إقليم بجاية والآخر إقليم قسنطينة، أمّا إمتدادها الجغرافي كان يصل حتى طرابلس الغرب ومنطقة الزاب من الجنوب الشرقي.

لقد كان بنو حفص[3] أول من استقل عن الدولة الموحدية في سنة 1237م بعد أن دبّ الضعف داخل أركان السلطة وفي كل مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية، تداول أبناء أبي حفص على الإمارة في المغرب والأندلس قبل سقوط دولة الموحدين فكانوا سند السلطان الموحدي وجنوده الذين يدافع بهم عن دعوة الموحدين ويوسع ملكهم في شتى الأقطار، ويحمي بهم الثغور، ويؤدب بهم القبائل المناوئة لحكمهم، وهذا ما حدث خاصة في عهد السلطان محمد الناصر الذي اتجه إلى طرابلس الغرب من أجل تأديب القبائل العربية بقيادة بني غانية[4] التي كانت ناقمة على سلطة الموحدين وكانت سببا فيما بعد في

---

[1]الدولة الموحدية :تنسب الى القبائل البربرية زناتة ،و مؤسسها الامام محمد المهدي بن تومرت (491-524 ه) سنة 515ه ، وسميت بالموحدية لتوحيد و قتال المجسمين وهو المرابطين،وللمزيد ينظر:عبد الله الزركشي ،**تاريخ الدولتين الموحدية الحفصية**،ط2 ، مكتبة عتيقة ،تونس ، 1966م ، ص ص 3- 6 .

[2]حول أسباب سقوط دولة الموحدين ، ينظر:عبد الرحمن بن خلدون ، **ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (1336-1407)**،ج6، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ،2000م ،ص370وما بعدها.

[3] هم قبائل كثيرة أبرزها هنتاتة المصمودية ينسبون إلى أبو حفص عمر بن يحي وهو أول من بايع المهدي بن تومرت و عبد المؤمن من بعده، ينظر: عبد الرحمن بن خلدون ، المصدر نفسه ،ص370 .

[4] هم من قبيلة مسوفة بايعوا الدعوة المرابطية ، وكانوا من رجالاتها ، أبرزهم يحي المسوفي الذي حظي بمكانة مرموقة لدى السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين ويرجع سبب تسميتهم إلى أمهم غانية ،ينظر: عبد الواحد المراكشي ، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب** ، تق وتح وتع، محمد زينهم و محمد عزب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994، ص 223.

زوال كيانهم وتلاشي ونهاية دعوتهم، فقابلهم في تاجوراء وانتصر عليهم في سنة 602هـ/ 1205م وعُيّن عليها حاكمها يحي بن إسحاق الميورقي الذي تابع سياسة القضاء على ثورات تلك القبائل وتوطيد دعائم الحكم.

حاول بن إسحاق الميورقي الانفراد بالسلطة فتم عزله وتعيين أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص حاكما على طرابلس الغرب في 07 شوال 1207م[1]، ولكنّ مكانة الحفصيين وقوتهم لم تظهر بصورة جلية إلاّ بعد استلام أبي زكريا ابن أبي حفص السلطة، والذي استبد بحكم افريقية (تونس)، وأصبح يخطب باسمه وتلقّب بالأمير المرتضى، ووصل ملكه حتى تلمسان وكافة المغرب الأوسط، لذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة الحفصية، توفي في سنة 647هـ الموافق 1249م، فخلفه ابنه أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الذي تلقّب بالمستنصر بالله[2]، حيث واصل مسعى والده في توسيع ملك بني حفص والقضاء على ثورات المناوئين من الأسرة وخارجها، فكانت فترة حكمه متميزة نظرا لما قام به من إصلاحات وتنظيم في كافة المجالات وحافظ على السلطة في تلك الظروف الداخلية والخارجية الصعبة، حيث تعرضت تونس خلال هذه الفترة إلى حملة صليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا في سنة(668هـ– 1270م) والتي منيت في النهاية بالفشل، وبعد وفاة المستنصر بالله(1250_1277م) دخلت السلطنة الحفصية في دوامة صراعات داخلية حول مسألة تولي العرش حيث شهدت هذه الفترة تغلغل العنصر الأندلسي في جهاز السلطة، أمّا خارجيا

وينظر أيضا: عبد الرحمان بن خلدون ،المصدر السابق ، ص ص 252–253.

[1] أبو عبد الله محمد ابن غلبون الطرابلسي ، **تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار**، نشر وتص وتع: أحمد الزاوي ،المطبعة السلفية ، القاهرة ،1349هـ، ص ص 91–92.

[2] الحسن محمد بن عبد القادر الجزائري ،**تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر** ، ج1،الطبعة التجارية الإسكندرية ،مصر ، 1903، ص ص 59–60.

فقد تعرّض الحفصيون لهجومات الصليبيين من جهة و المرينيين على الحدود من جهة أخرى[1].

وفي آواخر القرن الرابع عشر تولى الحكم أبو فارس عبد العزيز (797-838هـ/1394-1434م)، إذ شهدت الدولة الحفصية نوعا من الاستقرار في أحوال البلاد العامة سواء على الجبهة الداخلية والتي عمل السلطان على تقويتها من خلال محاولة الإصلاحات ومحاربة الفساد وإخضاع القبائل المناوئة والاهتمام بتطوير الأسطول الذي نجح من خلاله خارجيا في غزو صقلية إضافة إلى طرد النصارى من جزيرة جربة نهائيا[2]، وواصل خلفه أبو عمر عثمان (839-894هـ/1435-1488م) ترتيب البيت الحفصي من الداخل والقضاء على معارضي الخلافة الحفصية، إلى جانب إهتمامه بالحياة العلمية والثقافية [3].

ساهمت عديد الأسباب والمتغيرات في دخول الدولة الحفصية في دوامة فتن داخلية تكاد تكون غير منتهية بعد وفاة الأمير أبو عمر عثمان، الذي ما إن بويع حفيده أبو زكرياء يحي بالسلطة حتى ثار عليه ابن عمّه عبد المؤمن بن إبراهيم مع جماعة من الجند ودخلت البلاد في وضع غامض وأخبار متضاربة، ويتبين من خلال هذا الحدث أنّ الجيش الحفصي لم يكن كلّه مؤيدا لبيعة السلطان الجديد وهذا الوضع سيستغله المتربصون بالعرش داخليا وخارجيا مما يؤدي إلى ضعف أركان الدولة أو إلى انهيارها وزوالها، خاصة في هذه الظروف المحيطة بالمنطقة خلال تلك الفترة، فقد بدت واضحة مسألة التنازع والتنافس على العرش داخل الأسرة الحاكمة من خلال ظاهرة كثرة الإغتيال، حيث أنّه و في فترة قصيرة لا

---

[1] شوقي عطا الله الجمل ، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**،ط1، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، 1977، ص 28.

[2] أحمد بن عامر،**الدولة الحفصية** ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1974م، ص53.

[3] لمزيد من المعلومات حول هذه المسألة ينظر : ابن الشماع ، **الأدلة البينة النورانية من فاخر الدولة الحفصية** ، تح وتق :الطاهر محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984م،ص ص 121-135.

تزيد عن ست سنوات(893-896هـ) (1488-1494م) حكم ثلاثة أمراء وهم على التوالي يحي، ثم عبد المؤمن ثم زكرياء[1].

إنّ ما يمكن قوله في هذا الصدد هو أنّ الدولة الحفصية كانت تعيش أوضاعا وظروفا صعبه كادت تودي بها إلى الزوال قبل مطلع القرن 10هـ/16م، إلاّ أنّه سرعان ما بدت ملامح الاستقرار السياسي تلوح في الأفق حين تولى الحكم الأمير أبو عبد الله محمد بن الحسن، الذي دامت فترة حكمه ما يفوق ثلاثة عقود من الزمن بداية من سنة 1494م حتى سنة 1525م، ما يدل على قوة ورجاحة عقل هذا الرجل الذي كان متمسكا بتعاليم الدين الإسلامي، وكان محبّا للصالحين، كل هاته الصفات هي التي أهلته لبسط الأمن والاستقرار وفرض الطاعة على الرعية حسب رواية بن أبي دينار والذي جاء فيها:"... وكان فطنًا ذكيًا، فصيحًا، محبا للخير وأهله معتقدا في الصالحين... وفي أيام السلطان محمد كانت وقائع بينه وبين العرب وهزموه على القيروان ورجع لتونس في ثمانمائة من الخيل وفي أيامه خرجت بلاد كثيرة عن حكمه وهو الذي ملك الجزائر للقائد عروج التركي وكان بها برج للنصارى ..."[2] وهو ما سنتعرف عليه في الفصل الموالي.

توابع وأقاليم الدولة الحفصية قبيل 1520م:

1-1-1-بجاية:

على غرار كل أنحاء البلاد المغاربية التي تعرضت للغزو الإسباني- إما احتلالا مباشر أو غير مباشر وذلك بإعلان التبعية ودفع الضرائب كما سنرى في المغرب الأوسط والأقصى، لم يتوقف طموح الصليبيين وقرروا خوض المزيد من المغامرات لاحتلال بقية السواحل الأخرى من أجل السيطرة على الجهة الغربية للمتوسط وتأمين الطرق التجارية

[1] المطوي محمد العروسي ، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ،1986 ،ص ص 644-645.

[2] ابن ابي دينار، **المونس في أخبار افريقيه وتونس** ،ط1، مطبعة الدولة التونسية ، تونس ، 1286 ، ص ص 150-151.

فكانت محطتهم هذه المرة بجاية التابعة للأسرة الحفصية بتونس آنذاك التي كانت تمر بمرحلة ضعف شديد متأثرة في ذلك بتردي الأوضاع السياسية في المقام الأول الذي شهدته الدول الثلاث الحاكمة في المغرب الإسلامي وهم الدولة الحفصية، الدولة الزيانية، والدولة المرينية [1]، تمثلت في الصراع القائم على العرش بين الأمير عبد الرحمان الحفصي وابن أخيه عبد الله، ما جعل الإسبان يستغلون هذه السانحة لاحتلال بجاية وجعلها قاعدة انطلاق للسيطرة فيما بعد على القل، عنابة، تونس وطرابلس الغرب ليسهل عليهم الإستحواذ على مضيق صقلية وبالتالي بسط نفوذهم على كامل بلاد المغارب والطرق المؤدية إليها[2].

قاد الحملة بيدرو نافارو بتعليمات الكاردينال خمينيس وبدعم مطلق من الملك فرديناند الكاثوليكي توجه القائد بيدروا نافارو إلى بجاية سنة 1510م في حملة على حين غفلة من السكان إلاّ أنّ هذا لم يثني من عزيمة السكان في الدفاع عن أراضيهم ومواجهة الغزو الإسباني رغم الفوارق الجلية في شتى النواحي بين الطرفين، حيث دخلت القوات الإسبانية المدينة على متن أربع عشرة سفينة محمّلة بالجنود الذين ارتكبوا فضائع كبيرة وجرائم في حق السكان العزّل وعددهم 8000، ناهيك عن التخريب والتدمير الذي طال مختلف النفائس والخيرات بشتى أنواعها، ثمّ اتّجهوا لمطاردة عبد الرحمن الحفصي وأتباعه خارج المدينة بجيش قوامه 1500 جندي إسباني، بالتعاون مع المخلوع عبد الله الذي أعلن تبعيته للعدو وبذلك وجد الإسبان ضالتهم في هذا الملك الذي زاد في تفكيك الوحدة بين سكان بجاية[3]، فكانت المعارك غير متكافئة بين الطرفين ما أدّى في الأخير إلى قبول التفاوض من طرف

---

[1] بلبراوات بن عتو، **بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني (1510-1555م)**،عصور جديدة ،ع7-8، جامعة وهران ، الجزائر ، 2013/2012،ص177.

[2] محمد دراج، **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1553م**،ط1،شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2012 ،ص111.

[3] مارمول كربخال،**إفريقيا**، تر: محمد حجي وآخرون،ج2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط ، المغرب الأقصى،1989، ص 378.

الأمير عبد الرحمن ومن بقي معه و اضطّر إلى توقيع معاهدة مع الإسبان رفقة الملك عبد الله المتحالف معهم، وكان من أهم بنودها :

1- تقسيم مناطق النفوذ بين الأمير عبد الرحمن وعبد الله ملك بجاية، وممارسة الحكم تحت الإشراف الإسباني.

2- تقديم المساعدات وكل ما تتطلبه الإدارة الإسبانية[1].

3- يعترف عبد الرحمان بإمتلاك بجاية وصخرة مدينة الجزائر وتادلس وكل المراسي وما يتبعها[2].

1-1-2- طرابلس الغرب :

سعت الإمبراطورية الإسبانية إلى تنفيذ مشروع توسعي في بلاد المغارب فعمل كل قادتها على تجسيد المشروع الإسباني ومنهم بيدرو نافارو الذي حاول التوسع في سواحل تونس، غير أنّه فشل في تحقيق مراده، فاتجه إلى مدينة طرابلس الغرب نزولا للأمر الذي وجهه الملك فيرديناند والتي أولى لها أهمية قصوى بقوله:" ...أننا إذا ما أردنا أن نحافظ على وجودنا في إفريقيا، فإنّه يتحتم علينا أن نحتل مدن وهران وبجاية وطرابلس، وفي حالة احتلالنا لهذه الأخيرة يتوجب علينا أن نعمرها برمتها بالنصارى، وإلا فإنّ المغاربة بما أنّهم يسودون بقية مناطق البلاد، إذا ما سمحنا لهم بالسكن في مدن الساحل، فإنه يستحيل علينا أن نحتفظ بما احتللناه وقتا طويلا ..."[3].

منذ احتلال الإسبان لسواحل المغرب الأوسط ثم بجاية الحفصية، تغيّر الطموح الإسباني في التوسع في بلاد المغارب نتيجة الأوضاع الصعبة التي تعيشها هاته الأخيرة

---

[1] كليل صالح، **سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط**، مذكرة ماجستير، قسم التاريخ، ، إشراف: علي آجقو، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007،ص 51.

[2] وللمزيد حول هذه المعاهدة ينظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 133 -135.

[3] وللمزيد حول تفاصيل رسالة الملك فيرديناند إلى بيدرو نافارو يأمره فيها باحتلال طرابلس ،والتي كانت مؤرخة في ماي 1510م ، ينظر : شارل فيرو،**الحوليات الليبية من الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي** ، تع وتح : محمد عبد الكريم الوافي ، ط3، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا، 1994، ص ص 73-74.

ومن كل الجوانب والمتمثلة في الضعف و الانقسام الداخلي المغاربي الذي استغله الصليبيون أيّما استغلال، فكانت الدعوة التي وجهها الملك فيرديناند لجنوده بقيادة بيدروا نفارو بداية للحملة، حيث أبحر هذا الأخير من بجاية إلى صقلية ثمّ مالطا ومنها إلى طرابلس، في أسطول قوامه مائة وعشرون قطعة بحرية، وانضمت إليه خمس سفن مالطية، إذ تكوّن من خمسة عشر ألف جندي من الإسبان وثلاثة آلاف من الجنود الإيطاليين وعدد من المغامرين[1]. ونظرا للتفاوت في الإمكانيات بين الصليبيين وأهالي طرابلس تمّكن الإسبان من احتلالها في (916هـ/30 جويلية 1510م) رغم المقاومة الشديدة إذ استشهد خمسة آلاف، وأسر حولي ستة ألاف[2].

ويطلعنا الحسن الوزان عن أوضاع المدينة في سنة 1518م حين زارها وهو مصدر هام عن تلك الفترة، حيث وجد أنّ الإسبان قاموا بتحصين طرابلس الغرب عن طريق سور ونصبوا مدفعية ضخمة وذكر أنّه سمع في وقت قريب أنّ أمير طرابلس قد أعيد إليها لأنّه كان أسيرا في صقلية بعد أن أمر الإمبراطور شارلكان نائب الملك في صقلية إعادة شيخ طرابلس الذي كان قد أخذ أسيرا عند احتلال الإسبان لمدينة طرابلس، وبقي في الأسر عشر سنوات، فقد كان شيخ طرابلس محبوبا عند الأهالي، وهو ما سيساعد الإسبان من التحكم في الأهالي[3].

1-1-3- جزيرة جربة :

كانت جزيرة جربة من بين المناطق التي تعرضت خلال القرن (10هـ/16م) إلى عدّة حملات صليبية إسبانية من أجل السيطرة عليها، فقد تميّزت بموقع جغرافي واستراتيجي مهم

---

[1] أتوري روسي ، **طرابلس تحت حكم الإسبان وفرسان مالطا** ، تع وتق : خليفة محمد التليسي ، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر ، طرابلس، 1969م ، ص18.

[2] أحمد بن الحسين النائب الأنصاري ، **نفحات النسرينوالريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان**، تق و تع: محمد زينهم و محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ،ليبيا، 1994، ص 38.

[3] الوزان ، المصدر السابق،ج2، ص 101، وينظر أيضا: ايتوري روسي ، المرجع السابق، ص 38.

وباعتبارها إحدى الركائز التي يعتمد عليها في السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط ونظرا لحالة الضعف والانحطاط التي آلت إليها الدولة الحفصية في عهد السلطان أبي عبد الله محمد، اتّخذ الإسبان مدينة طرابلس نقطة انطلاق للمحاولات العديدة لاحتلال جزيرة جربة حيث كانت المحاولة الأولى في شهر جويلية (ربيع الأول) سنة (916هـ/1510م)،والثانية في الشهر الموالي من نفس السنة بقيادة بيدرو نافارو[1] الذي رسى بأسطوله قرب الساحل القبلي، وأرسل رسولا إلى شيخ الجزيرة أبا يحي السمومني يأمره بالإستسلام أو القتال، فكان رد الشيخ بأنّه راغب بالقتال، ولكنّ الإسبان انسحبوا بعد أن رأوا أنّ عدد المسلمين أكثر منهم إلى طرابلس، وفي الحملة الثانية دارت معارك بين الطرفين تمكّن المقاومون الصامدون في الجزيرة من صدّ الصّليبيين وأرغموهم على الانسحاب إلى مدينة طرابلس بعد أن ألحقوا بهم هزائم وخسائر كبيرة، وبذلك انتقموا لهذه الأخيرة ولسكانها[2]، ولم يحاول الإسبان غزو الجزيرة مرة أخرى إلاّ بعد عشر سنوات أي في سنة (1520م/926هـ) وتعتبر الحملة الثالثة بقيادة الدون هوقو دو منكادا والتي منيت هي الأخرى بالفشل أمام صمود أهالي الجزيرة[3].

1-2-المغرب الأوسط (الجزائر،الدولة الزيانية)[4]:

1-2-1- الصراع والتنافس على السلطة:

كان المغرب الأوسط في أيام نشأة إمارة بني عبد الواد الزيانية[1] ملحقا بالدولة الحفصية وكان المرينيون يومئذ يحاولون التوسع شرق مملكتهم المغربية، إلاّ أنّ الزيانيين وقفوا في

---

[1] المطوي، المرجع السابق،ص 664.

[2] عمر الباروني ، **الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس** ، مطبعة ماجي ، طرابلس 1952م ، ص 52-57.

[3] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص ص 664-665.

[4] إنّ إسم الجزائر لم يصبح معروفا إلا منذ القرن العاشر أي في العهد العثماني ، أما عبارة (المغرب الأوسط) التي أطلقها العرب المسلمون لم تكن تعني بالضبط حدود الجزائر الحالية لأن هذه العبارة مثلها مثل (المغرب الأدنى ، المغرب الأقصى) كانت غامضة غموض حدود الإمارات الإسلامية التي تعاقبت على حكم المغرب العربي ، ينظر: أبو القاسم سعد الله ، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830**، ج1،ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، 1998، ص 40.

وجههم [2]، فكان بذلك استمرار الفتن والحروب بين هاتين الإمارتين طيلة مجاورتهما وقد اقتضى موقع دولة بني زيان ووضعيتها الطبيعية بين المرينين في الغرب والحفصيين في الشرق، بأن تكون ميدانًا للمعارك بين هاتين الدولتين في جميع أقطار المغرب الإسلامي بغية الاستيلاء على أطرافه، فأخذ يغمراسن[3] مؤسس الدولة من ذلك درسًا مفيدًا إذ شرع في تحصين بلاده وإحاطتها بما يدرأ عنها العدو فجاء بقبيلة بني عامر العربية من صحراء بني يزيد وأسكنها نواحي وهران وتلمسانوكانت هذه القبيلة له خير وقاية احتمى من خلالها عن مهاجمة خصومه[4].

لقد بدت مظاهر الضعف في الدولة الزيانية منذ بداية النصف الثاني من القرن الرابع عشر حين تزايدت انتصارات المرينيين على الزيانيين بعد تحالف يغمراسن مع الموحدين في صراعهم مع المرينيين حكام المغرب الأقصى، إلاّ أنّ بني مرين انتقموا من الزيانيين لانحيازهم إلى خصومهم وتمكنوا من إلحاق عديد الهزائم بهم وسيطروا على العاصمة تلمسان

---

[1]الدولة الزيانية: تنسب إلى قبيلة بني عبد الوادي أحد بطون زناتة. أمّا تسميتها بالزيانية فنسبة إلى زيان بن ثابت ، ومؤسس الدولة الزيانية الحقيقي هو يغرامسن بن زيان (633-681هـ/1235-1283م)، وتداول على حكم الدولة الزيانية في النصف الغربي للجزائر خلال الفترة (633-958هـ/1235-1551م) خمسة وثلاثون أميرا من بني عبد الواد.ينظر: ابن خلدون ، المصدر السابق، ج6،ص275.

[2] عبد الرحمان محمد الجيلالي ، **تاريخ الجزائر العام** ،ج2، دار مكتبة الحياة، بيروت ،ص 134.

[3] يغمراسن بن زيان: هو أبو يحي يغمراسن بن زيان بن ثابت ، ويغمراسن بلغتهم معناه "كثير المرق"، ولد سنة 603هـ/1206م، بويع الملك يوم أن توفي أخوه " أبو عزة زيدان " عام 1236م، حكم فترة زمنية طويلة (1236-1282م)، كان معروفا عند قومه بالدهاء السياسي والشجاعة والحزم وإيثار ذوي الفضل والعلم ، ينظر عبد الرحمان الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 138.ابن الأحمر ، **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تق و تع و تح: هاني سلامة،ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ، 2001، ص 59.وينظر أيضا: مختار حساني ، **تاريخ الدولة الزيانية ، ج1(الأحوال السياسية)**، منشورات الحضارة ، الجزائر،2009،ص 17.

[4]عبد الرحمان الجيلالي ، المرجع السابق ، ص 136.

ومدن الجزائر وبجاية وقسنطينة وتونس إلى حين أن تمكن أبو حمو موسى الثاني[1] من استرداد تلمسان سنة 1359م، ورغم استعادة الزيانيين لحكمهم عن طريق هذا الأخير، إلاّ أنّ التدخلات المرينية في شؤونهم الداخلية بقيت مستمرة، لاسيما في تأليب أبناء الأسرة الحاكمة للتنافس على الحكم، ووصل الأمر فيما بعد أن أصبح المرينيون والإسبان وكذا الحفصيون يعينون من شاؤوا من الحكام الطامعين والمتنافسين على المناصب وهو ما ساهم بشكل كبير في استمرار ضعف الزيانيين، وأصبحوا غير قادرين على التصدي للمرينين على وجه الخصوص[2].

عرفت الدولة الزيانية عصرها الذهبي في عهد يغمراسن فقد امتدت نحو جميع الجهات فمن ناحية الشرق نجد أنّ الزيانيين وصلوا إلى جبال الزان (أكفدو) القريبة من بجاية، أمّا من ناحية الغرب فتمكنوا من الوصول إلى مدينة تاوريرت غرب وجدة، وفي الجنوب واد مزاب وواحة جورارة، وفي الشمال البحر المتوسط بما فيه من موانئ ناشطة كدلس وجزائر بني مزغنة (الجزائر)، وشرشال، تنس، مستغانم، أرزيو، وهران، أرشقول ومرسى هنين، إلاّ أنّ هذا التوسع الجغرافي أخذ يتقلص شيئا فشيئا تحت شدّة الضربات والضغوط المرينية والحفصية [3]، حتى فقدت الدولة سهولا ومدنا عديدة، وأصبحت لا تتعدى تلمسان وإقليم بني راشد واستمر هذا الوضع حتى مطلع القرن السادس عشر أين شهد ظهور الصليبيين في السواحل.

تميزت المرحلة الأخيرة من حياة الدولة الزيانية بضعف كبير، حيث تفاقمت فيها المشاكل بسبب الصراع على السلطة، ممّا أوقعها في مأزق كبير فظهرت تيّارات التنازع على

[1] أبو حمو موسى الثاني : ولد سنة 723هـ/1323م بالأندلس ، كانت نشأته بتلمسان وبويع فيها بالخلافة عام 1359م كانت له مواقف شريفة في إنقاذ أهل الأندلس من الهلاك، له كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك "، ينظر: المرجع نفسه ، ص ص 171-172.

[2] عبد الرحمان الجيلالي ، المرجع السابق ،ج1، ص ص 177-180.

[3] مختار حساني ،المرجع السابق،ص ص 45-46.

الحكم، إذ عرفت تغيرا فيمن جلس على كرسي السلطة بما يقرب من أربعة عشر أميرا في الفترة ما بين (1485-1550م)، وكانت كثرة تداول السلاطين على السلطة مؤشرا على ضعف الدولة الزيانية واتجاهها نحو الانهيار، وأصبح القادة الزيانيون منقسمين إلى طامع في الملك والمعارض له[1]، فانشغلوا بهذه الوضعية وانهمكوا في الدسائس ونصب المؤامرات لبعضهم البعض، وتعتبر المرحلة التي جاءت بعد وفاة السلطان " أبو حمو موسى الثاني" (1389م) من أشدّ المراحل في التنافس على كرسي الحكم[2] وعلى الخصوص بين أبناء الأمير الواحد كما وقع لأبناء أبي حمو الثاني، فقد عمد بعضهم إلى الارتماء في أحضان الحفصيين والمرينيين ومن بعدهم الوطاسيين، وتنازلوا على أملاك الدولة في سبيل الوصول إلى الحكم [3]، بل وكانوا يتحالفون مع الصليبيين الإسبان[4] بالإضافة إلى الصراع الذي عرفته أراضي الدولة بين رؤساء القبائل على الرئاسة، والذي يعد من أخطر ما واجهته الدولة الزيانية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، فقد أفقدها هذا الصراع القوة خاصة وأنّها كانت تعتمد على القبائل بشكل كبير مع افتقارها لجيش نظامي[5]، وأدّت هذه الصراعات في النهاية إلى زوال هيبة الملوك لدى الرعية وإلى تخبط هذه الأخيرة بالأوضاع السياسية التي أصبحت تعيشها الدولة، وهو ما جعل الرعية يؤيدون التدخل العثماني في شؤون الدولة فيما بعد مخافة من ظلم الملوك الزيانيين والتدخل الصليبي.

استغلّ الصليبيون وعلى رأسهم إسبانيا حالة الضعف التي كانت عليها الدولة الزيانية خاصة بعد أن تراجعت تجارتها بفقدان نفوذها في المناطق الداخلية، كما كانت هذه الدولة

---

[1] بسام العسلي، **خير الدين بربروس والجهاد البحري (1470-1547م)**، ط1، دار النفائس ، بيروت ، 1980،ص 57.

[2] عمار بوحوش، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م**،ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997،ص46 .

[3] مختار حساني ، المرجع السابق ، ص50.

[4]عمار بوحوش ،المرجع سابق،ص50 .

[5]مختار حساني ، المرجع السابق ، ص 52.

مشتتة بتنافس أبنائها على السلطة مع مطلع القرن السادس عشر، فسيطر الإسبان على السواحل الجزائرية، حيث شهدت فترة حكم السلطان " أبي حمو الثالث (1503-1517م)[1] إبرام أوّل معاهدة مع الإسبان نتيجة للتنافس الحاد بينه وبين بقية الأمراء في الدولة، فقد أصبح أبي حمو موسى الثالث صديق وحتى خادم الإسبان وذلك من أجل البقاء على رأس الحكم، وأصبح عميلاً لهم مقابل عدم وصول أخيه "عبد الله " إلى السلطة وفي الوقت لم يرضى السكان عن سياسة أبي حمو واتهموه بخيانة الإسلام واحتمائه بالنصارى وإثقاله كاهل السكان بالضرائب، ما جعلهم يستغيثون بالأتراك لإزاحته من الحكم[2]. هذه الصورة تعبّر على أنّ الدولة الزيانية أصبحت عاجزة على توحيد بلاد المغرب الأوسط.

كانت هذه الصورة عامة في معظم بلاد المغرب الأوسط ففي مدينة الجزائر التي كانت تحت سلطة "سالم التومي" الذي كان يعتمد على قبيلته العربية "الثعالبة" وعلى تحالف مع الإسبان والذي توجه بإعلان ولائه للملك"فرديناند" منذ 1511م ورضي بتقديم الضرائب له كما منحه الصخرة الشهيرة[3](قلعة البنيون) التي لا تبعد عن ميناء الجزائر إلى بحوالي 300 مترا فاتخذ منها الإسبان حامية لهم تمهيدا لاحتلال مدينة الجزائر، هذا إضافة إلى أنّ مدينتي بجاية وقسنطينة اللتان أصبحتا تحت الحكم الحفصي، أمّا وهران والمرسى الكبير فقد احتلتهما إسبانيا بالقوة كما يلي:

1-2-2-إحتلال المرسى الكبير(1505م)[4]:

---

[1] أبو حمو موسى الثالث : هو أبو موسى حمو الثالث الملقب بأبي قلمون بن محمد "الرابع"،انتصب قهرا على عرش تلمسان سنة 1503م ،فعزل ابن أخيه محمد السابع وباشر الحكم والبلاد يومئذ في اضطراب وحبل حكومتها في انحلال وضعف وتفرق وتشتت ، ينظر: عبد الرحمان الجيلالي ، المرجع السابق،ص ص 196-197.

[2] مختار حساني ،المرجع سابق ، ص 54.

[3] عمار عمورة ، **موجز في تاريخ الجزائر** ، ط1، دار ريحانة ، 2002،ص 83.

[4] المرسى الكبير: مدينة ومرفأ في الجزائر يقع بين وهران ومستغانم ، أسسه ملوك تلمسان على البحر المتوسط يبعد بضعة أميال على مدينة وهران ، يوجد ميناء تسطيع مائة سفينة الرسو فيه بمأمن عن كل العواصف لذلك يعد من أفضل مرافئ الساحل الجزائري ، وقد تمكن الأسطول الإسباني من السيطرة عليه بعد حصار دام شهرا ونصفا ، أنظر شارل أندري

أبحرت أوّل حملة إسبانية من ملقا في سبتمبر من سنة 1505م لمهاجمة المرسى الكبير قادها الجنرال " بيدرونافارو" pedro Navarro"[1] الذي قتل العديد من السكان وحوّل مسجدها إلى كنيسة دون مقاومة من الجيش الزياني، فكانت أبشع المجازر التي ارتكبها الإسبان في المنطقة والتي راح ضحيتها أكثر من أربعة آلاف من الجزائريين وأسر ثمانية آلاف منهم بعد مقاومة دامت خمسين يوما[2].

1-2-3- إحتلال وهران (1509):

بعد أن ارتكز الإسبان بالسواحل الجزائرية، وصار المرسى الكبير قاعدة متقدمة لهم في الجزائر، حيث كانت المخططات ترسم في قشتالة وتنفذ في الجزائر، فما إن حلّت سنة 1509م حتى تجمعت سفنهم على السواحل الإسبانية الجنوبية استعدادا للحملة على وهران[3] التي تمّ احتلالها بفعل خيانة أحد السكان الذي فتح الأبواب للمهاجمين[4]، وممّا زاد من تمكن الصليبيين الإسبان وبسهولة من التوسع في كثير من المناطق تعاون بعض القبائل ومنهم قبائل بني عامر[5] معهم ضد بني جلدتهم[6]، واستعملوا كجواسيس وفي هذا يقول الراشدي:" ... فصاروا شيعتهم وقويت بهم شوكتهم، فكانوا عيونه الذين يتطلع بهم على عورات

جوليان،**تاريخ إفريقيا الشمالية تونس –الجزائر–المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830**، تعر: محمد مزالي ، البشير بن سلامة،ج2، الدار التونسية للنشر ، 1983 ،ص 323.وينظر أيضا: المدني ، المرجع السابق، ص 102.

[1] بيدرو نافارو: وهو المفوض العسكري للإسبان بالجزائر ، اتخذ من مدينة بجاية مركزا لقيادته العسكرية ، وقام باحتلالها منذ 1510م، ينظر : , Diego Haedo, **Histoire des rois d alger**.Traduit par: De Grammont, adolphejourdan,librair–editeur,Alger,1881,p10.

[2] المدني ، المرجع السابق، ص ص 99- 100.

[3] مبارك بن محمد الميلي ، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تق: محمد الميلي ، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان، ص 463.

[4] مارمول كربخال ، المصدر السابق،ص ص 330–331.

[5] المشرفي عبد القادر الجزائري ، **بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر** ، تح: محمد بن عبد الكريم ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، د.ت.ن،ص 19.

[6] ومنها قبائل شافع ، حميان ،غمرة ،أولاد عبد الله ،أولاد علي ، الونازة . للمزيد ينظر :نفسه،ص ص 14–21.

المسلمين وأعوانه الذين يشن بهم الغارات على الأبعدين ويقتحم حلل المسلمين ودورهم، فيأخذ مالهم وينتهك حريمهم ..."[1].وقد خاطبهم العلامة سيدي أحمد بن القاضي بقوله:

فمن بلغ عني قبائل بني عامر ولاسيما من قد ثوى تحت كافر

أذلكم الجبار كيف رضيتم بسبي العذارى من بنات الأكابر

وما منكم إلا خصي أذله بميسمه النصراني يا آل عامر[2].

من وهران والمرسى الكبير كان الإسبان يمارسون أسلوب الإغارة –لآس خرناداس –، يرتزقون أو يفرضون على العرب ضرائب وقد لعب حاكم وهران دورا أساسيا إزاء ملوك بني زيان الذين كانوا يستغيثون به ضد القبائل المنوئة لهم وحكام المغرب الاوسط خاصة عروج وخير الدين أصبحا المنائيين الأساسيين للجهة الغربية الواقعة، وظلا تحت سيطرتهم[3].

أعلنت المدن الساحلية تباعا مثل دلس وشرشال وتنس ومستغانم تقديم ولائها للإسبان خوفا من مصير مماثل لمصير وهران[4]، كما فعلت القبائل المجاورة للمواقع المحتلة[5]، وهو ما أضعف اقتصاد الدولة ودورها التجاري مع الممالك الأوربية وحتى مع السودان الغربي، وأفقد سلاطينها مكانتهم في نظر الأهالي، لاسيما عندما تنازعوا على كرسي العرش، ومالوا

---

[1] أحمد بن عبد الرحمان الشقراني الراشدي ، **القول الأوسط في أخبار بعض ما حل بالمغرب الأوسط** ، تح وتق: ناصر الدين سعيدوني ، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013،ص63.

[2] المشرفي، المصدر السابق، ص 19.

[3] Braudel ,op.cit,pp196-200.

[4] كان احتلال وهران بداية لتساقط المدن الأخرى فقد حل الذعر في قلوب السكان ، فسارع الحكام لتقديم الولاء للإسبان خوفا من تكرار المذبحة التي تعرضت لها المدينة ، فسارعت مستغانم لدفع الضرائب للإسبان بدل تلمسان ، نفس الأمر قامت به دلس وشرشال كما سارعت تنس من جهتها لتقديم الولاء لهم ، والغريب أنّها تحالفت مع الإسبان ضد بربروس. ينظر: ابن رقية محمد التلمساني ، **الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حيث أغارت جنود الكفرة** ،ط1،ضبط وتعليق، خير الدين سعيدي الجزائري،أوراق ثقافية للنشر والتوزيع،جيجل، الجزائر، 2017، ص ص 91-92.كذالك : وليم سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر** ، تعر و تع :عبد القادر زبادية ، دار القصبة للنشر ، الجزائر ،2007،ص35.

[5] الراشدي ، المصدر السابق،ص63.

إلـى الاسـتعانة ببعضـهم علـى بعـض بالإسـبان والأتـراك العثمـانيين، وهـذا مـا زاد فـي تـأزّم أوضاع الدولة الزيانية في شرق و غرب الجزائر [1].

إنّ كل هـذه التغيرات الطارئـة سـاهمت بشـكل كبيـر فـي إضـعاف إمـارة بنـي زيـان التـي عجـزت عـن مـدّ نفوذهـا لكافـة المنـاطق، فكانـت نتيجتـه ظهـور حركـات إسـتقلالية تزعمهـا مجموعـة مـن الشيوخ المرابطين، منهـا إمـارة كوكـو بقيـادة الشـيخ أحمـد ابـن القاضـي بجبـال جرجرة تلك الإمارة التي أصبح لها صيت في المنطقة، وسيطر الشيخ الحفصي على الجهة الواقعة بين عنابة والقل، بالإضافة إلى سيطرة الدواودة على الزاب والحضنة، وظهرت دولة في واحات وادي رير(ريغ)، وإمارة الثعالبة بجزائر بني مزغنة[2].

1-3-المغرب الأقصى (الدولة المرينية):

1-3-1- تأسيس الدولة المرينية:

---

[1] كانت نكبة سقوط وهران في 914هـ/1509م بيد الإسبان قد أزمت أمور الدولة الزيانية في الغرب الجزائري ، حيث اضطربت إلى حد كبير ،فوهران تعتبر بمثابة بوابة تلمسان على الساحل وكانت تدر أموالا كبيرة عليها بفضل التجارة ، وقد نجم عن سقوطها خضوع قبائل بني عامر والقبائل الأخرى المقيمة بأطراف وهران للإسبان مثل عرب سويد ، الذين كانوا يقطعون السبل على الناي لنهبهم ، واضطرار السلطان الزياني الذي تقلص ملكه كثيرا إلى إبرام معاهدة صلح مع فرديناند ملك إسبانيا في 918هـ/1512م ، وهو ما أنكرته عليه الرعية ، فانتشر الاضطراب أكثر،وأصبحت القبائل متذبذبة في ولائها لهم ، حيث خضع بعضها للإسبان كما ذكرنا، ومال بعضها إلى الإستقلال عنهم أو التعاون مع العثمانيين بعد استقرارهم في الجزائر ، أمّا القبائل الأخرى فظلت مرتبطة ببني زيان الذين كان سلاطينهم يهادنونهم ويستميلون بالمال تارة ، وبالمصاهرة تارة أخرى، ينظر : محمد الزياني ، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ، تق و تع : المهدي البوعبدلي ، اعتنى به: عبد الرحمان دويب ،ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013 ، ص ص 188-189،وينظر أيضا : عبد الفتاح الغنيمي ، **موسوعة تاريخ المغرب العربي ، ج6: بني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين**، دراسة في التاريخ الإسلامي ، ط1،مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، 1994،ص59.

[2] شارل أندري جوليان ، **تاريخ إفريقيا الشمالية ، تونس الجزائر المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م**، تعر: محمد مزالي والبشير بن سلامة ،ط2، الدار التونسية للنشر ، تونس ، 1983،ص 322.

لم تختلف كثيرا بدايات تأسيس بنو مرين[1] لقيام دولتهم عن الزيانيين والحفصيين، حيث تمكنوا من الاستيلاء على البوادي في شمال المغرب الأقصى، وبعدها تحولوا إلى المدن والأمصار، فقاموا بمحاصرة مكناسة ثم سلفات الأمر الذي أقلق الرشيد الموحدي ممّا دفعه إلى مواجهتهم وإيقاف توسعاتهم وحماية أراضيهم، وكان الخلاف والشقاق قد دبّ من جديد في البيت المريني بين بني عسكر وبني حمامة وذلك منذ اعتلاء أبي معرف الحكم، حاول ابن وأنودين الذي عقد له الخليفة الموحدي على مكناسة استغلاله فتحالف مع بني عسكر ونهض لقتال أبي معرف وقومه فالتقى الجمعان بالقرب من سلفات، فانهزم ابن وأنودين وأتباعه وولّوا مدبرين[2].

وعند مبايعة السعيد بن المأمون على تولي خلافة الموحدين سنة 640هـ، صرف جهوده لمحاربة بني مرين فأعدّ لذلك جيشا ضخما يتألف من المصامدة والعرب والروم، تكون من حوالي عشرين ألفا، ليلتقى مع الجيش المريني في أحواز فاس سنة 642م وينتصر الموحدون في هذه المعركة وأسفرت عن مقتل الأمير أبو معرف محمد وانهزام المرينيين وانسحابهم إلى جبل غياثة بنواحي تازا التي بقوا فيها لمدة أيام ثم خرجوا إلى بلاد الصحراء[3].

تولّى بعده أبو يحي أبو بكر بن عبد الحق رئاسة بني مرين (642-656هـ/1244-1258م)، ولم يكد يستقر السلطان الجديد حتى راح يسعى جاهدا لتحقيق مشروع سلفه في

---

[1] بني مرين (الدولة المرينية) : من قبيلة زناتة الامازيغية و مؤسس دولتهم هو ابو محمد عبد الحق بن خلبد محيي بعدما بدئه والده فقد بنيت على انقاض الدولة الموحدية بعد ضعفها في معركة العقاب ،حيث قاموا باحتلال بعض مدنها الى ان احتلوا مراكش 668هـ الموافق 1269م و قضى بذلك على عرش الموحدين . ينظر : عبد الرحمن الجيلالي ، **تاريخ الجزائر العام** ،ج2، ط2 ، دار مكتبة الحياة ،بيروت، لبنان ،1965، ، ص 73.

[2] مؤلف مجهول، **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية** ، اعتنى به: محمد بن ابي شنب ، مطبعة جول كربونل ، الجزائر، 1960، ص ص 63-64.

[3] ابن خلدون،المصدر السابق ، ج7،ص ص 226-227.

إقامة دولة قوية، حيث كان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم قبائل بني مرين[1]،ومنها توحيد الصفوف، كما خلع أبو بكر طاعة الموحدين وجهر بها، وأعلن بيعته الأمير أبي زكرياء بن أبي حفص[2] مستغلا الخلاف الذي وقع بين الموحدين والحفصيين حول مبادئ ابن تومرت وتنكر الموحدين لها، الأمر الذي لم يقبله بنو حفص، وهو ما كان في صالح بني مرين الذين استفادوا من هذا الوضع خاصة في مواجهة أعدائهم، ومنه تشكيل حلف قوي في مقابل التقارب الزياني الحفصي، والتحالف الموحدي الزياني القائم أساسا على حرب بني مرين وهو ما ساهم بشكل كبير في الحفاظ على التوازن الموجود على المدى القريب[3].

ويطلعنا ابن خلدون (732هـ-808هـ/1333-1406م) في كتابه العبر، أنّ بلاد المغرب الإسلامي تعرضت لأزمات متعددة الجوانب، بدأت في آخر المائة الثامنه للهجرة (النصف الثاني من القرن الرابع عشر)، بعد انتشار قبائل بني هلال وبني سليم[4] البدوية إلى شمال إفريقيا، وتأثيرهم السياسي والاقتصادي والديمغرافي وانحلال العصبية البربرية وانتشار الطاعون الذي فتك بعدد كبير من المغاربة[5].

واصل المرينيون توسيع حدود بلادهم في هذه الفترة، فكان صراعهم مع الزيانيين على تلمسان، حيث قام أبي الحسن المريني بداية من سنة 1335م بطرد الزيانيين منها وبالتالي خضوع المغرب الأوسط لدولتهم، وتوالت الحملات على تلمسان بعد استعادتها، فكانت حملة

---

[1] قسّم بلاد المغرب وقبائل جبايته بين عشائر بنب مرين وأنزل كلا منهم في ناحية ، ينظر: ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج7،ص 228 .

[2]المصدر نفسه.

[3] مؤلف مجهول ،**الذخيرة السنية**...،المصدر السابق، ص ص 83-84.

[4] كانت بطون هلال وسليم من مضر ، فبنو سليم مما يلي المدينة ، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف ، فكانوا يطوفون في رحلة الصيف والشتاء أطراف العراق والشام، ينظر، ابن خلدون ، المصدر السابق،ج6، ص18.

[5] محمود علي عامر و محمد خير فارس، **تاريخ المغرب العربي الحديث** (المغرب الأقصى – ليبية)، منشورات جامعة دمشق ، سوريا ، 1999-2000،ص 5.

أبي فارس عبد العزيز في سنة 1360، واستمرت حالة الشد والجذب إلى غاية نهاية حكم المرنيين وبداية حكم بني وطاس[1] في أواخر القرن الخامس عشر.

يصف أحد المؤرخين الفرنسيين للوضع في بلاد المغارب عموما والمغرب الأقصى خصوصا، والذي يخبرنا عن الحالة الصعبة بقوله : " إنّ العائلات الحفصية والزيانية والمرينية والتي كانت قبل ذلك تلمع لمعانا منيرا، قد انغمست في حروب طوية مزمنة، ورؤت أرض هذه البلاد –المغرب العربي الإسلامي – بالدماء ثم سقطت في مهاوي الانحطاط،فطوال قرن كامل لم يبق لأمراء هذه العائلات المالكة من السلطة إلاّ اسمها، وكان الملوك لا يفكرون إلاّ في إحباط المؤمرات والفتن التي يثيرها ضدهم أفراد من عائلاتهم من أجل الاستيلاء على العرش أو إخماد الثورات التي تقوم بها قبائل سئمت حكم العجز والطغيان ولقد ضربت الفوضى أطنابها في كل مكان، فسكان الولايات القسنطينية ، وسكان مدينة الجزائر، وأهل الشرق الوهراني، لم يبقوا معترفين بسلطة أحد عليهم، أمّا المغرب الأقصى، فإنّ أمراء عائلة بني مرين قد اقتطع كل واحد منهم لنفسه إمارة صغيرة لم يكن في وسعه الدفاع عنها ضد مطامع جيرانه، فهذه الفوضى قد سهلّت بصفة غريبة مهمة البرتغاليين والاسبانيين سواء في احتلال البلاد أو توسيع منطقة نفوذهم فيها "[2].

1-3-2- الصراع على السلطة والحملات الأيبيرية:

تعرّضت سواحل المغرب الأقصى إلى حملات برتغالية، حيث تمكن الصليبيون من احتلال عدد من المدن المغربية، بداية بالقصر الصغير في سنة 1458م وبعدها بعشر سنوات احتلوا طنجة، وقاموا بعمليات تخريب في مدينة آنفا(الدار البيضاء) في سنة

---

[1] الوطاسيين: هم فرقة من بني مرين ينتمون إلى قبيلة زناتة البربرية ،تقد أوئلهم مناصب سامية في الإدارة والجيش،وخاصة عندما تولوا الواية على السلطان عبد الحق آخر السلاطين المرينيين (1420-1465م)، وفي سنة 1471م أسس محمد الوطاسي الدولة الوطاسية إلى أن سقطت سنة 1554م.أنظر: أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى** ،ج4،تح و تع: الأستاذ جعفر و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ،1997،ص118.

[2] وللمزيد حول هذه الأوضاع ينظر: أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 67-71.

1471م، وتمكنوا من الاستيلاء على آسفي وأغادير في سنة 1507م، وأزمور وكل منطقة دكالة في سنة 1513م[1].

ففي الوقت الذي وقع فيه التنافس الإسباني البرتغالي على المغرب، كانت ظروف هذه البلاد العامة سيئة، فكانت تمر بأزمة سياسية واقتصادية واجتماعية حادة [2]،وأمام تردي الأوضاع وضعف الوطاسيين وعجزهم عن حماية الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية سارع السلطان محمد ابن أبي زكريا لاتخاذ مجموعة من الإجراءات لإنقاذ دولته من الزوال قبل فوات الأوان، كان أوّلها الحد من انقسام القبائل المغربية وخاصة المحيطة منها بفاس من أجل تقوية الجبهة الداخلية ومحاولة توحيد البلاد، أمّا خارجيا فقد عقد اتفاقا مع البرتغاليين تنازل لهم بموجبه عن أصيلا، مع الالتزام بعدم التعرض للقوى الأيبيرية مجددا، إضافة إلى إعلانه الولاء للحفصيين.

لقد رأى معظم المغاربة في هدنة ملكهم مع البرتغاليين تخليه عن جهاد الصليبيين والدفاع عن المغرب وتحرير الثغور المحتلة، فظهرت إمارات مستقلة كانت تخضع اسميا لفاس عاصمة بني وطاس، مثل شفشاون وتطوان والقصر الكبير[3]، حيث برزوا كقوة تحل محل الدولة يحملون راية الجهاد ضد المحتلين، وسارت على نهجهم بعض الإمارات في جنوب وشرق المغرب كإمارة هنتانة بمراكش، وإمارة دبدو شرق المغرب، حيث خضعت هذه الأخيرة للمرنيين قبل وصول الوطاسيين للسلطة[4]، ولعلّ من أشهر أمراءها محمد بن أحمد المريني الذي لم يستطع الوطاسيين القضاء عليه بحكم بعد إمارته عن عاصمتهم والضعف

---

[1] مولود قاسم نايت بلقاسم ، المرجع السابق، ص 58.

[2] عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية** ،ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، المغرب ، 2006،ص 13.

[3] القصر الكبير: سوق تجلب إليها البضائع من مختلف الجهات وهي خاضعة لسلطة عائلة العروسي. ينظر: عبد الكريم كريم، المرجع السابق ، ص16.

[4]عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق،ج6، ص26.

والانقسام الذي دبّ في الأسرة الحاكمة، فكانت نهايته فيما بعد على يد الأشراف السعديين الذين رأى فيهم الرعية المنقذ للبلاد من استبداد النصارى، فقامت القوى الدينية والمؤلفة من رجال الدين المرابطين والأشراف إلى دعوة الرأي العام للجهاد من أجل تحرير الثغور وصد الغزو البرتغالي والإسباني، بل ورأى الكثير منهم أنّه من يستطيع الجهاد ويتخلّف عن الواجب المقدس فهو كافر، لذالك لقيت استجابة واسعة وتحملا للمسؤولية، وبالتالي الجهاد بالنفس والمال من أجل تكوين خلايا جهادية،من بينها مثلا حركة بني راشد وزوايا السوس، ومن ثمّة الإعداد لإقامة دولة قوية، وكان في مقدمتهم شيوخ الطريقة الجزولية[1]، فقد تم الاجتماع والاتفاق على مبايعة الشيخ "محمد بن مبارك"[2] والذي كان يتمتع بالقداسة والاحترام، لكنّ الشيخ رفض ذلك لكبر سنه وزهده عن الدنيا من جهة، ولإدراكه عظم المسؤولية من جهة ثانية، لذا دلّهم على أحد الأشراف ببلاد درعة[3] الواقعة جنوب المغرب وهو المولى "محمد بن عبد الرحمان"، فطلب الوفد من الشيخ مبارك أن يكون له دور الوساطة في ذلك وتم

---

[1] الطريقة الجزولية: كانت انطلاقتها من جنوب المغرب ، واقترن اسمها بالشيخ أبي عبد الله محمد بن سليمان الجزولي المتوفى سنة 869هـ/1465م ، الذي جدد تعاليم الطريقة الشاذلية وأعطاها تنظيما ملائما ومناسبا لحركة الجهاد التي تزعمها ضذ الغزاة ، وأنشأ العشرات من الزوايا التي أصبحت موزعة عبر مختلف جهات بلاد المغرب الكبير خاصة في المناطق القريبة من مراكز الاحتلال الأيبيري ، وشكلت مراكز للتعبئة وقواعد لقيادة المقاومة ضد قوى الاحتلال ، وبذالك ظهرت الزوايا كمؤسسات قادرة على المساعدة والمساهمة في التجديد السياسي والذي أدى ، في بداية القرن 16م ، إلى تحويل الحكم عن بني وطاس وبني زيان إلى يد الشرفاء السعديين والأتراك العثمانيين ، ينظر: زهراء النظام، المرجع السابق ، ص33.

[2]عمار بن خروف ،**العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي** ، ج1،ط 2 ،دار الأمل ، الجزائر ، 2016م،ص 61.

[3] تعتبر صلة وصل بين بلاد السوس غربا وبلاد تافيلالت شرقا من جهة وبين إفريقيا السوداء وجبال الأطلس الكبير وشمالي المغرب من جهة ثانية وقد توفرت لهذه الواحالت بفعل هذا الموقع الظروف المادية والموضوعية لتصبح بؤرة تتفاعل داخلها التيارات الوافدة من المناطق المجاورة، ينظر :أحمد البوزيدي ،**التاريخ الاجتماعي لدرعة. دراسة في الحياة السياسية الاجتماعية و الاقتصادية من خلال الوثائق المحلية**، دار آفاق ، الدار البيضاء ، 1994 م ، ص 7.

الاجتماع، فقبل محمد هذه البيعة سنة 915هـ، واستقر بتيدسي قرب تارودانت[1] جنوب مراكش، وتلّقب بأبي عبد الله القائم بأمر الله، فبايعته قبائل كثيرة شكّلت نواة الجيش السعدي النظامي وأسند قيادتها إلى ابنه الأكبر "أحمد الأعرج"[2].

قام الأشراف السعديين في البداية بتوطيد نظام الحكم في كامل المغرب، من خلال تحرير المدن والسواحل المحتلة برفعهم راية الجهاد وحملهم لواءه، فكان أول ما قام به "محمد القائم بأمر الله" هو مهاجمة البرتغاليين عند أغادير، فتحققت له انتصارات كبيرة، وبعد وفاته سنة 1517م، انتقلت السلطة إلى ولديه "محمد الشيخ وأحمد الأعرج"، اللذان حذا حذو أبيهما واستمرا في قتال البرتغاليين والموالين لهم من المغاربة مثل يحي بن تافونت الذي تمكن السعديون من القضاء عليه في سنة 1518م[3].

2- العثمانيون في بلاد المغارب:

2-1- جذور التواجد العثماني بالمغارب :

ذكرت بعض الدراسات التاريخية والمهتمة بالوجود العثماني ببلاد المغارب أن اهتمام آل عثمان بالحوض الغربي للمتوسط وشمال إفريقيا أمر سابق عن اهتماماتهم المشرقية، حيث تعود جذور اهتمام العثمانيين[4] ببلاد المغارب إلى فترة حكم السلطان بايزيد الثاني (1481-

---

[1] تارودانت: تقع جنوب الأطلس الكبير ،أي جنوب مراكش بالقرب من ساحل المحيط الأطلسي شرق أغادير الحالية، وكانت حاضرة السوس، دخلت في طاعة السلطان الشريف السعدي عام 920هـ. ينظر: الوزان ، المصدر السابق، ص ص 117- 118.

[2] أبو العباس أحمد: ابن القائم بأمر الله المعروف بالأعرج، بويع ملكا على سوس على 916 هـ/ 1500م، وقد نظمت في عهده المقاومة المسلحة ضد البرتغال بسواحل سوس، وهو أخو محمد الشيخ الذي دخل معه في خلاف أدى إلى حروب مسلحة بينهما، ينظر: أبي فارس عبد العزيز الفشتالي ، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، در وتح :عبد الكريم كريم، د. ط ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، د.ت.ن، ص74.

[3] عمار بن خروف ، المرجع السابق، ص 62، ينظر أيضا : شارل أندري جوليان ، المرجع السابق،ص257.

[4] لقد استطاع العثمانيون أن يثبتوا وجودهم وقوة دولتهم بفتح القسطنطنية سنة 1453م على يد محمد الفاتح ، وصارت أوربا تحت رحمة المسلمين ، ولكن في نفس الوقت عجزت عن منع سقوط الأندلس ، ولم تتمكن من التصدي للمأساة التي مست

1512م) والذي أولى اهتماما لأجل توسيع مناطق نفوذ الإمبراطورية العثمانية في هذا المسطح المائي المهم وهو الحوض الغربي للمتوسط، إذ تزامنت هذه الفترة مع المد الصليبي الأيبيري بقيادة إسبانيا والبرتغال ضد مسلمي المنطقة ككل[1]خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 889هـ/1492م آخر معاقل المسلمين في الأندلس.

تجسّد هذا الإهتمام العثماني ببلاد المغارب من خلال مسألة المسلمين المضطهدين في الأندلس الذين طلبوا النجدة من العثمانيين من أجل حمايتهم من عمليات التصفية من طرف الصلبيين الإسبان، إذ سارع السلطان العثماني " بايزيد الثاني" لتلبية طلبهم رغم كل الظروف الصعبة، وأرسل أسطولا بحريا بقيادة " كمال رايس"[2] الذي كان قبل سقوط غرناطة يلعب دورا عسكريا وسياسيا مهما في المنطقة منذ سنة 1486م، حيث بقيت سفنه راسية في مياه غرب البحر الأبيض المتوسط، إذ اشتهرت القرصنة[3] أو ما عرف بالجهاد البحري ضد السفن التجارية الأوروبية، وكان يعمل على نقل الأسلحة للموريسكيين، ونقلهم في بعض الأحيان إلى بلاد المغارب ومناطق مختلفة تابعة لأقاليم الدولة العثمانية، ويدافع عن الموانئ

أهلها، للمزيد من التفاصيل ينظر:علي غنابزية ، **تاريخالعلاقات العثمانية المغاربية وأثرها الجيو استراتيجي على ضفتي البحر المتوسط 1492-1911م**، دار رؤى حضارية ، الجزائر،2018، ص 19.

[1] سمير عبد الرسول لعبيدي ،" **حركة الجهاد البحري ونشوء الحكم العثماني في المغرب العربي** "، مجلة الحوار المتوسطي ، منشورات البحوث والدراسات الإستشراقية ، جامعة الجيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، ع 9و10، سبتمبر 2015، ص 301.

[2] هو بيري محيي الدين ريس ابن الحاج محمد ، بحار وجغرافي عثماني ولد على الأرجح في 1465م في مدينة غاليبولي الواقعى على بحر مرمرة القاعدة البحرية العثمانية، له باع في جهاد الإسبان والبرتغاليين في بلاد المغارب ، انضم للأسطول العثماني بطلب من السلطان بايزيد الثاني في سنة 1495م ليصبح فيما بعد قائد له ... ، توفي في سنة 1554م/962هـ ودفن بالقاهرة . وللمزيد حول هذه الشخصية ينظر: نسيبة عبد العزيز الحاج علاوي ، **البحار العثماني محيي الدين بيري ريس حياته وجهادة البحري 1465-1554**، مجلة التربية والعلم ، مج 16، ع 4، 2009، قسم التاريخ، جامعة الموصل، العراق، ص ص 75-91.

[3] القرصنة :هي نوع من أنواع الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية والتي كانت الغاية منها ضرب اقتصاديات العدو ، بالإستيلاء على البضائع الصادرة منه أو الواردة عليه ، وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية. ينظر : أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 72.

المغاربية حين تتعرض لهجمات الغزاة الأوروبيين ويلحق بهم هزائم، كما تجدر الإشارة إلى أنّه كان في بعض الأحيان يعمل كقرصان مستقل، أي مبادرات فردية هو ومن معه مستترا باسم السلطان الحفصي وغيره من السلاطين المحليين تارة والسلطان العثماني تارة أخرى[1].

كثيرة هي العمليات التي قام بها بيري رايس وآخرون ضد الأوروبيين من تخريب وإحراق في السواحل الإسبانية والإيطالية والمالطية، وهذا يدل على أنّ الخلفيات التاريخية لظهور العثمانيين ببلاد المغارب لم يرتبط أساسا بالإخوة بربروس، بل هناك بحارة عثمانيين لمعت أسمائهم في غرب المتوسط من أمثال براق رئيس ، وكورت أوغلوا، مصلح الدين رئيس وسنان رئيس وغيرهم، والذين دافعوا عن الأراضي الإسلامية المغاربية ضد الأساطيل الأوربية في غرب المتوسط، ما جعلهم أبطالا في عيون السكان ببلاد المغارب[2].

لم يكن الهجوم الإسباني على بلاد المغارب في غالبه يحمل مضامين اقتصادية بل كان الهدف الرئيسي منه هو الانتقام من المسلمين، وما وصايا الملكة إيزابيلا[3] التي عثر عليها بعد وفاتها في سنة 1504م فيما بعد إلاّخير دليل، فقد أوصت باستمرار الحملات ضد المسلمين، وهو ما تم فعلا بحيث اشتدّ الصراع بين الإسبان المعتدين وسكان المغارب، خاصة بعد استقرار الأندلسيين المهجّرين في السواحل المغاربية [4]، وأثناء هذه الظروف ظهر الإخوة بربروس[5] غرب المتوسط بعدما كانوا في بداياتهم يعملون في الجزر في بحر إيجة

---

[1] نيقولاي ايفانوف ، **الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574م)**، تر : يوسف عطاله ،ط1،دار الفارابي ،بيروت ، 1988، ص ص95-96.

[2] دراج ، المرجع السابق، ص 176-178.

[3] الملكة إيزابيلا(1451-1504م):ملكة قشتالة من مواليد مدريد تزوجت من فرديناند ملك أراغون ، ووحدت مملكتها قشتالة بمملكة أراغون مما ساعد على إكمال وحدة إسبانيا وهي الوحدة التي هدفت إلى القضاء على المملكة المغربية في غرناطة، عملت على إقامة محاكم التفتيش وشجعتها لإبادة المسلمين ، ينظر: بسام العسلي ،المرجع السابق، ص ص 44-45.

[4] عزيز سامح التر،**الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية** ،تر : محمد علي عامر،ط1، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ،1989، ص ص 17-18.

[5] بربروس: أي ذي اللحية الشقراء ، عند نهاية القرن الخامس عشر، كان يعيش في جزيرة مدلي (لسوبس) فخارجيتحت اسم يعقوب بن يوسف وكان جنديا متقاعدا، وكان متزوجا من سيدة أندلسية ولدت له إسحاق وعروجوخسروفو محمد إلياس

ثم انتقلوا للعمل بين موانئ سلطنة مصر الواقعة شرقي البحر المتوسط وتركيا، إذ كانوا يمتلكون سفن واشتهروا في تلك الفترة التي كان فيها السلطان قورقود أخو السلطان سليم الكبير واليا في أنطاليا، هذا الأخير استخدم الإخوة برروس، وفي إحدى المقابلات مع الوالي قورقود تساءل هذا الأخير عن عدم ذهاب عروج إلى غرب البحر الأبيض المتوسط وأخبره بالأحداث الدائرة هناك ومعاناة المسلمين وأمره بالذهاب، فلبى عروج طلبه وأبحر بسفينتيه الحربيتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية، وتمكن من ضرب السفن الإسبانية وسفن البنادقة، وعمل على نقل الكثير من المسلمين إلى بلاد المغارب،قبل أن يعود إلى أزمير وبعدها سافر إلى الإسكندرية ومنها إلى جزيرة جربة الواقعة بين طربلس وتونس[1] كما فعل قبله كمال رئيس فقد أسس الإخوة بربروس علاقات حسنة مع السلطان التونسي الذين أعطاهم ميناء حلق الوادي مقابل خمس ما يحصلون عليه من الغنائم ، يقول خير الدين في هذا الشأن:"... كنت أنا وأخي ويحي رئيس، وركب كل منّا سفينة وأتينا تونس فدخلنا على السلطان وقدمنا له الهدايا ثم قلنا له: نريد أن تتفضل علينا بمكان نحمي به سفننا بينما نقوم بالجهاد في سبيل الله ونبيع غنائمنا في أسواق تونس فيستفيدالمسلمون من ذلك وتنتعش التجارة كما ندفع لخزينة الدولة (8/1) ما نحوزه من الغنائم، فأجابهم سلطان تونس قائلا: " إنّ ما تقوله معقول جدا

وقد نشأ هؤلاء الإخوة وسط حرص الأب على تنشئتهم نشأة إسلامية صلبة وقد اختار الإبن الأكبر طريق العلم والمعرفة فمضى في دراسته الإسلامية، في حين إنصرف بقية الإخوة نحو التجارة واختاروا البحر ميدانا واستقروا في جزيرة مدلي، وللمزيد من التفاصيل ينظر: الجزائري محمد بن عبد القادر، المرجع السابق، ص 60.

[1] منذ وصول الإخوة بربروس إلى تونس شرعوا في العمليات الجهادية ، و تحصلوا على الغنائم ، فقد ورد في سيرة المجاهد خير الدين : " ... وقد كانا صنعا جفنين فاخرين فسافرا بالجميع على رسم عادتهما إلى ناحية بلاد النصارى ، فغنموا مراكب الكفار وشحنوها برجال البحرية ... فغنموا مركبا آخر في نهاية العظم موسوقا بأنواع الملف (وهو نوع من القماش الفاخر) الملون الذي يذهب الأبصار ...ثم إنهما رجعا بعد عشرين يوما من سفرهما إلى مدينة تونس ، بما منحهم الله سبحانه وتعالى من هذه الغنائم ، فسر بذلك سلطان تونس سرورا عظيما ، وكان من جملة ما ناب كل واحد من الغزة أربعة شفة الملف ومائة ذراع عن البز(أي الحرير) الجيد وتسعة دنانير ذهبا كبارا ... وتمتع الغزاة بهذه الغنائم وحصل بأيديهم مال كثير ...". ينظر : مجهول ، **سيرة المجاهد خير الدين في الجزائر** ،تح و تق و تع: عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، 2009 ، ص ص61-62 .

فأهلا وسهلا بكم البلاد بلدكم ..."[1]، مع علم السلطان سليم بكل ما يحصل في بلاد المغارب[2]، ولكن صفة الجهاد رافقت التجارة وفي هذا الصدد يذكر" خير الدين" في مذكراته:" ... في الوقت الذي كان فيه بيري رئيس في اسطنبول خرجت أنا وأخي في عشرة مراكب، كان مقصدنا الذهاب إلى مضيق سبتة "جبل طارق" الذي يقع في نهاية البحر المتوسط على أن نمّر من هناك بالأندلس لنقوم بإنقاذ من نقدر عليه من إخواننا في الدين ..." [3]، كل هذه الأحداث توضح بأنّ ظهور الأخوين بربروس في غرب المتوسط اختلف كليا عن ظهور من كان قبلهم من الأتراك الذين سبقوهم سواء من حيث سبب المجيء أو نتائج هذا الإختلاف[4].

وهكذا استطاع الإخوة بربروس الدخول إلى الحوض الغربي للمتوسط بعد تكوينهم لأسطول من السفن الصغيرة والاستقرار في الأراضي الحفصية، فمارسوا الجهاد البحري ضد الأساطيل الأوروبية وأنقذوا الكثير من الأندلسيين الفارين من بطش الصليبيين الشيئ الذي خلف آثارا إيجابية بين المغاربة، وفي فترة قصيرة اكتسبوا شهرة واسعة وثروة طائلة وأصبحا يهددان مختلف المصالح الأوروبية متوسطيا[5].

2-2- جهود الإخوة بربروس في بلاد المغارب(المغرب الأدنى والأوسط):

2-2-1- بجاية:

تمثّل نشاط عروج وخير الدين في البداية حول عملية الدفاع عن سواحل بلاد المغارب ضد التحالف التقليدي بين الإسبان والعروش الحاكمة، ونظر لأهمية جزيرة جربة التي تتربع

---

[1] بربروس ،المصدر السابق ، ص 46.

[2] يلماز أوزتونا ، **تاريخ الدولة العثمانية**، تر ومر: عدنان محمود سليمان و محمود الأنصاري ، مج 1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، تركيا ، 1988،ص ص 243-245.

[3] بربروس ، المصدر سابق، ص 67.

[4] محمد دراج ، المرجع السابق، ص186.

[5] جمال قنان، **معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830م)**، طبعة خاصة، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر ، 2007، ص 20.

على موقع إستراتيجي هام يربط بين غرب البحر المتوسط وشرقه إذ جعلا منها قاعدة لهما في سنة (916هـ/1510م)، ونقطة انطلاق لنشاطاتهما البحرية في عهد السلطان الحفصي أبي عبد الله محمد بن الحسن الذي سبق وأن ذكرنا الإتفاق المبرم بينهما حول الغنائم وهو اتفاق مصلحة، حيث تعتبر بجاية أول المناطق التي تطلب النجدة من الإخوة بربروس والدليل على ذلك شهادة خير الدين في مذكراته بقوله:"... في هذه الأثناء وصل وفد من مدينة بجاية الجزائرية حاملا رسالة جاء فيها: " إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بأيديكم. جعلكم الله سببًا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار"[1]، كما أنّ ملك بجاية المخلوع أرسل إليهما يطلب المساعدة مقابل منحهم بعض المكافآت، خاصة وضع ميناء المدينة الواسع تحت خدمة سفنهم، وإيوائها في فصل الشتاء[2].

أمّا رواية المؤلف المجهول فتؤكد أنّ عروج ذهب بقواته إلى بجاية عندما وقعت تحت الإحتلال الإسباني، ولم يذكر أنّه تلقى من أهلها طلب المساعدة، فقد ورد فيه : " كان قد سمع أن بجاية أخذها النصارى من أيدي المسلمين، فظهر له أن يغزوها بمن معه من الغزاة ، فسافر إلى ناحية بجاية... "[3]، فربما الرسالة وقعت في يد خير الدين ولم يرها عروج، وهذا لايهم لأنّهم في النهاية هاجم الإخوة بربروس بجاية حيث تكونت حملته من خمس سفن تحمل على متنها عددا من المدافع والأسلحة الأخرى، وألف مجاهد تركي وبعض من المغاربة[4].

---

[1] بربروس، المصدر السابق، ص 67.

[2] Grammont,**Histoire des Rois d Alge**r , par Fray Diego de Haedo, Traduit et Annotee par H.D.Grammont,R.A,t24,1880,pp47-48.

[3] مجهول، **سيرة...**، المصدر السابق، ص 66.

[4] Haedo, Op.cit,p 47.

وخلال اقتراب سفن الإخوة بربروس من مدينة بجاية شاهدوا تواجد أسطول إسباني يتكون من خمس عشرة باخرة كانت تريد اعتراض الجيش الإسلامي والذي تظاهر بالفرار ليلحق به الإسبان، وهي خديعة من عروج و خير الدين لأجل الابتعاد عن ميناء المدينة ربما كانت بهدف أن لا تصل مساعدات للجيش الإسباني، فوقع تبادل إطلاق النار حيث كانت فعالية قذائف مدفعية عروج كبيرة، ممّا أدّى إلى إغراق إحدى بواخر العدو، وتمكن بعد ذلك خير الدين من أسر سفينتين، بينما فرّت السفن الباقية مسرعة للعودة نحو بجاية والاحتماء في القلعة [1]، وبعدها قرّر خير الدين أن يأخذ ما حصل عليه من غنائم ويرجع إلى تونس، ولكنّ عروج رفض العودة ونزل من البحر مع جنوده، فاعترضت طريقه قوات إسبانية وكانت القلعة تمطر جيش بربروس بالقذائف حتى استشهد ستين شهيدا، إضافة إلى العدد الكبير من الجرحى، وعندما كانت القلعة على وشك السقوط أصابت إحدى القذائف الذراع الأيسر لعروج فأحدثت به جرحا خطيرا، ليضطر خير الدين إلى رفع الحصار ونقله إلى تونس قصد علاجه، ولما تبين أن إصابة ذراعه لا يمكن شفاؤها قرّر الجراحون بترها وه ما تم فعلا[2].

رغم فشل عروج وخير الدين في تحرير بجاية، إلاّ أنّ هذا لم يثنهما عن تكرار المحاولة بعد مرور سنتين، حيث استغلا هذه الفترة لتوسيع العلاقات والاتصال مع سكان الجهات الساحلية المجاورة لبجاية، إضافة إلى أنّ العدّة والعتاد هذه المرة كانت أضعاف مضاعفة عن المحاولة الأولى حيث تكوّن الأسطول من سفينتين عظمتين وهبهما إياهما السلطان العثماني وألفين وثلاثة وثلاثين بحارا، وعشر سفن، ومائة وخمسين مدفعا وآلاف الأسرى الذين استخدموا في عملية التجديف. دام الاشتباك في المعركة الأولى ثلاث ساعات ونصف قتل خلالها الكثير من الكفار، وعندما رأى الأهالي انتصار العثمانيين قرروا التعاون معهم

---

[1] محمد مبارك الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** ، ج3،مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ،1964م، ،ص35.

[2] بربروس ،المصدر السابق، ص ص 52-54.

في دحر العدو وكان عددهم عشرون ألف رغم أنّ معظمهم لا يجيدون القتال، فتحصّن من بقي من الإسبان في القلعة، وفرض عليها الحصار برا وبحرا بحيث دام تسعة وعشرين يوما ولكنّ عدم امتلاك المسلمين للمدافع التي تستعمل لقصف الحصون ساهم بشكل كبير في عدم تحرير القلعة التي كانت قاب قوسين أو أدنى من أيدي المسلمين[1].

ساهمت العديد من العوامل في فشل الحملة الثانية لتحرير بجاية بدءا من انسحاب القبائل إلى قراهم ومداشرهم لحرث أراضيهم[2]، وأيضا لنقص البارود ورفض السلطان الحفصي تزويده به [3]، وعندما علم عروج و خير الدين بنبأ انطلاق قوات إسبانية من جزيرة مينورقة تجاه بجاية قررا الانسحاب إلى منطقة آمنة[4].

2-2-2- الاستقرار في مدينة جيجل :

انسحب عروج واخوته إلى جيجل بحكم قربها من بجاية، حيث كانت جيجل تحت سيطرة الجنويين منذ سنة 1513م بقيادة أندري دوريا، إذ تمكن من الاستيلاء على قلعتها وطردهم منها بالتعاون مع سكان المدينة في سنة 1514م[5]، وكما في المناطق السابقة التي حل بها الأتراك، كان الأهالي فرحين بقدوم الإخوة بربروس إلى بلدتهم وبادلهم الحكام الجدد نفس الشعور لأنّ الإسلام والدفاع عن الأراضي الإسلامية هو من قرّب إلى هذا التعاطف ليؤسس مملكة صغيرة والتحق به أكثر من 20000 من الأهالي البربر[6].

أسّس الإخوة بربروس أوّل قاعدة صلبة لهم في مدينة جيجل الصغيرة التي تقع شرقي مدينة الجزائر على بعد 180 ميل وجعلوها نقطة انطلاق لتحرير باقي مدن المغرب الأوسط

---

[1] المصد نفسه ، ص ص 70-71.

[2]Haedo, op.cit,p47.

[3]كانت هذه بداية العداوة بين خير الدين و سلطان الحفصيين، هذا الأخير توجس خيفة من أطماع بربروس بعد أن أصبح مشهورا في كل المغارب، ينظر: مجهول، **سيرة** ...،المصدر السابق، ص 80.

[4] بربروس ، المصدر السابق ، ص 71.

[5] بن خروف، المرجع السابق، ص 25.

[6] كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 26.

المحتلة، فكان نتاج هذا ظهور الإخوة بربروس في المنطقة مبكرا، حين قاما بالاستيلاء على سفينة صقلية محملة بالقمح في الوقت الذي كانت فيه مدينة جيجل مهددة بالمجاعة، واعترافا بهذا الفضل ودعا سكان البلدة عروج ليصبح ملكا عليهم[1].

ومن أهم الشخصيات التي ساعدت عروج على الاستقرار في جيجل أحمد بن القاضي الذي التحق بعروج أثناء حصاره لبجاية ليصبح خليفته وعلى إثر ذلك تولدت صداقة متينة بينهما والتي سيكون لها أثرا إيجابي على عروج، غير أن عبد العزيز رئيس قبيلة بني عباس وعدّوا ابن القاضي كان قد بذل جهودا كبيرة لفك ذلك التحالف[2] والصداقة بين عروج وابن القاضي[3].

2-2-3- الأحداث والتطورات في مدينة الجزائر قبل سنة 1517م:

شهد الوضع العام في مدينة الجزائر حالة من الفوضى وعدم استقرار أمر الحكم فيها للزيانيين، وكان لاضطراب السلطة الحفصية أيضا خروج بعض المدن التابعة لهم بالمغرب الأوسط عن طاعتهم، وإنشائهم لمدن مستقلة فعليا، ومنها مدينة الجزائر التي استقلت في

---

[1] جوون ب وولف ، **الجزائر وأوروبا** ، تر: أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1986،ص30.

[2] هناك تعاريف عديدة لمصطلح التحالف منها :التحالف يعني تبديل لسياسة العزلة التي ترفض أي مسؤولية اتجاه سلامة دول أخرى، ولقد ارتبطت تاريخيا سياسة التحالف بسياسة توازن القوى، ونقدت من حيث المبدأ والدلائل التاريخية على أنها تزيد في احتمال وقوع حرب، ينظر : عبد الوهاب الكيالي، **موسوعة السياسة** ، ج1 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، د ط ، بيروت،لبنان ، د.ت.ن،ص 691. وعرفه أيضا الدكتور محمد عزيز شكري :الحلف في القانون الدولي والعلاقة الدولية هو علاقة تعاقدية بين دولتين او أكثر يتعهد بموجبها الفرقاء المعنيون بالمساعدة المتبادلة في الحرب والتحالفات هي وظيفة ضرورية لتوازن القوى تعمل في نظم الدول المتعددة لذلك فهي قديمة قدم إنشاء العالم إلى كيانات سياسية تضطرع على القوة والنفوذ، وقد تنتهي الأحلاف بسبب تغيير السياسة الداخلية لأحد أو بعض أطرافها، أو كنتيجة لتبدل العلاقات الدولية، ينظر: محمد عزيز شكري، **الأحلاف و التكتلات في السياسة العالمية** ، عالم المعرفة ، سلسة كتب ثقافية ، الكويت، 1978 ، ص 11.

[3] كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 27.

شؤونها عن الإمارات المتناحرة، حيث بقيت محافظة على حريتها واستقلالها تحكمها هيئة من الثعالبة[1] تحت رئاسة شيخ من شيوخهم.

تزامن هذا الوضع في المدينة مع بداية الغزو الإسباني فقد كان الأهالي مستضعفين عاجزين عن حماية أراضيهم ومقاومة الصليبيين، نتيجة لتحكم الطابع القبلي في السياسة وضعف الأسلحة التي لديهم، فاستقروا إلى ضرورة القبول بالحماية الإسبانية وأدّوا الضريبة لهم على غرار ما كانوا يؤدونه للحفصيين أو المرينيين الذين تداولوا على ملك متيجة والمغرب الأوسط كما ذكرنا آنفا[2].

بعد تفاوض مدينة الجزائر مع مجلس سرقسطة من أجل بناء حصن على إحدى الجزر المقابلة للميناء وبمجرد الاتفاق أرسل الإسبان أحد المهندسين العسكريين فأشرف على بناء القلعة التي أصبحت تدعى صخرة الجزائر (penon D'Alger) على أنقاض منار إسلامي قديم، واحتل الإسبان صخرة المرسى وبنوا عليه حصنهم المشهور المعروف بإسم البينيون[3]

---

[1] قبيلة الثعالبة: من القبائل العربية التي لعبت دور مهم واستطاعت التقدم إلى الساحل انطلاقا من الجنوب وفي عهد الزيانيين كانوا خاضعين لملوك بني عبد الواد ، إلا أن أصبحت مسيطرة على مدينة الجزائر وسهول متيجة وما جاورها، واستغلت مقتل السلطان الزياني أبو زيان أحمد، فاستولت على الحكم في مدينة الجزائر وما جاورها، وعينوا مجلسا للشيوخ بالمدينة التي اتخذوها عاصمة لهم ترأسه سيدي عبد الرحمان الثعالبي، كأمير عليهم إلى أن توفي سنة 1468 م وبقي الحكم في أيديهم إلى أن آل الأمر إلى أولاد سالم إحدى بطون الثعالبة الذين انتخبوا سالم التومي أميرا عليهم، يساعده مجلس أعيان أعضاؤه من شيوخ وأثرياء القبيلة، يتشاور معهم في القضايا، وكان حكمه شديدا لكن عندما حاول أهل الجزائر الخروج عن طاعته، و استغل الأهالي ظهور الإسبان ليقدموا على التحالف معهم لعلهم ينقصون من وطأته، ينظر :عبد الحميد أبي زيان بن شنهو، **دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر**، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر،د.ت.ن، ص ص 71-72.

[2] الميلي محمد بن مبارك ،المرجع السابق،ص43.

[3] البينيون : قلعة جميلة كبيرة في جزيرة صغيرة مقابلة تماما للمدينة وقريبة منها ، إعتاد الإسبان أن يقيموا عليها قلاعا حصينة تهدد سكان الساحل وتمنع في نفس الوقت وصول سفن المسلمين كلف الكونت بيير نفارو ، الرئيس الأكبر للأسطول الإسباني سنة 1510م قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط ، دييكو دي فيرا ، بتشييد برج البنيون بالجزائر ، ينظر : الحسن الوزان ، المصدر السابق،ص 38.

سنة 1510م الذي أصبح بمثابة تهديد وخطر دائم على المدينة[1]، حيث أضحى وكرا للجوسسة والتخريب يشن منه الإسبان دوما الغارات، فيسلبون منهم أموالهم ويعرضون حياتهم باستمرار إلى الخطر الشديد ممّا جعل المدينة في حالة استنفار دائم فسئم أعيان المدينة من ذلك[2].

لقد اختلف سكان مدينة الجزائر بين المؤيد للالتزام بالمعاهدة والمعارض لها، فقد كانت السلطة المتمثلة في شخص سالم التومي[3]، وأعيان المجلس يرون ضرورة الاستمرار في الالتزام بالمعاهدة وبنودها في حين كان وجهاء المدينة من شيوخ وأئمة يرون ضرورة التخلص منها بالاستعانة بالقوى المجاورة للزيانيين و الحفصيين أو المرينين، ذلك بهدف استعادة الوضع الطبيعي للمدينة تجارة ونشاطا بحريا، وهذا لا يتحقق إلا بإزالة الحصن المقام في مدخل الميناء، ومع وفاة الملك فرديناند في 22 جانفي 1516م قرر سكان المدينة التخلص من المعاهدة خاصة الضريبة الثقيلة المفروضة عليهم ونزولا عند ضغط سكان مدينة الجزائر وأعيانها[4]. بل وأرسلوا وفدا منهم يقودهم سالم التومي إلى عروج بجيجل يستنجدون به ضدّ الإسبان المحتلين لحصن البنيون"le pegnon" والذين كانوا قد أضروا بهم غاية الضرر و شددوا عليهم الخناق[5].

---

[1] عبد الرحمان الجيلالي ، **تاريخ المدن الثلاث ، الجزائر ، المدية ، مليانة** ، دار الامة ، ط1 ، 2007، ص 109 .

[2] يحي بو عزيز، **الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر الحديثة)**، ج 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ، 2009،ص13.

[3] سليم التومي: من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من معقل ، استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الإسبان بجاية واستقر فيها عدة سنوات ،ينظر :الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2، ص 39.

[4]Mercier (Ernest) **,Histoire De l 'Afrique Septentrionale (Berberie)**, Ernest Leroux, Editeur , Paris ,1887, p20.

[5] مجهول ،**سيرة المجاهد خير الدين...** ، المصدرالسابق، ص 82.

وجاء في رسالتهم:"سمعنا بكم أناس تحبون الجهاد وأخذتم بجاية وجيجلة من أيدي النصارى ونصرتم الدين فهنيئا لكم أيهاالمجاهدون، لا بد أن تقدموا إلينا وتخلصونا من أيدي هؤلاء الملاعين الكفرة لأننا في محنة عظيمة وذلة شديدة"[1].

استجاب عروج للنداء، وفي هذا الصدد يذكر المؤلف المجهول: "فلما وصل كتابكم إليه وعلم ما هم عليه من العدو الكافر أدركته حمية الإسلام ودخلته نخوة الجهاد واستخر الله تعالى في جهادها، فأوصى تلك الناحية من أهل جيجل أنه إذا قدم أخوه خير الدين يهيأ له مددا من الغزاة يستعين بهم على جهاد أهل ذلك الحصن..."[2].

غادر عروج قاعدته بجيجل على رأس قوة تضم 800 من عناصر يولداش[3]، و3000 من الأهالي بينما أبحر خير الدين المتواجد في تونس ومعه 18 سفينة كبيرة و3 سفن مسلحة تحمل 2500 من البحارة، ووصلت القوات إلى الجزائر فاستقبلها أهل الجزائر استقبال الفاتحين وسار عروج فورا إلى مدينة شرشال وحرّرها من أجل إيجاد ملجأ آمن قريب لجنوده من جهة ولتحقيق الانسجام من جنوده والسكان المحليين أغلبهم من السكان الأندلسيين والمتمرسين في العمل البحري، ولكسب بعض الوقت في انتظار وصول قوة خير الدين البحرية الذي انطلق من جيجل بعد أن ترك حامية بها من 300 رجل للدفاع عنها أو من جهة أخرى وصول سفينتين أرسلهما السلطان العثماني وسفينة من جزيرة متلين تحمل اسحاق ومن شرشال اتجه إلى الجزائر[4]، وتمكن من استمالة الأهالي وقرّر زعماؤها وأصحاب الرأي فيها إسناد واجب الجهاد إليه، وكان ذلك من أبرز أحداث الجزائر في سنة 1516م.

---

[1] ابن رقية، المصدر السابق،ص 84.

[2] مجهول ،**سيرة...** ، المرجع سابق، ص 83.

[3]الجندي و معناه الصديق أو الرفيق ، ينظر:حنيفي هلايلي، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني**،ط1، دارالهدى، الجزائر ،2007. ص 161 .

[4]Haedo, op.cit,p 18.

ما كاد يستقر في هذا الميناء حتى بدأ في إنشاء جيش منظم مسلح[1] وهو مالم يكن موجود في السابق أخذ في بسط نفوذه على البلاد وتقوية وسائل دفاع المدينة، ثم باشر مخططالتحطيم القلعة فاعتبر نفسه في حل من المعاهدة السابقة المبرمة مع إسبانيا، وعمد إلى فرض مراقبة شديدة على نبع الماء الذي يمد الحامية الإسبانية وقام بحفر خندق ونصب مدافعه في مواجهة القلعة وأخذ في قصف الحامية الإسبانية في محاولة أولى يوم 12 أوت 1516، ثم حرمهم من الماء نهائيا ومن موارد التموين ليضطرهم إلى التموين من جزر البيليار.

ومع ظهور التهديدات والاستعدادات الإسبانية القائمة في وهران للقيام بعمل عسكري ضدّه حاول استغلال هذه الظروف لتعزيز مكانته باتخاذ مجموعة من الإجراءات منها بسط نفوذه على كامل السهول المحيطة بمدينة الجزائر ورفع رايته فوق أسوار المدينة والقلاع المحيطة بها، كما بادر بصك النقود التي تحمل شعاره وواكب هذه الانجازات بداية ظهور المؤامرات، فتمكن من قتل سالم التومي الذي حاول تقليص نفوذه وحاك المؤامرات ضده مستعينا بالاسبان[2]أمام تزايد نفوذه وإقامته أسّس دولة مركزية، الأمر الذي أزعج الإسبان وبدءوا في التهيؤ والاستعداد لتوجيه ضربة قاضية، فسيروا ضد مدينة الجزائر حملة عسكرية بقيادة دييغو دو فيرا(Diégo de vera) سنة 1516 بعد أن تحالفوا مع أمير تنس الزياني

[1] أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق، ص ص 179-180.

[2] يذكر أن سالم التومي بعد أن أدرك أن عروج قد أبعد الخطر الاسباني عنه بدأ يحاول إسترجاع سلطته واستغله الاسبان الذين كانوا عاملا قويا في جعل شيخ المدينة يلعب على حبلين خاصة وان الاسبان قد تعهدوا له بحماية عرشه مقابل الولاء وهو السبب الرئيسي في سخط الجزائريين عليه فكان ظهور عروج عاملا مقلقا لعملاء اسبانيا ، الذي رأوا فيه ضياع امتيازاتهم ففضلوا التعاون مع الاسبان للقضاء على القوة الناشئة . ينظر: عبد الرحمن الجيلالي ، **تاريخ المدن الثلاث...** ، المرجع السابق ، ص 109.

واستمالوا إليهم أتباع سالم المغتال[1] وبعض زعماء القبائل المجاورة لكن بعد يومين من الإنزال استطاع عروج إلحاق الهزيمة بهم[2].

3- الجزائر أول إيالة عثمانية ببلاد المغارب:

3-1- الصراع بين عروج والأمير الزياني وحلفائه الإسبان:

دفع الانتصار على الإسبان سكان المدن المجاورة كالبليدة والمدية ودلس ومليانة وجزءا من بلاد القبائل إلى مبايعة عروج أميرا عليهم، وكانت هذه الحملة الناجحة هي التي فتحت الأبواب لعروج من أجل توسيع نفوذه في الجزائر، ولمّا كان موقف أمير تنس الزياني متعاونا مع الإسبان، قرّر عروج الانتقام منه، وسار على رأس قوة كبيرة واقتحم المدينة في جوان 1517م وقتله وأسر أسرته وطرد الإسبان من تنس[3].

وبينما كان عروج في مدينة تنس ينظم شؤونها قدم إليه وفد من تلمسان يشكو إليه أوضاعهم وتهديد الإسبان لهم بسبب ضعف أمراء بني زيان نظرا لصراعاتهم على السلطة، في هذه الظروف قام أبو حمو الثالث[4] بالاستيلاء على العرش في تلمسان بالقوة بعد أن طرد منه إبن أخيه أبا زيان الثالث ووضعه في السجن، بل أكثر من ذلك عمل على مولاة الإسبان والتعامل معهم وقبول حمايتهم. لبّى عروج رغبة الوفد واستخلف أخاه خير الدين على

---

[1] بعث القائد الاسباني ديغو دوفيرا رسالة إلى يحي بن سالم التومي يقول فيها : ‹‹ أيها الشريف الشجاع والسيد الأمين إن مولانا الملك وقداسة الكاردينال والي المملكة الاسبانية بلغتهما أنباء موت أبيك الصادق الأمين... ، ولهذا تهيأ لمساعدتنا عندما تصل إلى مدينة الجزائر حتى نقضي على الأتراك ومن تبعهم الذي كانوا سببا في قتل أبيك وحتى لا ينجو أحد من البر ، أما من ناحية البحر فسأكفيك شرهم ولن يستطيعوا هروبا دون ألاقيهم ولو فروا من أسطنبول....›› ، ينظر:عبد الرحمان الجيلاني ، **تاريخ الجزائر العام** ، ج3، ط7،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ، 1994 ، ص ص 41 – 42.

[2] عائشة غطاسو أخريات، **الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها**، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر،2007، ص ص 22– 23.

[3] يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 14 .

[4] أبو حمو موسى الثالث (1516–1528م): هو الملك الرابع والعشرون في الدولة الزيانية تولى شؤون الدولة بعد مؤامرة لإزاحة السلطان الشرعي أبو زيان ، ينظر مختار حساني ، المرجع السابق، ص 102.

الجزائر، وإتجه إلى تلمسان[1]وفي طريقه مرّ على قلعة بني راشد (قرب معسكر) فوضع بها حامية تركية كبيرة بقيادة أخيه إسحاق من أجل حماية مؤخرة الجيش، وواصل زحفه إلى تلمسان واستطاع بسهولة التغلب على أبي حمو الثالث المتآمر مع الإسبان ودخل عروج تلمسان وأطلق سراح أبا زيان الثالث وأجلسه على عرشه من جديد، لكنّ هذا الأخير تخوّف من هيمنة عروج وحاول أن يغتاله ممّا أدّى إلى إلقاء القبض عليه واغتياله[2].

استنجد السلطان أبو حمو الثالث الذي فر من مدينة وهران للاحتماء بالإسبان[3]، فلم يتردد هؤلاء في تلبية طلبه لأنّهم انزعجوا من تنامي قوة ونفوذ الإخوة بربروس فقاموا بتجهيز حملة عسكرية لمساعدته على استرداد تلمسان، فضربوا حصارا على قلعة بني راشد، وانتهى الأمر بالقضاء على الحامية العثمانية وعلى أخ عروج اسحاق وذلك في جانفي 1518م.

توّجه الإسبان إلى تلمسان وحاصروها ولما نفذت كل إمكانيات المقاومة داخل المدينة اضطر عروج للخروج منها، فلحق به الإسبان ونشبت معركة بين الطرفين انتهت باستشهاد عروج[4] ومن معه من الجنود وذلك في ماي من سنة 1518م[5].

---

[1] جمال قنان ،المرجع السابق،ص23.

[2] يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص ص 14 -15.

[3] كتب إليهم " ...أنظروا كيف قطع عروج عنكم ماكنا نصلكم به من الميرة وضيق عنكم ما كنا نوسعه عليكم فلو أعنتمونا عليهم بالمال والجند نرجع لكم جميعا ما فقدتم مع مزيد من الاحسان..." . ينظر: أحمد سحنون الراشدي ، المصدر السابق، ص459.

[4] إغتال الاسبان عروج بمكان يسمى وادي الملح قرب عين تموشنت في معركة ضارية بين الطرفين ولقد قام الاسبان بحز رأسه وحمله الى اسبانيا والطواف به في شوارع مدنهم الرئيسية ، ينظر:جمال قنان ، المرجع السابق ،ص 25.

[5] لا بد من الإشارة هنا إلى موقف المتصوفة من بدايات الإخوة بربروس في المغرب الأوسط ، ونضرب مثالا بالشخ الملياني الذي كان شاهد على جميع هذه الأحداث منذ دخول العروج إلى الجزائر ، فقد أعجب الملياني بهؤلاء الأبطال الذين يدافعون عن المسلمين وأرض الإسلام والذين لم يتبقى منهم إلا خير الدين بربروس، ويقال أنّ الملياني تلقى لرسالة ودية من عروج وبعض الهدايا ، فقد كان الأتراك يقدرون رجال الدين أو المتصوفة ، وهذا ما سينعكس إيجابا على العلاقات بينهما فيما بعد ، وللمزيد من التفاصيل ينظر : محمد الحاج صادق ، **مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف ،** ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1989،ص ص 103-104.

يعتبر العمل الذي قام به عروج مرحلة ممهدة للاستقرار العثماني بالجزائر خاصة وأنّه دعم الوجود العثماني في بعض المدن الساحلية مثل جيجل والجزائر اللتان ستشكلان قاعدة انطلاق وحماية للجنود الأتراك الذين استقروا بالجزائر. وعلى الرغم من أنّ استشهاد عروج يعد خسارة كبيرة للأتراك، إلاّ أنّه أعطى الفرصة لبروز خير الدين[1].

3-2- موقف خير الدين بربروس بعد وفاة عروج:

بعد هذا الانتصار الكبير للإسبان قرّروا القضاء على خير الدين المتواجد في مدينة الجزائر بالإتفاق مع السلطان الزياني أبي حمو الثالث، حيث يقوم هذا الأخير بالتقدم بقواته برا بينما يقوم الإسبان بإنزال قواتهم بحرا، على هذا الأساس سيروا حملة بقيادة هيغو ديمونكادا[2](Hugo de Moncada) تعدادها خمسة آلاف جندي[3].

وفي هذا الصدد تقول عن الحملة (كورين شوفاليه) : " ... في 17 أوت 1518 لمح خير الدين قوارب الكفار وهي تتقدم دفعة واحدة وأشرعتها مرفوعة وكان قد اكتشفها في منتصف النهار بأنها قد رست بالقرب، وقد بعث قائد الحملة رسالة تحذير إلى خير الدين يطلب منه الإستسلام، فرد خير الدين عليها بجرأة وأنفة، السيف هو الذي يحكم بيننا، والذي ينتصر يكون جديرا بحكم هذه المدينة[4]"، وانتهت هذه الحملة بانتصار قوات خير الدين واستطاع أن يأسر أكثر من ثلاثة آلاف جندي وست وثلاثين ضابطًا[5].

كان موقف خير الدين حرجا بعد مقتل شقيقه عروج فقد كان الأعداء يحيطون به من كل جانب، فالأسبان وبنو زيان في الغرب، ومن الشرق الإسبان والحفصيون، فأدرك ضعف

---

[1] محمد السعيد عقيب ، **دور خير الدين بربروسا في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر** ، مجلة البحوث والدراسات ، ع 13، السنة 9، شتاء 2012، ص 296.

[2] أصله من مالطة كان نائب ملك صقلية ، قتل بالقرب من مدينة نابولي في سنة 1528م،ينظر: جون وولف ، المرجع السابق،ص 33 .

[3] صالح عباد ،المرجع السابق، ص 50 .

[4] كورين شوفالييه ، المرجع السابق ،ص39.

[5] وولف ،المرجع السابق ، ص 33.

موقفه السياسي والعسكري مما دفعه للاستنجاد بالدولة العثمانية، في هذه الأثناء كانت الإمبراطورية العثمانية في أوّج توسعاتها وحقق الجيش العثماني انتصارات ساحقة على الفرس عام 1514، وفي سوريا عام 1515، ثم في مصر 1517 .[1]

تجدر الإشارة إلى أنّ المرابطين والمتصوفة ورجال الدين في المغرب الأوسط عموما كانوا غير راضين عن تطور الأوضاع في الدولة الزيانية آواخر القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر 16/15م منهم من غادر إلى المغرب الأقصى ومنهم من رحب بقدوم العثمانيين لتخليصهم من الصليبيين العثمانيين أمثال الشيخ أحمد بن يوسف الملياني[2] ومحمد بن المغوفل[3].

شرع خير الدين في إقناع سكان مدينة الجزائر من الأخطار المحيطة بهم، فبايعوه سلطانا عليهم واهتم بتدعيم سلطته بالمدينة، فقرّب إليه المرابطين المعروفين بورعهم واهتم بتنظيم الدفاع عن المدينة[4]. وقاموا بإرسال وفد إلى إسطنبول سنة 1519م حاملين معهم خطابا إلى السلطان سليم الأول تضمن طلبا للحماية والانضمام[5] إلى الدولة العثمانية، مما جاء فيها : " ومفادها ما يريد عبيدكم إعلامه لمقامكم العالي هو أنّ خير الدين كان قد عزم

---

[1] عائشة غطاس وآخرون ، المرجع السابق ، ص 24 .

[2] كان الشيخ الملياني شاهد على جميع هذه الأحداث منذ دخول عروج إلى الجزائر ، فقد أعجب الملياني بهؤلاء الأبطال الذين يدافعون عن المسلمين وأرض الإسلام والذين لم يتبقى منهم إلا خير الدين بربروس، ويقال أنّ الملياني تلقى لرسالة ودية من عروج وبعض الهدايا ، فقد كان الأتراك يقدرون رجال الدين أو المتصوفة ، وهذا ما سينعكس إيجابا على العلاقات بينهما فيما بعد . وللمزيد ينظر : محمد الحاج صادق ، المرجع السابق،ص ص 103-104.

[3] الشيخ محمد بن المغوفل : يعتبر من مشاهير صلحاء الشلف اوائل القرن العشر هجري السادس عشر للميلاد ،وللمزيد حول موقف العثمانيين من رجال التصوف، ينظر : أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص ص 464-466.

[4] سامح التر ، المرجع السابق ، ص71.

[5] ينظر نص الرسالة ،الملحق رقم 02.

قصد جنابكم العالي، إلاّ أنّ عرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم النيل منا، ونحن على غاية الضعف والبلاء ...".[1]

يجب الإشارة إلى أن المجلس الذي كان بمدينة الجزائر لم يعد له دور وتم حلّه بعد أن ظلّ قائما لمدة تصل إلى اثنين وثمانين سنة وحلت محله دواوين الدولة الجزائرية ممثلة في النظام السياسي الجديد.

وجب التنويه إلى أنّ انضمام الجزائر للدولة العثمانية لم يكن مخططا له من قبل وإنّما أملته الظروف ولا يوجد دليل واضح على صحة ما كتب حول إيفاد السلطان العثماني للإخوة أبناء يعقوب إلى افريقية للتعرف عليها وتسهيل ضمّها إلى الخلافة، وهو الحال أيضا بالنسبة للمغرب الأوسط قبل سنة 1519م، إلاّ أنّ الاعتقاد السائد هو أنّ الخليفة العثماني كان يقدّم الدعم الدائم لعروج وأخاه خير الدين قبل استقرارهم في شمال إفريقيا[2].

3-3- إنضمام الجزائر رسميا للدولة العثمانية:

لقد كان تحمل مجلس أعيان الجزائر وعلمائها المسؤولية وأخذ موقفا تاريخيا تمثل في رفضه القاطع قرار خير الدين مغادرة الجزائر على لسان مفتي المدينة : "...حضوركم سيدي –يقول المفتي–ضروري جدا لأمن هذه المدينة وسلامتها، المواطنون ليس لهم غيرك كحاكم، وسيكون من غير المشرف أن تتركهم عرضة لهجمات الكفار الذين لا ينتظرون إلا وقت الذي تبتعد فيه عنهم ليغرقوا هذه البلاد بجيش من البرابرة، تقترح على نفسك أن تذهب إلى استانبول لتشارك في الحملات الحربية لكن تخدع نفسك إذا أنت تفكر في أن الله سيأخذ ما تقوله بعين الاعتبار في وقت تهمل فيه أكثر واجباتك أهمية، في القسطنطينية ألف آخرين، بإمكانهم أن يحلوا محلك، لكن هنا لا أحد يمكنه أن يشغل مكانك، والعمل الكثر استحقاقا

---

[1] عبد الجليل التميمي ،"**أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الاول سنة 1519** "، المجلة التاريخية المغربية ، ع6، يوليو، تونس،1976 ، ص119 .

[2] الجزائري محمد بن عبد القادر، المصدر السابق ،ص 60.

الذي تستطيع أن تقوم به، في نظر الله، هو أن تبقى في هذه المدينة للدفاع عنها ضد أعداء الدين،و هذا الرد يعتبر طلبا ضمنيا وتحميلا للمسؤولية الأخلاقية والشرعية[1].

كما تكشف الرسالة الموجهة إلى الخليفة سليم الأول من قبل مجلس الأعيان الدور القيادي الذي قام به المجلس كسند لعروج وخير الدين، في أوائل ذي القعدة بين 26 أكتوبر-03 نوفمبر 1519م جاء فيها :" ...إننا ندعوا بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية، ونكتب لمقامها العالي معبرين ومعترفين بالإجلال والتعظيم نفقد اطعنا أمركم وعليكم لا محاولة اعتمادنا لقد جرت أحداث جليلة، حيث استولى الكفار على بلاد الأندلس وانتقلوا منها إلى قلعة وهران وبجاية، وشددوا علينا الطلب وآنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين أروج فقبلناه بالعزم الكرم، إننا على غاية من الضعف والبلاء، ولهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم سيأوي العباس أحمد راجين خدمة مقامكم العالي ..."[2]

قبل السلطان العثماني طلبهم، وأرسل صحبة مبعوثي الجزائر سنجقا وكتابا إلى أهل الجزائر وخير الدين يتضمن الموافقة على طلبهم، وأنهم من الذين تشملهم عنايته،وبذلك ارتبطت الجزائر بالدولة العثمانية رسميا، وقد أمدّه السلطان بمساعدة عسكرية تقدر بألفي جندي انكشاري، من خيرة مقاتلي الجيش العثماني وأربعة آلاف متطوع، بالإضافة إلى عتاد ضخم من الأسلحة والتجهيزات الحربية. وكان الخليفة يدرك أهمية الجزائر بالنسبة للجهاد القائم فيها ضد الاستعمار الصليبي الإسباني وأضفى على خير الدين لقب بيلرباي[3]- أمير

---

[1] علي اجقو : **" الدولة الجزائرية الأولى (PAE)دراسة مؤسساتية "** ،مجلة العلوم الاجتماعية و الانسانية ،ع 2 ، جامعة باتنة ،الجزائر ،1994 ،ص 149 .

[2] التميمي عبد الجليل ، المقال السابق، ص ص 116- 120.

[3] وهي رتبة تخول صاحبها إختصاصات سياسية وإدارية واسعة ومتشعبة، كما تجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلا السلطان، وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة أن بلاد الجزائر أو المنطقة التي كان يحكمها خير الدين في ذلك الوقت والتي قد يمتد إليها نفوذه ونفوذ خلفائه تصبح تحت السيادة العثمانية وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية،ينظر: محمد علي الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، دار النشر والتوزيع الإسلامي، ط1، مصر ،2001، ص213.

الأمراء، لتتحول الجزائر إلى إيالة تابعة للخلافة العثمانية ومركز حكم العثمانيين للبلاد المغاربية[1].

شرع خير الدين في تدعيم سلطة المدينة والاستقرار فيها، فتقرب من رجال الدين ونظّم دفاعات المدينة بتدعيم الحصون القديمة وبناء حصون جديدة، وعمل على تنظيم الجيش والقبائل الخاضعة للسلطة، وفرض السلطة على بقية المدن الجزائرية بإرسال حاميات وقام بتنصيب ولاة من الشخصيات القبلية المعروفة والموالية له لمواجهة الاضطرابات، فقد كان عليه أن يحارب في جبهتين، الجبهة الخارجية وتتمثل في ذلك الصراع العنيف مع الدول الأوربية عامة وإسبانيا خاصة التي ساد الفزع فيها منذ إعلان الجزائر إيالة عثمانية، ومن ثم وصول الخطر العثماني إلى هذا الجزء الغربي من البحر المتوسط لاسترداد الأندلس، والذي يعتبره الإسبان بحكم استيلائهم على أهم المدن الساحلية الجزائرية وعلى جزره الكبرى و معظم السواحل الإيطالية بحرا إسبانيا[2]، وهناك الجبهة الداخلية التي تتمثل في توحيد بلاد المغرب الأوسط تحت حكمه[3].

لقد سيطرت إسبانيا على حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر، وأدّى ذلك إلى سقوط المدن الساحلية الجزائرية، ومما ساعد الإسبان في ذلك وحدة فرديناند مع الملكة إيزابيلا، والقوة التي كانوا استفادوا منها في البحرية الإسلامية بالأندلس، وفي المقابل لم تكن الدولة الزيانية قادرة على حماية سواحلها فاستمرت بذلك عملية الإبادة الجماعية والتعسف والظلم في عهد الملك شارلكان شارل الخامس" Chareles quint وابنه " فليب الثاني " [4] ليتجسد مشروع الإسبان في متابعة الأندلسيين في سواحل بلاد المغارب.

---

[1] علي غنابزية ، المرجع السابق، ص 80.

[2] المدني، المرجع السابق ،ص 211.

[3] الصلابي، المرجع السابق ، ص ص213-214.

[4] أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 68.

كانت ظاهرة الصراع الدائم بين القوى السياسية المنقسمة على نفسها وبين القوى المحلية ذات الطابع القبلي أو الديني قد عمّقت ظاهرة الانحطاط والتفكك والفوضى السياسية هكذا يعطينا المغرب الإسلامي في نهاية القرن الخامس عشر صورة انحطاط سياسي وعسكري وتدهور اقتصادي[1].

لقد تمّكن العثمانيون بتدخلهم في بداية القرن 10هـ/16م ببلاد المغارب من انقاذ يلاد الإسلام من الاحتلال الأجنبي المؤكد، وكانوا في ذلك مجاهدين مرابطين، وتحالفوا مع سكان بلاد المغارب لصد العدوان الصليبي وحماية الثغور وإقامة حكم إسلامي ثابت وقوي وبالمقابل فقد أظهرت إسبانيا رغبة قوية في احتلال بلاد المغارب تعويضا للمسيحية عما فقدته في الشرق بعد سقوط القسطنطينية في يد الأتراك العثمانيين[2].

وممّا سبق يمكن القول بأنّ الأحداث والتطورات الداخلية والخارجية التي مرّت بها بلاد المغارب قبل 1520م أثّرت في المشهد السياسي والعسكري المغاربي، وأدّت إلى ظهور قوى خارجية أوجدت لها مكانا ضمن التفاعلات والكيانات المتصارعة خلال هذه الفترة، حيث عملت هذه الأخيرة على تشكيل تحالفات مع الأنظمة السياسية والسكان المحليين لأغراض مختلفة لا تخرج عن نطاق المصالح المتبادلة، والعامل الديني الذي برز بقوة من خلال تلك الأحداث.

---

[1] حنيفي هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط1، دار الهدى ، الجزائر ، 2008، ص 123.

[2] إبراهيم سعيود ، **الأسرى المغاربة في "إيطاليا" خلال العهد العثماني** ، أطروحة دكتوراه ، إشراف: عائشة غطاس ، قسم التاريخ ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر2 ،2009-2010،ص25.

الفصل الأول:

مظاهر الصراعات في بلاد المغارب من خلال التحالفات في الفترة ما بين (1520-1550م)

تمهيد.

1- تداعيات التحالف الجزائري العثماني على بلاد المغارب.
2- التحالف الحفصي الإسباني1535م.
3- التقارب العثماني الفرنسي وتداعياته بالمغارب.
4- التحالف الأوربي ضد إيالة الجزائر1541م.
5- المغرب الأقصى في دائرة الصراع الإسلامي الصليبي(1520-1550م).

تمهيد:

إنّ تعرّض بلاد المغارب إلى الغزو الأيبيري مع فترة أواخر القرن الخامس عشر مطلع القرن السادس عشر ميلادي، وظهور الدولة العثمانية وتأسيسها لأول إيالة مغاربية في الجزائر واستمرار التنافس والصراع على السلطة في الدويلات المغاربية (الحفصية، الزيانية، المرينية) بل وظهور قوى انفصالية عديدة، جعل من الحوض الغربي للمتوسط مسرحا للتنافس الذي انتقل من الصراع المحلي و الإقليمي إلى صراع دولي ساهمت فيه عديد العوامل والمعطيات، نتج عن هذا ظهور تحالفات متنوعة أثرت في موازين القوى.

1-تداعيات التحالف الجزائري العثماني داخليا وخارجيا:

1-1-داخليا(محليا):

إنَّ الحديث عن تداعيات التحالف الجزائري العثماني على بلاد المغارب ككل بداية من سنة 1520م يقودنا إلى تأثير ذلك الارتباط والمتغير الجديد محليا أي على المغرب الأوسط بحكم أنّه كان منقسما بين عديد الأطراف والكيانات، فهل بهذا التحالف أصبح المغرب الأوسط موحدا؟ أو بالأحرى هل أصبحت كل بلاد المغرب الأوسط تتبع الدولة العثمانية؟.

منذ أن تمّ وضع حجر الأساس لبسط وصاية العرش العثماني و أصبحت الجزائر إيالة[1] عثمانية في فترة حكم السلطان العثماني سليم الأوّل وظهور القائد خير الدين بربروس في ساحة الجهاد في الشمال الإفريقي، و الذي نجح في وضع دعامات قوية لدولة فتية في عمق الجزائر، لم تتوقف المساعدات العثمانية التي كانت تصل باستمرار بعد ذلك من السلطان العثماني سليمان القانوني، وهو ما يؤكده بربروس بقوله :" لن يتمكن الإسبان من إزعاجي

[1] الإيالة: مصطلح يطلق على أكبر التقسيمات الإدارية في الدولة العثمانية ، فقد كانت الدولة مقسمة إداريا إلى أيالات والأيالات إلى سناجق والسناجق إلى أقضية والأقضية إلى نوح والنواحي إلى قرى ولقد اشرف على الأيالات في الدولة العثمانية أمير الأمراء ثم الوزراء بعد القرن 16م ، حيث كانوا يمثلون السلطان ويجمعون بين الحكم الإداري والعسكري للأيالة، ولهم النفوذ المطلق ما عدا الحالات القضائية، ينظر: سهيل صابان،**المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية** ، مطبوعات الملك فهد الوطنية ، الرياض،2000،ص45.

بعد اليوم، لأنّ السلطان الكبير سليم خان يسندني من ورائي، فكل ما أطلبه منه لن يتردد في إجابتي بكرمه وعنايته "[1]. ولكن خلال فترة الخمس سنوات أي ما بين (1520-1525م) لم تقدم له الدولة العثمانية أي مساعدات مادية ومعنوية، وما فعله خلال هذه الفترة كان بفضل جهوده وحسن تصرفه وإدارته للأمور[2].

واجه البايلرباي خير الدين صعوبات كبيرة من جانب الحكام والزعماء المحليين عندما حاول إعادة توحيد بلاد المغرب الأوسط، فقد تعرض لعملاء المحتل الصليبي الإسباني من الولاءات المتحولة والمتغيرة للأمراء الزيانيين معه، بل ومن دسائس السلطات الحفصية التي قامت بتدبير ونسج المؤامرات مع بعض الزعماء المحليين وتحريضها لبعض القبائل، ثمّ المجاهرة بالعداوة للأتراك والتحالف العلني مع أعدائهم[3]، وهو ما أثّر عليه أكثر من تأثره في مواجهة الإمبراطورية الإسبانية، إلاّ أنّه تمكّن من التغلب على هذه الصعوبات ونجح في تثبيت سيطرته على الجزائر وإعلانها دولة من جديد، لها هيبتها وكان هذا التقدم بفضل وقوف العلماء والأهالي وتعاونهم معه.

إنّ لجوء يحي بن سالم التومي إلى الإسبان قبل تأسيس الإيالة أعطاهم حجة قوية للتدخل في شؤون الجزائر، بالإضافة إلى أنّهم وجدوا سبيلا لتفريق كلمة المسلمين، ولهذا بادر الصليبيون في رسم خطة لاحتلالها واتفقوا مع بعض الزعماء المحليين بغية توجيه ضربة حاسمة تنهي الوجود العثماني في الجزائر، وتنفيذا للخطة المدبرة أعلن أمير تنس تمرده، وتحالف عرب متيجة مع الإسبان المقيمين في قلعة البنيون، ووجه ملك تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الإسباني يلتمس منه المساعدة، وقد شعر الأمراء الحفصيون بالخطر

---

[1] بربروس، المصدر السابق ، ص 98، وينظر: مولود قاسم نايت بلقاسم ، المرجع السابق، ج1، ص 62.

[2] سامح التر، المرجع السابق ، ص 84.

[3] محمد سهيل طقوش،**تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة** ،ط3، دار النفائس ، بيروت ،لبنان ، 2013،ص220،وينظر:محمد دراج ، المرجع السابق، ص ص 243-244،

فاتصلوا بالإسبان واتفقوا معهم سرا لطرد الأتراك من الجزائر قبل أن يستفحل خطرهم على المنطقة المغاربية ككل[1].

عمل خير الدين على تثبيت نفوذه وإرساء دعائم التواجد العثماني بالتركيز على جمع شتات منطقة المغرب الأوسط الذي تتواجد به قوى انفصالية متنفذة، وضرب كل التحالفات التي أقامها الإسبان في المنطقة، فلجأ إلى المواجهة المسلحة ومقاومة النزعة الانفصالية فكانت أهم تلك المواجهات مع ابن القاضي الذي نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر ممّا دفع خير الدين إلى الانسحاب مؤقتا إلى مدينة جيجل[2]. و أمام هذه الصعوبات اضطر خير الدين بربروس إلى ربط تحالفات ظرفية مع قبائل آل المقراني التي ارتكزت في قلعة بني عباس[3] وتطويق خصمه ابن القاضي واستعادة مدينة الجزائر الذي كان في سنة 1525م كما استعاد نفوذه بشرشال وتنس[4]. نختار هذه الأحداث التالية كنماذج.

1-1-1-القضاء على ثورة ابن القاضي:

شرع خير الدين في وضع أسس دولته وتنظيم الوضع الإداري للجزائر، إذ قسّمها على قسمين إداريين. مثلما فعل عروج قبله، الذي عيّن عليها زعيمين محليين وهما أحمد بن القاضي الذي كان حليفا للأخوة بربروس لوقت طويل، إذ منح القسم الشرقي الذي كان خير

---

[1] طقوس ،المرجع نفسه، ص 221.

[2] كورين شوفالييه ، المرجع السابق، ص ص 44-45.

[3] يصف مارمول كربخال القلعة فيقول : " أنه جبل عال وعر شديد الإنحدار متصل بالأطلس الكبير يقع على بعد 15 فرسخا من بجاية من جهة الغرب والجنوب ، ويبعد عن مدينة كوكو بأربعة فراسخ ، وفي هذا المكان المنبع توجد قلعة وهم ينتسبون إلى زواوة الشرسين ، وهم بربر ، اعتادوا العيش الطليق ولم يؤدوا منذ زمن بعيد ضريبة السلطان،أو أمير ، وكان رئيسهم عام 1550م ، هو عبد العزيز من بني عباس ". مارمول كربخال ، المصدر السابق، ج2، ص 385..ويذكر كورين شوفالييه أنّ عبد العزيز رئيس قبيلة بني عباس كان في عداوة مع ابن القاضي ، حيث بذل جهودا كبيرة لفك التحالف بين بربروس وعدوه ابن القاضي .... ينظر: كورين شوفالييه ، المرجع السابق ، ص 27.

[4] دلندة الأرقش وآخرون ، المرجع السابق، ص 40. وينظر أيضا: سامح التر، المرجع السابق، ص 84.

الدين يتحمل مسؤوليته في الماضي، ومحمد بن علي الذي عيّن حاكما على القسم الغربي[1]. لكن انزعاج بعض القوى المحلية والإقليمية سرعان ما ظهر إلى الوجود، وبدت مسألة الصراع والتنافس حول الملك مع بداية سنة 1520م، فتمرد ابن القاضي ودخل في صراع مرير مع خير الدين بجبال القبائل، ولكنّ هذا الأخير لم يكن يثق كثيرا في ولاء الجميع فرفض الدخول في فتنة قد تنهي كل ما فعله من قبل، فقرّر المحافظة على وحدة قواته[2].

تخوّف سلطان تونس الحفصي وحاكم تلمسان وحتى سلطان المغرب الأقصى من الانتصارات التي حققها خير الدين لذلك عملوا على توحيد جهودهم ضدّه، عن طريق إثارة الفتنة بينه وبين نوابه الذين عينهم على المنطقتين الشرقية، والغربية وهما: أبو العباس أحمد بن القاضي، ومحمد بن علي[3]. هذا ما أدّى إلى فتنة في الجزائر، اضطّر على إثرها خير الدين إلى مغادرة مدينة الجزائر، والتوجه إلى مدينة جيجل، فاستقر بها خمس سنوات من سنة 1520م إلى سنة 1525م، استغلها في تنظيم أسطوله، وتدعيم جيشه، فتمكن من السيطرة على القل في سنة 1521م، ثم عنابة، وقسنطينة في سنة 1522م[4]، وفي سنة 1525م استغل خير الدين نقمة أهالي مدينة الجزائر على ابن القاضي[5].وهو ما ذكره خير الدين في مذكراته، حيث أنّه كان يراقب من جيجل تطور الأوضاع في الجزائر لأنّه كان

---

[1] قسم خير الدين الجزائر إلى قسمين ، شرقي وغربي ، فالقسم الشرقي يشمل بلاد القبائل الشرقية من شرقي العاصمة الجزائرية إلى حدود المملكة الحفصية بتونس ، أما القسم الغربي فيمتد إلى حدود دولة بني زيان التي ليس لها حدود دقيقة ، ينظر: المدني، المرجع السابق، ص 211، وينظر أيضا: بسام العسلي ، المرجع السابق، ص 113.

[2] غطاس وأخريات ، المرجع السابق ، ص ص 25-26.

[3] بربروس، المصدر السابق، ص ص 100-101.

[4] طقوش،المرجع السابق،ص 220.

[5] بعد وفاة ابن القاضي ولي إمارة الكوكو ابن له يحمل نفس اللقب العائلي الذي اشتهرت به عائلة ابن القاضي وخلف مكانه أيضا على الشرق الجزائري ولا يبخل علينا خير الدين بشهادته : " لقد كان ابن القاضي أحد عظماء العرب بالجزائر ، كما كان يكن لي قدرا كبيرا من الصدق والمودة ، حاول سلطان تونس أن يحرضه للخروج عليا ، إلا أنه لم يوافقه على ذلك ودعاه إلى لزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم ، الآن توفي هذا الرجل العاقل وحل محله ولد طائش يدعى ابن القاضي ايضا ، فكان أوّل ما فعله أن يتفق مع سلطان تونس ". ينظر: خير الدين بربروس ، المصدر السابق، ص 108.

مدركا بأنّ الأهالي يعرفون قدره جيدا و سوف ينبذون ابن القاضي مهما طال خداعه لهم، وهكذا فما إن جاءه وفد طالبا منه العودة إلى الجزائر بإسم الأهالي حتى أعلن قبوله للدعوة[1]. فتوجه إلى متيجة وتمكّن من الانتصار على ابن القاضي وأتباعه هناك، ودخل مدينة الجزائر، ثم أخضع مدينة شرشال، وقتل حسن قارة[2]، ثم توجه إلى عاصمة الزيانيين تلمسان، وأخضع حاكمها محمد بن عبد الله، وبذلك تمكن خير الدين من توحيد الجبهة الداخلية التي امتدت من مدينة جيجل إلى مدينة مستغانم، ماعدا مدينة بجاية وقلعة البنيون المحصنة بالحامية الإسبانية التي كانت تشكل تهديدا مستمرا لسكان مدينة الجزائر[3].

ويصف خير الدين في مذكراته تفاصيل القضاء على ابن القاضي بقوله : " وفي النهاية هبّت العاصفة وشنّ ابن القاضي هجوما كبيرا بجيش قوامه أربعون الف رجل. كنت متأهبا لذلك لأنني توقعت مثل هذا الهجوم من قبل ... قمت بإرسال عشرة آلاف بحار للتصدي للثائرين فاشتبكوا معهم في معركة كبيرة دامت حتى العصر، فقدت في تلك المعركة ألفي شهيد والفي جريح، إلاّ أنّ المعركة انتهت بالقضاء على العصاة عن بكرة أبيهم لم ينج بينهم سوى سبعمائة ثائر، أمّا بقيتهم قد تم قتلهم أو أسرهم، وكان على رأس الثائرين الذين وقعوا في الأسر شيخ مدينة الجزائر أمرت بإعدامه وقطع جسده اللعين إلى أربع قطع، وتعليق كل منها على باب من أبواب المدينة ليكون عبرة لغيره ..."[4]. وعندما نحاول قراءة موقف خير الدين من ثورة ابن القاضي[5]، فإننا سنجد هذا الأخير قد وقف منها موقف

---

[1] وللمزيد من التفاصيل ينظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص23-27.

[2] هو أحد عمال خير الدين وكان حاكم الحامية في شرشال إلتحق بتحالف بن القاضي وحاكم تونس .

[3] محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 32.

[4] بربروس ، المصدر السابق ، ص 114.

[5] منذ دخول الإخوة بربروس إلى الجزائر كانوا قد تحالفوا مع عائلة ابن القاضي حتى قبل تأسيس إيالة الجزائر وتصبح من تحت راية الخلافة العثمانية ، ولكن لم يبقى هذا الوضع على حاله ، وتحولت من علاقة تحالف إلى عداوة بين الطرفين يرجعه المؤرخون لأسباب لعلّ أبرزها إتهام خير الدين لإبن القاضي بخيانة أخيه في تلمسان او تآمره مع السلطان الحفصي عليه، او أنه لم يغفر لآل بربروس قتل سالم التومي الذي كان من قرابته ، ذكرها شوفالييه نقلا عن مارمول كربخال ، ينظر

المجاهد والمدافع الحقيقي على الأراضي الإسلامية وليس إتباع المصالح والنفوذ فلم يغادر الجزائر نهائيا، رغم أنّ كل الظروف التي كان يمر بها تفرض حتمية الرحيل، إلاّ أنّ حنكته ومعرفته بالواقع الجزائري آنذاك جعله يرفض الاستسلام لتلك الظروف القاهرة بحيث أنّه كان يعلم بأنّ سيطرة ابن القاضي على الجزائر لن تدوم طويلا وهو ما جعله يتخذ القرار الصحيح بالمغادرة نحو جيجل وإعادة بناء قوته العسكرية والسياسية المتهالكة، ومنها العودة إلى الجزائر[1].

1-1-2- قلعة البينون سنة1529م :

شكّلت قلعة البينيون خطرا كبيرا على دولة خير الدين الفتية فقرّر تحريرها في سنة 1529م لتخليص الجزائريين من المدفعية الإسبانية الموجهة إلى منازلهم. كان قائد القلعة في تلك الفترة هو دون مارتن دي فيرغاس" Don Martin de Vergas" وكانت الحامية الإسبانية تعيش ظروفا صعبة، ونقصا في التموين[2] ممّا دفع بخير الدين إلى استغلال هذه الظروف الملائمة وتسخير كل القوى والوسائل من أجل تحريرها، فأرسل إلى قائد الحامية الإسبانية ينذره بالتوقف عن أذية سكان المدينة، لكنّ الحامية لم تأخذ بإنذاره، فبدأ في قصفها

: شوفالييه، المرجع السابق، ص ص 36-37.ويوردها أيضا الأستاذ احمد توفيق المدني، ويذكر المؤرخ صالح عباد في كتابه الجزائر خلال الحكم التركي أن السبب الأقرب الصواب في الإختلاف يرجع إلى إتهام خير الدين لابن القاضي بالتهاون في دعم أخيه عروج. ينظر : صالح عباد ، المرجع السابق، ص 51. لكن هذه الأراء يمكن أن تفسرها وتشرحها رسالة أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول (ترجمها المؤرخ التونسي عبد الجليل التميمي من الأرشيف العثماني ، ذكرناه من قبل) بعد مقتل عروج والتي ورد فيها إسم أبي العباس أحمد بن القاضي كأحد الأعيان والوجهاء الذين كتبوا الرسالة وهذا دلالة واضحة على التفاهم والتعاون والعلاقة الجيدة بين هذا الأخير وخير الدين حتى بعد مقتل سالم تومي وعروج وهو في الصواب ، ينظر : عبد الجليل التميمي ، المقال السابق،ص116. وندعمه بما ذكرناه من قبل كما جاء في مذكرات خير الدين بربروس أن العلاقة ساءت وفاة ابن القاضي (الأب) الحليف، وتولي ابنه الذي يحمل إسمه هو الذي تحول إلى عدو ولم يواصل على نهج أبيه. ينظر :خير الدين بربروس ،المصدر نفسه، ص 108.

[1] محمد دراج ، المرجع السابق ، ص 339.

[2]DE Grammont,**Histoired'Alger sousladominationturque(1515 –1830),**leroux,éditeur , Paris, 1887,p 34.

يوم 06 ماي 1529م[1]، فردّ الإسبان بقصف عنيف على مدينة الجزائر، استمر القصف المتبادل مدّة خمسة عشر يوما، وأمام إصرار أفراد الحامية الإسبانية على عدم الاستسلام والمقاومة رغم تعهد خير الدين بضمان حمايتهم وحريتهم. وفي السابع والعشرين ماي 1529م قام الجزائريون بالهجوم على القلعة ليلا وتمكنوا من قتل، وأسر من كان فيها[2]، وكان عددهم سبعمائة جندي إسباني. وبعد الانتهاء من عملية تحرير حصن البنيون المهم في حماية مدينة الجزائر، أمر خير الدين بتهديم القلعة، وإقامة رصيف متصل بمدينة الجزائر، وبذلك صار للمدينة ميناء ترسو به السفن، يحميها من الرياح والأعداء، وصارت الجزائر معقلا قويا للنشاط البحري في حوض البحر المتوسط [3]. ومن هذا التاريخ بدأ العمل على بناء دولة قوية وقلعة أمامية للإسلام في وجه القوى الأوروبية الصليبية في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط[4].

لم يقف الإسبان مكتوفي الأيدي ومشاهدة انتصارات خير الدين فسيروا حملة على شرشال انتهت بهزيمة أخرى للصليبيين سنة 1531م كان لها الأثر البليغ في أن زاد تعلق الأهالي بالسلطة العثمانية ورجالاتها وعلى رأسهم خير الدين بربروس، وثقتهم في قدراتها على حمايتهم من الاعتداءات الإسبانية[5].

1-2-خارجيا(إقليميا ودوليا):

مثّل انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية بداية مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر، فقد شهد هذا العصر ميلاد دولة جزائرية جديدة ممتدة تقريبا على نفس الحدود الجغرافية التي

---

[1] أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق ، ص 215.

[2]Elli de la primaudie ,**document inedits…<< lettre ecrite d Alger par un espion juif**>> in R.A,Alger 1875,t19,p 165.

[3] الترر، المرجع السابق، ص 87.

[4] غطاس وأخريات ، المرجع السابق، ص 27.

[5] المدني ، المرجع السابق، ص 225.

تمتد عليها الآن، فتحققت بذلك الوحدة السياسية والجغرافية للدولة الجزائرية الحديثة[1] الناشئة على نحو لم يحدث من قبل، الأمر الذي أفضى لاحقا إلى بروز الأهمية السياسية والعسكرية للجزائر خلال الفترات اللاحقة من هذا التاريخ باعتبارها لاعبا إقليميا يساهم في صناعة السياسة الدولية لغرب المتوسط[2].

1-2-1- الاستراتيجية العثمانية في الجزائر بعد التأسيس:

بعد تأسيس إيالة الجزائر عمل العثمانيون على دعم وجودهم، فخوّل السلطان سليمان القانوني للبايلرباي خير الدين حقّ التجنيد من أنحاء الدولة العثمانية ابتدء من سنة 1525م كما منح لهم أيضا امتيازات تتمثل في تجمع المجندين وقبول المتطوعين، ومنذ ذلك التاريخ أصبح للدولة الجزائرية وكالات رسمية خاصة بها هي : (إستانبول، ازمير، أوليوسون، قبرص، طرابلس الغرب، تونس، مرسيليا، جبل طارق، طنجة، كوسوفو، بلغاريا)، وكانوا يعرفون "بدائيات"[3] يرأسهم ضابط سامي، وهذا مكافئة لخير الدين باشا على ثباته، وإثبات وجوده وتحمل المسؤولية الكبيرة التي على عاتقه، وبعث الإيالة الجزائرية من جديد ببقائها وزيادة تمددها، وفرض اعترافها على أعدائها الإسبان، والوفاء بحماية العثمانيين و مساندتهم[4].

---

[1] وفي هذ الشأن يقول الراشدي:" ... إن دولة الترك ضربت الأرض بجرانها، وألقت بهذا المغرب الأوسط كلكها ومدت رواقها على ما بين وجدة إلى منتهى أعمال تونس...". ينظر: الراشدي ، **الثغر الجماني**...، المصدر السابق، ص ص 459-460.

[2] دراج ،المرجع السابق، ص 239-240.

[3] حنيفي هلايلي ، **بنية الجيش الجزائري** ... ، المرجع السابق، ص ص 14-15.

[4] عمورة ، المرجع السابق، ص 90.

أصبح خير الدين بولايته على الجزائر الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وكانت تسانده قوات الدولة العثمانية، وينتفع بمواردها بما كان يتلقاه منها لمواجهة الإمبراطورية الإسبانية وحلفائها[1].

بعد تأسيس الإيالة الجزائرية سادت حالة من الفزع والرعب في الضفة الأخرى من غرب المتوسط، خاصة لدى الإسبان الذين اعتبروا هذا الانضمام تهديدا لوجودهم في سواحل بلاد المغارب وليس المغرب الأوسط فحسب، بل وأكثر من ذلك قد يكون هذا الانضمام بادرة تنتهي باستعادة المسلمين للأندلس مرة أخرى.

لم يفسد استراتيجية الإسبان في الاستحواذ على بلاد المغارب سوى تدخل الأتراك العثمانيون السريع المتمثل في آل بربروس، وما كان له من أثر نفسي بعد أن تسلل الخوف والذعر في أوروبا كلها، وخصوصا في إسبانيا، عند إعلان انضمام الجزائر إلى الدولة العلية، وبروز إيالة الجزائر كقوة جديدة ذات شأن وهيبة في الحوض الغربي للمتوسط و هو ما فسّره الصليبيون بوصول الخطر العثماني إلى هذه المنطقة الحساسة من العالم، ليس لتهديد قواعدها العسكرية المتناثرة في شمال إفريقيا فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تهديد وجودها بالأندلس التي مازال هاجس إعادة فتحها من طرف الأتراك يلوح في كل حملة يقوم بها الغزاة[2]، بل وتأكد هذا الرعب حين ما عزم السلطان سليمان القانوني على فتح روما، بعد استيلائه على مملكة نابولي، فأرسل لأجل ذلك الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروس لاحتلال أولونيا الواقعة على ساحل البحر الأدرياتيكي وذلك في سنة 1537م[3].

---

[1]الترر ، المرجع السابق ، ص 86.

[2] أحمد توفيق المدني ،**كتاب الجزائر** ،المطبعة العربية،د.ت.ن، الجزائر، ص ص 207-208.

[3] دراج ، المرجع السابق ، ص 237.

أصبحت الإيالة الجزائرية تمثل خط الدفاع الأول في شمال إفريقيا[1] و الحوض الغربي للمتوسط عموما. كان الهدف الرئيسي لها هو كسر شوكة الإسبان، وبتمكن الأتراك العثمانيين من فرض سطوتهم وسلطانهم على المنطقة شعر المسيحيين بالضيق الشديد وألحقت بهم من جراء ذلك أضرار كبيرة تمثلت خاصة في إبعادهم عن المشاركة في الحروب الأوروبية ضد الدولة العثمانية في كل من المجر والنمسا، وذلك بنقل المعارك إلى السواحل الإسبانية أو الأماكن التي يتواجد بها الاحتلال الإسباني كتونس وطرابلس الغرب هذه الأخيرة، عندما رآى وسمع أهلها بالدعم المادي والمعنوي الذي حظي به أهالي الجزائر نتيجة لانضمام بلادهم للخلافة العثمانية كما أسلفنا الذكر، بعثوا وفدا عنهم يعرضون تبعيتهم للباب العالي، وذلك بغية تخليصهم من الاحتلال الإسباني، لذا بادروا بإرسال وفد يمثلهم منذ سنة 1519م يعرضون من خلاله تبعيتهم للسلطان العثماني، وهذا ما حدث لاحقا، حين استجاب لهم السلطان سليمان القانوني وعين مراد آغا واليا عليهم لإتقانه اللغة العربية[2]، وهذا ما سنعرفه في الفصل الموالي، كما كان أيضا من أثر انضمام الجزائر للدولة العثمانية المساهمة في إنقاذ مسلمي الأندلس من الاضطهاد الإسباني[3].

1-2-2- ملامح بروز إيالة الجزائر:

أدّى بروز الجزائر على ساحة الأحداث الدولية في تلك الفترة وما حدث من اختلال في توازن القوى إلى جعل شارلكان يتخبط في سياسته الدولية بين الاستمرار في تثبيت وجوده في أوروبا، وتصديه لحروب البروتستانت[4] وفرنسا، وبين التفرغ الكامل للصراع مع الجزائر

---

[1] تعرضت منطقة شمال إفريقيا من طرابلس شرقا إلى المغرب الأقصى غربا لسيطرة عسكرية أوربية مباشرة ولحملات مدمرة على المدن والموانئ الكبرى نظرا لأهميته الاستراتيجية ولموقعه الجغرافي وتاريخه السياسي والعسكري .

[2] بن غلبون الطرابلسي ، المصدر السابق،ص 93، وينظر: دراج ، المرجع السابق ، ص 240

[3] المدني، **حرب الثلاثمائة سنة** ...، المرجع السابق، ص ص 226-230.

[4] في سنة 1520م نشأ المذهب البروتستانتي المسيحي بشكل رسمي ، حيث قطع علاقة المصلحين المسيحيين بكنسية روما وكان القس لوتر الالماني المولود سنة 1483 هو القائم بهذه الحركة وقد قام برحلة إلى روما سنة 1511 واطلع على

التي تؤرقه بغارات بحارتها على السواحل الإسبانية وسائر السواحل الأوروبية المطلّة على البحر المتوسط[1].

وممّا تجدر إليه الإشارة في هذا المقام تناقض الفكرة التي يصرّ على ذكرها وتأكيدها ودعمها بحجج واهية لا يتقبلها عقل ولا منطق، إذ إدّعى الباحثون الغربيون فكرة أنّ خير الدين بربروس هو من فرض نفسه حاكما وسلطانا على الجزائر، بينما واقع الأحداث يشير إلى دحضها ونفيها ابتداء من الرسالة التي بعث بها أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الثاني والتي سبق ذكرها، وأيضا ما ورد في مذكرات خير الدين بربروس الذي بيّن بأنّه قبل تولي السلطة في الجزائر بناء على توسلات ملحة وعديدة من علماء وقضاة وخطباء وأئمة وأعيان وتجار وأمناء مدينة الجزائر وغيرهم، وبعض الوفود من المدن الأخرى، ممن كانوا يرسلون إليه الوفود يرجونه أن يقدم عليهم ويتولى إدارتها بنفسه، ذلك لأنّ الأهالي لم يكونوا يرضون بالخضوع لأحد سواه، فقد رفضوا ولاية ابن القاضي في الجزائر مثلما رفض أهالي تلمسان قبلهم ولاية سلطانهم الزياني الذي تحوّل إلى ألعوبة في يد الصليبيين الإسبان[2] وهذا يبين مدى تشبث الأهالي والعلماء والأعيان بكل ما يمد بصلة لتوحيد المسلمين ومحاربة الغزاة من الصليبيين.

اشتد الصراع العثماني الأوروبي، وأصبح أكثر عنفا وحدّة بظهور الإيالة الجزائرية التي صارت سندا للعثمانيين وشكّلت خطرا على الممالك المسيحية وعلى رأسها الإمبراطورية الإسبانية التي اعتبرت منطقة الشمال الإفريقي المتوسطي من المغرب الأقصى غربا إلى

خفايا قصر الفاتيكان وفضائح الرهبان وابتعاد الكنيسة الكاثوليكية عن تعاليم المسيحية الصحيحة ، ثار لوتر ضد الفضائح وأعلن مذهبه الإصلاحي الذي هو أقرب للمسيحية الحقة من المذهب الكاثوليكي ولقيت دعوته نجاحا كبيرا في البلاد الجرمانية ، وعندما كثر أتباعه خرج لوتر من مخبئه الذي كان فيه إثر الحكم عليه بالإحراق ، وكان نصيرا لفراسوا الأول ضد شارلكان، ينظر:أحمد توفيق المدني ، **محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، د.ت.ن ، ص 24

[1]المرجع نفسه ، ص ص 25-26.

[2]بربروس ، المصدر السابق ، ص ص 122-123.

طرابلس الغرب شرقا منطقة نفوذ لها، وهذا ما زاد من تقوية جانب المسلمين على سواحل الإيالات المغاربية وردّ الهجمات الإسبانية، وهو ما فسّر من طرف القادة الإسبان على أنّه تهديد مباشر لسلامة الأراضي الإسبانية، وخطر حقيقي على الوحدة الروحية المسيحية[1].

إنّ الأحداث التي تعيشها هذه المنطقة من غرب المتوسط تتطلب شخصية قوية ذات صلاحيات واسعة تمكنّها من إصدار القرارات الحاسمة والعاجلة في مجال الصراع المسلح مع الإمبراطورية الإسبانية وحلفائها وأتباعها، وأذناب عملائها، فتم تعيين خير الدين بربروس لقيادة الأسطول العثماني ابتدءا من سنة 1533م لأنّه أصبح شخصية مؤثرة في نظام توازن القوى الأورومتوسطية خلال هذه الفترة، ليستخلفه ابنه حسن آغا[2] على إيالة الجزائر، حيث حرص السلطان العثماني على أن يكون خليفة خير الدين شخص كفؤ لهذه المهمة [3] يضمن للدولة العثمانية استمراريتها وتوسعها في المنطقة.

لم يتوقف الطموح العثماني والإسباني حول الصراع في بلاد المغارب بعثمنة الجزائر وتمركز الإسبان في بعض السواحل المغاربية الأخرى، فالعثمانيون أرادوا إلحاق كامل بلاد المغارب بالخلافة بدءا بضم تونس التي يسيطر عليها الحسن الحفصي الحليف الإستراتيجي للإسبان في المنطقة.

شكّل التحالف العثماني الجزائري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط جبهة إسلامية قوية في مواجهة المد الصليبي الأوروبي بقيادة الإمبراطورية الإسبانية، فلاحت في

---

[1]عبد الجليل التميمي " **الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر الميلادي** ، المجلة التاريخية المغربية ، ع 11/10، تونس ، 1985،ص 9.

[2] حسن ابن خير الدين : هو كرغلي ابن خير الدين بربروس ثم تولى الحكم على ثلاث مراحل ، الأولى في سنة 1545م-1551 وفتح تلمسان ثم ترك الإمارة في 1551م ثم تولى الحكم للمرة الثانية في 1556-1559م وللمرة الثالثة 1561 م حيث قاد حملة إلى فاس في نفس السنة وفتح تلمسان ، ينظر : Diego de Haedo,op.cit,pp 73-114-127.

[3]التر ، المرجع السابق ، ص 103، وينظر: دراج، المرجع السابق ، ص 238.

الأفق مظاهر لصراع مستمر بين الطرفين انتقل وتحوّل إلى جهات مختلفة من المنطقة فكانت المواجهة القادمة بينهما في تونس الحفصية.

2- التحالف الحفصي الإسباني ونتائجه:

2-1- الأوضاع في تونس قبيل التحالف الحفصي الإسباني :

لم تكن الظروف الداخلية بتونس بأحسن حال ممّا كانت عليه في كل بلاد المغارب خلال هذه الفترة الحرجة، بل كانت هذه الأوضاع مدعاة للتدخل الأجنبي لأجل الاستيلاء عليها، إذ كانت تعيش في فوضى سياسية وعدم استقرار تمثل في الصراع على السلطة بين الحسن الذي قتل إخوته للانفراد بالعرش الحفصي وبين اثنين من اخوته تمكنا من النجاة، وتوجه أحدهما – الرشيد – لطلب المساعدة من خير الدين في الجزائر [1]، ونظرا لخطورة الوضع الذي كان يحتمل تدخل إسباني يعزز به الإمبراطور شارلكان تواجده بالحوض الغربي للمتوسط، إذا ما علمنا أنّه لا يزال يمتلك طرابلس الغرب القريبة من الممتلكات العثمانية بشرق المتوسط. فيا ترى كيف كانت مظاهر هذا الصراع؟ وما أبرز النتائج المترتبة عنه؟

تولّى الحسن الحفصي حكم البلاد التونسية يوم وفاة أبيه في يوم الخميس 25 ربيع الثاني 932هـ/1526م ، وقد عرفت البلاد في عهده ضعفا وإنحرافا خطيرا نتيجة عجزها عن ردع الحركات الانفصالية في الأرياف والبوادي، فقد أصبحت كل قبيلة لها سلطة موازية وفي بعض المرات أكبر من سلطة الدولة ذاتها، ممّا انعكس بالسلب على السلطة الحفصية التي انحصر نفوذها عند سنة 1530م في الشمال الغربي لتونس وبعض المدن كسوسة والقيروان

---

[1] نبيل عبد الحي رضوان، **جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث** ، ط1،مكتبة الطالب الجامعي ،السعودية ، 1988، ص ص 314-315.

وعنابة، فيما كانت بقية المناطق وخاصة القبائل مستقلة عنها[1]، وقد وصف بن أبي دينار هذه الأوضاع المزرية بقوله:" واضطربت عليه البلاد و خرجت عن طاعته مدينة سوسة فقام فيها صهره القليعي، وقام عليه في القيروان الشيخ عرفة وكان من مرابطي القيروان من ذرية الشيخ سيدي نعمون وهو جد الشابيين،...وفي أيامه كانت قسنطينة في أيدي الترك، وإنما كان ولده احمد نائبا عن بلد العناب وفي أيامه تغلبت الأعراب على جل البلاد وكانت شوكة في أولاد سعيد لأنهم استقلوا بالبلاد بعد أولاد مدافع وشرخ لما انقرضوا فعاث أولاد سعيد في البلاد وهادنهم السلطان الحسن بستين ألف دينار على الوطن ..."[2].

وممّا زاد من كراهية الشعب له علاقاته الوثيقة مع فرسان القديس يوحنا في طرابلس الغرب ، وذلك حينما أبدى استعداده عام 937/1531هـ للتعاون معهم في السيطرة على المدن القريبة من طرابلس وتطهيرها من بؤر المقاومة الشعبية الطرابلسية وذلك خدمة لأهدافه في السيطرة على طرابلس التي لطالما كانت جزءا من أملاك الدولة الحفصية[3].فيما لم تكن هذه البادرة في التعاون مع الصليبيين من قبل السلطان الحسن الحفصي سوى تمهيد لما هو قادم من التحالف بل والإنضواء تحت راية شارلكان وهو ما تؤكده الرسائل المتبادلة بينهما. يبدو من ذلك أن سلطان الدولة الحفصية تخّوف من أن يلقى نفس مصير سالم التومي[4] وبعده بن القاضي في الجزائر.

منذ البداية أعلن الحسن الحفصي العداء للسكان المحليين وكذلك العثمانيين الموجودين بالجزائر وعلى رأسهم خير الدين بربروس، مخافة أن يتكرر ما حدث بالجزائر ويطلب

---

[1] محمد الهادي شريف ، **ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال** ، تع: محمد الشاوش ، محمد عجينة ، ط3، دار ساراس للنشر ، تونس ، 1993، ص ص 64-65.

[2] ابن أبي دينار ،المصدر السابق،ص ص 152-153.

[3] عامر أحمد عبد الله القبج ، **السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب الإسلامي (1492-1574م-897-982هـ)**، ط1،دار دجلة ،عمان ، الأردن ،2018،ص 451.

[4] كمال فيلالي ، **تاريخالمغرب الحديث من فتح القسطنطينية إلى سقوط قسنطينة (1453-1837) أساطير مؤسسة،هجرات، مؤسسات وثورات**، ط3، دار ألكسندر للطباعة والنشر، قسنطينة ، الجزائر،2018،ص 105.

السكان تدخل العثمانيين في تونس، و الذين كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لتخليص هذه الأخيرة من الأوضاع الكارثية التي كانت تعيشها، خاصة وأنّ السلطان مولاي الحسن أصبح غير محبوب من طرف السكان، وهذه عادة السكان المغاربة في مجملهم الذين يكرهون العمالة للأجنبي مهما كان فما بالك الإسبان الذين يطاردون إخوانهم بالأندلس وبلاد المغرب الإسلامي وهو بالضبط ما حدث بالجارة الجزائر حين استطاع خير الدين كسب قلوب الناس بسبب إصرار إخوته عروج وإسحاق على مقاومة الاحتلال الإسباني، إلاّ أنّ مولاي الحسن لم يستفد من هذه التجربة وتعاون مع الصليبيين الإسبان من أجل الحفاظ على ملكه الزائل لا محال، وهذا ما دفع بأهل تونس الخروج عليه بسبب ظلمه وغدره [1].

إنّ تدهور الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية كانت نتيجة حتمية لسياسة الحسن الحفصي في فرض الضرائب واستعمال القوة لإخضاع السكان، وأيضا إلى سيرته المليئة بالفسق والمجون والتي تتناقض تماما مع الإرث العلمي والحضاري للبلاد التونسية على مرّ العصور، كل هذه العوامل جعلت من تونس بين أمرين إثنين لا ثالث لهما، إمّا إعلان الولاء للخلافة العثمانية والمحافظة على وحدة البلاد وعلى ما تبقى من هيبة للحفصيين أو الانقسام و التحالف مع الصليبيين الإسبان الذين كانوا يتحينون الفرصة للتوسع في بلاد المغارب.

2-2- خضوع تونس للعثمانيين في سنة 1534م :

قبل خير الدين بربروس عرض الأمير الرشيد واصطحبه معه إلى استانبول، وتمكّن من إقناع السلطان العثماني سليمان القانوني بمهاجمة تونس، وفتحها خاصة وأنّ فتحها يمكّن الدولة العثمانية من بسط نفوذها على شمال إفريقيا. وقد ذكر القرماني في أخبار الدول وأثار الأول :" إنّ أهل تونس متضجرون من سلطانهم ، وهذا أخوه الرشيد عندنا، والناس يحبونه

---

[1] محمود مقديش ،**نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار** ، تح: علي الزاوي و محمد محفوظ ، مج1،ط1،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1988، ص 608، و ينظر:سامح آلتر ، المرجع السابق ، ص 112.

ويطيعونه ، فإن أمر السلطان سرت بالعمارة وذكرت لأهل تونس أن الرشيد معنا، فنملك تونس مع اتفاق من أهله لتكون البلاد كلها للسلطان... "[1]. إنّ لجوء الرشيد شقيق مولاي الحسن الحفصي سيمكن خير الدين من تحقيق أهدافه، إزاء ذلك أعطى الرشيد أهمية خاصة، وخصص له معاشا محترما، ومنح له حق الاستقرار في استانبول، وبعد أن أتم خير الدين إعداد الأسطول بشكل جيد، زوده السلطان العثماني سليمان القانوني بثمان آلاف جندي إنكشاري، وثمانمائة قطعة ذهبية، ثمّ أذن له بالتحرك باتجاه الشمال الإفريقي لاحتلال تونس، وطرد الإسبان منها بصورة نهائية[2].

إنّ اهتمام الجزائر العثمانية الفعلي بشؤون تونس في عهد البايلرباي خير الدين، عندما شهدت الدولة الحفصية اضطرابات داخلية وخلافات بين أمرائها على الحكم في عهد السلطان مولاي حسن الحفصي [3]، ولكن كان تجسيدها على أرض الواقع حينما كان القبودان خير الدين باشا يقوم ببناء أسطول قوي استعدادا لفتح تونس ، وكان السلطان سليمان قد اتخذ قرارا بفتحها وقام خير الدين بتوجبه حملته بتأييد من الباب العالي الذي رأى في موقع تونس أنه ذا أهمية كبيرة من عدة نواحي :

- بغية ضمان أمن مصر من ناحية وفرض سلطانه على إفريقيا من ناحية أخرى[4] .
- الجزائر العثمانية بدون تونس لن تكون لها أهمية كبرى ، ولا يستطيع العثمانيون تأمين الطريق الرابط بين استانبول والجزائر بحكم أن تونس تقع في الحزام الضيق للبحر الأبيض المتوسط الذي تقع على شماله جزيرة صقلية وشرقه مالطا وجنوبه الشرقي

---

[1] أحمد بن يوسف القرماني ، **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ**، در و تح : أحمد حطيط و فهمي سعد، مج2،ط1،دار عالم الكتب،1996 ،ص ص 414-415.

[2] التر، المرجع السابق ، ص 110.

[3] بن أبي دينار ، المرجع السابق ، ص ص 160-163.

[4] التر ، المرجع السابق، ص 110.

طرابلس التي كانت تحت سيطرة الفرسان القديس يوحنا[1] ولتونس أهمية كبيرة في تأمين المواصلات بين الحوضين الغربي والشرقي للمتوسط وبين مقر الدولة العثمانية وإيالة الجزائر[2].

- تمكّنه من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط لما يمثله من أهمية في التجارة الدولية ولأنّها أيضا تقع في الوسط بين الجزائر وطرابلس الغرب.
- لها أهمية كبيرة في توطيد الحكم العثماني في الجزائر، بل وفي السيطرة على كل شمال إفريقيا وقد أدرك القبودان خير الدين أهميتها لا سيما وقد عانى كثيرا من مؤامرات سلطات تونس الحفصية منذ دخوله إلى الجزائر [3].
- قرب تونس من شبه جزيرة إيطاليا التي كانت تشكل أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة .
- مجاورة تونس لمالطا نجد فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين لشارلكان وأشد الطوائف المسيحية عداءا للإسلام .
- الإمكانيات الهائلة التي تنتجها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر الأبيض المتوسط[4] .

توّجه خير الدين بأسطوله نحو تونس فوصل إلى بنزرت في 15 أوت سنة 1534م وعندما علم سلطان تونس مولاي الحسن بوصول العثمانيين ، صار يجول شوارع مدينة تونس يطلب نجدة الأهالي ، إلاّ أنّ التونسيين لم يستجيبوا لندائه بسبب أنّهم كانوا ناقمين عليه، وفي اليوم الموالي دخل خير الدين حلق الوادي دون عناء، وبعدها توّجه إلى مدينة تونس التي فتحت له أبوابها واستقبله أهلها الذين كانوا يعتقدون أنّه أحضر معه الأمير الرشيد

---

[1] وولف،المرجع السابق،ص ص 45-46.

[2] نبيل عبد الحي رضوان ، المرجع السابق ، ص315.

[3] م دراج ،المرجع السابق، ص 282.

[4] نبيل عبد الحي رضوان ، المرجع السابق ، ص 318.

لينصبه على العرش، لكنّ خير الدين كان ينوي إلحاق تونس بالخلافة العثمانية مباشرة فلمّا علم الأهالي بذلك، اتصلوا بمولاي الحسن، وطلبوا منه العودة إلى تونس من أجل طرد الأتراك[1].

لقد أورد مارمول كربخال باعتباره من المصادر الهامة المعاصرة لتلك الفترة بعض التفاصيل عن كيفية استيلاء خير الدين على تونس بقوله :"...ولما نزل باربروس ذهب توا إلى تونس ومعه تسعة آلاف من الأتراك جاء بهم على متن ستين سفينة حربية ، وقد دخل تونس من باب عليوة... وقد استقبله أهل المدينة بابتهاج كبير وعبروا له عن امتنانهم له بالمجيء، ولما علم الأهالي أن الكلام يدور حول سليمان ، وبربروس ، ... وأنّ الرشيد بقي بالقسطنطينية، وانكشفت الخديعة ،وقد أرسلوا على وجه السرعة في طلب الحسن ، ثم حملوا السلاح، وبدءوا يقاتلون الأتراك ويعاملونهم معاملة العدو، ولما رأى بربروس أنهم بصدد التضييق عليه أمرالفرسان بشن الغارة عليهم، وما لبثوا أن اضطروا إلى الاستسلام وإلى قبول الملك الأعظم أميرا عليهم وقد بادر بربروس إلى تهدئة الناس وغلى التحالف مع من بتلك الجهات من الأعراب [2]، ثم استعمل هؤلاء في الاستيلاء على بعض المدن وجعل حاميات تركية بالقيروان وغيرها ... ، أمّا مولاي الحسن فقد فر إلقوم من أصدقائه الأعراب ومكث عندهم "[3].

تطلّع مولاي الحسن إلى العودة إلى سلطانه في أقرب وقت وعدم الاستسلام وإتاحة الفرصة للأتراك خاصة بعد مساندة الأهالي له، وخرج إلى تونس بجيش قوامه أربعة آلاف

---

[1]DE la primaudie ,**Documents inédits...Loccupation Espagnole En Afrique (1506-1574)**,in R.A,Alger,1875,T19 , p p 345-346.

[2] اعترف خير الدين للمشايخ بامتيازتهم العقارية والجبائية ، ينظر : محمد الحبيب العزيزي، **ظاهرة الحكم المتجول في بلاد المغرب العربي الحديث** ، الحلة التونسية نموذجا ، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث ،إشراف: عائشة غطاس، قسم التاريخ ، جامعة الجزائر ، (2006-2007م)،ص 237.

[3] مارمول كربخال،المصدر السابق، ج3 ، ص ص 31-32.

جندي، وبعد مواجهات عنيفة تمكّن مولاي الحسن من التغلب على خير الدين بربروس ممّا اضطّر هذا الأخير إلى طلب إمدادات جديدة، تمثلت في ألف وثمانمائة مقاتل ، مزودين بأسلحة نارية، فأرغم مولاي الحسن على الفرار، بعدما قتل من رجاله ثلاثمائة جندي، أمّا الأهالي فأعلنوا ولائهم لخير الدينسلطان تونس الجديد [1].

توجّه مولاي الحسن إلى مدينة القيروان فهناك وجد أنصار له، فجمع حوالي خمسة عشر ألف متطوع، وما إن سمع خير الدين بذلك حتى جمع بدوره خمسة عشر ألف جندي وثلاثين مدفعًا، ونقلها باتجاه مولاي الحسن، الذي فرّ تحت نيران المدفعية، وأعلن التونسيون ولاء الطاعة للسلطان العثماني سليمان القانوني، بينما فرّ السلطان الحفصي نحو حلفائه الإسبان أسوة بكثير من الحكام المغاربة[2].

كانت الظروف تدعو إلى التعاون بين الحسن الحفصي والصليبيين فوجد التشجيع من قائد فرسان مالطة، واتصل بنائب ملك نابولي، وبعد نصيحة منه وجّه رسالة إلى شارل الخامس، تحمل معنى التآمر والخيانة جاء فيها" إنّ رئيس الترك باربروس ظلمني وأخذ مملكة آبائي وأجدادي من يدي، وكان الحامل له على ذلك ما علمتم ما بيني وبينك من الصداقة والمولاة، فالجواب (فالواجب) عليك أيها الملك أنك تعينني ... على رد مملكتي ...فإن استولينا عليها، تكون البلاد لك وأنا أكون مثل النائب عنك فيها"[3]. يتضح من هذه الرسالة مدى الإستعداد من طرف الحاكم الحفصي للتحالف مع الإسبان.

وجد الحسن الحفصي التجاوب من طرف الإمبراطور شارلكان، لأنّ هذا الأخير اعتبر وجود خير الدين باشا في تونس وضمّها إلى الدولة العثمانية سيزعجهم كثيرا، كما حدث في

---

[1]DE la primaudie, op.cit ,p p 345-346.

[2] التر، المرجع السابق،ص 113.

[3]مجهول ،**سيرة**...، المصدر السابق، ص ص 183-184.

الجزائر من قبل وهما الدافعان لتسير حملة على تونس[1]، وهو ما يذكره خير الدين بقوله :" لم يتأخر هذا السلطان في الاستنجاد بالملك كارلوس(شارلكان) لاستعادة عرشه ، فلبى هذا الأخير الدعوة وعلمت بأنّه سوف يتجه إلى تونس لإخراجنا منها ولأجل ذلك شرعت على الفور في الاستعداد للتصدي له"[2].

كانت الدولة العثمانية خلال هذه الفترة في صراع مستمر مع الفرس الصفويين ولكنّ أخبار خير الدين كانت تصل إلى السلطان سليمان القانوني. استغل الملك شارلكان انشغال الدولة العثمانية في حروبها الخارجية و الاستفادة من هذه الفرصة الذهبية لغزو تونس والملاحظ أنّ الصراع تركّز بشكل أساسي في مثلث .تونس.مالطا.طرابلس وهذا الجزء مهم من منطقة البحر الأبيض المتوسط[3].

2-3- الحملة الإسبانية الصليبية على تونس (942هـ/1535م):

2-3-1- الإستعدادات الإسبانية:

تضرّرت مصالح الإمبراطورية الإسبانية من نجاح خير الدين باشا وانتصراته في الشمال الإفريقي بخسارتها حلفائها الحفصيين من جهة، والأهم من ذلك تقلص النفوذ الإسباني في منطقتهم بحد ذاتها، وينعكس كل هذا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ألمانيا وإيطاليا وكذلك هولندا والإمبراطورية النمساوية، وغيرها من التحالفات الأوروبية مع الإمبراطورية الإسبانية والتي كانت تدافع عن أوروبا المسيحية من الخطر العثماني في غرب ووسط أوروبا، وتحول الصراع العقائدي إلى حرب على الغنائم بين الإمبراطور شارلكان

---

[1] شارل اندري جوليان ، المرجع السابق ، ص331.

[2] بربروس ، المصدر السابق ، ص ص 171-172.

[3] المدني ،**حرب الثلاثمائة** ...، المرجع السابق، ص ص 229-230.

وبايلرباي الجزائر خير الدين، فكانت المواجهة بينهما بمثابة فتح جبهة عسكرية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الإفريقي[1] .

شكّل انضمام تونس إلى الحكم العثماني قلقا في أوروبا المسيحية عامة وفي اسبانيا بشكل خاص، لأنّه أظهر خطرا حقيقيا لدى شارلكان نظرا للموقع الاستراتيجي الهام لتونس و تهديد مباشر وحقيقي لإسبانيا ولتجارتها، لذلك قرّر غزو تونس بحجة الاستجابة لنداء المساعدة الصادرة عن السلطان الحفصي مولاي الحسن وفرسان مالطة[2].

أراد الملك شارلكان قبل حملته على تونس أن يسخّر لها كل الوسائل والمعلومات وما يجري في تونس من أجل ضمان نجاح السيطرة على البلاد فقام بإيفاد جواسيس إلى تونس سنة(941هـ/1534م) من بينهم لويس بريزيندا (Luis Presenda) الذي تنكر في زي تاجر وقد ورد في مذكراته التي بعث بها إلى الإمبراطور الإقتراحات التالية :

- في حالة وجد الحسن الحفصي في تونس ، فإن بريزيندا سيحاول الإيقاع بينه وبين خير الدين ، ويقنعه بطلب العون من الإمبراطور شارلكان لطرد العثمانيين من بلاده.
- في حالة كان الحسن الحفصي خارج تونس ، وخير الدين هو السيد في تونس فإنه يحاول الإتصال بالحسن الحفصي، ويعده بمساعدة الإمبراطور للدخول إلى تونس.
- محاولة زرع الفتنة والبلبلة بين خير الدين وقواد الجيش وإن أمكن القضاء عليه.
- بالإضافة إلى ذلك اقترح بريزيندا بأنّه يستطيع أن يكون صديقا لخير الدين ، ولكي يمكن له ذلك يجب أن يسود على إفريقيا ومناطق المغرب المجاورة لإسبانيا، وبالتالي يكون

---

[1] جوليان ، المرجع السابق، ص ص 334- 335.

[2] إيفانوف نيقولاي ، المرجع السابق، ص194.

جار إسبانيا طاغية يهدد مصالحها في أي لحظة، لكنّه نصح بعدم الدخول في مفاوضات مع خير الدين، لأنه كان يعرف مدى إخلاصه للسلطان العثماني [1].

لقد كان إهتمام و إصرار الصليبيين في السيطرة على تونس كبيرا خلال هذه الفترة فنجد في رسالة الراهب خوان دي إريبس، يوصى الدكتور أرسيلا(Ercilla) مستشار الإمبراطور بالتعجيل بالحملة التي يتم التحضير لها، واقترح أن تكون في شهر مارس[2]. وذلك يسهل من إعادة إجتلال الجزائر وضمها إلى الإمبراطورية الإسبانية.

بدأ الملك الإسباني شارلكان بإعداد حملة صليبية كبيرة على تونس، و تمكّن من جمع أسطول ضخم يتألف من أربعمائة قطعة بحرية من مختلف الأنواع، والأحجام، وقد كانت مؤلفة من أكثر من اربعمائة سفينة، فيها تسعون سفينة ملكية وتحمل لقوات قدرت بأربعة وعشرين ألف جندي وخمسة عشر ألف فرس وكان الجيش مؤلفا من قوات إسبانية وألمانية وإيطالية وبرتغالية [3]. بينما تذهب مصادر أخرى إلى أنّ العدد الحقيقي كان ستة وعشرين ألف وخمسمائة رجل، إضافة إلى عدد من المؤرخين الأوروبيين الذين تم استخدامهم لتسجيل مجريات الحملة[4].

ومن بين المصادر المهمة التي وصفت كيفية إعداد الإمبراطور شارلكان للحملة على تونس، كتاب افريقيا لصاحبه مارمول كربخال الذي يقول فيه: " ... فقرر أن يخرج بنفسه إلى هذه الحملة المقدسة و أعطى أوامره سرا بأن تعد للحرب سفنه (القاليرات) في موانئ اسبانيا، جنوة، ونابولي،وصقلية، وأن تعد مع سفن الحرب سفن أخرى للنقل ضخام وأن

---

[1]De la praimaudaie, Documents ,**mémoire de Luis Presenda Envoye en Mission A Tunis Madrid,7 November 1534**.R.A,t19,1875,pp 338-340 .

[2]De la praimaudaie, **Documents relation du Frere Juan de Iribes sur les evenements deTunis,4janvier1535**,t19,1875,p349.

[3]جون وولف ، المرجع السابق ، ص ص 47 – 48.

[4] ألفونص روسو ، **الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر** ، تح: محمد عبد الكريم الوافي ، منشورات قار يونس ، بنغازي ،د.ت.ن ، ص ص 88-89.

تشترى الأقوات، والذخائر وغيرها من لوازم الحرب، وكتب الإمبراطور إلى الدون يان Do Yan ملك إسبانيا، بأن يبعث إليه غليونه، أي سفينته الشراعية الحربية الكبرى، وكذا عددا من قطع أسطوله الحربي"[1]. لقد نقل الفونص روسو إحصائيات هذه الحملة الصليبية في كتابه الحوليات التونسية[2] :

أ- **القوات البحرية:**

- القوات الإسبانية الجنوية الفلاندرية : 54 سفينة من نوع غالير (Galeres) ، 70 سفينة كبيرة و 24 سفينة إبريقية (Bricks) ، وكانت القوات تحت إمرة أندري دوريا .
- القوات البرتغالية تتألف من 27 سفينة تحت إمرة انطونيو سالدانا (Antoinede Sadanha) .
- القوات الإيطالية المالطية : تتألف من 36 سفينة من نوع غاليار و 28 سفينة كبيرة تحت إمرة ألفار بزان (Alvar Bazan) بالإضافة إلى الكثير من وسائل النقل الأخرى .

ب- **القوات البرية :**

- القوات الإسبانية تعدادها 4000 مقاتل من قدماء المحاربين الإيطاليين بقيادة الجنرال الماركيز دي جوا زات (Marquisde Guats) .
- القوات الإسبانية – المقاتلين الجدد : تتكون من 8000 جندي بقيادة فرديناند الطليطلي (ferdinand de toletdo) .
- القوات الألمانية تتكون من 7000 مقاتل بقيادة ماكسيمليان بيدرا بونيا (Maximillian piedra Buena).
- القوات الإيطالية تتكون من 4000 رجل ، بقيادة الأمير سالران.
- القوات البرتغالية تتكون من 2000 رجل ، بقيادة دون لويس ابن ملك البرتغال.

---

[1] مارمول كربخال ، المصدر السابق ، ج3،ص33.

[2] ألفونص روسو ، المرجع السابق، ص ص 88-89.

- الفرسان من النبلاء من جميع الأمم الأوربية ، قارب عددهم 1000 رجل ، بقيادة الماركيز دي مونديخار (marquis de mondejar) بالإضافة إلى 500 فارس إسباني[1].

2-3-2- ردود الفعل العثمانية :

إنّ مشاركة كلّ هذه الجنسيات المختلفة من الممالك الأوروبية في الحملة الصليبية على تونس يؤكد أنّها كانت تحالفا أوروبيا ضدّ البلاد الإسلامية، لذلك لم يكن أمام خير الدّين في ظلّ هذه المعطيات إلاّ طلب النجدة من السلطان العثماني، لكنّ السلطان كان منشغلا بحربه في آسيا[2]، رغم هذا حاول خير الدين عند علمه بتحضير شارلكان للحملة على تونس استباق الأحداث ومباغتة الصليبيين، و في هذا الصدد جاء في مذكراته :" وفي ذلك الشتاء أرسلت بعض سفني لضرب السواحل الإسبانية في غرب البحر الأبيض المتوسط ، وأمّا أسطولي أرسلته الذي وجهته للإغارة على سواحل سيردينيا فقد عاد محملا باثنتي عشرة ألف دوقة ذهبية، وأربعمائة وخمسة وسبعين أسيرا بالإضافة إلى غنائم أخرى "[3].

---

[1]والملاحظ في هذه المسألة أنّه هناك إختلاف في إحصائيات الحملة الإسبانية ، فنجد مرمول كربخال يذكر أن عدد السفن كان 400 وعدد جنود البحرية 24000، ينظر : مارمول كربخال ، المصدر السابق، ج3، ص ص 34-35، ويوافقه في ذلك جون وولف ، ينظر ،جون وولف ، المرجع السابق، ص 48. وأيضا يكاد يقترب من نفس الإحصائيات سامح آلتر الذي وصف الجيش بأنه لم يكن له مثيل حيث تكون من 20000 من المشاة و ألفين من الخيالة وعددا كبير من المدافع وأسطول مكون من 200 سفينة ،. ينظر ، سامح آلتر ، المرجع السابق، ص ص 114-115.امّا خير الدين بربروس فقد ذكر أن الجيش الإسباني متكون من 30000 جندي و 500 سفينة وهو عدد متقارب مع ما ذكره مرمول كربخال المعاصر أيضا للحادثة . ينظر : خير الدين بربروس ، المصدر السابق، ص 175. أمّا المصادر العربية فقد اختلفت كثيرا عن هذه الإحصائيات ، فنجد بن أبي دينار يذكر أن عدد الجنود كان 100000 مقاتل ، ينظر : ابن أبي دينار ، المرجع السابق، ص 154.

[2]Ernest Mercier,op.cit ,p36.

[3]بربروس ، المصدر السابق ، ص 172.

وفي خضّم هذه الأحداث والاستعدادات يبدو أنّ خير الدين لم يكن على علم بأمور الحملة الإسبانية إلاّ بعد عمليات الإنزال عند برج بحلق الوادي، وهو ما سيعرقله في إتخاذ الإحتياطات و الاستعدادات لمواجهة الإسبان[1].

أمّا مارمول كربخال فيؤكد على أنّ خير الدين كان على علم بخبر الحملة الإسبانية مسبقا، بل و تلقى أخبار مفصلة حولها، حتى علم أن الملك شارلكان سيقودها بنفسه، وهو دلالة واضحة على أهميتها بالنسبة للصليبيين، لذلك سارع إلى طلب النجدة من السلطان العثماني سليمان القانوني كما اسلفنا الذكر، وجاء في كتاب إفريقيا :" إنّ باربروس علم بتلك الاستعدادت ولكنّه لم يتآكد منها بصفة تامة إلاّ عندما حل بحلق الوادي في سفينتين حربيتين راهب فلورنسي، مبعوث من ملك فرنسا إلى إمبراطور الترك في شأن بعض أغراضه فاخبره بربروس بجميع ما يتعلق بالاستعداد للحملة مؤكدا له أنّ الإمبراطور سيشارك في الحملة بنفسه، وعندئذ بادر بارباروس بإرسال مركبين صغيرين إلى القسطنطينية أحدهما تلو الآخر بقصد إطلاع السيد الأعظم والباشوات على الحالة التي توجد عليها شؤون افريقيه، وإبلاغهم بضرورة التعجيل بالأنجاد، وإلاّ ضاع جيش البحر، وضاعت معه ولايات الترك في بلاد البربر "[2]

شرع خير الدين في تحصين المدينة و التحضير لمواجهة الحملة الإسبانية، فأقام الحواجز في مضيق حلق الوادي، ونصب المدافع، وتم تجهيز اثنتي عشر سفينة حربية كانت راسية في الميناء، بينما قام بإخفاء سفن أخرى عن الأنظار وكان عدد قوات خير الدين حوالي سبعة آلاف جندي منهم خمسة آلاف تركي و الفين من التونسيين [3]. في حين يشير ابن ابي دينار إلى أنّ عدد قوات خير الدين ومن تحالف معه من أهالي تونس كان

---

[1]مجهول، **سيرة**...، المصدر السابق، ص 185.

[2] كربخال ، المصدر السابق، ج3،ص 33.

[3]Erneste Mercier,op.cit,p36.

ثمانية عشر ألف " ولما نزلت النصارى قابلتهم الأتراك، ومن انحاز إليهم من المسلمين وعددهم ثمانية عشر الفا..."[1].

وممّا لا شك فيه في أنّ النزعة الدينية الصليبية كانت هي أساس هذه الحملة، فقد قابلها من جانب المسلمين إلقاء المواعظ والخطب لرفع المعنويات القتالية بين الأهالي والجنود الذين طلب منهم الاستشهاد من أجل الإسلام والدفاع عن الأرض، وقد تم تشكيل مجموعات مسلحة، أمّا في المدينة وضواحيها فاتخذت تدابير أمنية استثنائية، كما أصدر خير الدين باشا أمرا بتصفية قرابة 12000 أسيرا كانوا موجودين في العاصمة لشكه في إخلاصهم لكنّه بعد ذلك تراجع وأبقاهم على قيد الحياة مكبلين بالأصفاد في زنزانات الدولة وزنزانات الخاصة[2].

2-3-3- تفاصيل المواجهة الأوروبية الإسلامية :

إنطلق الأسطول الإسباني في 31 ماي 1535م والمتكون من 450 قطعة بحرية تحمل 30 ألف رجل من برشلونة تحت قيادة شارل الخامس الذي بلغ خليج تونس يوم 15 جوان على الرغم من المقاومة العنيفة إلاّ أنّه استطاع الاستيلاء على حلق الوادي[3] في 14 جويلية، ما دفع خير الدين إلى الانسحاب، وبعدها تدعم الصف الإسباني مجدد بعرب القيروان إلى جانب مولاي حسن حليف الإسبان[4]، وانسحب خير الدين إلى مدينة تونس بعد سقوط قلعة حلق الوادي، بهدف الدفاع عنها والاحتماء به، وفي 17 من شهر جويلية تحرك

---

[1] ابن أبي دينار ،المصدر السابق،ص 154.

[2] إيفانوف نيقولاي، المرجع السابق، ص194.

[3] لم تسقط قلعة حلق الوادي منذ بداية الهجوم، فقد استطاع المدافعون عنها الصمود، وتمكنوا من إلحاق خسائر فادحة في صفوف جنود الحلف العسكري الإسباني، وحتى هذه المرحلة سارت موازين القوى العسكرية في صالح التونسيين. وللمزيد ينظر: عامر أحمد عبد الله القبج، المرجع السابق، ص 492.

[4] صالح عباد ،المرجع السابق ، ص62.

الإمبراطور شارلكان بقواته إلى مدينة تونس وكان في طريقه يقطع أشجار الزيتون، ويحرق القرى التي صادفها[1].

وعند وصول الإمبراطور شارلكان إلى مدينة تونس في 21 جويلية دار بينه وبين خير الدين قتال عظيم، يذكر صاحب كتاب المؤنس بقوله: "... والتقى الجمعان بخربة الكلخ شرقي تونس، وخير الدين معهم، وانتشب القتال بينهم وكانت مقتلة عظيمة... "[2].

وفي أعقاب هذه الأحداث تمكن عشرة آلاف أسير مسيحي من الفرار من السجون فحوصرت تونس حصارًا شديدًا فما كان على خير الدين إلا مغادرتها صحبة خمسة آلاف رجل تاركا وراءه العديد من الجنود والعتاد [3]، وعلى إثرها حقق شارل الخامس انتصارا، حيث أمر جنوده بنهب المدينة عقابا لسكانها الذين لم يحسنوا استقبال مولاي حسن بحفاوة [4]، فقد أشار بن أبي دينار إلى هذا بقوله:" وهذه الواقعة هي المعبر عنها بمخطرة الأربعاء وكان السلطان الحسن أباح البلاد للنصارى ثلاثة أيام ... وقيل في هذه الواقعة أسر الثلث ومات الثلث ، وهرب الثلث ... عدد كل ثلث ستون ألف . وكانت هذه الواقعة سنة إحدى وأربعين وتسعمائة"[5]، وعلى إثر هذا الانتصار وقّع مولاي حسن معاهدة مع شارل الخامس ، وقد تضمنت المعاهدة[6] ما يلي :

1_ إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين الموجودين في تونس .

---

[1] جون وولف ، المرجع السابق ، ص 48.

[2] ابن أبي دينار ،المصدر السابق،ص 154.

[3] مجهول ،**سيرة**...، المصدر السابق، ص ص 187-189.

[4] تجدر الإشارة هنا إلى موقف القبائل التي كانت تناصر الملك الحفصي في السابق ضد خير الدين باشا ، فقد أصبحت في حل من تلك المناصرة بسبب رفضها القتال إلى جانب الإسبان ، مما يبرز من جديد المواقف المشرفة التي وقفتها شعوب المنطقة حيال النزعة الاستعمارية الصليبية في بلاد المغرب فشكل هؤلاء أغلبية مقابل تلك التي ارتضت لنفسها التعاون مع المحتل. ينظر : عامر أحمد عبد الله القبج، المرجع السابق، ص490.

[5] ابن أبي دينار ، المصدر سابق، ص 155.

[6] ينظر الملحق رقم 2 .

2_ السماح للمسيحيين بالمتاجرة لهم بالصيد في الشواطئ التونسية ، وبناء الكنائس في مدينة تونس.

3_ دفع 12000 دوقة سنويا و 12 حصانا للملك[1].

4- أن يتنازل مولاي الحسن الحفصي لشارلكان عن الموانئ التونسية وهي : حلق الوادي ، عنابة والمهدية ، ليقيموا بها حاميات إسبانية[2].

5- كما توعدت إسبانيا في المقابل بحماية تونس ، حيث ترك شارل الخامس حامية تضم 1200 رجل و 10 قاليات من أجل حمايتها، أمّا بخصوص الشروط فإذا تخلف مولاي حسن عن أي شرط سيدفع 50000 دوقة وفي المرة الثانية 100000 دوقة وفي المرة الثالثة تؤخذ منه البلاد[3].

تشير بعض المراجع إلى أنّ عدد التونسيين الذين قتلوا على يد الإسبان خلال ثلاثة أيام كان أكثر من سبعين ألفا من كل الأجناس والأعمار[4]، وأن كل مدخرات تونس وخيراتها ونفائسها، وأسواقها، قد ذهبت ضحية النهب والسلب، ولا يوجد في تاريخ المسلمين أشد فظاعة من تلك المذبحة[5].

لقد كان لنجاح حملة شارل الخامس في السيطرة على تونس صدى واسع في الممالك والدول الأوروبية مؤكدة على استمرار وتجدد الصراع الحضاري بين ضفتي المتوسط وبين إسلامي مسيحي من جهة وصراع بين الشرعية واللاشرعية، فالشرعية هي تنحية الملك الحفصي من سلطته في تونس وهو الأحقّ بها، واللاّشرعية التي يمثلها خير الدين بربروس

---

[1] عباد ، المرجع السابق، ص 63.

[2] ينظر الملحق رقم 03.

[3] التر ، المرجع سابق، ص ص 119-120.

[4] روسو، المرجع سابق، ص 90.

[5] المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة** ...،المرجع السابق ، ص233.

المغتصب للحكم وهذا يعد باطلا [1]، ليغادر هذا الأخير إلى الجزائر وبقي بها إلى غاية شهر ديسمبر من نفس السنة ومنها انتقل للأستانة لتولي قيادة الأسطول العثماني[2].

إنّ الاستيلاء على تونس قد عزز مكانة الملك الإسباني، وبالتالي حماية مصالح الإمبراطورية الإسبانية في الحوض الغربي والبحر الأبيض المتوسط عموما، فحلق الوادي الواقع على الطريق الجنوبي من مضيق صقلية قد أكملت تقريبا مراقبته على مدخل غرب البحر الأبيض المتوسط، وذلك من خلال سيطرة الحكام التابعين لشارلكان في صقلية مالطة ، طرابلس وحلق الوادي، وبهذا يمكن له أن يصد فعلا أي اعتداء من جهة الشرق[3].

يبدو جليا أنّ الهدف الأساسي لحملة شارلكان على تونس هو القضاء على النفوذ العثماني الذي يهدد بصفة مباشرة المشروع التوسعي الإسباني في بلاد المغارب والبحر الأبيض المتوسط عموما، وبما أنّ الحاكم الحفصي سعى أيضا لطرد الأتراك والحفاظ على عرشه، وهو ما انعكس بالإيجاب في تثبيت أركان الدولة الحفصية المتحالفة مع الإسبان خلال هذه الفترة.

بقيت تونس بين مد وجزر إلى غاية النصف الثاني من القرن 16م ، فانشغال شارل الخامس بحروبه مع الأتراك تارة ومع الفرنسيين الذين أصبحوا في تواصل مع العثمانيين، تارة أخرى ، جعله لا يعزز من التواجد الإسباني بها، وفي ظلّ استمرار الخلافات بين سلاطين الدولة الحفصية وصراعهم على العرش والثنائية في المواقف لهؤلاء وتحالفهم مع الأتراك مرة والإسبان مرة أخرى ، جعل أوضاع البلاد تبدو في صورة غير واضحة المعالم.

---

[1] حسام الدين شاشية ،" **مراجعة مؤلف جماعي" تونس 1535 أصوات من حملة أوربية** " ، الكراسات التونسية ، ع 218-219، تونس ، 2014، ص ص 92-93.

[2] المدني،**حرب الثلاثمائة سنة** ...، المرجع السابق ، ص242.

[3] وولف ، المرجع السابق ، ص 50.

3- التحالف العثماني الفرنسي وتداعياته على المغارب :

3-1- ظروفه و دوافعه:

لقد كان القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري بالنسبة للدولة العثمانية قرنا محوريا إذ شهد تغيرا كبيرا على جميع المستويات، وعرف أيضا بقرن المجابهات الحربية بين مختلف الأطراف، فهو بلا شك قرن التحولات الضخمة في الأنظمة السياسية والاتصالات المباشرة والبعثات التي حصلت بين أطرافه عبر البحر الأبيض المتوسط، وهو أيضا قرن التحالفات الظرفية والمنافع العاجلة، بالإضافة إلى الصراع العثماني الإسلامي مع القوى المسيحية الأوربية[1] في مناطق شتى من العالم، ومن بينها بلاد المغارب.

يعتبر عصر السلطان سليمان القانوني الفترة الذهبية للدولة العثمانية إذ بلغت ذروة المجد والتطور في مختلف المجالات والميادين، وهذا ما أشار إليه المؤرخ الفرنسي " لاجوان كيير"(La Jon quiere) بقوله : " إنّ عصر سليمان القانوني لم يكن له نظير ، سواء من جهة الفنون والآداب ، أو من جهة المفاخر الحربية سوى "عصر لويس الرابع عشر " في فرنسا، مع الفرق بأن دور سليمان انتهى كما بدأ في عنهجية الظفر، ولم تكن نهايته إدبارا وبدايته إقبالا "[2]، فقد تمكّنت الدولة من بسط سيطرتها على أغلب مناطق العالم الإسلامي وبعض الدول من منطقة جنوب شرق أوربا، وقد ربطتها علاقات خاصة مع أوروبا، باعتبار أن جزءا من أراضيها قد امتد نحوها، وهو ما يجعل الدولة العثمانية في حتمية إلى حد ما

---

[1] إدريس ناصر رائسي ، **العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر** ، دار الهادي للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2007، ص 55.

[2] نقلا عن شكيب أرسلان ، **تاريخ الدولة العثمانية** ، تح وتع : حسن السماحي سويدان ،ط1، دار ابن كثير ، دمشق، سوريا ،2011، ص 164.

تربط علاقات متعددة مع الدول الأوروبية، ولعلّ من أهمّها علاقاتها المتميزة خلال هذه الفترة مع فرنسا في إطار ما عرف بالامتيازات الأجنبية[1].

أدّى الوضع السياسي المعقد الذي تعيشه الدولة العثمانية في علاقاتها مع الدول الأوروبية من جهة والدولة الصفوية من جهة ثانية إلى تراجع وتقلص مداخيلها، إضافة إلى أنّها أصبحت تواجه أخطار التطويق البرتغالي البحري الذي استهدف المحيط الهندي، كما أنّهم عملوا على تحويل طريق التجارة القادمة من الهند في اتجاه المشرق العربي ومن ثمّا إلى أوروبا، وما زاد من خطورة الوضع الاستنزاف الصفوي من الجهة الشرقي، كما أقام الصفويون تحالفات مع البرتغاليين، وشهدت حركة التجارة البحرية بين المرافئ الإفريقية الواقعة على الساحل الشرقي للجزيرة العربية انخفاضا كبيرا مما نتج عنه تناقص فاضح في النقد الذهبي في العالم الإسلامي المتوسطي[2].

إنّ إنشغال الدولة العثمانية بالجوانب السياسية والعسكرية خاصة والمتمثلة في الفتوحات حدّ من تنمية وتطوير الجوانب التجارية الإقتصادية وأدّى بها إلى البحث عن وسائل جديدة ومستعجلة تستطيع من خلالها تحقيق بعض أهدافها الاقتصادية وإنعاش تجارتها لتلبية الحاجات الضرورية للدولة بالدرجة الأولى، فقامت بعقد عدة اتفاقيات ومعاهدات سمحت بموجبها بمزاولة أعمال وأنشطة ذات طابع تجاري في الأراضي التابعة لها[3]، فحينما بلغ العثمانيون مراتب القوة والعظمة والمجد وجدوا أنفسهم أمام حتمية الانفتاح و توسيع علاقاتهم لأجل تطوير مواردهم الاقتصادية والمالية، لذا عقد السلطان سليمان القانوني معاهدة امتياز

---

[1] إختلف العديد من الباحثين والمؤرخين حول تعريف الإمتيازات ، وبما اننا نتناول التحالف الفرنسي العثمانس فإنني أرى بأنّ تعريف المؤرخ التركي يلماز أوزتونا هو المناسب لهذا الحدث وله ما يبرره من خلال المظاهر التي سنقف عليها وبالتالي تعرف الإمتيازات بأنها : "معاهدة مساعدة لتنمية فرنسا عسكريا واقتصاديا والحيلولة دون وقوعها لقمة سائغة لألمانيا وإسبانيا"، ينظر : يلماز أوزتونا، المرجع السابق ، ص 300.

[2] رائيسي ،المرجع السابق ، ص ص 258-259.

[3] رائد سامي الدوري ، **معاهدة الامتيازات العثمانية الانجيلزية 1580**،**أسباب عقدها -بنودها - نتائجها** ، **(دراسة تحليلة تاريخية)**، مجلة الدراسات التاريخية والحصضارية ، جامعة بغداد ، مج 4 ، ع 13 ، حزيران 2012، ص01.

مـع فرنسـا غيـر أنّ هـذه المعاهـدة تختلـف عـن المعاهـدات[1] السـابقة كونهـا تتميـز بتقـديم تسهيلات بشكل واسع لفرنسا، التـي لـم تكن سوى مقدمـة لعقد عدة معاهدات واتفاقيات مـع دول أوروبية أخرى رأت من خلالها هذه الأخيرة حماية مصالحها والتموقع وتوسيع النفوذ في مناطق استراتيجية في إطار التحالف أو التعاون العثماني الأوروبي[2].

ومن الدوافع التي شجّعت العثمانيين على منح تلك الامتيازات للدول الأوروبية عموما وفرنسا بصـفة خاصـة، تكمن بالأسـاس من أجل استخدامها كحليف بواسطته تأخذ الشرعية بالتـدخل العسـكري لمحاربـة شـارلكان وصـد توسـعاته علـى حسـاب بـلاد الإسـلام، وذلـك عـن طريـق اسـتخدام قـوة أسـطولها البحـري وجيشـها النظـامي، وبهـذا تكـون الدولـة العثمانيـة قـد أوجدت فرصا سانحة تمكنها من أداء دور عسكري مهم على الساحة الأوروبية، والوقوف فـي وجه نفوذ الإمبراطورية الإسبانية عن طريق حث فرنسا على عدم الاشتراك في تلك العمليات البحرية المسيحية ضد الدولة العثمانيـة فـي البحـر المتوسط[3]، إلّا أنّ الكنيسـة سعت دائما إلـى توحيد الجهود لمواجهة الإسـلام رغم الإختلاف والصراعات بين الأمم الأوروبية خاصـة بين فرانسوا الأول ملك فرنسا وشارلكان[4].

---

[1] تجدر الإشارة إلى أنّ المعاهدات التجارية للدولة العثمانية الرسمية ليست وليدة القرن 10ه/16م، بل كانت أول معاهدة تجارية مع جنوة 1332م، منحت بوجبها امتياز حق إنتاج وتصدير المواد الأولية التي تدخل في صناعة الأقمشة الأوربية .

[2] عرف تاريخ الدبلوماسية الحديثة نظام التحالف (الأحلاف) في طليعة الوسائل الدبلوماسية ، فلقد كان ينظر له طوال القرن الثامن عشر باعتبار كبير تدعمه مجرد فكرة الدفاع الطبيعي ، أو قيام المصالح المشتركة ، أو مجرد انتقال أسباب الخلاف بين المتعاقدين . فلقد كانت فرنسا – عهد فرانسوا الأول (1515-1547) ومن بعده – لا تتردد كلما اتاحت لها الظروف في الإستعانة بتركيا (الدولة العثمانية) على النمسا وإسبانيا، ينظر:عمر عبد العزيز عمر، **تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (1815-1919)**، دار المعرفة الجامعية ، 2000، مصر ،ص 13.

[3] قيس جواد العزاوي ،**الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط** ، ط2 ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، 2003م ، ص 22.

[4] محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، تح :إحسان حقي ، ط1، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، 1981، ص 204.

إنّ انتخاب وتزكية الملك شارلكان ليبسط سيطرته على معظم دول أوروبا ومنها بعض مناطق الشمال الفرنسي زاد من حدّة الصراع بين فرنسا والدول الأوروبية[1]، ورغم جهود الكنيسة المكثفة للتأليف والإصلاح بين الطرفين إلاّ أنّ جهودها باءت بالفشل، وكان من نتائج هذه الصراعات معركة "بافيا" التي دارت بين فرنسا وإسبانيا في شمال غرب إيطاليا سنة 1525.أسر على إثرها الملك فرانسوا الأول وسيق إلى إسبانيا ولم يفرج عنه إلاّ بعد توقيع معاهدة مجحفة تخلّى بمقتضاها عن الإدّعاءات الفرنسية في شبه جزيرة إيطاليا وتنازل عن أراضي واسعة تقع ضمن حدود المملكة الفرنسية[2].

وفي ظل هذه الصراعات والحروب والتنافس على السلطة السياسية والدينية في أوروبا التي انعكست على الأوضاع الداخلية والخارجية، وخاصة بالنسبة لفرنسا التي كان يهددها الخطر الإسباني من الجنوب والإنجليزي من الشمال، إضافة إلى الحصار السياسي والعسكري والاقتصادي المفروض عليها، ظهر هذا التحالف الفرنسي العثماني على مسرح الأحداث السياسة والعلاقات الدولية، ليساعد الأسطول العثماني في غربي المتوسط في حماية فرنسا وتأمينها من الجهة الجنوبية ضد أي هجوم يشنّه خصومها، ويجعلها تركّز قوتها في الشمال لحماية حدود أرضيها[3]. وبالرغم من ذلك تمكّن الإسبان من استرجاع تونس في نفس السنة إلاّ أنّ الدولة العثمانية لا تزال قوية في تلك المنطقة، وفي إيالة الجزائر خاصة.

لقد شكّل التحالف العثماني الفرنسي صدمة كبيرة في الأوساط المسيحية الأوروبية وأثار موجة من الاستياء في عموم البلدان المسيحية واعتبر عملا غير مشروع و منافي للوضع

---

[1] المدني ،**حرب الثلاثمائة سنة** ...، المرجع السابق ، ص 273.

[2] جمال قنان ،المرجع السابق ،ص 34.

[3] إسماعيل أحمد ياغي ، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي** ، ط2،مكتبة العبيكان ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،1998، ص 68.

الطبيعـي، رغـم أنّ التقـارب بـين الدولـة العثمانيـة والمملكـة الفرنسـية فرضـته ظـروف تلـك المرحلة[1].

إستفادت فرنسـا مـن التحـالف مـع العثمـانيين فـي تلـك الظـروف الصـعبة علـى الأقل فـي المدى القريـب والمتوسط مـن مكاسـب هامـة خاصـة مـن الناحيـة العسكرية والسياسية تمثلت فيما يلي:

1-عدم تطبيق بنود معاهدة مدريد[2] التي تقتص أجزاء واسعة من الأراضـي الفرنسية.

2-تحول سياسة شارلكان وتراجعه عن فرض الوصـاية و الهيمنـة والتوسع في أوروبـا والدفاع عن المكتسبات الإسبانية في شبه جزيرة إيطاليا وفي الأراضي المنخفضـة وحتى الإمـارات الألمانية[3].

وفي سياق الحديث عن دوافع منح الإمتيازات، تعددت العوامل التي كانت سببا في عقد التحـالف المسـيحي الإسـلامي بـين فرنسـا والدولـة العثمانيـة واختلفـت وجهـات النظـر بـين البـاحثين فـي هـذه المسـألة[4]، إلاّ أنّنـا نـرى أنّ الأهـداف الحقيقيـة مـن التوقيـع علـى معاهـدة

---

[1] جمال قنان، المرجع سابق، ص 34.

[2] عقدت هذه المعاهدة بتاريخ 14 جانفي 1526 خسرت فرنسا من خلالها أجزاء كبيرة من حدودها وتنازل الملك عن كل إدعاءات فرنسا في ميلان ونابولي وجنوة مقابل ان يطلق سراحه من الأسر.ينظر : عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار،**التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997، ص 70.

[3] جمال قنان، المرجع السابق، ص ص 34-35.

[4] يرى الباحث سهيل طقوش أن دافع عقد معاهدة الامتياز يعود إلى عامين رئيسيين : الأول توجيه السلطان العثماني رسالة إلى ملوك أوربا ملخصها ان من يتحالف معه سيحصل على تسهيلات اقتصادية وسياسية متعددة ، وهذا بصرف النظر عن معتقداته الدينية . أما الثاني فهو رغبة السلطان في تنسيط الموانئ الشرقية لبلاد الشام ومصر ، والت تضررت بفعل تحول طرق التجارة الدولية نحو رأس الرجاء الصالح ، بفضل الكشوفات الجغرافية الجديدة. ينظر: سهيل طقوش ، المرجع السابق،ص 198.، أما الباحث محمود شاكر فيرىأن هناك دافعين رئيسيين لإبرام معاهدات الامتيازات .أولهما السعي إلى تحطيم اتفاق الدول الصليبية ضد الدولة العثمانية وتفكيك وحدتهم عبر إغراء بعضها بامتيازات خاصة وصلاحيات كبيرة من شأنها أن تحدث انقسام في صفوف الدول الصليبية .وثانيهما تمكين موانئ البحر المتوسط من القيام بالدور الحيوي الذي كانت تمارسه في عالم الملاحة والتجارة وذلك في مقابل بعض التسهيلات من جانب السلطان العثماني

الامتياز الفرنسية العثمانية كانت مجملة ومشتركة ومتبادلة بين الطرفين في جوانب شتى دينية، سياسية وعسكرية، واقتصادية بالدرجة الأولى، والتي كانت قابلة للتجديد في كل مرة نفس الطرف ومع دول أوروبية أخرى[1].

3-2- المعاهدة ومظاهر تطبيق بنودها في بلاد المغارب :

يرى بعض الباحثين أنّه بتعيين أول سفير فرنسي في اسطنبول سنة 1525م وهو السيد " جان لافوزيه "[2] بدأت العلاقات العثمانية الفرنسية، وتطورت العلاقات أكثر بينهما، حيث صار للفرنسيين ممثل دائم لهم لدى الباب العالي، وعقدت أول معاهدة بينهما في سنة 1528م جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين دولة المماليك الشراكسة للفرنسيين وأهل كتالونيا في سنة 1507م[3] فوفّرت هذه المعاهدة الحماية للتجار والرعايا الفرنسيين والحفاظ على أموالهم، ومنحهم الحرية في التنقل عبر جميع الأراضي

. ينظر : محمود شاكر ، **التاريخ الإسلامي – العهد العثماني** –، ط4، دار المكتب الإسلامي ، بيروت، ، 2000، ص 112.بينما تذهب الباحثة إلى نتيجة مفادها أن رغبة السلطان سليمان القانوني في إيجاد موطئ قدم له في غرب أوربا لمواجهة خصمه شارلكان تحققت في شخص الملك فرانسوا الأول، خاصة بعد انتقال موازين القوى إلى دول غرب اوربا القوية اقتصاديا وسياسيا نتيجة الكشوفات الجغرافية الكبيرة . وقد ساهم ذلك المنهج المبتكر من تأجيج الصراعات الأوربية ، وأشغل دول القارة بالتنافس فيما بينها على جميع المستويات بعيدا عن أراضي الدولة العثمانية.ينظر : نادية مصطفى محمود، **العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، 1996م، ص ص 26- 27.

[1] جمال قنان، المرجع السابق ،ص35، وينظر: يوسف علي رابع الثقفي ،**معاهدة الامتيازات العثمانية لعام 941هـ/1535م** ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، مكة ، 1411هـ ، ص 167.

[2] جان لافوازيه : أصله من المجروكان راهبا في فرنسا ، اختاره الملك الفرنسي بمهمة المفاوضات وأحيطت هذه العملية بالكتمان والسرية التامة. ينظر : محمود قاري ، **دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية** ، أطروحة دكتوراه ، ج1، إشراف يوسف بن علي الثقفي ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية،2001، ص 205

[3] رائسي، المرجع السابق، ص ص 93-94.

التابعة للدولة العثمانية، ومنح للدولة امتياز حق حماية رعاياها في الجانب الديني على الأراضي العثمانية، وكانت موادها مقصورة في الغالب على بلاد الشام ومصر خاصة[1].

في حين يرى البعض الآخر أنّه منذ سنة 1507م في عهد السلطان بايزيد الثاني تمّ تعيين قنصل فرنسا وكتالونيا بالإسكندرية[2]، وذهب آخرون إلى أنّ أول استقبال لسفير فرنسي لدى الأتراك العثمانيين في عام 1531م واستقبل بحفاوة من طرف السلطان سليمان، وأخذت العلاقات تنموا باطراد حتى عام 1534م[3].

هكذا كانت مقدمات وجذور العلاقات الفرنسية العثمانية والتي تحوّلت إلى تشكيل تحالف ثنائي في ظلّ كلّ تلك الظروف والتحولات التي شهدتها منطقة البحر الأبيض المتوسط بضفتيه الشمالية والجنوبية مطلع القرن 10هـ/16م والتي اتسمت بالصراع و بالمنافسة بين العثمانيين والقوى الأوروبية وبين دول هذه الأخيرة نفسها، لتنتهي بتوقيع معاهدة الامتيازات والتي ذكرها بنودها الباحث الباحث محمد فريد بك المحامي.

وقّع السلطان سليمان القانوني[4] اتفاقية الامتيازات لسنة 1535م[5] وأهم ما جاء فيها :

---

[1] عبد العزيز الشناوي ، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها** ، ج2 ، د ط ، المكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ،1980م، ص ص 30-31.

[2] PlantetEugene, **Correspondance des Days d Alger avec la cour de France 1579-1833,t1**, paris ,p28.

[3] يحي بوعزيز ، **علاقات الجزائر الخارجيةمع دول وممالك أوروبا 1500-1830**، دار البصائر للنشر والتوزيع،الجزائر، 2008، ص42.

[4] سليمان القانوني: ولد سنة 1494م(900هـ) تولى الخلافة في 4 شوال 926هـ ، وهو عاشر السلاطين العثمانيين ، وفي عهده بلغت الدولة العثمانية أوج الكمال والقوة ، يلقبه علماء الإفرنج بسليمان العظيم (Le Grand) أو سليمان الفاخر (Le Magnfique) توفي سنة 1566م ، للمزيز ينظر : إبرهيم بك حليم ،**تاريخ الدولة العثمانية العلية** ، مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت ، 1988م، ص 87.

[5] يوجد اختلاف بين المؤرخين حول تحديد تاريخ إبرام المعاهدة بين الدولة العثمانية وفرنسا واستنادا للوثائق ولبعض كتابات الغربيين خاصة نجد منهم من يقول أنها عقدت في سنة 1535 ومنهم من يقول 1536 وحتة ن قال انها أبرمت فس سنة 1537م ، ولمزيد من المعلومات ينظر: عائشة غطاس، **العلاقات الجزائرية الفرنسة خلال القرن السابع عشر(1619-**

" ليكن معلوم لدى العموم أنه في شهر ... 942هـ (فبراير 1536م) قد اتفق بمدينة الأستانة العلية كل من المسيو جان دي لافوري وسفير صاحب السعادة الأمير فرانسوا المتعمق في المسيحية ملك فرنسا، المعين لدى الملك العظيم ذي القوة والنصر السلطان سليمان خاقان الترك إلى آخر ألقابه والأمير الجليل ذي البطش الشديد سر عسكر السلطان بعد أن تباحثا في مضارب الحرب وما ينشأ عنه من المصائب وما يترتب على السلم من الراحة والطمأنينة على البنود الآتية" :

1-" قد تعاهدا المتعاقدان بالنيابة عن جلالة الخليفة الأعظم وملك فرنسا على السلم الأكيد والوفاق الصادق مدة حياتهما وفي جميع الممالك والولايات والحصون والمدن والموانئ والثغور والبحار والجزائر وجميع الاماكن المملوكة الآن أو التي تدخل في حوزتهم فيما بعد ..."

2-"يجوز لرعايا وتابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع غير الممنوع الاتجار فيها ولسيرها ونقلها برا وبحرا من مملكةإلى أخرى ، مع دفع العوائد والضرائب المعتادة قديما ...".

3-" كلما يعين ملك فرنسا قنصلا في مدينة القسطنطينية أو بيرا [1]أو غيرهما من مدائن المملكة العثمانية كالقنصل المعين الآن بمدينة الإسكندرية ، يصير قبوله معاملته بكيفية لائقة، ويكون له أن يسمع ويحكم ويقطع بمقتضى قانونه في جميع ما يقع في دائرته من القضايا المدنية والجنائية ..."

4-لا يجوز سماع الدعاوي المدنية التي يقيمها الأتراك أو جباة الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان، ضد التجار أو غيرهم من رعايا فرنسا، او الحكم عليهم فيها،ما

1694)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: مولاي بلحميسي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1984-1985، ص 6.

[1] بيرا: هي ميناء في مدينة أثينا باليونان. للمزيد ينظر : محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 224.

لم يكن مع المدعين سندات بخط المدعي عليهم، أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي، أو القنصل الفرنساوي، وفي حالة وجود سندات أو حجج لا تسمع الدعاوى أو شهادة مقدمها إلا بحضور ترجمان القنصل ".

5-" لا يجوز للقضاة الشرعيين أو غيرهم من مأموري الحكومة العثمانية ، سماع أي دعوى جنائية أو الحكم ضد تجار ورعايا فرنسا، بناء على شكوى الأتراك، أو جباة الخراج، او غيرهم من رعايا الدولة العلية، بل على القاضي أو المأمور الذي ترفع إليه الشكوى أن يدعو المتهمين بالحضور بالباب العالي، محل إقامة الصدر الأعظم الرسمي ".

6-" لا يجوز محاكمة التجار الفرنساويين ومستخدميهم وخادميهم، فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القاضي أو السنجق بيك[1] أو الصوباشي[2]،أو غيرهم من المأمورين، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالي ...".

7-لو تعاقد واحد أو أكثر من رعايا فرنسا مع أحد العثمانيين، أو اشترى منه بضائع، أو استدان منه نقودا ثم خرج من الممالك العثمانية، قبل أن يقوم بما تعهد به، فلا يسأل القنصل أو أقارب الغائب، أو أي شخص فرنساوي آخر عن ذلك مطلقا..."

8-لا يجوز استخدام التجار الفرنساوين، أو مستخدميهم، أو خدامهم، أو سفنهم، أو مدافعهم، أو التجارة جبرا عنهم، في خدمة جلالة السلطان الأعظم، أو غيره في البر والبحر، ما لم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم ...".

9-"يكون لتجار فرنسا، ورعاياها الحق في التصرف في كافة متعلقاتهم بالوصية بعد موتهم، وعند وفاة أحد منهم وفاة طبيعية أو قهرية عن وصية، فتوزع أمواله وباقي

---

[1]السنجق: هو العلم أو الراية ، والسنجق بك معناها أمير لواء ، للمزيد ينظر: سهيل صابان ، المرجع السابق ، ص 136.

[2]صوباشي: مسؤول عن حفظ الأمن و النظام في منطقته ، للمزيدينظر : حسين مجيب المصري ، **معجم الدولة العثمانية** ،ط1،الدار الثقافية للنشر،القاهرة، مصر ،2004،ص 83.

ممتلكاته على حسب ما جاء بها، ولو توفي ولم يوص، فتسلم تركته إلى وارثه، أو الوكيل عنه بمعرفة القنصل ...".

10- "بمجرد اعتماد جلالة السلطان وملك فرنسا لهذه المعاهدة، فجميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو إقليم تابع لسلطتهما في حالة الرق، سواء أكان ذلك بشرائهم أو بأسرهم وقت الحرب، يصير إخراجهم فورا من حالة الاسترقاق إلى بحبوحة الحرية ..."

11-" لو تقابلت دونانمات [1] إحدى الدولتين المتعاقدتين ببعض مراكب رعايا الدولة الأخرى، فعلى هذه المراكب تنزيل قلوعها ورفع أعلام دولتها، حتى إذا علمت حقيقتها لا تحجزها، أو تضايقها السفن الحربية، أو أي تارع آخر للدولة صاحبة الدودنامة ...".

12- " إذا وصلت إحدى المراكب الفرنساوية، سواء بطريق الصدفة أو غيرها إلى إحدى موانئ، أو شطوط الدولة العلية، تعطى ما يلزمها من المأكولات وغيرها من الأشياء، مقابل دفع الثمن المناسب، بدون إلزامها تفريغ ما بها من البضائع لدفع الأثمان...".

13- " لو كسرت أو غرقت مراكب إحدى الدولتين بالصدفة، أو غيرها عند البلاد التابعة للطرف الآخر، فمن ينجو من هذا الخطر، يبقى متمتعا بحريته، لا يمانع في أخذ ما يكون له من الأمتعة وغيرها، أما لو غرق جميع من بها، فما يمكن تخليصه من البضائع يسلم إلى القنصل أو نائبه ...".

14- " لو هرب أحد الأرقاء المملوكين لأحد العثمانيين، واحتمى في بيت أو مركب أحد الفرنساويين، فلا يجبر الفرنساوي، إلا على البحث عنه في بيته، أو في مركبه، ولو وجد عنده يعاقب الفرنساوي بمعرفة قنصله ويرد الرقيق لسيده ...".

---

[1] دوننمات: وهي تعني مجموعة من السفن الحربية لدولة من الدول ، للمزيد ينظر ، حسين مجيب المصري ، المرجع السابق، ص 60

15- " كل تابع لملك فرنسا، إذا لم يكن أقام بأراضي الدولة العلية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع، لا يلزم بدفع الخراج أو أي ضريبة أيا كان اسمها...".

16-" يرسل كل من جلالة السلطان وملك فرنسا ، تصديقه للآخر على هذه المعاهدة في ظرف ستة شهور، تمضي من تاريخ إمضائها، مع الوعد من كليهما بالمحافظة عليها والتنبيه على جميع العمال والقضاة والمأمورين وجميع الرعايا، بمراعاة كامل نصوصها بكل دقة ..."[1].

3-3- أرآء حول المعاهدة:

تعلّق الباحثة ليلى الصباغ على بنود هذه المعاهدة والتي لم تكن سوى تكرار في كثير من بنودها، لبنود وردت في اتفاقية مع البندقية في سنة 1521، " إنّ هذه الإتفاقية التي أثير حولها الكثير من الضجيج والدراسات لم تفعل سوى أنها أثبتت نهجا سابقا وعممت قواعد راسية من الماضي، ووسعت على جميع مقاطعات الإمبرطورية العثمانية تلك القواعد"[2] وبالتالي لم تأتي بالجديد في نظرها.

وتطّرق الباحث محمود قاري إلى تحليل بنود المعاهدة من ناحية الصبغة الثنائية التي أشار إليها الطرفين،فقد انحصرت في خمس مواد 1،2و10و11و13 وكذلك الجزء المتعلق بإعلان الإتفاقية في بعض المدن الرئيسية في الدولتين في المادة 16، إلاّ أنّ هذه المساواة لم تدخل حيز التنفيذ، وهو ما استفادت منه فرنسا لحاجتها لتلك التسهيلات خاصة التجارية منها وأيضا الحماية من توسعات شارلكان[3].

أمّا الصبغة الأحادية في المعاهدة فتظهر في باقي البنود الاخرى الأرقام 3، 9،12، 14 خاصة من خلال التعهدات حول الإقامة، حيث أنّ الدولة العثمانية هي التي تضمن

---

[1] المحامي ،المرجع السابق، ص 224-229.

[2] ليى الصباغ ، **الجاليات الأوروبية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، العاشر والحادي عشر هجري** ،ج1،ط1، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان، 1989، ص 209.

[3] محمود قاري ، المرجع السابق ، ص ص 226-227.

للفرنسيين حق الإقامة والتنقل في الأراضي التابعة للخلافة العثمانية[1] ، ولا شك في أن بلاد المغارب كانت ذات أولوية لفرنسا لعديد الإعتبارات الجغرافية والاقتصادية خلال القرن السادس عشر.

ومن المواد التي كانت في صالح الفرنسيين وحققت لهم مصالح ذات شأن كبير في جوانب اقتصادية وسياسية وحتى قضائية لم يسبق لأي دولة الحصول عليها بهكذا سهولة وهي المواد التي تحمل الأرقام التالية:(4،5،6،7)[2].

كما تجدر الإشارة في مسألة الأسرى التي أسالت الكثير من الحبر بين الباحثين خاصة في بلاد المغارب، ففي المادة رقم 10 من المعاهدة فقد تناولت أسرى الحرب والرقيق وبالرغم من أنّ حجم الرقيق من رعايا الدولتين لا يكاد يذكر وذلك راجع لقلة الصدامات العسكرية وقد يكون الهدف من هذا البند هو إعلام الدول الأوروبية الأخرى التي كانت في صدام مع الدولة العثمانية عن نية الصداقة وليس التمويه، وهي مادة تخدم العثمانيين على المدى البعيد[3].

بعد مرور ثمانية أشهر اشترط السلطان العثماني إضافة إلى تلك المواد، أن يكون لبابا روما وملك انجلترا وملك اقوسيا(اسكتلندا) الحق في الانتفاع من هذه المعاهدة لو أرادوا ذلك، ونشير هنا إلى أنه وبعد معاتبة فرنسوا الأول على تحالفه مع المسلمين أجاب بقوله "عندما تأتي الذئاب لمهاجمة قطعاني يكون من حقي أن أنادي الكلب وأستنجد به"وهو دلالة واضحة على أنّ الفرنسيين يتبعون مصالحهم ولو كانت في التعاون مع المسلمين، وهذا مدعاة للسخرية من العثمانيين[4].

---

[1] الصباغ ، المرجع السابق، ص 144، وينظر: محمود قاري ، المرجع نفسه، ص 229.

[2] قيس جواد العزاوي، المرجع السابق، ص 19.

[3] محمود قاري ، المرجع السابق ، ص ص 228-229.

[4] نقلا عن يحي بوعزيز ، **علاقات الجزائر الخارجية** ...، المرجع السابق، ص 43.

ولعلّ السؤال المطروح حول طبيعة هذه المعاهدة هو أنّ الدولة العثمانية كانت تعيش العصر الذهبي لها، فلماذا كل هذه التنازلات؟، ويجيبنا عن ذلك المؤرخ فريد بك بقوله: " من الغريب جدا أن تعقد الدولة العثمانية وهي في أوّج قوتها وعظمتها معاهدة مع دول الغرب بمثل هذا التسامح الذي بلغ حد الذل والضعف، والذي اعتقده هو إمّا أن يكون المفاوض الفرنسي قوي الحجة والمنطق بل والمكر، أو أن تكون هناك أسباب غامضة لعبت دورا كبيرا في صياغة هذه الإتفاقية وإخضاع الدولة إلى هذا الحد"[1]، والأخطر من ذلك هو أنّ هذه المعاهدة حملت سلبيات كثيرة لعدم مراعاتها لخصوصيات وكيان الأمة الإسلامية[2].

في حين ذهب بعض الباحثين إلى القول أنّ هذه المعاهدة تمثل نقلة نوعية متميزة بين الطرفين، رغم أنّها كانت أول معاهدة تعددت فيها الامتيازات الممنوحة في أراضي الدولة العثمانية' ومن زاوية أخرى فإنّ المعاهدة قد تضمنت تجديد العلاقات الإسلامية المسيحية تجاريا وقانونيا، بينما يعتبر آخرون أنّ هذه المعاهدة أظهرت مدى استعداد السلطان العثماني للتنازل و إلى تعديل بعض المبادئ الشرعية المنظمة لعلاقات الإسلام بالمسيحية حيث وضعت المعاهدة المبرمة بين الطرفين الملك الفرنسي ومن يمثله على قدم المساواة مع السلطان العثماني ومن يمثله، والملفت للنظر فيها هو الإتفاق على إقامة سلام فاعل ومضمون بين السلطان والملك مدة حياتهما وليس عشر سنوات فقط،كما منح لهم الحق في ممارسة شعائرهم الدينية[3].

3-4- تمظهرات التحالف العثماني الفرنسي:

ومن مظاهر استعراض الحلف الفرنسي العثماني إتفاق السلطان العثماني والملك الفرنسي بالهجوم المشترك على إيطاليا،والذي سيسمح بمواجهة التحالف المقدس، ولكنّ تدخل

---

[1] فريد بك المحامي ، المرجع السابق، ص ص 229-230.

[2] الثقفي، المرجع السابق، ص 148.

[3] ياغي ، المرجع السابق، ص 69.

الكنيسة ممثلة في البابا والذي عمل على إعادة توحيد الصف الأوروبي ضد العثمانيين أثّر فعلا على سير الأحداث خاصة بانسحاب الجيش الفرنسي من إيطاليا، وبالرغم من أنّ تمكن خير الدين بربروس من الإنتصار على الحلف الصليبي بقيادة دوريا في معركة برفيزا بألبانيا القاعدة البحرية العثمانية سنة 1538م إلاّ أنّه وبدون فرنسا لن يغير هذا الإنتصار في المنطقة[1].

لقد تأكّد للعثمانيين أنّ فرنسا لا تقوم بالتنفيذ الصارم لالتزاماتها البحرية في مواجهة شارلكان في كل مناسبة، وبالرغم من هذا تجدد التعاون الفرنسي العثماني ما بين(1541-1544م) من خلال المسألة المجرية، ولكنّ رفض فرانسوا الأوّل مساعدة البحرية العثمانية سنة 1544م بضغط من المسيحيين و إبرام معاهدة صلح مع شارلكان في نفس السنة حتّم بتوقيع معاهدة صلح عثماني إسباني سنة 1545م، لأنّ الدولة العثمانية كانت في حرب مع الصفويين، ومن خلال هذه تتبع مراحل هذه المعاهدات والصراعات يتبين لنا أنّ العثمانين كانوا يسايرون الأوضاع بالمراحل وحسب متطلبات تلك الفترات.أو كما سمتها الباحثة نادية مصطفى محمود بالمهارة الدبلوماسية أو تعاون تكتيكي[2].

وبعد وفاة فرانسوا الأوّل في سنة 1547م خلفه إبنه هنري الثاني حيث واصل هذا الأخيرعلى خطى والده فيما يخص المعاهدة مع العثمانيين وقام بتعزيزها بمعاهدة جديدة مع السلطان سليمان القانوني سنة 1553م/961هـ تتعلق بالحرب البحرية. ولعلّ الأخطر من كل ما سبق أنّ تقليدا جديدا سمح به السلطان حين أتاح لسفير فرنسا المسيو "جبريل

[1] المرجعنفسه، ص ص 69-70.

[2] نادية محمود مصطفى، المرجع السابق، ص 27-32.

دارمون" زيارة بيت المقدس ومقابلة الرهبان والقساوسة، وجعل جميع الكاثوليك المقيمين بأراضي الدولة العثمانية تحت حماية فرنسا[1].

تناولت الباحثة ليلى الصباغ مسألة مهمة حول الموضوع في ردّها على بعض الباحثين حول طبيعة الاتفاقية[2] من خلال وثيقة بقولها :"... عنصر المعاملة بالمثل قائم في عدد من بنودها، على الرغم من محاولة بعض الحقوقيين تغطية هذه الناحية ونفيها، ولقد ثبت أنّ أصل هذه المعاهدة مفقودة ويبدو أنّه فقد بعد فترة قصيرة من توقيعها، أي ربما جميع البنود في الأصل الضائع، وينطبق عليها مبدأ المعاملة بالمثل ..."[3].

إنّ ما يمكن استخلاصه هو أنّ المعاهدة العثمانية الفرنسية غلب عليها الطابع الإقتصادي التجاري لأنّ مظاهر التحالف السياسي والعسكري كانت تقريبا منعدمة للأسباب المذكورة آنفا إلى غاية بداية النصف الثاني من نفس القرن، وهذا يقودنا إلى أنّ العامل الديني لعب دورا مهما في الحد من تطبيق كل بنود الإتفاقية خاصة إذا ما تعلّق بالحرب بين الإسلام والمسيحية.

وبالحديث عن تأثيرات الحلف العثماني الفرنسي في بلاد المغارب، فإنّه لا يمكننا الحكم خلال فترة تقدر بحوالي 15 سنة أي ما بين (1535-1550م) خاصة بعد وفاة فرانسوا الأول سنة 1547م، ببساطة لعدم وجود تمظهرات لهذا الحلف في أرض الواقع إلاّ بعض الأحداث المتفرقة، فقد نصّت معاهدة الامتيازات على السماح للعثمانيين أن يستعملوا الموانئ الفرنسية الجنوبية مثل طولون ومرسيليا في الصراع ضد العدو المشترك، وفي ذلك الإطار

---

[1] قيس جواد العزاوي، المرجع السابق، ص 20، وينظر: محمد فريد بك المحامي ، المرجع السابق ، ص 242.وكذلك: إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص 69.

[2] تساءل العديد من المؤرخين والباحثين حول ماهية وطبيعة هذه المعاهدة، هل هي تعبر حقيقة عن تحالف إستراتيجي، أم أنها معاهدة صداقة، من بينهم الباحثة عائشة غطاس، وسنحاول أن نجد جوابا لهذا السؤال في الفصل الموالي حين نتطرق لتأثيرات هذه المعاهدة في بلاد المغارب.

[3] ليلى الصباغ ،المرجع السابق ، ص 211-214.

سمح فرانسوا الأول لخير الدين بربروس بقضاء فصل الشتاء لعام 1542م في ميناء طولون[1]، إضافة إلى إقامة الأسطول العثماني في نفس الميناء سنة 1543م لحماية فرنسا من الخطر الإسباني، وهذا بطلب من ملك فرنسا، وقد استقبل هذا الأسطول بمرسيليا وكذلك قيادته استقبالا فاخرا، كما حظي أيضا المبعوثين من طرف ملوك فرنسا في الجزائر باستقبال خير الدين مرارا من أمثال بولان دي لاغارد Paulin de la Garde[2]. فيمكن القول أنّ الأثر للتعاون الفرنسي العثماني على توازن القوى كان ضئيلا نسبيا[3].

إنّه وممّا لاشك فيه أنّ طباع الشخصيات الحاكمة في الجزائر العثمانية لعبت منحى ودورا مهما في هذا التقارب بالنسبة للجزائر العثمانية، فقد أرجع "قرامون" هذا التقارب إلى دور الشخصيات الفاعلة في الجزائر العثمانية وعلى رأسهم خير الدين بربروس الذي يعتبر عصرهالفترة الذهبية للجزائر، بقوله:" بفضله ترجع أوّل العلاقات حيث أضحى الصديق القديم ، واستقبل سفراء، حيث أضحوا لعشر سنين رؤساء الغرب الفرنسي للديوان الأكبر"[4]. كما لعب الموقع الاستراتيجي للجزائر دورا بارزا، و موانئها التي كانت مزدهرة منذ آلاف السنين فقد كانت محطة تجارية مهمة في البحر المتوسط، وسنتتبع تأثيرات هذا الحلف في بلاد المغارب خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/16م وذلك في الفصل الثاني.

4- التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541م وتداعياته :

4-1- ظروف ودوافع الحملة الصليبية:

لقد حملت العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس عشر في بلاد المغارب ككل حالة من الشد والجذب بين كل الأطراف المتواجدة في المنطقة سواء المحلية منها أو الخارجية

---

[1] شمس الدين الكيلاني ، "**العثمانيون والأوربيون في القرن السادس عشر**" ، مجلة الإجتهاد ، العدد 43، دار الإجتهاد ، بيروت ، 1999،ص 132.

[2] مولود قاسم نايت بلقاسم ، المرجع السابق ،ج2، ص ص 12- 13.

[3] وولف ، المرجع السابق، ص 63.

[4] Grammont;op.cit.,p41.

التي أوجدت لها موطئ قدم في تلك الظروف والمستجدات، حيث شهدت هاته الفترة نوعا من التوازن في القوى بين العثمانيين المتمركزين في إيالة الجزائر والإسبان الذين انتصروا في تونس سنة 1535م بعد فقدانهم الكثير من المناطق خاصة بالمغرب الأوسط لصالح العثمانيين الذين لم يستطيعوا مواصلة الفتوحات والزحف إلى قلب أوروبا وكانوا يحاربون في جبهات كثيرة وذلك رغم كل الإنتصارات المحققة، دفعت هذه الأوضاع الجديدة بالإمبراطور شارلكان إلى المبادرة باستنفار المسيحيين وإثارة الوازع الديني في كل البلاد الأوروبية، كما قام بتسوية مشاكله العالقة مع فرانسوا الأول الحليف الإستراتيجي للدولة العثمانية في سنتي 1537م و 1538م[1]، حين تعهد له بعدم تدخله في حربه ضد الجزائر التي كان يسعى منذ توليه عرش الإمبراطورية الرومانية لاحتلالها نظرا لموقعها الإستراتيجي الهام والتي كانت أخطر قاعدة للقراصنة، ومن خلالها يفرض سيطرته على هذا المسطح المائي المهم والمتمثل في الحوض الغربي للمتوسط.

ونشير أيضا إلى أنّ الإمبراطور شارلكان سعى إلى إعادة الاعتبار لجيشه بعد الهزائم التي مني بها والخسائر الفادحة في صفوفه خصوصا على الجبهة الشرقية أمام الأسطول العثماني الجزائري والانتقام للمسيحية، حيث شهدت فترات حكمه السابقة انتصارات عديدة للسلطان سليمان القانوني، اذ استولى على المجر وجزيرة رودس سنة 1522، وبعدها حاصر فيينا، وكورفو 1537، وانهزم دوريا بيريفيزا عام 1538م وكستيل نوفو عام 1539وبلغ عدد القتلى أربعة آلاف قتيل[2].

---

[1] جون وولف، المرجع السابق، ص 56.

[2] محمد فريد بك المحامي ، المرجع السابق ، ص ص 234-235، وينظر: مولاي بلحميسي، "**غارة شارلكان على مدينة الجزائر (1541م-948ه) بين المصادر الإسلامية و المصادر الغربية**"، مجلة الأصالة ، ع8، الجزائر، 1972،ص 95.

يرى بعض المؤرخين أنّ الحملة كانت تهدف إلى تخفيف الضغط على الإمبراطورية النمساوية والرومانية المقدسة وذلك بفتح جبهة جديدة في المغرب الأوسط فتضطر الدولة العثمانية إلى إرسال قواتها إلى إيالة الجزائر [1].

يشير الباحث "صالح بلحيمر" إلى أنّ الفترة ما بين(1538-1540م) شهدت دخول إسبانيا في مفاوضات من أجل إقناع خير الدين باشا الذي كان له نفس طموح شارلكان وهي الرغبة في حكم إفريقيا والبقاء فيها، وهنا اصطدمت الطموحات، فلجأ الصليبيون إلى الدبلوماسية بعدما أصبحت القوة العثمانية الأولى عالميا في تلك الفترة ولم يستطع كل الصليبيون القضاء عليها أو إضعافها على الأقل، حيث عرض المفاوضون على بربروس الإعتراف له كملك على الجزائر، والتنازل له عن عنابة، بجاية وطرابلس، وحتى تونس إذا قبل بتبعيته لإسبانيا وأن يتخلى عن موالاته للسلطان العثماني[2]، وقد استمرت تلك المفاوضات ثلاث سنوات وانتهت إلى الفشل، وتذكر المصادر والمراجع الأوروبية أنّ خير الدين طوال تلك المدة كان يطلع السلطان على كل تفاصيل المفاوضات بين الطرفين[3].

لقد أثبتت المفاوضات في الفترة الأولى أنّ خير الدين لم يكن يمانع في الموضوع لكنّ شروطه كانت صعبة للتحقيق، فقد طالب بالسيادة الكاملة على كل بلاد المغارب من طرابلس إلى فاس[4].

---

[1] بلحميسي، المرجع السابق، ص 95.

[2] صالح بلحيمر ، **التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية**، مذكرة ماجستير ، جامعة الحاج لخضر،باتنة، الجزائر، 2006/2007، ص ص 69- 70.

[3] Grammont op.cit.,p57.

[4] نجيب دكاني ، **الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العشر هجري 10هـ السادس عشر ميلادي 16م**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: ناصر الدين سعيدوني ، جامعة الجزائر، 2001-2002، ص 93.

توسّعت المفاوضات بين الطرفين، فكان حاكم ونائب خير الدين على الجزائرحسن آغا على علم بالمفاوضات، بل وكانت بينه و بين حاكم وهران الكونت دالكويت الذي حكم ما بين (1534-1558م) مفاوضات في نفس الشأن[1].

وممّا زاد من حماسة شارلكان لغزو الجزائر اعتقاده أنّ ذهاب خير الدين إلى القسطنطينية، والذي استدعاه السلطان سليمان القانوني لقيادة الأسطول العثماني سيضعف الإيالة ضعفا شديدا لأنّه قائد شجاع وبحّار بارع وله سمعة عالمية، لطالما هزم الإسبان في كثير من المعارك وفي مدن مختلفة، وهذا سيكون في صالح الصليبيين[2].

وفي هذا الصدد يجب الإشادة والتنويه بدور حاكم الجزائر خلال هذه الفترة الصعبة حسن آغا والذي أشرف على شؤون الإيالة ستة سنوات فنعمت بالأمان والعدل، وحسب من عايشوه لم تعرف البلاد باشا أعدل منه وهذه الإشادة أتت من العدو قبل الصديق[3]، إذ تميزت فترة حكمه بتزايد الخطر الإسباني، خاصة بعد نجاح شارلكان في احتلال تونس عام 1535م وبذلك لم تبقَ سوى الجزائر تشكل حصنا منيعا يعيق تنفيذ المشروع الاستعماري الإسباني في بلاد المغارب.

---

[1] ثمة سؤال يثار حول ما إذا كانت المفاوضات جرت بالقسطنطينية أو الجزائر؟ يذهب مولاي بلحميسي إلى أنّ المصادر الأوربية أكدّت أن المفاوضات جرت بالقسطنطينية ما بين 1538-1540م وهو أمر مستبعد على حسب ما أشار إليه خير الدين بربروسفيما أنّ المفاوضات كانت تجري بالجزائرعن طريق نائبه حسن آغا. ينظر : خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص ص 195-196،لأنّه لا يمكن لشارلكان الإقدام على هذا الأمر السري والخطير، ببساطة لأن خير الدين كان قائدا للإسطول العثماني ما يجعل كل الأخبار عنه في متناول السلطانالعثماني، إلاّ أننا نعتبر أنه يمكن ذلك لعلم السلطان به، مع تأكيد إخلاص خير الدين وحسن آغا للدولة العلية وسلطانها سليمان القانوني عوامل ساهمت في إفراغ المفاوضات من محتواها الذي كانت تهدف إليه، وهو محاولة إغراء خير الدين لإبعاده عن الدولة العلية ، فيما يرى المؤرخون الاوربيون أن سبب فشل المفاوضات يرجع على الدور الذي لعبه الملك فرانسوا الأول بإطلاع السلطان العثماني بالمؤامرة، واللافت للانتباه أنّ المصادر الإسلامية لم تذكر هذه المفاوضات. ينظر : مولاي بلحميسي ، المقال السابق، ص ص 95-96.

[2] المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة...**،المرجع السابق ، ص 271.

[3] وللمزيد حول سيرة حسن آغا ينظر : Haedo,op,cit. p 62-69.

ركّز حسن آغا في ظل تلك الظروف الصعبة على تعزيز قدراته الدفاعية ضد أي هجوم مرتقب من جانب الإسبان، لذلك أنشأ إحدى وثلاثين سفينة حربية، بعد مغادرة خير الدين للجزائر، ووضع كامل ثقله وبدأ بكل ثقة في مهاجمة السواحل الإسبانية فزرع الرعب وسط سكان هذه المناطق فكان أحسن خليفة للقائد خير الدين بربروس، و من أهم العمليات البحرية التي قام بها حسن آغا معركة جبل طارق ببلاد الأندلس في سبتمبر 1539م [1]، لذلك جاءت الكثير من الشكاوي إلى شارلكان تستصرخه ضد البحارة الجزائريين، كما فرض البحّارة العثمانيون سيطرتهم على البحر المتوسط حتى صار شارلكان نفسه يصعب عليه السفر من برشلونة إلى نابولي[2]. ومن مظاهر السيطرة العثمانية نجد أنّه وفي أكتوبر من عام 947هـ/1540م تم عقد الصلح مع جمهورية البندقية التي تخلت عن آخر أملاكها في شبه جزيرة المورة واعترفت بكل فتوحات خير الدين في بحر ايجه ووافقت بدفع غرامة ضخمة مقابل اعتراف العثمانيين باستمرار حكمها في جزيرتي كريت وقبرص وعودة الامتيازات التجارية التي كانت تتمتع بها في الدولة العثمانية وهكذا انهارت السيادة البحرية التي تمتعت بها البندقية [3]، وهو ما زاد من تضمّر الصليبيين.

شكّلت هذه المقدمات أرضية خصبة والأسباب التي أتينا عليها آنفا عوامل تحفيز للإمبراطور من أجل تجريد حملة عسكرية كبرى بقيادته ضد مدينة الجزائر، وخاصة إذا ما أخذنا بعين الإعتبار الوضع المحلي والفشل الذريع الذي مني به حاكم وهران الكونت دي ألكوديت في تحقيق أهدافه بالسيطرة عسكريا على مدينة تلمسان عام 1535م، وإخفاقه في تحقيق ذلك باستخدام الأساليب السياسية على خلفية الفشل الذي آل إليه الإتفاق التلمساني الإسباني في العام المذكور، ويأتي هذا التوجه أيضا في ظل حالة التراجع الأمني والسياسي

---

[1] توفيق المدني ،**حرب الثلاثمائة سنة**...،المرجع السابق ، ص ص 279-280.

[2] مولاي بلحميسي ،المقال السابق، ص 95.

[3] العبيدي علي ، **الجزائر وتوازنات القوى البحرية غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي – دراسات تاريخية**– دار النشر الجامعي الجديد ،2017، ص168،وينظر: دكاني نجيب، المرجع السابق، ص 92.

على الجبهة التونسية بسبب ثورات المدن التونسية التي ما لبثت أن اشتعلت ضد الوجود الإسباني، وخاصة في مدينة القيروان وأحوازها، ممّا شكل بداية لانهيار المشروع الاستعماري الصليبي الإسباني في بلاد المغارب، ولمّا كانت مدينة الجزائر تشكل واسطة العقد بالنسبة للمدن الإسلامية الأخرى، فقد اتجهت أنظار الإمبراطور شارلكان إليها[1].

وما زاد من تأزم الأوضاع بين الطرفين، ويعتبر السبب المباشر الذي دفع شارلكان للمبادرة إلى الهجوم دون كامل الاستعدادات هو إقدام أحد رؤساء حسن آغا يدعى كجك علي على أسر مركبين اسبانيين عظيمين مملوئين نقودا وسبايا كانا قد مرا ببجاية، وبمجرد سماع أهل إسبانيا بذلك ثاروا على الملك وقالو " إمّا تكفينا أمر الجزائريين وإلاّ نعطي الطاعة لصاحبها "[2].

بعد سيطرة شارلكان على الوضع في أوروبا تهيأت له كل الظروف فجمع حوله جل الأمم المسيحية، وتمكّن من تجهيز أكبر حملة عسكرية عرفها البحر المتوسط خلال القرن 16م، فكانت حملة 1541م ضد مدينة الجزائر.

4-2-تفاصيل عسكرية حول الحملة :

4-2-1- الجيش الصليبي:

وضع شارلكان غزو الجزائر ضمن مخططاته وأهدافه غداة احتلال تونس 1535م وقد ذكر صاحب الغزوات أنه أرسل إلى المغرب جواسيسه للاطلاع على الطرق المناسبة له لاحتلال المدينة[3]، وفي سنة 1539م بدت ملامح الحملة في الأفق عندما وافق البابا على

---

[1] القبج ، المرجع السابق، ص 543.

[2] الآغا بن عودة المزاري ، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر،** تح ودر: يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ص ص 220-221.

[3]عمل الجواسيس المتواجدون بالجزائر على تزويد وإرسال التقارير إلى الإمبراطور شارلكان منذ احتلاله لتونس ، فمثلا نجد تقريرا مفصلا أرسله حاكم بجاية يدعى" فرانشيسكو بيريز دي إديا كاييز " حمل معلومات حول طبيعة القوات الجزائرية ودفاعاتها في مناطق شتى من مدينة الجزائر . وللمزيد حول هذا التقرير والمؤرخ في 29 مارس 1536م، ينظر DE La

تقديم إعانة مالية لتجهيز الحملة، كما بعث شارلكان إلى أمير جنوة يأمره بتجهيز ما عنده من السفن وإعدادها للسفر [1] ، فجمع الإمبراطور في ميناء ماهون بجزيرة مينورقة أسطولا ضخما اختلف المؤرخون في تقدير القوات الإسبانية : بعدد سفنه ومقاتليه ، فذكر أنه كان مؤلف من 16 سفينة شراعية و 65 سفينة نقل كبيرة تحمل 12330 بحار و 23900 جنديا بالإضافة إلى مئات القطع البحرية التي كانت ترافق الأسطول،وهي أكبر قوة عسكرية بحرية في البحر المتوسط في القرن 16م على الأقل، وقد شارك في هذه الحملة نبلاء من اسبانيا وايطاليا ، وألمانيا ، كجنود متطوعين، كما اشترك فرسان مالطا، حيث كلف 140 منهم بقيادة فرقة عسكرية مكونة من 400 جندي مدربين تدريبا في مستوى عالي[2]، ووقع اختياره للوقت الذي كان فيه القبودان خير الدين في استانبول بينما خرج الخليفة السلطان سليمان القانوني في حملته الهمايونية التاسعة لغزو المجر، حيث لا يمكن للعثمانيين أن يخوضوا معركتين كبيرتين في وقت واحد وجعل ذلك موعدا لحملته الكبيرة على الجزائر، يسرد لناخير الدين باشا ما وقع في هذه الفترة بقوله :" هكذا قضينا ثلاث سنوات منذ معركة بروزة وحتى حملة كارلوس على الجزائر في مناورات سياسية كانت تبدو سخيفة جدا... في الوقت الذي كان فيه مولانا السلطان سليمان خان عائدا إلى إسطنبول من حملته السلطانية التاسعة ، كان الملك كارلوس يحشد قواته لغزو الجزائر. لقد كان من المؤكد بأنّ الاستيلاء على الجزائر سوف يهدد الوجود العثماني بأكمله في شمال إفريقيا"[3] .

Primaudie: **Documents inedits.Lettre De Francisco Perez De Idiacayz A Sa Majeste L Imperatice,Bougie,29mars1536**.inR.A.Alger,1877,T21,pp83-86.

[1]ابن رقية التلمساني ، المصدر السابق ، ص 111.

[2]سامح التر ، المرجع سابق ، ص 157.و ينظر أيضا : أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة** ...، المرجعالسابق ، ص ص 281-282. وكذلك.Grammont(H,d),op,cit,p58

[3] بربروس ، المصدر السابق ، ص 197.

تجمعّت قطع الأسطول بمرسى ماهون بجزيرة ميوركا والذي يتألف من مراكب للنقل وذاخري للحرب، إلا أنّ المؤرخين اختلفوا في عددها وأنواعها وفي حمولتها[1]، فيذكر بعضهم أنّها كانت حوالي أربعمائة وخمسين سفينة شراعية وخمسة وستين سفينة حربية، و من المؤرخين من يذكر خمسمائة وستة عشر سفينة، تحمل إثنا عشر ألف وثلاثمائة وثلاثون شخص ، ليكون عدد السفن المشاركة محصورة ما بين أربعة مائة وخمسين وخمسمائة وستة عشر كأقصى حد ذكر في المصادر[2]، وهي إحصائيات متقاربة، ويعتبر قرامون أنّ هذه الحملة كانت من أكبر الحملات في القرن السادس عشر، وليس العدد وحده المثير للانتباه بل إنّ الجيش احتوى على أفضل المقاتلين والنبلاء من اسبانيا وألمانيا وإيطاليا إضافة إلى الجيش الذي أرسله البابا بقيادة حفيده " كولونا " وعدد كبير من المتطوعين، كما أرسلت رهبنة مالطة مئة وأربعون فارسا وأربعمائة مقاتل من المشاة[3].

4-2-2-إستعدادات الجزائر لمواجهة الحملة:

سارع حسن آغا عند سماعه بخبر تجهيز الإسبان حملة ضد الجزائر فقام بنداء في سائر الأقطار، فقدمت إليه أفواجا لمساعدته على التصدي للإسبان، واهتم بتحصين المدينة والاستعداد لمقاتلة العدو ببناء أسوار حول المدينة وأصلح ما تهدم منها ونصب عليها المدافع كما قام بقطع أشجار البساتين كلها خوفا من أن يستتر خلفها النصارى عند نشوب الحرب[4].

إنّ تميّز حسن آغا منذ توليه حكم الجزائر كان واضحا وجليا من خلال تلك الإجراءات الاستباقية للدفاع عن مدينة الجزائر التي تعرضت خلال فترته لعديد الهجمات، إلاّ أنّ هذا الأمر لم يمنعه من التعالي وعدم الأخذ برأي من كان لهم خبرة ودراية في مثل هذه المواقف من الزعماء المحليين، وكان من بينهم " سيدي السعيد الشريف" (شيخ المدينة) " والحاج

---

[1]بلحميسي، المقال السابق ، ص 98.

[2]بربروس ، المصدر السابق ، ص198، وينظر :عزيز التر سامح ،المرجع السابق ، ص 157.

[3]De Grammont(H,d),op,cit,pp 62-63.

[4] مجهول، **سيرة**...، المصدر السابق، ص 213.

مامي " الذي كان من أعيان الجند ومشهود له بالشجاعة، و أيضا من بين القادة العسكريين القائد " رمضان " و القائد" يوسف " و القائد" أرسلان " والحاج باشا " زعيم من زعماء الترك" [1]، وغيرهم.

ومن بين المصادر التي تطرقت لعدد الجند الذين تمكّن حسن آغا من جمعهم، "هايدو" الذي اعتبر أنّ عددهم كان حوالي ثلاثة آلاف من الجند العثمانيين والأندلسيين والأعراب[2] . في حين يذهب "دوغرامونت" إلى أنّ عددهم كان خمسة آلاف مقاتل من الأندلسيين وألفا من الصبايحية، وهناك إحصائيات أخرى تفيد بأنّ عددهم كان في حدود ستة عشر ألف رجل [3]. أمّا خير الدين في مذكراته فيذكر بأنّ عدد الجيش قد بلغ 600 بحار تركي و2000 فارس عربي متطوع ، وهو عدد قريب ممّا ذكره دوغرامونت، كما قام بإرسال جواسيس لمعرفة المعلومات حول تحركات الجيش الإسباني[4] .

لم ينس حسن آغا الوازع الديني بالرغم من تحضيرات الجيش لصدّ الحملة، فجمع أهل مدينة الجزائر وعلمائها ومشايخها وصلحائها ونصب لهم ديوانا، ثم بثّ الحماس فيهم لتشجيعهم وحثهم على الجهاد والدفاع عن أرض المسلمين وعرضهم، وذكّرهم بجزاء المجاهدين والشهداء في الآخرة بقوله : " ... يا أهل الجزائر فقد تعيّن الجهاد علينا معشر المسلمين لا لغرض الحياة الدنيا، بل نريد بذلك إعلاء كلمة الله وتحصيل الدرجات العليا بالشهادة ..." [5].

---

[1] بلحميسي ، المقال السابق ، ص 99.

[2] De Haedo ,op,cit ,p 63.

[3] De Grammont(H,d),op,cit,p 89.

[4] بربروس، المصدر السابق، ص 199-201.

[5] ابن رقية التلمساني ، المصدر السابق ، ص 113.

4-3-مجريات الحملةونتائجها:

غادر[1] الأسطول الإسباني من ميناء قرطاجنة "Carthagene" في يوم 15 أو16 أكتوبر 1541م، باتجاه بمدينة وهران وتبعه وصول قوات إضافية فيما بعد، ليصل إلى مدينة الجزائر يوم 19 أو 20 أكتوبر 1541م، وبالضبط بجنوب تامنفوست يوم الأربعاء 27 جمادي الثانية سنة 948هـ الموافق لـ 20 أكتوبر 1541م[2]، ونزل الجيش الإسباني في شمال الحراش بعدها بثلاثة أيام، واستقر شارلكان عند الحامة شرق المدينة، وعندما رآها سكان مدينة الجزائر خيّل لهم أنّ جبلا استقر هناك، لأنّهم لم يروا مثل هذه العمارة من قبل[3].

لم يقف سكان مدينة الجزائر مكتوفي الأيدي أمام قوة وضخامة الأسطول الإسباني وبادروا إلى منع الصليبيين من الإنزال، لكنّهم لم يستطيعوا الإستمرار أمام قذائف العدو الذي تمّكن في نهاية المطاف من إنزال الجنود، وأبقو المؤونة والعتاد في السفن لاعتقادهم بأنّ السيطرة على المدينة ستكوت خلال ساعات فقط،وعند حلول الليل هاجم الجزائريون هجوما مفاجئا لم يتوقعه الجيش الإسباني كبدته خسائر فادحة، وكلّلت العملية بنجاح وعاد المجاهدون[4].كاد هذا الهجوم المباغت الذي شنّه الجزائريون أن يؤدي إلى هزيمة القوات المتحالفة، لولا مقاومة فرسان مالطة، الذين سارعوا إلى نجدة الفرقة الإيطالية المتقهقرة تحت ضربات الجزائريين، حيث تمكن الفرسان من السيطرة على الممر المؤدي إلى كدية الصابون وبعد عبورهم الجسر تمكنوا من صد المهاجمين الجزائريين بصعوبة كبيرة [5]. حتى قال أحد

---

[1] وقيل أن تاريخ انطلاق الحملة كان في يوم 18 من أكتوبر ووصلت في يوم 20، ينظر: المدني ،**حرب الثلاثمائة سنة** ...، المرجع السابق، ص 282. في حين يذهب سامح التر إلى أن وصولها كان يوم 19 ، ينظر: التر ، المرجع السابق، ص 156.

[2] بلحميسي ، المرجع السابق ، ص 100.

[3] ابن رقية التلمساني ، المصدر السابق ، ص 113-119.

[4]بلحميسي ،المقالالسابق ، ص ص 102- 103.

[5] التر ،المرجع السابق ، ص ص 160-161.

فرسان مالطة في تقريره عن المعركة : " لقد أذهلتنا هذه الطريقة في الحرب لأننا لم نكن نعرفها من قبل[1] "، ليأمر الإمبراطور شارلكان في صبيحة اليوم الموالي بقصف المدينة، فكان الرد عنيفا من المدفعية الجزائرية، فاضطر الصليبيون إلى الإنسحاب باتجاه رأس تافورة قرب باب عزون على الساحل الشمالي الشرقي للمدينة فتشجع الأهالي بعدها لشن هجوم خاطف على الجناح الأيسر لجيش الإمبراطور، وأمام عجز هذا الأخير أمام صلابة المدافعين عن المدينة، قرر احتلال المرتفعات المحيطة بالمدينة، حتى يتحصن بها ويتفادى الهجمات المفاجئة، كما تمكّنه من مراقبة سير العمليات العسكرية بطريقة جيدة، وهو ما تم له فعلا باحتلال كدية الصابون وجعلها قاعدة لانطلاق عملياته على طول الساحل لتمكنه من احتلال التلال المجاورة ومن ثمة تسهيل السيطرة على المدينة، وبالتالي حدث توزع للقوات الإسبانية على المناطق الاستراتيجية، إلاّ أنّ المقاومة الجزائرية استمرت بقصف السفن الإسبانية وأيضا وجهوا المدفعية للجيش البري [2]،أين تواجد الإيطاليون الذين ملكهم الرعب والخوف فتفرقوا هاربين، وفي هذا الظرف بالذات خرج حسن آغا على ظهر جواده مع مجموعة من الفرسان وكرّ عليهم فأجبرهم على التراجع لأكثر من نصف ميل عن أسوار المدينة، وقضى في ذلك الهجوم على أكثر من 150 مقاتل من فرسان مالطا، مما دفع بالإمبراطور للنزول من أعلى كدية الصابون لإنقاذ جناح الإيطاليين وفرسان مالطا ويجبر حسن آغا وجنده على التراجع إلى مدخل باب عزون[3] .

شهد يوم 25 أكتوبر 1541م قدوم عاصفة بحرية قوية على مدينة الجزائر ليسوء الوضع في المساء بتهاطل أمطار غزيرة رافقتها هبوب رياح عاتية، فتقطعت حبال سفن

---

[1] بسام العسلي ، المرجع السابق ، ص 153.

[2] دراج ، المرجع السابق ، ص 315.

[3] Haedo,op,cit,p64.

الإسبان، وهو ما أعاق الجيش أثناء عملية الرمي بالمدافع والأسلحة[1]،وقد وصف المؤلف الجهول هذا المشهد حين قال : " إنّ الله سبحانه وتعالى قد أدرك أهل الجزائر بلطفه الخفي فهاجت الرياح وساقت السحاب مثل الجبال وأمطرت السماء بمطر كالطوفان،....والبحر في الزيادة والأمواج تتراكم كالجبال فغرق كثير من سفنهم وعطب على الساحل سفن كثيرة ، فعند ذلك دهش الكفار ... فإنه خيل لهم أن القيامة قد قامت ... فلم يقدروا على الرمي بمدفع واحد ..."[2] ، كانت هذه الظروف فرصة مناسبة للجزائريين وهو ماستغله حسن آغا بالفعل، ليتحولوا من الدفاع إلى شن هجوم في منتصف الليل تكبّدت فيه القوات الإسبانية خسائر فادحة قدرت بحوالي 3 آلاف قتيل، ليدبّ الشك والقلق في صفوف العدو، بل وتعداه إلى أنّ الإمبراطور شارلكان الذي كان لا يستبعد ظهور الأسطول العثماني في أي لحظة وهو ما ينهي الحلم الصليبي الذي بدت ملامحه تلوح في الأفق مع توالي الأيام وتعدد الخسائر[3] .

جاء في رواية ابن رقية التلمساني أنّ المعارك بين الطرفين دامت لمدة ساعتين قتل فيها من الإسبان أكثر من 4 آلاف، وفي الجهة المقابلة استشهد من الجزائريين حوالي 200[4]، وفي هذه الظروف أرسل اندري دوريا أحد السباحة الماهرين إلى الإمبراطور شارلكان يطلب منه الانسحاب إلى رأس ماتيفوا الذي يحميه من القوات العرب، وهكذا بدأ الجيش الصليبي في الإنسحاب محاذيا للساحل سيرا على الأقدام، وذلك بسبب هيجان البحر حتى وصل إلى وادي الحراش يوم 27 أكتوبر بواسطة حطام السفن بسبب ارتفاع منسوب مياهه

---

[1] طلب البابا بولس الثالث (1534-1549) من الإمبراطور شارلكان العدول عن شن الحملة في الخريف وكتب إليه قائلا : " إنك سترتكب خطأ فادحا إذا ما خرجت غازيا لإفريقيا في نوفمبر ... فانتظر الربيع " ، وشاطره الرأي القائد البحري أندريا دوريا ، ولكن شارلكان مضى في حملته، ينظر :علي العبيدي ،المرجع السابق ، ص169.

[2] مجهول، سيرة....، المصدر السابق، ص ص 216-217.

[3] بربروس ،المصدر السابق ، ص 203.

[4] ابن رقية ،المصدر السابق ، ص120.

وأثناء هذا الانسحاب المتقهقر تعرض الجيش لهجمات وضربات الجزائريين إلى أن وصل إلى رأس ماتيفوا [1]. وبسبب القلق والذعر الذي انتابهم من العاصفة فقد شعروا بأنّهم فقدوا شجاعتهم وقوتهم في نفس الوقت[2] ، إضافة إلى انهم أنهكوا من شدة الجوع فقد حالت العاصفة بينهم وبين السفن التي تنقل المؤن فاضطروا إلى ذبح خيولهم والتغذي منها[3].

تمكّن الأسطول الصليبي من المغادرة يوم 01 نوفمبر متجها إلى إسبانيا، لكن عاصفة بحرية عرقلت سيره وغيرت مجرى الرحلة ليتجه الإمبراطور نحو بجاية التي وصلها يوم 04 نوفمبر 1541م وينقذ ما يمكن إنقاذه[4]، ليغادر بعدها إلى ميورقة ومنها إلى قرطاجنة التي دخلها يوم 02 ديسمبر 1541م [5].

ويصف "خير الدين" بما جرى بقوله :" وعندما كان يلوذ بالفرار من الجزائر مهزوما خلع تاجه من رأسه وألقى به في البحر من شدة الغيظ ... إن هذا الملك المغرور بنفسه وقواته كاد أن يقع في الأسر لولا حماية فرسان مالطة له ، وقلة رجال حسن باي"[6].

وقد ذكر "محمد بن عبد الوهاب الغساني" في رحلته عن حملة شارلكان على الجزائر وما انتهت إليه من الفشل الذريع وعنون ذلك بفشل في الجزائر، بقوله : " وهو الذي تقدم إلى الجزائر بعمارة كبيرة من السفاين والأغربة تنيف عن ثلاثمائة مركب، وقد حمل معه في مراكبه آلات البناء وإقامته من جير وأحجار وفعلة وعملة، وأرسى عليها ليلا فلم يرعهم حين أصبح الحال إلا وبرج مطل عليهم في غاية التوثيق والتحصين، وقد نصب عليه المدافع والأنفاص.وصار يهد بذلك جدرانهم ويخرب حيطانهم وديارهم وأسوارهم، وهم في غاية

---

[1] المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة ...**، المرجع السابق، ص 293،وينظر: مولاي بلحميسي ، المقال السابق ، ص 105.

[2] شوفالييه ، المرجع السابق، ص 95.

[3] بن أشنهو،المرجع السابق، ص 200.

[4] قدّر هايدوا حجم الخسائر في الأسطول الصليبي بحوالي خمسمائة سفينة ، أي لم يغادر الجزائر إلاّ القليل منها وهذا عبر عن هزيمة مدوية للتحالف الأوروبي ، ينظر: Haedo,op,cit, p 63.

[5] دراج ، المرجع السابق ، ص ص 318-319.

[6] بربروس ، المصدر السابق ، ص 208.

الضيق والمحنة وقد أشرف على أخذهم فأبى الله سبحانه إلاّ نصر دينه القويم ليظهره على الأديان كلّها فهاج البحر وتلاطمت أمواجه فغرقت جميع مراكبه التي قدم بها فلم ينج الطاغية إلا في سبعة مراكب بما حملت من القوم[1] وقاسى في البحر الشدائد. فهنالك ذكروا أنّه قلع تاجه عن رأسه، ورمى به إلى البحر وقال: من أراد أن يلبس التاج فليتقدم إلى الجزائر ويأخذها." وأفلت هو ومن حملته المراكب السبعة التي أفلتت " [2].

4-4-تداعيات حملة شارلكان سنة 1541م :

نتعرف على مدى التأثيرات التي أحدثتها الحملة إلى غاية 1550م أي على المدى القريب وسنتعرف في الفصل الثاني تأثيرات هذا الوضع الجديد أي على المدى المتوسط والبعيد.

4-4-1- الجزائر قوة دولية في غرب المتوسط:

إنّ فشل حملة شارلكان على الجزائر في سنة1541م كان له تداعيات سياسية وعسكرية كبيرة على المدى الآني القريب أي على الأقل عشر سنوات القادمة، حيث تركت آثارا عميقة على المخططات الأوروبية الصليبية في بلاد المغارب، وأكّد بما لا يدع مجالا للشك بأنّ العثمانيين باقون في المنطقة رغم كل التحديات في هذه المرحلة الحساسة، بل ومصرّون على إخراج الصليبيين من طرابلس شرقا إلى المغرب الأقصى غربا لتصبح تابعة للخلافة العثمانية.

---

[1] جاء في مذكرات خير الدين بربروس أن جثث الكفرة وفرائس خيلهم ملات ما بين ساحل دلس شرقا وساحل شارشال غربا:" تم القضاء على عشرين ألف كافر إمّا غرقا وإما بسيوف البحارة ، ومن نجا منهم وقع في الأسر "، ينظر خير الدين باربروس، المصدر السابق، ص 205. وللمزيد حول نتائج هذه الحملة واختلاف الإحصائيات بين بعض المصادر الغربية والإسلامية ، ينظر : مولاي بلحميسي ، المقال السابق، ص ص 107-108.

[2] محمد بن عبد الوهاب الغساني ،**رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690-1691**، تق: نوري الجراح ، ط1،دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات ، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان، 2002 ، ص ص 74-75.

جعل هذا الانتصار الكبير الذي ساهم فيه حاكم الجزائر حسن آغا، السلطان سليمان القانوني يكافئه بترقيته إلى رتبة البايلر باي وبل وأصبح يدعى الغازي قارة حسن باشا[1]، فقد أصيبت أوروبا والعالم المسيحي بخيبة أمل كبيرة جرّاء هذه الهزيمة التي كانت خسائرها فادحة بشريا وماديا، فزادت بذلك هيبة العثمانيين في نفوس الأوروبيين وباتوا يعتقدون أن الجزائر مدينة لا تقهر[2]، وفي هذا الصدد يذكر أحمد توفيق المدني ما قاله ابن المفتي في تاريخه حول هذه الحادثة: " وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن... "[3].

ساهم هذا الانتصار في إعادة ترتيب خارطة التحالفات والتكتلات، فمحليا أي بالمغرب الأوسط تغيرت مواقف السلطان الزياني الذي كان قد أعلن تبعيته للإسبان بعد احتلالهم لتونس سنة 1535م، فجعلته هزيمة شارلكان يعيد النظر في سياسته ويعلن تبعيته للعثمانيين، وفشل المخطط الإسباني الرامي إلى احتلال سواحل بلاد المغارب، وتنصير أهله ونزلت أخبار الهزيمة كالصاعقة على أوربا لأنّ ما حدث في الجزائر يعتبر أعظم هزيمة من بها الإمبراطور شارلكان منذ جلوسه على عرش إسبانيا، فاهتز نتيجة لذلك نفوذه في أوروبا ولم يبق له أي حليف سوى هنري الثالث ملك انجلترا بل وانضم ملوك بعض الأمم المسيحية إلى فرنسا حليفة العثمانيين [4]. أماّ بالنسبة لمصير شارلكان، فقد ذكر خير الدين في نهاية

---

[1] بربروس ، المصدر السابق ، ص 211-213.

[2] الترّ ، المرجع السابق ، ص ص 167.

[3]، **حرب الثلاثمائة سنة**...، المرجع السابق، ص 297. أمّا عند ابن رقية التلمساني فجاءت الرواية كتالي " ... وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حللها من رخاء الأسعار وأمان الأقطار ، ولم يبقى عدو لهم يخافون منه وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها ، وبقي رعب المسلمين في قلوب الكفار مدة طويلة"، ينظر ، بن رقية التلمساني ، المصدر السابق ، ص 124.

[4] مولاي بلحميسي ، المقال السابق ، ص 109.

مذكراته أنه:"... بلغني أنّ الملك شارلكان أمضى شهورا عديدة معتكفا في الكنيسة لا يغادرها إلى غيرها، بل أشيع عنه بأنه قد مات من شدة القهر"[1].

لقد كانت الغنائم كبيرة من خلال هذه الحملة واستفاد الجزائريون منها، فها هو خير الدين يخبرنا عن ذلك بقوله :" ازدادت مدينة الجزائر غنى بغنائم هذه الحملة، ووقع عدد كبير من الجنرالات والأميرالات والدوقات والنبلاء والفرسان وغيرهم من أبناء القصور والعائلات الكبيرة في الأسر . لقد قدم هؤلاء جميعا من مختلف عواصم أوروبا ليستمتعوا بمشاهدة احتلال الجزائر، ولم يتمكن الأميرال أندري دوريا ومن معه من إنقاذ أنفسهم إلا بصعوبة بالغة"[2].

لم تحاول إسبانيا مجددا غزو مدينة الجزائر بعد هذه النكسة إلى غاية أواخر القرن الثامن عشر[3]، وهو ما يعبّر بالفعل على أنّ إسبانيا بل وأوروبا تأثرت نفسيا على الأقل بشكل كبير من هزيمة التحالف الأوربي في الجزائر التي غدت غصة في حلوق الصليبيين، فأصبح للأسطول الجزائري وقادته دورا في أحداث المنطقة في المتوسط.وقد حفظ لنا التاريخ قصيدة قيلت في هذه المناسبة نذكر منها هذه الأبيات :

سلو شارلكان كم أرى من جنودنا

فليس إلا هم وزواجر

فجهز أسطولا وجيشا عرمرما

ولكنه قد آب أوبة خاسر[4].

---

[1] بربروس ، المصدر السابق ، ص ص 213-214.

[2] المصدر نفسه ،ص ص 205-206.

[3] وولف، المرجع السابق ، ص ص 61-62.

[4] الصلابي ،المرجع السابق ، ص 228.

4-2-4- تأثيراتها محليا:

أ-تأديب بن القاضي:

لقد حاول بن القاضي زعيم قبائل كوكو وهو حليف للإسبان ومعه 2000 من أتباعه وعدد كبير من الفرسان مساعدة الإمبراطور شارلكان أثناء حملة 1541م على مدينة الجزائر إلاّ أنّه وصل متأخرا بعد علمه بهزيمة الصليبيين،فتوجه حسن باشا لمعاقبة أحمد بن القاضي، فخرج للانتقام منه وذلك في ربيع 1542م على رأس 3000 انكشاري و 2000 فارس من القبائل العربية ومجموعة من المدافع من العيار الخفيف، كان الفرق في القوات والسلاح واضحا بين الطرفين وهو ما دفع ابن القاضي من إلى طلب العفو والقبول بالتبعية للعثمانيين، ودفع الجزية وتعهد بدفع الضرائب سنويا، ولم يثق العثمانيين بتعهداته فطلبو لضمان تطبيق تلك التعهدات إبنه كرهينة وعمره 15 سنة وكان يلقب سيدي احمد ابن القاضي وهذا ما أدّى إلى الهدنة[1].

ب- تلمسان:

إنتقل الصراع بين الإسبان وحكام الجزائر إلى تلمسان الزيانية التي شهدت حالة شد وجذب بين أطراف عديدة بعد حملة 1541م، حيث أنّه صار يحكمها مولاي أحمد ابن مولاي عبد الله، وذلك بمساعدة حسن باشا منذ توليه السلطة في الجزائر بعد خير الدين بربروس، ولكن الأمر لم يبقى على حاله فقد تقرب الحاكم التلمساني من الإسبان بسبب استبداد الأتراك وتحول مواقف الأهالي الذين قرروا خلعه من العرش ومبايعة أحد إخوته، ويدعى الحسن، فتوجه أبوزيان إلى وهران للإستعانة بحلفائه الإسبان الذين استجابو لطلبه وسيروا حملة إلى إلى تلمسان بمساندة بعض الناقمين على الأتراك من قبائل بني عامر وفليتة وبني راشد وعلى رأسهم القائد المنصور بوغنام أو بن بوغاني مع بدايات سنة 1543م ، فتصد لهم حسن باشا ومنعهم من الوصول إلى تلمسان كما ترك حامية في قلعة المشور،

[1] Haedo.op.cit.p 65.

ورغم ذلك بقيت تلمسان في حالة من عدم الاستقرار بسبب مضايقات القبائل بقيادة مزوار بن بوغنام[1]. أمّا بالنسبة لحسن باشا فقد اختلفوا في تاريخ وفاته، فهايدو قال سنة 1543م ومنهم من يذكر نهاية أنه توفي في نوفمبر 1545مويؤكد بأنه ترك السلطة مع نهاية 1543م[2]، ومن الباحثين من يذكربأن حسن باشا بن خير الدين الحقيقي بقي يشرف على إدارة الأوقاف في الجزائر لمدة 5 سنوات أي حتى وفاته 1549م[3] ،أين دفن في باب الواد بالجزائر[4].

استمرت الأسرة الحاكمة بتلمسان في صراع على السلطة ما بين موال للعثمانيين على اعتبارهم إخوة في العقيدة والدين والمصير المشترك والجهاد ضد الإسبان، وبين موال للإسبان راغبا في الحكم ومحافظا على عرشه ولو على حساب السكان ومصالحهم المتعارضة مع طموحات هؤلاء الحكام الخاضعين للإسبان، وممّا زاد الأوضاع تأزما تدخل الأشراف السعديين في شؤون الزيانيين محاولين توسيع نفوذهم على حساب الأراضي الزيانية على يد الشريف محمد المهدي السعدي، الذي قاد حملة عسكرية تم بموجبها محاصرة تلمسان تسعة أشهر كاملة ليسيطر عليها يوم 05 جوان 1550م ثم استطاع بعد ذلك السيطرة على مستغانم وبعدها حاول الاتجاه نحو مدينة الجزائر للسيطرة عليها وطرد العثمانيين[5]. وهذا ما سنعرفه في الفصل الموالي.

---

[1] الصلابي، المرجع السابق، ص 230.

[2] Haedo.op.cit.p p 67-68. . GRAMMONT(H.D),op,cit,p72.

وكذالك ينظر : بن المفتي حسين بن رجب شاوش ، **تقييدات بن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها** ، در وتح: فارس كعوان،ط1، دار بيت الحكمة، الجزائر ،2009، ص 39.

[3] خليل الساحلي ،" **تقليد صالح باشا ولاية الجزائر الغرب سنة 1552م**"، المجلة التاريخية المغربية ، تونس،جويلية 1974م ص 126.

[4] وقيل توفي في سنة 1544م، ينظر : الصلابي، المرجع السابق، ص229.

[5] بن خروف ،المرجع السابق، ص 108.

5- المغرب الأقصى في دائرة الصراع الإسلامي المسيحي(1520-1550م) :

تمهيد:

شهد المغرب الأقصى تكالبا غير مسبوق مطلع القرن السادس عشر من أطراف عديدة بداية من احتلال الأيبيرين لبعض السواحل المغربية، وظهور الدولة العثمانية في المغرب الأوسط، وخاصة في تلمسان ممّا يعني اقترابها من الحدود المغربية، جعل السلطة الوطاسية و حتى مع بدايات ظهور السعديين على المشهد السياسي أمام حتمية التحالف مع أحد الأطراف على حساب الآخر، أي سواء الدخول في حلف إسلامي، أو التحالف مع الصليبين ضد العثمانيين.

5-1-العهد الوطاسي :

5-1-1- الوطاسيين في ظل الصراع الجزائري الإسباني:

لم تشهد العلاقات العثمانية المغربية تطورا ذا بال إلا ابتداءا من الربع الأول من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي ، وذلك بالتزامن مع امتداد النفوذ العثماني إلى شمال إفريقيا وقيام حكومة الجزائر العثمانية ، وهو أمر طبيعي لأنّه لا يمكن إغفال عامل المكان في تلك العلاقات، فالدولة العثمانية غدت على تخوم المغرب الأقصى بعد أن كانت بعيدة عنها . وعليه فإن علاقات العثمانيينبالمغرب الأقصى تحولت في الجزء الأكبر منها إلى علاقات مغربية-جزائرية، وقد كان الحسن الوزان من بين رسل السلطان الوطاسي إلى البلاد الجزائرية في سبتمبر 921هـ/1515م ، ليشرح لعروج موقف سلطان المغرب ويطلعه على أوضاع البلاد في ظل التحرشات الإسبانية والبرتغالية على السواحل المغربية، وقد يكون أبدى له استعداد سلطانه للتعاون معهم ضد الصليبيين[1].

---

[1] بن خروف ،المرجع السابق، ص ص 95-97، وينظر : الوزان ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 39. وينظر أيضا: عبد الكريم كريم ، المرجع السابق، ص 31.

إنّ تعرض الجزائر والمغرب الأقصى إلى الغزو الأيبيري وضع البلدين في نفس الحالة على جميع المستويات، فكان الطبيعي والأمر الواقع يشير إلى تعاونهما ضد الصليبيين إلاّ أنّ هذا لم يحدث غالبا، حيث يلاحظ أنّ العلاقات لم تستقر على نمط واحد إذ لم يحصل التعاون المطلوب والتحالف بينهما من أجل التصدي للعدوان الأوروبي، خاصة بعدما تمكّن العثمانيون من الوصول إلى الجزائر رغم سعي عروج وخير الدين وغيرهما من حكام الجزائر لربط جسر التعاون في وجه العدو المشترك. ولعلّ السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى سياسة الإسبان والبرتغاليين في ربط معاهدات مع الفاعلين في المغرب الأقصى لمنع التوسع العثماني في البلاد[1].

إنّ الآّفت للانتباه في العلاقات الجزائرية المغربية خلال العهد الوطاسي هو المظهر الجديد[2] المتمثل في اعتراف الوطاسيين بالسلطة الرمزية للخليفة العثماني على بلاد المغرب الأقصى، حيث نقشوا اسمه على السكة، ودعوا له في خطبة الجمعة[3]. فبعد قيام سلطة جديدة في مدينة الجزائر سعى عروج بعد دخوله إلى تلمسان سنة 1517م إلى التعاون مع الوطاسيين، قد يكون لسبب أنّ الملّة واحدة وهي الإسلام، وأيضا من أجل تأمين ظهره في الحدود الغربية لتلمسان من جهة، وحتى يقف في وجه أي تحالف محتمل بين السلطان الوطاسي والسلطان الزياني المعزول أبي حمو موسى الثالث من جهة ثانية، فقد أرسل إلى

---

[1] تميزت العلاقات بين الجزائر والمغرب قبل تواجد الأتراك العثمانيين أي بين الزيانيين والوطاسيين في عمومهابحسن الجوار وعدم التدخل في شؤون تلمسان إلى غاية النصف الأول من القرن 10هـ/16م، وللمزيد حول الموضوع ينظر:.Haedo,op,cit,pp 30-33 ، وينظر : زهراء النظام ،المرجع السابق ، ص ص 70-71.، عمار بن خروف ،المرجع السابق، ص ص 89-90.

[2] إنّ علاقات المغرب الأقصى بالباب العالي كانت تتم عبر رافدين ، فالإتصالات كانت من الجزائر وبخاصة المجاهد عروج ، التي كانت تعني الاتصال باسطنبول ، إلا أن هناك فترات من التاريخ سجلنا فيها الاتصال المباشر بالقسطنطينية ، ينظر :عبد الهادي التازي ، **الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب**،مج2،ط1،دار نشر المعرفة،الرباط ، 2001، ص 328.

[3] أبو القاسم الزياني ، **الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب** ، مخ ، الخزانة العامة ، الرباط ،د.ت.ن، ص 357.

سلطان فاس محمد الوطاسي[1] يعرض عليه التحالف معه ضد النصارى، ويدعمه ضد سلطان مراكش، وحسب "هايدو" فإنّ الوطاسي رحب بالفكرة لأنّ التحالف مع الأتراك العثمانيين في الجزائر، سيساعده على طرد الإسبان والبرتغاليين من السواحل، ووضع حد للنفوذ السعدي المتنامي في الجنوب لكنّ ذلك لم يتم وبقي مجرد مشروع، إذ لم يكن السلطان الوطاسي يرغب في توريط نفسه في حرب خارج حدود مملكته،ودلالة ذلكحينما طلب عروج مساعدة محمد البرتغالي الوطاسي، ولكن لم تصله أي مساعدة حينما كان الإسبان يضربون حصارا على مدينة تلمسان دام قرابة ستة أشهر، وهي تعتبر مدة كافية لوصول المدد من الوطاسيين لو كانوا عملوا على ذلك، وهو ما يظهر أن الوطاسيين لم يكونوا جادّين في ربط علاقات وطيدة تصل إلى حد التحالف مع الجزائر العثمانية، التي يبدو أنّها وثقت بالسلطان الوطاسي من خلال عروج الذي كان يمكن له الإنسحاب من تلمسان دون أن يلحق به ضرر، غير أنه حدث العكس وتخلّف السلطان الوطاسي عن وعده[2]. وهو ما دفع بعروج لفكّ الحصار والخروج من تلمسان مع قواته، لكنّ الإسبان وحلفائهم من الزيانيين تمكنوا من إدراكهم ، فجرت معركة في الوادي المالح شمال شرق تلمسان بقيادة ألفرد غراسيا تنيو" ALFERES GARCIA DE TIENO" ونتيجة لعدم التعاون بينهما تمكّن الإسبان من القضاء على عروج[3].

---

[1]هو أبو عبد الله محمد بن محمد الشيخ المولود عام 1465م لقب بالبرتغالي لأنه كان قد أقام رهينة لدى البرتغال في صباه إثر هدنة عقدها معهم والده ،تولى الحكم سنة 1505م وتوفي سنة 1524م ، ينظر : إبراهيم حركات ، **المغرب عبر التاريخ** ، مج 2 ، دار الرشاد الحديثة ، ط1،الدار البيضاء ،المغرب،2000م ، ص 172.

[2] يشير سامح التر إلى أنّ كتابات المؤلفين الإسبان تنفي اتفاق عروج مع الفاسيين إذ يلاحظ أنهم يشككون بوجود أي اتفاق بين عروج وحاكم فاس لأنّ الجيش الفاسي وصل إلى مليلية عندما استشهد عروج ، فهذا الأخير عندما كان محاصرا في تلمسان كان الفاسيون يبعدون عنه مسافة عدة أيام ، وعلى هذا كله فلو أن الفاسيين أرادوا تقديم المساعدة لعروج لما استطاعوا ، وهو أيضا ما ذهب إليه دوغرامونت، ينظر: سامح التر ، المرجع السابق ، ص 63.

[3] وللمزيد حول هذه المسألة ينظر: بن خروف ،المرجع السابق، ص 98، وينظر أيضا: عبد الكريم كريم ، المرجع السابق ، ص 31، وينظر: الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج2 ، ص 39.وينظر: بسام العسلي ، المرجع السابق، ص 106.

إنّ عدم تقديم محمد البرتغالي الوطاسي الدعم المرجو لعروج يكمن في الحفاظ على مكاسبه، إذ لم يكن نقضا لاتفاق بقدر ما كان تجنبا للتورط في حرب خارج حدود مملكته ويضل ينتظر المنتصر من بين الإسبان أو عروج ، فيحدد موقفه من ميزان القوى الجديد، خاصة وأنّه كان يخشى المد السعدي في الداخل[1].

كما تذهب بعض الروايات أيضا إلى أنّ امتناع السلطان الوطاسي من تقديم الدعم لعروج ، هو أنّ البرتغالي قد يكون لديه اتفاق سري مع الإسبان والزيانيين أعداء العثمانيين ، خاصة وأن عروج قد أصبح يمثل قوة تهدد كل الدول والكيانات السياسية(الزيانيين ، الإسبان ، البرتغاليين ، الوطاسيين) وحتى بعض القبائل ، أماّ "هايدو" فيشكك في تحرك السلطان الوطاسي بالجيش إلى الحدود، أي إلى مليلة بعد أقل من خمسة عشر يوم من مقتل عروج أي أنّه كان على علم بذلك، وهو ما يدّل على أنّه لم يتنقل من أجل إنقاذ عروج ومساعدته بل من أجل حماية حدود مملكة الوطاسيين لا سيما وأنّ أخبار السفن العثمانية التي تجوب سواحل مليلة قد بلغت مسامع محمد البرتغالي من قبل[2].

5-1-2- مظاهر التعاون العثماني الوطاسي:

جعلت هذه التطورات من العلاقات الجزائرية المغربية بعد وفاة عروج تبدوا في حالة من الفتور، بل ووصلت إلى حد القطيعة بين الطرفين، لكنّها كانت مؤقتة، حيث شهدت هذه العلاقة تحسنا بعد اعتلاء أبي العباس أحمد بن محمد البرتغالي الحكم في عرش بني وطاس،فمنذ عودة خير الدين حاكما في مدينة الجزائر عرفت العلاقات الجزائرية المغربية انقطاعا إلى غاية 1531م، إلاّ أنّ محمد البرتغالي الوطاسي حاول التقرب من حكام الجزائر وانتهج سياسة جديدة مع الجزائريين، وذلك بالاعتراف بالسلطة الروحية للسلطان العثماني ، وللتعبير عن حسن نيته تجاه الجزائريين سمح للسفن الجزائرية بقيادة خير الدين بالرسوا

[1] محمد مبارك الميلي،المرجع السابق، ص 48.

[2] Haedo,op,cit,pp 33-34.

بتيطوان والعرائش للتزود منها بالحبوب والمؤن خاصة وإذا ما علمنا أنّ الجزائر كانت تمر بمجاعة في سنة 1531م[1].

وسعى خير الدين بعد قضائه على الحصن الإسباني قبالة مدينة الجزائر سنة 1529م إلى تحرير وهران، فأرسل إلى السلطان الوطاسي وإلى ملك تونس الحفصي وملك تلمسان الزياني من أجل إقناعهم بالمشاركة في مشروعه الجهادي [2]. لكنّ هذا المشروع لم ينفذ لعدم وصول المساعدات المطلوبة. وكان الإسبان يخشون من قيام تحالف بين الوطاسيين في المغرب الأقصى وخير الدين في الجزائر، لكنّ ذلك لم يتم بسبب إقدام الإسبان على تحريض الملك الزياني عبد الله الثابتي على الثورة ضد خير الدين وإقدام شارلكان على تعزيز وهران والإسراع في احتلال تونس سنة 1534 كما مرّ معنا، كل هذه الأحداث وغيرها عطلت أي تحالف بين الوطاسيين وخير الدين ، وكذلك في عهد حسن آغا فيما بعد، ولكن نجد فترات بلغ التعاون ذروته في مجال الجهاد البحري، ومن مظاهر ذلك أنّ عدد كبير من الأتراك العثمانيين انتقل إلى العمل في البلاط الوطاسي ، وبل وفي الجيش ، فقد ذكر طوريس أن عددا لا بأس به من العثمانيين الذين كانوا في الجيش الوطاسي[3]. إلاّ أنّ هذا لم يكن كافياخلال هذه المرحلة.

منذ أن أصبح العرش الوطاسي مهددا بالزوال أمام استفحال الخطر السعدي، والوطاسيون يطلبون النجدة والمساعدة من الأتراك العثمانيين مقابل الولاء والتبعية لهم. وهوما قابله السلطان العثماني بالترحيب، إذ من شأن هذا الولاء أن يمكّن للعثمانيين توطيد مركزهم في بلاد المغارب، ومدّ نفوذهم على المغرب الأقصى والحوض الغربي للمتوسط ومن مظاهر

---

[1] بن خروف، المرجع السابق ، ص ص 98- 100.

[2] القبج ، المرجع السابق، ص 416.

[3] دييكو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، تر: محمد حجي و محمد الأخضر، د. ط، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1989م، ص 97.

التعاون بين الطرفين قيام الدولة العثمانية سنة (952هـ/1545م)[1] بالوساطة لصالح الوطاسيين لدى الملك السعدي أبو عبد الله محمد الشيخ المهدي (896-964هـ/1491-1557م)، ففي أعقاب تطورات الصراع الوطاسي السعدي وخاصة الانتصار الذي حققه الملك السعدي محمد الشيخ على حساب الملك الوطاسي أحمد بن محمد البرتغالي، رأت الأسرة الوطاسية ضرورة توجيه نداء للسلطان العثماني سليمان القانوني للتدخل من أجل إطلاق سراح أسراهم، ورغم أن الوساطة العثمانية لم تنجح [2]. إلاّ أنّ العلاقات العثمانية الوطاسية استمرت إلى غاية نهاية حكم الوطاسيين وظهور السعديين[3] وقيام دولتهم في المغرب الأقصى.

تشير الباحثة زهراء النظام إلى أنّ رغبة سكان تلمسان والقبائل المجاورة لها في الخروج من تبعيتهم للزيانيين لأنّهم تحالفوا مع الصليبيين الإسبان من أجل البقاء على كرسي العرش، لذلك كاتبوا بني وطاس في فاس من أجل انقاذهم إلى أنّ هؤلاء كانوا في وضع صعب لا يسمح لهم بالاستجابة لأهل تلمسان وهو ما اجبرهم للالتفاف حول الأتراك العثمانيين للدفاع عنهم، بدعوى أنّهم مسلمين، ولأنّهم أيضا خبروا الحرب مع المسيحيين وانتصروا عليهم في أكثر من موقع خاصة في مدينة الجزائر التي تعرضت لعديد الحملات الإسبانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر[4]. وهو ما يرد عليه الدكتور عمار بن خروف ويرجع إلى أنّ سياسة الوطاسيين قامت على عدم التورط في التدخل خارج حدود المغرب، سواء لمساعدة الزيانيين أو الأتراك العثمانيين، وهو ما عاد بالإيجاب حين استفاد الوطاسيين من

---

[1] في حين يذكر دييكو طوريس أنها كانت في سنة 1548م. ينظر: دييكو طوريس، المصدر السابق، ص 128.

[2] بن خروف ، المرجع السابق، ص ص103-104.

[3] هم من الأشراف الذين حطوا بدرعة وسجلماسة، حيث كان مقدمهم من الينبوع في شبه الجزيرة العربية عام 630هـ في أيام يعقوب المنصور المريني ، للمزيد في موضوع نسب السعديين ينظر :أبو القاسم الزياني ، **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب** ، تح : رشيد زاوية ، منشورات وزارة الأوقاف ، الرباط ،المغرب، 2008، ص 73.

[4] النظام ،المرجع السابق ، ص 70.

هيبة الأتراك العثمانيين في صراعهم مع القوى الخارجية من إسبان وبرتغاليين، ونزاعهم مع القوى الداخلية ، ولا سيما مع السعديين في سبيل وجودهم بالمغرب الأقصى وهذا ما أطال في عمر الدولة الوطاسية رغم سقوطها في النهاية[1].

في حين يرى صاحب (عروسة المسائل) أنّ مرجعية العلاقات بين الأتراك العثمانيين والوطاسيين كانت من منطلق ديني جهادي، أي حلف إسلامي في وجه الصليبيين بقوله:

وعاد فرض المسلمين في الجهاد ليرهب الأعداء في كل البلاد

من لم يروع كافرا في داره روعه الكافر في قراره

شاهده ما كان في تلمسان اذ كانوا يعطو مالهم بوهران

وانتصرو بهم على عروج وكشفو العورة للعلوج.[2]

ويعلّق الدكتور عبد الهادي التازي على هذه الأبيات في أنّها تشير إلى ما حدث بين أمراء تلمسان من صراع أدى إلى نزول الإسبانيين بالساحل الجزائري، وهو ما دفع بظهور القائد عروج على مسرح الأحداث بالجزائر، وبالتالي ظهر التعاون المغربي الجزائري ضد الإسبان[3].

إنّ وجود التعاون بين العثمانيين والوطاسيين لم يرقى إلى تشكيل حلف إسلامي قوي لأسباب يفصّل فيها الباحث عمار بن خروف بقوله: " إنّ الوطاسيين ذهبوا ضحية السياسة المترددة التي اتبعتها الدولة العثمانية والجزائر تجاههم ، وتجاه المغرب عموما، وهذه السياسة إن دلّت على شيء فإنما تدل على عدم جدّيتها في التدخل في المغرب بكل ثقلها وإن المغرب لم يكن المحور الأكثر أهمية ضمن اهتماماتها ، وهو ما لمسه أواخر الوطاسيين ، وجعلهم يميلون مجددا إلى الإسبان والبرتغاليين ..." ، ولكن قد يكون هناك أعذار للعثمانيين

---

[1] بن خروف ، المرجع السابق ، ص 98.

[2] أبي عبد الله محمد الكراسي التطواني ،**عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الوسائل** ، مخطوط دون بيانات المؤسسة والتاريخ ،ص 18

[3] التازي ، المرجع السابق، ص 324.

في سياساتهم تجاه المغرب في هذه الفترة ، بقوله :" إنّ تردد العثمانيين في سياستهم تجاه مغرب الوطاسيين، هو مشاغل الدولة العثمانية في شرقي أوروبا، ومشاغل الجزائر بأمر تلمسان وغيرها من الأمور الداخلية، وبروز السعديين كقوة كبيرة تتمتع بثقة أهل المغرب بل والجزائر، ومن ثم كان من المحبّذ أخذها بالسياسة واللين ، لا بالقوة والعنف ولا سيما أنه بدا لها واضحا أن الحكام الوطاسيين الذين كانت ستعمل من أجل دعمهم محكوم عليهم بالزوال لعجزهم عن معالجة قضايا المغرب الأقصى الكبرى وأهمها الغزو الخارجي ، والانقسام الداخلي[1]. وهو في نظري الرأي الصواب لأنّه جامع لتلك الأحداث التي تعبر فعلا عن عدم القدرة على تشكيل حلف إسلامي قوي يخرج الصليبيين من بلاد المغارب خلال هذه الفترة وربما يعيد الأندلس إلى حاضنة العالم الإسلامي.

5-2- العهد السعدي:

5-2-1- الصلات الأولى للعلاقات السعدية العثمانية:

إنّ المتتبع لتاريخ الدولة السعدية يجد أن التطورات التي حصلت في بداية عهد المهدي هي التي وحّدت المغرب الأقصى وجعلت من دولته الفتية يحسب لها ألف حساب في فترة وجيزة ، فبعدما تمّكن من دخول مراكش 951هـ/ 1540م ومبايعة أهلها له ، استولى على مكناسة الزيتون 1544م، ثمّ قام بحصار مدينة فاس في نفس السنة واستطاع الظفر بها، بل ووصل إلى غاية تلمسان ودخلها سنة 1546م ، وهي نقطة رئيسة في الصراع مع الجزائر العثمانية ، وواصل ملاحقة فلول الوطاسيين من أجل القضاء عليهم نهائيا، ولم يتوقف عند هذا الحد بل كان طامحا إلى تحقيق مشروع بناء وتوحيد بلاد المغارب، ولكنّ هذا المسعى سيجعله يصطدم مع البرتغاليين والإسبان في الشمال ، وأتراك الجزائر من الجهة الشرقية لذلك يعتبره الكثير المؤرخين أنّه المؤسس الحقيقي للدولة السعدية[2].

---

[1]بن خروف ،المرجع السابق، ص ص 105-106.

[2]عبد الفتاح مقلد الغنيمي،المرجع السابق، ج 6، ص ص 129-130

بعد تولي السعديين السلطة في المغرب الأقصى وجدوا أنّهم أحق بخلافة [1]المسلمين استنادا إلى نسبهم الشريف الذي يجعل منهم أحقّ بالخلافة من الترك العجم، ولذلك لم يعترفوا بالخلافة العثمانية على العالم الإسلامي، وفي مقابل ذلك كان العثمانيون يرون أنّهم أولى بالخلافة، فقد اعترف بهم شريف مكة نفسه وأعطاهم مفاتيح الكعبة ، وتلقّب السلطان العثماني بخادم الحرمين الشريفين، كما أن الدولة العثمانية أصبحت أكبر قوة إسلامية في تلك الفترة، كل هذه التناقضات أدّت إلى التصادم بين الطرفين وظهور صراع في الأفق خاصة بعد أن صارت الجزائر إيالة تابعة للباب العالي، كان في بعض الأحيان صراعا عسكريا مباشرا ، وأحيانا أخرى صراعا خفيا تحت قناع المهادنة، وسعت من خلال ذلك الدولة العثمانية إلى ضم المغرب الأقصى أو تشكيل تحالف إسلامي من شأنه العمل على طرد الصليبيين من بلاد المغارب[2]. وفي شأن مسألة الخلافة يقول التمقروتي: " والعثمانيون من جملة المماليك والموالي الذين دافع الله بهم عن المسلمين، وجعلهم حصنا وسورا للإسلام ... وإن كانوا حملوا الإمارة وقلدوا الأمر في إنما في الحقيقة نيابة وأمانة يؤدونها إلى من هو أحق بها وأهلها وهم موالينا وسادتنا الشرفاء ملوك بلادنا المغرب الذين شرفت بهم الإمامة والخلافة ..."[3].

لا تذكر المصادر أيّ صلات أو علاقات مباشرة بين الأتراك العثمانيين في الجزائر على عهد المؤسس الأول عروج ، وبين الشريف محمد القائم بأمر الله مؤسس الدولة السعدية

---

[1] فالأتراك كانوا يعتقدون بأحقية خلافتهم على المسلمين بعد تنازل المتوكل على الله العباسي عن شارتها للسلطان سليم الأول، وهي مسألة جوهرية في الصراع بين الطرفين ، فالسعديون رفضوا الخضوع للعثمانيين على أساس نسبهم وتراثهم الشريف ومسألة القرشية والانتماء للسلالة النبوية.ينظر: فهد بن محمد السويكت ،"**موقف الأشراف السعديين من مسألة الخلافة**"، مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، الرياض، 2006، ع 19، ص ص 180-181.

[2] أحمد سالم علي ، "**العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن السادس عشر**" ، مجلة كان ، ع 13، السنة الرابعة ، 2011، ص 49.

[3] أبو الحسن علي بن محمد التمقروتي ، **النفحة المسكية في السفارة التركية** ، تح، تق: عبد اللطيف الشاذلي ، المطبعة الملكية ، المغرب ، 2002، ص 135.

في المغرب الأقصى ، وبالتالي نقول بأنّ العلاقات بين السعديين والعثمانيين كانت سطحية ولم ترق إلى الشكل الذي تذكره بعض المصادر التاريخية الأخرى ، ولعلّ الإشارات الأولى لاتصال أتراك الجزائر بالمغرب الأقصى عموما، تبرز بشكل مثير ضمن الجيش الوطاسي كما ذكرنا سابقا ، والجيش السعدي أيضا كجنود في صفوفهما ، حيث تشير وثيقة برتغالية إلى وجود أتراك عثمانيين في صفوف السعديين منذ سنة 1529م [1]، فقد كان للأتراك دور كبير في تقديم الخبرة للجنود المغاربة في ما تعلقبسلاح المدفعية والأسلحة النارية، وهذا يشكل نوع من مظاهر التضامن والتعاون الإسلامي رغم أنّه لم يكن بالشكل الواسع والذي تتطلبه تلك المرحلة.

تشير إحدى الوثائق البرتغالية إلى وجود اتصالات بين أحمد الأعرج[2] والأتراك العثمانيين، الأمر الذي أقلق الإسبانيين والبرتغاليين، فقيام تعاون بين القوتين الإسلامتين يعني صعوبة الحفاظ على مراكزهم وقواعدهم العسكرية التي احتلوها مع أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر، حيث يظهر التقرير الذي بعثه الكونت الدويت تفاصيل الاتفاق بينه وبين الأمير عبد الله بن محمد الشيخ من أجل طرد الأتراك من كل بلاد البربر كما يتضمن تفاصيلا حول نية الأتراك في الجزائر عقد اتفاق مع الشريف السعدي ، ويبدوا ممّا سبق أنّ البرتغاليين والإسبان كان في نيتهم العمل على إفشال كل محاولة من شأنها أن توحد العثمانيين والسعديين[3].

بادر البرتغاليون إلى عقد معاهدة السلام مع السعديين من أجل منع الأتراك العثمانيين من الوصول إلى المغرب الأقصى، ولم يتأخر السعديون في إبرام هذه المعاهدة على غرار

[1] بن خروف ،المرجع السابق ،ص 106.

[2] أبو العباس أحمد: ابن القائم بأمر الله المعروف بالأعرج، بويع ملكا على سوس على 916 هـ/ 1500م، وقد نظمت في عهده المقاومة المسلحة ضد البرتغال بسواحل سوس، وهو أخو محمد الشيخ الذي دخل معه في خلاف أدى إلى حروب مسلحة بينهما، ينظر: الفشتالي ، المصدر السابق، ص74.

[3] عبد الكريم كريم ،المرجع السابق ،صص 75- 76،وينظر:. Henry de castries ,op.cit ,p246

المعاهدات السابقة[1]، وهو ما تشير إليه وثيقة برتغالية موقعة بين الطرفين في سنة944هـ/1537م[2] .

5-2-2- العثمانيون والصراع في المغرب الأقصى:

وفي المقابل كان للتدخل العثماني في الصراع السعدي الوطاسي انعكاسات على مستقبل العلاقات المغربية العثمانية، إذ برزت مظاهر التحدي والعداوة بين الطرفين، وذلك بعد ضمّ السعديين لفاس 956هـ/1549م، فالتجأ بعض أمراء بني وطاس للجزائر طلبا في المساعدة وإرجاعهم إلى السلطة ، وبدأت بذلك المرحلة الفعلية للصراع السعدي العثماني، ما جعل السلطان سليمان القانوني يرسل خطابا إلى أمير الأمراء نزولا عند رغبة الجزائر وبني وطاس ويوفد رسولا إلى محمد الشيخ ويصفه في رسالته " برئيس العرب" و"حاكم ولاية فاس" فكانت هذه الرسالة دلالة واضحة تشير إلى أنّه خادم من خدمه وأن المغرب ولاية عثمانية وأنّه مجرد حاكم فيها، ما جعل السلطان المغربي يطرد السفير[3].

تشير وثيقة إسبانية إلى أنّه كان هناك اتفاق بين الشريف السعدي وحسن باشا ينص على التعاون بينهما من أجل طرد الإسبان من وهران والمرسى الكبير التي اتفقا على أن الجيش المغربي ينتقل إليها ، ليلتقي الجيشان ويقوما بتنفيذ عملية عسكرية مشتركة[4].

---

[1] غيلاني السبتي ، "**قراءة في تاريخ العلاقات السياسية الجزائرية المغربية(1516-1912)**"،،مجلة الإحياء، ع14، ص 514.

[2] Henry de castries ,op.cit,**Port**, t3, ,p44.

[3] Henry de castries ,op.cit,**Esp**, t1, p206.

[4] Henry de castries ,op.cit,**Esp**, t1, pp246-248 ، ونشر أيضا هذا الإنفاق في المجلة الإفريقية وهي مقتضبة من كتاب تاريخ ملوك الجزائر لهايدو. ينظر GrammontHistoire des rois dAlger,R.A,N24,op.cit,p264. Haedo,Histoire des rois,p89.

لم يطبق هذا الإتفاق على أرض الواقع وتحّول من تحالف إلى عداء، فتوترت العلاقات المغربية العثمانية من جديد، خاصة بعد إقدام محمد الشيخ[1] سنة 1550م على غزو تلمسان التي وجد السلطان السعدي في طلب أهالي تلمسان والجالية الموريسكية فرصة لتحقيق طموحه بضمها، فحسب الوثائق المعاصرة فإنّ محمد الشيخ استقبل خمسة عشر وجيها من أعيان مديونة، ووفدا من أعيان تلمسان وجماعة من الموريسكيين، وطلبوا منه ضم تلمسان كرها منهم للأتراك[2].

فكان الصدام المباشر بين السعديين والأتراك العثمانيين في شهر أفريل من سنة 1549م وكانت تلمسان في هذه الأثناء تحت حكم السلطان أحمد الذي كان منذ سنة 1547م يعترف بتبعيته للإسبان في وهران . فأعدّ السلطان السعدي جيشا[3] بقيادة ابنه محمد الحران بن الشريف السعدي الذي زحف على إقليم وجدة ، وبني يزناسن ، ثم جرسيف ، فندرومة ، إلى تلمسان ، ما دفع بالحامية العسكرية التركية إلى الفرار من المنطقة[4] . بادر الأتراك برد سريع وقوي ، فقد بعث والي الجزائر حسن باشا جيشا كبيرا إلى تلمسان بقيادة حسن قورصو[5] لطرد السعديين منها ، وتكشف لنا رسالة من حاكم وهران الإسباني إلى مدريد الدون مارتين "Don Martin" عن تفاصيل المعارك القوية التي حدثت في المنطقة، إذ تمكن الأتراك من هزيمة القوات السعدية، حتى أنّه قتل أحد أبناء محمد الشيخ بينما أسر ابنه الثاني

---

[1] محمد الشيخ السعدي : ولد قبل نهاية القرن العاشر هجري تلقى تعليمه بسوس ثم فاس كان له ثلاث اولاد تعاقبو على الحكم وهم عبد الله الغالب عبد المالك وأحمد المنصور تولى الحكم مابين 1540/ 1557م ،كانت نهايته على بمؤامرة على يد العثمانيين ينظر: إبراهيم حركات ،المرجع السابق، ص 50.

[2] محمد علي داهش، **الدولة العثمانية والمغرب إشكالية الصراع والتحالف** ،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان،2011م، ص 31. وينظر: عبد الكريم ، المرجع السابق، ص 76. وينظر أيضا: Haedo,Histoire des rois…op.cit ,p76.

[3] ذكر هايدو بأنّه تكون من 12 ألف فارس ، 10 آلاف من المشاة ، ينظر: Haedo,Histoire des rois,p77.

[4] كريم ،المرجع السابق ، ص77.

[5] التر، المرجع السابق ، ص 180.

وأصيب الأخر[1]. وفي هذا الصدد يذكر صاحب الاستقصاء:" ... فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حضرة فاس... تاقت نفسه إلى المغرب الأوسط (الجزائر)، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع أنهم أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه ، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم ، ولاسيما وقد فرّ إليهم عدو من أعدائه وعيص من أعياص أقتاله وهو أبو حسون الوطاسي[2]. فرأى الشيخ من الرأي وإظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤوه، فنهض من فاس قاصدا تلمسان في جموعه إلى أن نزل عليها وحاصرها تسعة أشهر... وقتل في محاصرتها ولده الحران وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه. ثم استولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الإثنين 23 جمادى الأولى سنة 957هـ، ونفى الترك عنها وانتشر حكمه إلى وادي الشلف واتسعت خطة مملكته بالمغرب ودانت له البلاد ثم كرّت عليه الأتراك وأخرجوه من تلمسان... "[3].

لقد ساهمت القبائل و الطرق الصوفية خلال فترات إلى تعميق الصراع في كل من المغرب الأقصى والجزائر، حيث دعم رجال الجزولية السعديين ضد الوطاسيين الذين حازوا على تأييد القادرية في فاس وهو مازاد من هوة الاختلاف بين الطرفين، وفي الجزائر التف مناصروا الطريقة القادرية حول الأتراك العثمانيين ضدّ الدولة الزيانية المدعومة من الشاذليين في تلمسان وغيرها، وكذلك الحال في الصراع العثماني السعدي[4]. وهذا ما استفاد منه النصارى وأشياعهم في بلاد المغارب.

---

[1] كريم ،المرجع السابق ، ص77. وينظر: Henry de castries ,op.cit,Esp, t1, p471.

[2] أبو حسون: أخ السلطان الوطاسي محمد البرتغالي، كان أميرا على بادس، اتصل بالأتراك وطلب منهم العون العسكري، قتل سنة 1554/961م.وهو آخر سلاطين الأسرة الوطاسية ، ينظر : عبد الوهاب بن منصور ، **أعلام المغرب العربي** ، ج1 ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1979م ، ص ص 409-410.

[3] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ،المصدر السابق، ج5، ص 25.

[4] النظام ، المرجع السابق، ص ص 149-150.

عمل حسن باشا على تنظيم الأوضاع في تلمسان، فقام بداية بعزل أبا زيان أحمد ونصّب على عرشها عبد الله الزياني، وبقيت الأوضاع في تلمسان في اضطراب، واستمر ضعف الدولة الزيانية شيئا فشيئا إلى غاية زوالها، فكانت تحت سلطة الملك الزياني مولاي حسن، ولكنّه كان تحت سلطة أحد رجاله القائد السفاح يدعى سفطه[1]، فقد ورد أنّه ترك مدينة تلمسان والتجأ إلى مدينة الجزائر[2]، وذكر بعضهم أنّه فر إلى مدينة وهران. وذكروا أيضا أنّه " كانت هناك هذه الحوادث تجري والحسن بن عبد الله الزياني متفرج داخل قصره " [3]، وبالتالي استمرار العائلة الزيانية الحاكمة في تلمسان إلى غاية سنة 1554م حينما أعلن علماء تلمسان تنحيته نظرا لسوء سيرته فكان أخير ملوك الدولة الزيانية [4]. وبإخفاق محاولات التعاون بين العثمانيين والمغاربة في مواجهة التحديات الأوروبية المشتركة، فتح التدخل السعدي في تلمسان باب الصراع بين حكام المغرب الأقصى وبين حكام الجزائر من الأتراك العثمانيين مع نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر.

تزامنت هذه التطورات مع نهاية فترة الهدوء والسلم التي خيّمت على البحر المتوسط بين (1545-1550م)، وتجدّد الصراع بين الإسبان والعثمانيين فيه وعودة التهديد الصفوي لدولتهم . ولم يرد السلطان العثماني الذي كان في حاجة إلى قواته في حربه مع الفرس وفي البحر المتوسط ، فتح جبهة جديدة في شمال إفريقيا فأرسل صالح رايس إلى الجزائر ومعه أوامر بتهدئة الأوضاع ليستنى له مواجهة المخاطر التي كانت تهدد دولته. فكان الحل الدبلوماسي الخيار الأمثل الذي لجأ إليه العثمانيون في البداية لمعالجة مشكل المغرب

---

[1] النظام ، المرجع السابق ، ص 183.

[2] الترِ، المرجع السابق ، ص 178.

[3] مولاي بلحميسي، **نهاية دولة بني زيان** ، الأصالة ، ع 26، جويلية –أوت 1975،ص 36.

[4] أحمد توفيق المدني، "**تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م**"،الأصالة ، ع 26، جويلية –أوت 1975،ص ص 44-45.

الأقصى مع إيالة الجزائر، وهذا تفسيرا على عدم رغبة الإدارة العثمانية خوض حرب ضد السعديين[1].

إنّ سياسة الانغلاق التي انتهجها المغرب الأقصى، وخاصة مع بداية ظهور العثمانيين على الساحل الجزائري أحبطت خطط الخلافة العثمانية إلى الولوج على المحيط الأطلسي لتضيع فرصة لهم بمرور الزمن، ولكنّ هذا لم يمنع حكام المغرب الأقصى من اختيار الطرف الذي يتحالفون معه في الفترة المناسبة.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا أنّه وباستمرار الصراعات على السلطة في كل من المغرب الأقصى وتونس وحتى الجزائر، تبدوا صورة البلاد قاتمة وغامضة تنذر وتمهد لتحولات على المدى القريب قد تؤثر على توازنات القوى في غرب البحر الأبيض المتوسط. فنستطيع القول أنّه لا وجود لسيطرة تامة أو شبه تامة من أحد أطراف الصراع أو لتحالف على حساب آخر على بلاد المغارب مع نهاية خمسين سنة الأولى من القرن السادس عشر. فهل سيؤثر هذا التوازن الجديد على المرحلة المقبلة ؟ وكيف ستكون خارطة بلاد المغارب مع نهاية القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي؟.

---

[1] النظام ،المرجع السابق ، ص 191.

الفصل الثانـي:

تأثير التوازن الجديد ببلاد المغارب داخليا وخارجيا خلال الفترة ما بين(1551-1587م)

1- طرابلس الغرب إيالة عثمانية.
2- تونس إيالة عثمانية.
3- التضامن المغاربي الإسلامي.
4- المغرب الأقصى ومسألة التحالفات في ظل التوازنات الجديدة.
5- تأثيرات التحالف الفرنسي العثماني ببلاد المغارب.

تمهيد:

منذ أن ثبّتت الدولة العثمانية وجودها ببلاد المغارب، بتحالفها مع الجزائريين وأصبحت الجزائر إيالة عثمانية ابتداءا من سنة 1520م، وصارت قوة بحرية هامة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط خاصة بعد هزيمة التحالف الأوروبي في سنة 1541م، إضافة إلى إستكمال وحدتها الترابية من خلال تحرير كل المناطق ودحر العدوان الإسباني عدا وهران والمرسى الكبير، تغيرت موازين القوى خلال نهاية النصف الأول من القرن 10هـ/16م وبدت نذر معالم جديدة تلوح في الأفق من خلال هذا التحالف الإسلامي. وعلى هذا كيف سيكون تأثير التوازن الجديد خلال النصف الثاني من القرن 10هـ/ 16م ؟. وما هي أبرز الثوابت والمتغيرات في خارطة التحالفات من خلال الصراعات القائمة في بلاد المغارب خلال المرحلة الثانية من هذا القرن؟

1- طرابلس الغرب إيالة عثمانية 1551م:

1-1-ظروف طرابلس الغرب قبيل تحريرها:

شكلّت الواجهة البحرية لطرابلس الغرب أهمية قصوى نظرا لأنّها تؤمن حرية التجارة والتنقل في البحر الأبيض المتوسط، وبسبب موقعها القريب من مالطة وجنوب إيطاليا لذلك كان التنافس بين الدول الأوروبية عليها شديدا لأنّ الحكام الحفصيين لم يكونوا في مستوى إمكانات البلاد الطبيعية والبشرية، إذ من يتمكن منها يكون له الإشراف العسكري على هذه المنطقة الحيوية وهذا ما يفسر عدم وضوح الرؤية المستقبلية لطرابلس الغرب في ظلّ كل تلك التفاعلات.

لقد عان أهالي طرابلس الغرب من الإحتلال الإسباني لعقدين من الزمن أي من سنة 1510م إلى 1530م عمل خلالها الصليبيون على إعادة تحصين المدينة، وبناء قلعة بها

إلاّ أنّ هناك مناطق لم يتمكن منها العدو الإسباني بصفة كاملة، مع أنّها تعرّضت لحملات خاطفة وسريعة[1].

تغيّرت الأوضاع في طرابلس الغرب من السيئ إلى الأسوء بعد سنة 1530م إذ وبعد مفاوضات طويلة بين الإمبراطور شارلكان والمرشد الأكبر لفرسان القديس يوحنا حول مستقبل المدينة، فقد دامت المفاوضات لقرابة ثلاث سنوات انتهت بتوقيع الإمبراطور في 24 مارس 1530م ، المرسوم في كاستل فرانكو مينيتو Kastel Franco Minito الذي بموجبه تم التنازل عن مدينة طرابلس الغرب للفرسان[2]. وهذا دليل آخر يثبت مرة أخرى أنّ حملات إحتلال مناطق بلاد المغارب حملت طابع ديني بنسبة كبيرة وبدعم من الكنيسة.

استقرّت منظمة فرسان مالطة في طرابلس الغرب منذ سنة 1530م ، وبدأت العمل بتحصين المدينة وزيادة استحكاماتها الداخلية والخارجية، وقامت بترميم الأسوار والقلاع الدفاعية بها، وتحمّل أبناء المدينة مسؤولية البناء والترميم تحت سياط الفرسان. فقد كان تصرف فرسان مالطة يوحي بأنّ التغيّرات التي يحدثونها في معالم المدينة تدل دلالة واضحة على أنّهم يسعون للاستقرار في مدينة طرابلس وللأبد، وجعلها مقرا دفاعيا لهم محاولين تهجير الأهالي من خلال الأعمال التخريبية وهو ما زاد من معاناة السكان[3].

ومن مظاهر تمسيح المدينة إطلاق أسماء مسيحية على البرجين الواقعين في الطرف الشرقي من المدينة، منها اسم القديس "جورج" على البرج الأول، واسم القديس "جاكومو" على الركن الواجه للبحر، كما أطلقوا على الساحة الواقعة بينهما اسم القديسة بربرا، إضافة إلى

---

[1] عبد الجليل التميمي، **الولايات العربية ومصادر وثائقها في العهد العثماني**، تق : التميمي عبد الجليل،تونس ، 1984،ص 74.

[2] روسي ،المرجع السابق، ص 52.

[3] محمود علي عامر ومحمد خير فارس ،المرجع السابق ، ص 155.

تسمية كنيسة باسم القديس "ليوناردوا"، وقد سمي برج مراقبة الميناء "سان بيتروا" ، كما أطلق على حصن آخر يقع في مدخل الميناء اسم "كاستيلاجوا"[1].

ومن المدن التي بقيت صامدة في صدّ الغزو الصليبي مدينة تاجوراء تدفع الضريبة التي تقع شرق مدينة طرابلس الغرب، فقد فرّ إليها وإلى جبال غريان ومسلاتة المسلمون بعد احتلال مدينة طرابلس من طرف الإسبان، ومنها بدأ التحضير لمقاومة الصليبيين[2].

رغم استيلاء فرسان القديس يوحنا على مدينة طرابلس إلاّ أنّهم لم يطمئنوا بسبب حركة الأسطول العثماني الذي كان يجوب الساحل الغربي للمتوسط ذهابا وإيابا، وتعاظم البحرية الجزائرية في ظلّ وجود خير الدين بربروس على رأسها. ولم يجد الفرسان حلاّ للأزمة المالية التي كانت نتيجة لعمليات التخريب التي فعلها الإسبان قبلهم، لذلك لجؤا إلى غزو القرى الصغيرة المجاورة وفرضوا الضرائب عليها. لكنّ الأهالي لم يستسلموا ودافعوا عن أراضيهم بما توفر لديهم، بل وقاموا بمهاجمة الحامية المالطية، وما زاد الوضع سواء رضوخ الحسن الحفصي للإسبان، ما دفع بخير الدين بربروس للإغارة على طرابلس من أجل تحريرها،حيث لم يتمكن منها، لكنّه استولى على تاجوراء وطرد منها المتعاونيين مع الصليبيين سواء الإسبان أو الفرسان وولّى عليها القائد خير الدين كرمان الذي حصّن المدينة واهتم بتطوير الأسطول الراسي فيها من أجل تحرير طرابلس[3].

1-2-نشاط درغوث باشا في بلاد المغارب:

كان الأسطول العثماني بقيادة خير الدين بربروس الآمر الناهي بحيث يسيطر سيطرة شبه كلية على الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط إلى غاية وفاته سنة 1547م. فكان من المهم أن يجد العثمانيون خليفة له يكون في مستوى إنجازاته فظهرت في الساحة

---

[1] ايتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911**، تر و تق: خليفة التليسي ، ط2،مكتبة الإسكندرية، 1991، ص ص 195-196.

[2] الطرابلسي ،المرجع السابق، ص 93.

[3] النائب الأنصاري ، **نفحات النسرين** ...، المصدر السابق،ص ص41-42.

البحرية عدة شخصيات، كان من أبرزهم درغوث رايس[1]. وحين صارت الجزائر القاعدة الغربية للخلافة العثمانية مع أنّها لم تكن النقطة المركزية في الصراع العثماني الإسلامي ضدّ الإسباني الصليبي، لعب هؤولاء البحارة الذين تكونوا على يد خير الدين دورا بارزا في أحداثه[2].

كانت بدايات درغوث من مدينة المهدية حينما اتخذها مركزا وقاعدة له نظرا لقوة التحصينات المتواجدة بها، ما جعل منها نقطة انطلاق لغاراته ضد القراصنة الأوروبيين عامة والإسبان خاصة[3]، وكانت نكبة حقيقية أخرى يتعرض لها الصليبيون في بلاد المغارب بعد نكبة الجزائر سنة 1541م.

إنزعج الإسبان من استيلاء درغوث رايس على المهدية القريبة من حلق الوادي التابعة للإسبان لما لها من أهمية في هذا المجال الحيوي، فقد كتب نائب الملك الإسباني في نابولي يخبر شارلكان عمّا جرى، فراسل هذا الأخير السلطان العثماني إحتجاجا على نقض الهدنة المبرمة بينهما[4] لأنّ الإسبان كانوا حلفاء لسلطان تونس الحفصي،ويبدوا أنّ العثمانيين تبرؤوا من أعمال درغوث ولكن فيما بعد عفا عنه السلطان[5].

وفي سنة1551م عزم شارلكان على وضع حد لنشاطات البحار المغامر درغوث الذي نجح في إنشاء مملكة شبة بحرية على الساحل التونسي، ليوجّه الإسبان حملة كبيرة ضد

---

[1]ولد درغوث في جزيرة رودس قبل طرد فرسان القديس يوحنا منه ، وقيل ولد بأناضوليا ، ووقيل أيضا أنّه يونانيفمنذ نعومة أظافره لفت نظر خير الدين بربروس، ولقد تمكن أندريا دوريا من أسره ، واستمر في هذا الأسر ما يقارب الأربع سنوات إلى أن افتداه خير الدين ليصبح من الرجالات التي أثرت في صراع العثمانيين مع الإسبان في تلك الفترة. ينظر: جون ب وولف، المرجع السابق، ص ص 64-65.

[2] نفسه ، ص 60.

[3] المنور مروش ، **دراسات عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني القرصنة، الأساطير والواقع** ،ج2 ، دار القصبة ، الجزائر ، 2006م، ص 113.

[4] مدتها خمس سنوات ، عقدت بين العثمانيين والهاسبورغ في 1545م ، وجددت في 1574م ، ينظر : المرجع نفسه، ص ص 109-111.

[5] وولف ،المرجع السابق ، ص ص 66-67.

مدينة المهدية تحت إمرة نائب ملك صقلية الدون خوان دي فيخا (Don guan de vega)، بمشاركة الحسن الحفصيقصد استغلال نفوذه لضمان إنجاح العملية[1].فقد تعهد هذا الأخير بضمان الإمداد بالقوات والمشاركة في القتال[2]، في حين كان درغوث يجوب البحر عندما سمع بنزول القوات الإسبانية على الشواطئ التونسية، فكان ردّه أوليا وسريعا بالعودة إلى المهدية لاعتراض طريق الصليبيين، وإذ به مجبرا على الإقلاع مجددا تاركا مهمة الدفاع عن المهدية لسكانها، غير أنّ الفرق في القوة العسكرية لعب دورا حاسما حين استسلمت المدينة في أعقاب هجوم قوي ومفاجئ في 10 سبتمبر 1551م، مخلفا إستشهاد ألف ومائتي من المسلمين خلال فترة الحصار وبلغ عدد الأسرى تسعة آلاف، وبعدها توجهت أنظار الإسبان إلى مدينة طرابلس[3]. فبسقوط مدينة المهدية تعرضت مواقع العثمانيين على ضعف شديد.

1-3-التحرير النهائي لطرابلس الغرب:

يشير بعض الباحثين إلى أنّ من أهم الأسباب التي دعت العثمانيين إلى ضرورة الذهاب إلى طرابلس الغرب، هو ذهاب وفد ليبي إلى استانبول لطلب المساعدة والنجدة من السلطان العثماني سليمان القانوني معلنين مباعيته بالخلافة وهو ما سر به السلطان كثيرا ، حيث قام بإكرامهم وأرسل برفقتهم مراد آغا[4] وقلة من الإنكشاريين آمرا إياهم بقتال الفرسان ومتوعدا بإرسال الأسطول لإنقاذهم من الصليبيين، في حين يذهب آخرون إلى أن تسليم إسبانيا طرابلس لفرسان القديس يوحنا هو الدافع الرئيس الذي جعل السلطان العثماني يستجيب لأهالي طرابلس، ومهما تفاوتت الأسباب والدوافع إلاّ أنّ السلطان العثماني كان يحركه دافع الإنتقام من هؤلاء الصليبيين الذين كانوا دائما يزعجون العثمانيين حتى قبل وصوله إلى السلطة وبوجود الجزائر كإيالة عثمانية مغاربية وعلى رأسها آل برروس قد طمأن

[1] روسو ، المرجع السابق، ص94.

[2] كربخال ، المصدر السابق، ج3، ص 74.

[3] روسو، المرجع السابق، ص 94.

[4] ابن غلبون ، المصدر السابق، ص 93.

السلطان سليمان القانوني وهيأ له الأسباب على تحرير طرابلس الغرب وإلحاقها بالخلافة العثمانية[1].

كانت إستجابة العثمانية لطلب الطرابلسيين آنية وسريعة حين أرسل السلطان سليمان القانوني أسطولا بحريا يتكون من عشرة آلاف جندي بقيادة سنان باشا [2]، وبمساعدة درغوث رايس بايلرباي الجزائر وصالح بك حاكم رودس وقبل الوصول إلى طرابلس هاجم الأسطول الإسلامي مالطة عام 1551م ، غير أن استبسال الفرسان في الدفاع عن جزيرتهم حال دون سقوطها، فانسحب سنان باشا ورفاقه إلى جزيرة جوزو واحتلوها وأسروا حوالي خمسة آلاف أسير[3]، وفي 15 من شهر أوت 1551م وصل الأسطول الإسلامي إلى طرابلس وتمكن من ضرب منشآت الميناء والدخول للمدينة بعد قصفها وطرد ما تبقى من الفرسان وتم تعيين آغا مراد واليا عليها وأضحت بذلك طرابلس الغرب إيالة عثمانية ببلاد المغارب[4] . لقد أصبحت طرابلس بتعيين مراد أغا واليا عليها[5] ، الولاية العثمانية البحرية الثانية في الشمال الإفريقي بعد الجزائر، ثم خلفه درغوث باشا في مارس 1553م[6] الذي استطاع أن يقضي على فلول فرسان القديس يوحنا، وقام بمد النفوذ العثماني إلى أغلب نواحي طرابلس الغرب[7].

إنّ الاستيلاء العثماني على طرابلس الغرب مكّن من الحصول على مرسى يربط البحر المتوسط بطرق القوافل المتجهة إلى الصحراء وإلى إفريقية السوداء جنوبا (طرق الذهب)

---

[1] محمود علي عامر و محمد خير فارس ،المرجع السابق، ص ص 159-160.

[2] من ألبانيا ولد في سنة 1520م وتولى السلطة في إيالات الدولة العثمانية . ينظر :فاضل بيات ، **دارسات في تاريخ العرب في العهد العثماني** ، دار الهدى الإسلامي ، بيروت ، 2005م ، ص 132.

[3] ايتوري روسي، **طرابلس تحت حكم الإسبان** ...، المرجع السابق، ص ص 75-76.

[4] طقوش ،المرجع السابق، ص 224.

[5] يعتبر أول والي تركي على طرابلس ، وكان قبل ذلك مع سنان باشا في تاجورة حينما كان يحارب الفرسان في مدينة طرابلس واشتهر بالشجاعة والإقدام في جهاد الصليبيين. ينظر : الطاهر أحمد الزوي ، **ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي،** ط1،دار الفتح ، بيروت ، لبنان ،1980، ص 153.

[6] وللمزيد ينظر :ابن غلبون،المرجع السابق ، ص 94-99.

[7] شارل فيرو ،المرجع السابق، ص ص 112-113.

بالإضافة إلى تأمين طريق الحجاج إلى البقاع المقدسة، أمّا درغوث فأصبح باشا طرابلس ومعه أسطول متكون من 40 سفينة وأصبح دعامة هامة للأسطول العثماني وكان من المنطقي أن تتلقى السواحل الإيطالية أولى ضربات درغوث باشا ، حيث هاجم سواحل كلابريا وقام بنهب(Calaber) وهدد نابولي ، حيث تلقى دوريا الأمر بإسعافها فالتقى بدرغوث باشا في 05 أوت أين تمكن هذا الأخير من النيل منه على سبع سفن وغرقت له واحدة كما تمكن من أسر 700 جندي ألماني [1].

لقد عمل درغوث رايس على استعادة المكانة البحرية التاريخية لهذه البلاد ، فأصبحت رافدا إستراتيجيا للإسلام والمسلمين . كما كانت في سابق عهدها أيام الأغالبة والفاطميين ، ويدفعه إلى ذلك طبيعة الصراع الديني السائد في البحر المتوسط من ناحية أخرى، فإرساء قواعد النشاط الليبي البحري خلال العصر الحديث، والذي استمر حتى سنة 1830م عندما احتلت فرنسا الجزائر وفرضت شروطها على طرابلس، والتي كان من بينها التخلي نهائيا عن عمليات الغزو[2].

2- تونس إيالة عثمانية:

2-1- لمحة عن أوضاع تونس:

رغم رحيل خير الدين بربروس مع اقتراب نهاية النصف الأول من القرن 16م وما خلّفه هذا الرحيل من آثار على بلاد المغارب، حيث اضطربت الأوضاع في تونس من جديد بسبب سيطرة الصليبيين الإسبان على موانئها، بل ومع بداية 957ه/1550م غزا أهل نابل وجنوة وغيرهما مدينة المهدية وأخذوا ما بها، وأخلوها وانصرفوا ولكن فيما بعد رجع بعض

---

[1]GARROT Henri ,**Histoire general de l Algerie** ,**Livre XI ,periodeTurque**,Alger,imp.p.croscenzo,1910,p413.

[2] محمد سعيد سالم الطويل، **العلاقات السياسية والتجارية بين ليبيا ودول غرب أوربا المتوسطية (1765-1832م/1210-1248ه)** ، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف :الأستاذ الدكتور ، عمر بن خروف، قسم التاريخ ، الجزائر ، 2007-2008،ص ص 46-47.

أهلها وعمرت مرة أخرى . كما استولو على جزيرة جربة أيضا[1] ، ولكن بعد سنوات قليلة كما ذكرنا آنفا ظهر الريس درغوث واستقر في طرابلس الغرب، وقام بالاستيلاء على أجزاء من الأقطار التونسية، قفصة سنة 1553م،والقيروان في1557م بعدما طلب أهلها النجدة [2].

كانت تونس قد إجتازت في ذلك الحين حوالي ثلاثين سنة وهي خاصعة لحكم غير قوي، فمنذ أن نظّم شارلكان حملة ضد تونس وأعاد مولاي حسن إلى العرش ازدادت كراهية الرعية لهذا السلطان المفروض عليهم، ولذلك ثار عليه السكانفي كثير المرات، إلى أن تزعم ابنه حميدة حركة إحتجاجية ضده[3]، فلجأ مولاي حسن كالعادة إلى حلفائه الإسبان يطلب إعانتهم، لكنّه في النهاية انهزم وانتصر عليه ابنه حميدة، وبرغم انتصار هذا الأخيرفإنّه لم يفعل شيئا لطرد الإسبان من حلق الوادي[4]الذي كانت تنتصب فيه المدافع الإسبانية مشكلة بذلك تهديد مستمر للتونسيين، كما أنّ السكان بدأوا يستاؤون من ثقل الضرائب التي فرضت عليهم، لذلك توجهوا إلى السلطة التركية بالجزائر يطلبون إعانتها على تخليصهم من الإسبان ومن حميدة[5].

شهد البلاط التونسي فوضى وخلافات كان آخرها بين السلطان الحفصي أبي العباس أحمد وبين وزيره أبي الطيب الخضار الذي كان على إتصال بالسلطة في الجزائر ممثلة في

---

[1] المسعودي الباجي ، **الخلاصة النقية في أمراء افريقية** ، ط1، تح و تق و تع: محمد زينهم و محمد عزب، دار الآفاق العربيةالقاهرة، مصر ، 2012،ص ص 205-206.

[2] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق ، ص ص 65 -66.

[3] مبارك الميلي ، المرجع السابق، ج3، ص 105.

[4]حلق الوادي: لسان بحري يصل تونس بالبحر ، وتفصله مرتفعات عن قرطاج عند الأوروبيين (la goulette) شهدت قلعته العديد من المعارك الحاسمة منها إستيلاء خير الدين على مدينة تونس1534 ، وحملة شارلكان على تونس 1535م، للمزيد ينظر: ج.آو.هابنستر ايت ، **رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م** ، تر ناصر الدين سعيدوني ،ط1، دار الغرب الإسلامي ،تونس، 2008، ص 114 .

[5] مبارك الميلي ، المرجع السابق ،ج3، ص 106، وينظر: .De Grammont (H.D), op,cit ,p105- 108

شخصية العلج علي[1]ورأى الوزير التونسي أنّ تحرير تونس قد حان وقته فأرسل إلى حاكم الجزائر يهون عليه أمرها، ويتعهد له بتقديم العون[2].

2-2- العلج علي في تونس:

منذ توليه السلطة في الجزائر خلال جوان 976هـ/1568م وأنظاره مشدودة نحو تونس من أجل تصفية الوجود الصليبي الإسباني، وخلال هذه الفترة إندلعت ثورة الموريسكيين في غرناطة، لينشغل فيليب الثاني بهاوهو ما أشار إليه جون وولف بقوله : " ولكنّ ثورة الموريسكيين في اسبانيا كانت مفيدة لبيلرباي شمال إفريقية لأنّها جمدت القوات البحرية الإسبانية بالإضافة إلى تجميدها الجيش الإسباني الذي بقي في حوض البحر الأبيض. كما أنها أعطت لعلج علي فرصة ذهبية لمحاولة مد سيطرة الجزائر من جديد على ساحل الشمال الإفريقي كله[3]. وهو الأمر الذي استغله علج علي، فجهز حملة تتكون من خمسة آلاف جندي نظامي وستة آلاف جندي من القبائل[4].

انطلقت الحملة نحو تونس في سبتمبر 1569م،حيث ترك العلج مامي قورصو خليفة له على الجزائر، وعند وصول القوات إلى باجه دخلت في مواجهة قوات حميدة المتكونة من ثلاثين ألف رجل، ولكن معظم قواد الجيش التونسي هم أنفسهم الذين طلبوا النجدة من العثمانيين، فنشبت معركة وحدث ما توقعه علج علي منذ الطلقات الأولى إذ إنضمت إليه

---

[1] ولد علج علي في كالابريا جنوب إيطاليا، وكان أسر وهو صبي في إحدى غزوات خير الدين باشا وعند اقتسام الغنائم كان من حصة الريس علي أحمد الذي اعتنى به عناية خاصة ، إذ كان منذ طفولته مولعا بالبحار وحب المغامرات، أسلم وأطلق عليه إسم أولوج علي وهي تعني المسيحيين الذين أسلموا، تولى مناصب رفيعة في فترة وجيزة وأصبح من كبار الأغنياء وهو ما دفعه للانتقال إلى الشمال الإفريقي ، وعيّن بعد ذلك أميرا على مدينة تلمسان كما شارك في حروب كثيرة ضد الإسبان ، كفاءه السلطان العثماني نظير شجاعته بتعيينه أمير أمراء طرابلس الغرب لمدة سنتين بعد استشهاد الريس درغوث رايس، ليتولى بعدها حكم إيالة الجزائر ، وللمزيد ينظر : الترّ ، المرجع السابق، ص 223-225.

[2] محمد خير فارس ،المرجع السابق. ص 49.

[3] وولف ،المرجع السابق ، ص 85 .

[4] الترّ ، المرجع السابق ، ص 228 .

القوات التونسية وفرّ حميدة إلى تونس، فاصطدم بأبوابها التي أغلقت في وجهه فاضطر إلى الإلتجاء إلى المسيحيين الذين كانوا يحتلون الحصن[1].وفتح أهل تونس أبوابها للعلج علي وكان ذلك في سنة 1569م، وبعد قضائه أربعة أشهر في تونس ترك القائد رمضان حاكما عليها مع ثمانمائة من الجند بالإضافة إلى حوالي ألف من الزواوة[2].

هزم السلطان الحفصي واضطر إلى الفرار باتجاه مدينة تونس، ونتيجة لملاحقته من طرف العلج علي الذي كان ناقما عليه خاصة بسبب تحالفه مع الإسبان، ففرّ إلى قلعة حلق الوادي[3]. أدت هذه الأحداث إلى تدخل السلطان العثماني الذي أسدى الأوامر للعلج علي بتوحيد الجهود والإمكانيات لأجل إلحاق منطقة القيروان وسائر النواحي الأخرى إلى تونس كما كان في العهد الماضي[4].

بعد طرد الصليبيين الإسبان من الجزائر وطرابلس الغرب على التوالي ها هي تونس أيضا تفلت من أيديهم ونظر لأهميتها والتي أتينا على ذكرها آنفا، حيث أصبحت كل بلاد المغارب خارجة عن سيطرتهم في سنوات قليلة ما عدا بعض المناطق المحدودة كالمرسى الكبير ووهران، لذلك كانوا على أهبة الاستعداد من أجل إعادة غزوها مجددا وهو ما تؤكده رسالة السلطان العثماني إلى أمير أمراء جزائر الغرب ينبهه ويسدي له تعليمات بالتحضير للدفاع عنها وعن الجزائر وكل المناطق التابعة للعثمانيين[5].

---

[1] الميلي ، المرجع السابق ،ج3، ص 106 ، وينظر أيضا: التر ، المرجع السابق ، ص 228 .

[2] روسو، المرجع السابق، ص 96.

[3] محمد صالح ابن العنتري ، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلدة قسنطينة واستلائهم على أوطنها أو (تاريخ قسنطينة)** ، مر وتق وتع: بوعزيز يحي ، طبعة خاصة، دار عالم المعرفة، الجزائر ، 2009، ص 31.

[4] الأرشيف الوطني، مهمة دفتري رقم 10، ص1، حكم رقم 10، 979/01/02هـ، (1571م).

[5] المصدر نفسه.

2-3- عودة الإسبان لتونس:

ساهمت العديد من العوامل الداخلية والخارجية في عودة الإسبان للمناطق التي فقدوها في بلاد المغارب وعلى الخصوص تونس، لعلّ أبرزها هزيمة الدولة العثمانية في ليبانت سنة 1571م، أمّا داخليا فمن أبرز الدوافع التي شجعت الإسبان على العودة لتونس هي إصرار الحسن الحفصي لاسترجاع كرسي العرش والاستنجاد مرة أخرى بالإسبان المتواجدين بحلق الوادي طالبا العون مقابل بعض المناطق يحتلونها، وعلى إثر ذلك جهز الإسبان حملة[1] بقيادة حميد الحفصي بن حسن والتقى الجمعان في صائفة عام 1573م مع تعاون بالقائد النمساوي دون جوان حيث انتهت المعركة بانتصار الأمير الحفصي وحلفائه الإسبان، ليقيموا بها حكما مشتركا حفصيا _ إسبانيا لمدة تقارب السنة[2]. ومن الجدير بالذكر هو أن السلطان العثماني كان على علم بالمخططات الإسبانية التي كانت تستهدف غزو تونس والجزائر معا لذلك بعث برسائل إلى حاكم إيالة طرابلس الغرب[3] ، إضافة إلى الوزير برتو باشا[4]، يطلعهم فيها على الحملة ، ويأمرهم بالاستعداد الجيد من أجل التصدي للإسبان.

رغم الهزيمة نجت الحامية العثمانية المحدودة العدد من مطاردة دون جوان وجنوده[5] ووجدت ملاذها في مدينة القيروان التي كانت تحت حكم القائد التركي حيدر باشا، حيث قام هذا الأخير بالإستجاد بالسلطان العثماني في استانبول وبعث أيضا يستنجد برفاقه في طرابلس الغرب والجزائر[6]. والسؤال المطروح في هذا الصدد هو : لماذا لم يساعد العلج علي

[1] كان السلطان العثماني على علم بالحملة التي كانت ستوجه إلى الجزائر وتونس معا

[2] محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص 66.

[3] مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم 6، ص 4، بتاريخ 979/1/2هـ.(ينظر ملحق رقم 04).

[4] مهمة دفتري رقم 10، حكم رقم 19، ص 17، بتاريخ 979/1/12هـ.(ينظر ملحق رقم 05).

[5] ينظر الملحق رقم 06.

[6] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 729.

في دحر القوات الإسبانية؟[1]، رغم وجود أمر من السلطان العثماني يحثه على التصدي لتلك الحملة[2].

2-4-التحرير النهائي وإلحاق تونس بالخلافة العثمانية:

إنّ حالة عدم إستقرار نظام الحكم في تونس وتوحيد مناطقها تحت راية الدولة العثمانية جعل هذه الأخيرة توجه حملة كبرى تسعى من خلالها للقضاء بصفة نهائية على الوجود الإسباني في كل المناطق الحفصية التونسية وتوحيد الخط المغاربي طرابلس الغرب-تونس-الجزائر، وهو ما تؤكده رسائل السلطان العثماني إلى كثير من الأطراف داخل المغارب وخارجها[3]، لذلك كانت الدولة العثمانية قد أرسلت من قبل إلى علج علي تخبره وتأمره ببعض الترتيبات من أجل الإستعداد لتحرير تونس[4]،في الوقت الذي قامت في الدولة العثمانية بتجديد أسطولها بعد هزيمة ليبانت، بالإضافة إلى إبرام صلح مع البندقية في سنة 1573م[5].

وصلت رسائل الباب العالي إلى كل من حاكم تونس تخبره عن الأسطول القادم لتحرير حلق الوادي وتدعوه إلى مساعدته[6]، ووجهت رسالة أخرى إلى أحمد باشا أمير أمراء الجزائر تأمره بترك الولاية للقائد رمضان، وتدعوه إلى التوجه بقواته نحو تونس وتدعيم الأسطول هناك بقيادة العلج علي المسؤول على كل القوات بما فيها الجنود التونسيون والطرابلسيون[7] .

---

[1] يرجع المؤرخ سامح التر السبب الرئيسي الذي حال دون دفاع العلج علي على تونس إلى تعرض الأسطول العثمانيلعاصفتين قويتين خلال مراقبته تحركات الإسبان ، أثرت هذه العواصف في ترابط الأسطول وأصيب بخسائر فادحة ليعود إلى استانبول أي ليس تقصي من العلج علي . ينظر: سامح آلتر، المرجع السابق، ص 244.

[2] مهمة دفتري رقم 16،ص 24، حكم رقم 40 ،979هـ، (1571م).

[3] مهمة دفتري رقم 21 ، ص 266، حكم رقم 637، بتاريخ 980/12/16هـ.(ينظر الملحق رقم 07).

[4] مهمة دفتري رقم 21 ، ص 213، حكم رقم 509، بتاريخ 980/11/21هـ.(ينظر الملحق رقم 08).

[5] محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 729.

[6] مهمة دفتري رقم 24 ، ص 59، حكم رقم 166، بتاريخ 981/12/5هـ.

[7] مهمة دفتري رقم 24، ص 59، حكم رقم 167، بتاريخ 981/12/5هـ.

تلقى أيضا القائد رمضان باشا حاكم الجزائر الجديد أوامر بتجهيز اسطول يتكون من ثلاثمائة (قردغة) على أن يكون موعد خروجهفي بداية شهر (محرم 982هـ/أفريل 1574م)بقصد " فتح وتسخير قلعة حلق الوادي[1]،وتأمره أيضا في رسالة مؤرخة بتاريخ (14 ذي الحجة 981هـ/6 أفريل 1574م) تطلب منه إرسال عساكر للمشاركة في الحملة بعدد ألف و خمسة وتسعين فارسا، وألف انكشاري بكامل تجهيزاتهم العسكرية [2]، كما تطلعه بقدوم سنان باشا على رأس الحملة من استانبول كما تبقى قيادة الأسطول بيد القابودان علج علي باشا، الذي أمر بالالتحاق والاتحاد بقائد الحملة عند وصوله إلى تونس[3]، إضافة إلى هذه الرسائل الموجهة إلى المتواجدين بالمغارب، وجهت أيضا أوامر إلى الأمراء والقضاة في سواحل البحر الأبيض المتوسط تدعوهم لمساعدة مامي رايس المبعوث من أجل تجنيد المتطوعين والراغبين في الجهاد بهدف إلحاقهم مع سفنهم إلى الوزير سنان باشا وتأمرهم أيضا كما جاء في الرسالة: " بترغيب واستمالة المتطوعين في مناطقهم وترغيبهم في الجهاد المقدس في سبيل الله ... وإذا كان منهم القادرون على بناء القاليتات، فيجب معاونتهم ومظاهرتهم بشراء اللوازم والمهمات لبناء، كي يكونوا على أهبة الاستعداد، لنقلهم بسفن المتطوعين المجهزة إلى حلق الوادي التي تم العقد على فتحها..."[4].

وفي يوم 11 جويلية 1574م كان موعد وصول الأسطول العثماني إلى الأراضي التونسية، حيث لم تشهد بلاد المغارب مثيلا لهذه الحملة العثمانية، وفي اليوم الموالي بدأت عملية الإنزال قرب حلق الوادي أين كان يتواجد خضر باشا قائد القيروان، ومصطفى باشا

---

[1]مهمة دفتري رقم 24، ص 60 ، حكم رقم 168، بتاريخ 981/12/5هـ.

[2] مهمة دفتري رقم 24 ، ص ص 91-92 حكم رقم 246. بتاريخ 981/12/14هـ. (ينظر الملحق رقم 09)

[3] مهمة دفتري رقم 24، ص60، حكم رقم 168، بتاريخ 981/12/5هـ، 1573م.

[4] مهمة دفتري رقم 24، ص 72، حكم رقم 198، بتاريخ 981/12/5هـ، 1573م.(ينظر الملحق رقم 10)

قائد القوات القادمة من إيالة طرابلس الغرب ليلتحق بهم أعراب أحمد من إيالة الجزائر[1] وهو ما أثلج صدر القائد سنان باشا ليتفقوا على نجاح الحملة وتحرير تونس من الصليبيين، وعندما علم الإسبان بقيادة "سيرباللون" الذي كان يشترك في حكم تونس مع الحسن الحفصي ، بضخامة هذه الحملة أسرع بإغاثة المواقع الإسبانية الأكثر عرضة للتهديد إذ قام بإخلاء بنزرت ونقل أفراد تلك الحامية لتعزيز القوات بحلق الوادي نقطة الصدام الأولى، حيث ما كاد الإسبان يستعدون حتى بغاتتهم القوات الإسبانية واستولت على حلق الوادي وتكبدت القوات الإسبانية خسائر فادحة ليفرا القائد سيرباللون والأمير الحفصي ويحتمايان بالباستيون الذي تمكن المسلمون من دخوله في 13 سبتمبر 1574م، وبسقوط الباستيون سقطت الدولة الحفصية نهائيا بعد حوالي عشرين سنة من سقوط الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط، ويلقى القبض على القائد الإسباني وحليفه الحفصي وسيتبدلان فيما بعد خلال عملية تبادل الأسرى التي أفرج خلالها عن إبن العلج علي المدعو الفرطاس الذي أسر في سنة 1571 في موقعة ليبانت[2].

ساهمت البحرية الطرابلسية بقوة في تحرير تونس من الصليبيين من خلال مشاركة مصطفى باشا الذي كان يقود الجنود الطرابلسيون الذين بلغ عددهم أربعة آلاف رجل[3]، وانضم بالقوات الإسلامية المتواجدة هناك، ليشارك جنبا إلى جنب مع حيدر باشا حاكم القيروان بالهجوم على تونس، بعدما أن أمدّهم سنان باشا بقوات إضافية، مزودة بالمدافع التي صنعت الفارق في المعارك، ليدخلوا مدينة تونس ويحرروها نهائيا من الإسبان وحلفائهم

---

[1] Grammont (H.D),op.cit;p115.

[2] روسو، المرجع السابق، ص ص 103-104.

[3] Mercier , op.cit,p 116.

من الحفصيين[1]. ولا بد أن نشير هنا إلى مشاركة أبناء محمد الشيخ السعدي سلطان المغرب الأقصى وهم أحمد وعبد الملك في تحرير تونس، إذ طرد هذا الأخير من المغرب على يد أخيه عبد الله حليف الإسبان فلجأ إلى الجزائر طالبا مساعدة العثمانيين لاسترجاع ملكه وقد أخبر عبد الملك السلطان العثماني بتحرير تونس قبل وصول الخبر رسميا[2].

نتجت عن هذه المعارك خسائر فادحة في الجيش الإسباني بحيث قتل أربعة آلاف جندي وثمانمائة من البحارة والنساء والأطفال الإسبان وتميزت الخسائر من بين القتلى والأسرى أكثر من مائة وخمسين من كبار النبلاء والضباط، أمّا من الجانب الإسلامي فقتل حوالي خمسة عشر ألف وقيل ثمانية آلاف قتيل، وقيل بأنّ المسلمين خسروا عشرة آلاف ومثل ذلك في الطرف الإسباني[3].

إنّ تحرير تونس من العثمانيين كان بمثابة انتقام لمعركة ليبانت وفي هذا الصدد صرّح الصدر الأعظم لسفير البندقية بقوله : " حلقتم لنا اللحية في ليبانت ، فقطعنا لكم ذراعا في تونس ، أمّا اللحية فقد نمت والذراع فلن يعوض"[4]. والتي سنتطرق إليها في العنصر الموالي.

وهكذا انضمت تونس إلى الخلافة العثمانية لتصبح الإيالة المغاربية الثالثة وبدأت مرحلة جديدة من تاريخها حيث عين سنان باشا عليها حيدر باشا وكلفه بوضع نظام عثماني مشابه للنظام السائد بالجزائر، وانتهى حكم الحفصيين الذي دام قرابة ثلاثمائة وثماني وسبعين سنة[5].

---

[1] أحمد ابن ابي الضياف ، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** ، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974،ص 24 .وينظر أيضا: نيكولاي إيبلتش بروشين، **تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين**، تر و تق: عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان ، 2001، ص ص 39-40.

[2] محمد علي داهش، المرجع السابق، ص ص 45-46، وينظر : عبد المجيد القدوري، **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر(مسألة التجاوز)**، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،2012،ص 167.

[3] عامر أحمد عبد الله القبج، المرجع السابق، ص 728.

[4] GRAMMONT (H.D),op. cit ,p 117.

[5] وللمزيد ينظر : ابن ابي دينار ، المرجع السابق ، ص ص 165-169.

وضعت الدولة العثمانية بسيطرتها على تونس حدا للأطماع الإسبانية في بلاد المغارب، حيث حافظ الإسبان فقط على بعض المناطق كوهران والمرسى الكبير في الجزائر وبالمغرب الأقصى مليلة وسبتة وبعض الجزر الصغيرة التي كان البرتغاليون منحوها لهم[1]. وهذا ما لم يتحقق منذ زمن طويل أو حتى منذ سقوط الدولة الموحدية التي شملت كل البلاد المغاربية من حجر بادس غربا إلى طرابلس شرقا تحت سلطة واحدة والآن هذه المساحة المحررة أصبحت تحت سلطة ووصاية العثمانيين وهو إنجاز بحد ذاته، وهو ما سيسمح لهم بتأمين الخط البحري بين الجزائر واستانبول، مرور بكل من تونس وطرابلس الغرب ومصر وبلاد الشام.

لم يحاول الإسبان في عهد فيليب الثاني إرسال قوات عسكرية إلى تونس مرة أخرى واسترجاعها من العثمانيين، حيث أصبحت تابعة لإيالة الجزائر إلى غاية سنة 1587م وبعدها أتبعت مباشرة لآل عثمان[2].

3-التضامن المغاربي الإسلامي:

3-1- في مالطة:

اشتدّ التنافس والصراع بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية مع بداية النصف الثاني من القرن 10هـ/16م، حيث ساد التوزان في أغلب فترات النصف الأول من هذا القرن المحوري ولم نلاحظ سيطرة كلية أو شبه كلية في قطر معين، فحاولت كلا منهما خلق مساحة تفوق جديدة خاصة في الحوض الغربي للمتوسط، فبتحرير العثمانيين لطرابلس الغرب، كان من المهم الرد من الجانب الإسباني لأجل منع خصومهم من التوسع في هذا المسطح المائي المهم مع إمكانية إسترجاع بعض المناطق، ولكن يبدوا أنّ الأسطول

---

[1] عامر أحمد عبد الله القبج، المرجع السابق، ص ص 127- 728.

[2] ابن أبي دينار ، المصدرالسابق، ص 169.

العثماني أصبح يركز على الأهداف الموالية المتمثلة في مالطة وتونس ومعهما حلق الوادي[1].

إنّ تطور الأوضاع خلال الفترة الثانية من القرن السادس عشر كان جليا، فظهور بوادر لمواجهة بين القوى المسيحية الأوربية بقيادة إسبانيا الداعمة لفرسان مالطة والقوى الإسلامية بقيادة الدولة العثمانية في قلب البحر المتوسط بدا واردا جدا، فهذه الأخيرة أيضا لم تكن معزولة بل بروز البحرية الجزائرية المتحالفة معها والتي أصبحت قوة فاعلة ومؤثرة في المنطقة، إضافة إلى دور رياس البحرية الطرابلسية. و نجد خلال هاته الفترة من مظاهر هذا التحالف والتضامن الإسلامي حرب مالطة سنة 1565م.

إنّ موقع جزيرة مالطة المهم جعل منها قاعدة بحرية هامة، حيث تؤثر على حرية التنقل في البحر المتوسط بشكل مباشر، وتهدد المصالح الإقتصادية التجارية الإسلامية إضافة إلى هذا الجانب نجد أنّ فرسان مالطة كانوا يعيقون حركة الحجاج المسلمين باتجاه البقاع المقدسة، خاصة المتوجهون من بلاد المغارب. ولأنّه تميز بالذكاء والدهاء أدرك درغوث خطورة موقع مالطة على العثمانيين وأتباعهم ، فقد طلب من السلطان العثماني في عديد المرات تسيير حملة والإستيلاء عليها[2]، ويضاف إلى هذه الأسباب فشل حسن بن خير الدين في افتكاك وهران من يد الإسبان سنة 1563م، ثم سقوط قلعة بادس في قبضة الإسبان أيضا سنة 1564م وهو ما زاد من إثارة غضب السلطان سليمان القانوني، الذي قرر تصفية الوجود الإسباني من المنطقة ولأجل ذلك لا بد من فتح مالطة لأنّها قاعدة تعرقل حركة الأسطول العثماني نحو شمال إفريقيا، وهو ما سمح لفرسان القديس يوحنا[3] المشاركة

---

[1] وولف ،المرجع السابق ، ص ص 78- 79.

[2] عبد الجليل التميمي ،**الولايات العربية** ....،المرجع السابق، ص 87.

[3] فرسان القديس يوحنا أو فرسان مالطا: كانت بمثابة المؤسسة الخيرية الدينية في مدينة القدس قبل الحروب الصليبية، أسس الفرسان مملكة مسيحية في جزيرة رودس تحت رعاية البابا ثم توسعوا إلى الجزر القريبة منهم ، وبعدها تحولوا إلى

في كل الإعتداءات الصليبية على بلاد المغارب، كاحتلال شارلكان لتونس سنة 1535م والتحالف الأوربي ضد الجزائر سنة 1541م، فكانت جزيرتهم بمثابة قاعدة متقدمة للصليبيين تهدد أمن وسلامة المسلمين، فهي قبل ذلك كانت تعد قاعدة بحرية ذات تأثير مباشر على حركة الملاحة، وممّا زاد في أهميتها موقعها بين الحوضين الشرقي والغربي، فالذي يسيطر عليها تكون له اليد الطولى في البحر المتوسط، ولهذه الاعتبارات منحها شارلكان سنة 1530 لفرسان القديس يوحنا، بعدما طردهم السلطان سليمان القانوني من جزيرة رودس، ومن ذلك الحين صاروا يعرفون بفرسان مالطة [1].

أمام كل هذه المعطيات التاريخية والأسباب الآنفة الذكر صمّم السلطان سليمان القانوني على القضاء نهائيا على هذه المنظمة لاسيما بعد أن تأكد من خطورة نشاط الفرسان، فكانت أوّل خطوة قام بها هي إرسال دعوات إلى الإيالات العثمانية وقادتها يطلب منهم المساهمة في حصار مالطا[2]، كان من بينهم درغوث رايس حاكم طرابلس وجربة وحسن باشا بن خير الدين حاكم الجزائر[3]. كما تشير الرسالة المؤرخة في شهر ماي 1565م تدعو هذا الإخير للمشاركة في عملية الحصار[4].

وصل الأسطول العثماني إلى الجزر المالطية في 18 ماي 1565م بقيادة كل من بياله باشا، ومصطفى باشا ، حيث باشروا محاصرتها ابتداءا ببرج سانت آلم وخلال هذا الحصار أصيب درغوث رايس بشظية في رأسه أردته قتيلا، وهو الذي كان إلتحق بالموقع المتفق عليه، وقد كان حاكم الجزائر حسن باشا توجه إلى مالطا مباشرة بعد تلقيه نداء

عصابة من القراصنة في الحوض الشرقي من البحر المتوسط ، وبدأوا في علاقلة حركاة الأسطول العثماني. للمزيد ينظر : عمر محمد الباروني ، المرجع السابق، ص 75-78.

[1] العبيدي، المرجع السابق ، ص ص 153- 154.

[2] بوعزيز، **الموجز** ... ،المرجع السابق، ج2 ، ص 179.

[3] المدني ،**حرب الثلاثمائة سنة**...،المرجع السابق ، ص 384.

[4]مهمة دفتري رقم6 ،ص، 266 ، حكم 565، تاريخ 972/5/25هـ، (1565م).

السلطان للالتحاق بالأسطول العثماني على رأس السفن الجزائرية التي بلغت 28 سفينة بها ثلاثة آلاف جندي من أمهر المقاتلين[1]، كان المسيحيون على علم بتحركات الأسطول الإسلامي، ففي رسالة بعث بها "بيترمول" من استانبول إلى "كاترين دي ميدسيس" وصية عرش فرنسا يخبرها بأنّ وجهة الأسطول العثماني ستكون دون شك نحو مالطة.

ومع تلك الإستعددات الصليبية وطول مدة الحصار تمت عملية إنزال حوالي 20000 جندي خلال يومين بحيث تكّون من حوالي 130 سفينة لأنواع متعددة، ليتم بعدها الاستيلاء على القلعة في 1565/06/23م، ومن بين القوات التي كانت في طليعة الجنود الذين وصلوا للقلعة الجنود الجزائريين، و قد فقد المسلمين جراء هذا النصر 6000 ما بين شهيد وجريح[2]، وذكر أيضا عدد أقل وهو أنّه لم يبق من 4000 شجص إلاّ 500 أو 600 على قيد الحياة[3].

عان الجيش الإسلامي بسبب إستماتة الصليبيين في الدفاع عن الجزيرة، وبسبب طول مدّة الحصار والتي دامت أكثر من أربعة أشهر، كما كان يعاني من قلة المؤونة وانتشار وباء الطاعون وسط أفراد الجيش[4]، ورغم ذلك توالت المعارك بين الطرفين إلى حين وصول المدد من إسبانيا في السابع من شهر سبتمبر، قدّر بحوالي 20 سفينة على متنها 12000 شخص، لتضطر بعدها القوات الإسلامية إلى رفع الحصار بحيث تكبّد الجيش الإسلامي 20000 مقاتل كان نصفها من الجزائريين[5] ، أمّا الخسائر في الجيش الصليبي فقدرت ب: 8500 جندي مسيحي و 260 من فرسان مالطة [6].

---

[1] الترا، المرجع السابق، ص 219، وينظر: عائشة غطاس وآخرون، المرجع السابق، ص 48.

[2] يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص ص 321-322، وينظر أيضا: .MERCIER,op,cit,pp103-104
HAEDO,op ,cit , p 138.

[3] العبيدي، المرجع سابق ، ص 154.

[4] MERCIER,op,cit,p104.

[5] العبيدي، المرجع السابق ، ص 154.

[6] أوزتونا ، المرجع السابق ، ص 322. وينظر أيضا: . MERCIER,op,cit,pp103

لقد منيت الحملة العثمانية على جزيرة مالطة في آخر الأمر بالفشل، ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء على الجزيرة رغم ضخامة العدة والعتاد خلال هذه الحملة، فالوسائل التي استخدمت فيها تعتبر عظيمة بالنسبة للفترة التي وقعت فيها المعركة[1]، ووصفت بالهزيمة النكراء، حتى أطلق على حصار مالطة بالعار الكبير، زيادة على ذلك خسر الأسطول العثماني أهم شخصية بحرية وهو درغوث رايس الذي كان موته نسفا خطيرا يعادل آلاف الجنود الأتراك الذين لقو حتفهم خلال هذه الحرب[2].

إنّ مشاركة المغاربة ممثلين في الإيالة الجزائرية والإيالة الطرابلسية في حرب مالطة إلى جانب الدولة العثمانية يعد مظهرا جديد من مظاهر الصراع المغاربي الإسباني الذي لم يعد داخل البلاد المغاربية وحسب، بل تعداه إلى خارج الأرضي المغاربية، وهو يعتبر عامل إيجابي خلال هذه الحملة رغم فشلها. وفي هذا الصدد ورد في وثيقة هامة من دفتر المهمة رقم (5) مؤرخة في 23 جمادى الثانية الموافق ل 13 جانفي 1566م جاء فيه رسالة شكر من الباب العالي لجنود وبحارة جزائريين بذلوا جهودا كبيرة في الحرب العثمانية- المالطية وهذا مقتطف منها : " ... هذا حكمنا الشريف موجه إلى بايلرباي إيالة الجزائر : فيما سبق أظهرت الفرق العسكرية المرسلة ضد جزيرة مالطة مقدرتها وانتصارها، وكيف تم تحقيق انتصار باهر ضد هؤلاء الأعداء، بعدما ألتحقت سفن إيالة الجزائر بهم، وتم إظهار كل أنواع المعاونة لتحقيق الانتصار وحيث يفتخر الباب العالي بذلك النصر، مقدرا الشهامة والخصال الحميدة لتلك العساكر ..."[3]. إضافة إلى ذلك كافئ السلطان العثماني حسن باشا

---

[1] للمزيد ينظر: مروش ،المرجع السابق، ص 137.

[2] وولف ،المرجع السابق ، ص 81.

[3] نقلا عن : عبد الجليل التميمي ، **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر** ، السلسلة رقم (04) : الولايات العربية أثناء العهد العثماني ، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان ، تونس ، 2009، ص 313.

وعينه أميرالا على البحرية العثمانية في رجب 974هـ/جانفي 1567م ليغادر الجزائر دون عودة[1]، ووضع علج علي بايلر باي على طرابلس الغرب[2].

هذه إحدى مظاهر الصراع الإسلامي- الصليبي للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط خارج بلاد المغارب، والتي من خلالها ردّ المغاربة فضل العثمانيين الذين أنقذوا بلاد الإسلام من التنصير والإبادة كما جرى بالأندلس، فحرب مالطة أكّدت صلابة أسس التحالف العثماني المغاربي والدور الذي يمكن أن يلعبه في السنوات القادمة.

3-2- مظاهر التضامن الإسلامي من خلال الثورة الموريسكية سنة 1568م:

ظلّت الهجرة الأندلسية إلى سواحل بلاد المغارب مستمرة بعد سقوط غرناطة وذلك للإفلات من محاكم التفتيش التي كانت تلاحقهم خاصة في عهد فيليب الثاني[3]،الذي أصدر العديد من المراسيم الجديدة التي أصدرها في حق المسلمين، مثل المرسوم الذي صدر سنة 1563م والذي يحرم عليهم حمل السلاح دون ترخيص من الحاكم العام، كما أعلن تجديد القانون القديم بعدها بثلاث سنوات أي في سنة 1566م، يحرم على المسلمين التحدث باللغة العربية، وارتداء اللباس العربي، وعدم إقامة الحفلات حسب التقاليد الإسلامية، كما فرض عليهم فتح أبواب منازلهم يوم الجمعة حتى يتمكن الرهبان ورجال السلطة من مراقبتهم، أمّا من يخالف نصوص هذا القانون فتفرض عليه عقوبات قاسية سواء كان السجن أو النفي أو الإعدام ، وتم الإعلان عليه في أول من جانفي 1567م وهو اليوم الذي سقطت فيه غرناطة

---

[1] HAEDO,op ,cit , p 131.

[2] للمزيد ينظر : شارل فيرو، المرجع السابق ، ص ص 126- 128.

[3] فيليب الثاني(1527-1598م) أصبح ملكا لإسبانيا ونابولي وصقلية، كان أبوه قد عينه قبل ارتقائه العرش حاكما على الاراضي المنخفضة. بلغت محاكم التفتيش ذروة نفوذها وسيطرتها إبان حكمه .حيث أدت إجراءاته القمعية ضد الموريسكيين إلى قيامهم بثورة 1568-1571 . عند وفاة هنري الأول ملك البرتغال سنة1571 .ادعى حقه في وراثة التاج البرتغالي .خلفه من بعده ابنه فيليب الثالث. وللمزيد ينظر:محمد شفيق غربال وآخرون،**الموسوعة العربية الميسرة** ،مج5،ط3،المكتبة العصرية.بيروت 2009، ص ص 2509-2510 .

[1]ومن هنا بدا للأندلسيين أمامهم حلا وحيد وهو الفرار والهجرة ، حيث سلك الفارون عبر ثلاثة طرق من أرغونة إلى فرنسا ثم إلى تونس، ومن قرطاجنة إلى الجزائر ليلا ومن السواحل الجنوبية لشبه جزيرة ايبيريا إلى المغرب الأقصى[2]، ورغم ذلك فقد رافق زيادة الهجرات الأندلسية زيادة ملحوظة في عدد السكان المسلمين في غرناطة فقد أثبتت الدراسات بأنّ الزيادة السكانية لدى المسلمين كانت أعلى من الزيادة المسيحية وهو زاد من تخوف الإسبان[3].

تعتبر حركة الجهاد البحري في الشمال الإفريقي من العوامل المحفزة التي شجّعت مسلمي الأندلس، بحيث سادت الأقاليم الإسبانية موجة من الظلم والفضائع، و هو ما دفع بقية مسلمي إسبانيا في الجنوب سواء من الذين ظلّوا محافظين على دينهم أو المتنصرين ظاهريا يتهيؤون لرد الإعتبار من أجل إثبات وجودهم[4].

إنّ التضييق الذي تعرض له المسلمون الموجودون في إسبانيا من شتى أنواع الظلم الذي يمارسه الإسبان عليهم دفعهم لإيجاد وسيلة يقومون من خلالها بدفع ذلك الظلم ورده بالقوة، لأنّ أسلوب المهادنة لم ينفع، حيث قاموا بإعداد جيش سري، واشتروا السلاح ونقلوه إلـى إسبانيا منتظرين الوقت المناسب لإعلان ثورتهم[5].

---

[1] للمزيد ينظر: محمد عبد الله عنان ، **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين** ، ط4، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1987، ص357- 360.

[2] عباد ،المرجع السابق، ص 91

[3] ليلى الصباغ ، "**ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ وآخر عام 1568م والدولة العثمانية**" ،الأصالة،ع 27، سبتمبر- أكتوبر ،الجزائر، 1975، ، ص ص 135-136.

[4] الصلابي ، المرجع السابق، ص 254.

[5] التر ، المرجع السابق ، ص 225 .

ومن العوامل التي أدّت إلى إعلان ثورة الموريسكيين[1] في هذه الفترة بالذات تلك الانتصارات التي حققها الأسطول الإسلامي بفضل التحالف بين الجزائر والدولة العثمانية في حوض المتوسط، وهو ماشجعهم[2].

وتغوص الباحثة ليلى الصباغ في جملة دوافع ثورة الموريسكيين والتي كان أبرزها الصراع الديني الحضاري المتواصل، إلاّ أنّه هناك دوافع أخرى تمثلت في التطورات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية الجديدة التي كانت تعيشها أوروبا خلال القرن السادس عشر[3].

تزامن وصول العلج[4]علي سدة الحكم بإيالة الجزائر، وتحوّل فكرة الثورة لدى الأندلسيين من مرحلة التفكير إلى التطبيق،بحيث ساهم حاكم الجزائر الجديد في مساعدة الثوار ممّا أعطى بعدا للصراع في كافة أنحاء الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط،فبإرسال المورسكيين أحد منهم وهو المسمى (بارتالPartal) من مدينة ناريلا Narilla إلى الجزائر مرتين لمقابلته وإطلاعه بكل الأوضاع الحقيقية للمورسيكيين مع توضيح جوانب النقص لديهم، ووجب الإشارة إلى أنّالأندلس كانت من بين الأهداف التي رسمها علج علي منذ البداية، مبديا استعداده الدائم لنجدتهم[5]. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا الأخير كان على علم بكل أمور الإيالة الجزائرية إذ سبق له أن تولى حكم تلمسان وقاد المقاومة فيها ضد الإسبان،

---

[1] الموريسكي: هو مصطلح يقصد به المسلم أو النصراني بالتقية أي الذي رفض المسيحية كدين مفروض عليه بالعنف والسيف، فأصبح غير مرغوب في وجوده بعد سقوط غرناطة، وهو مصطلح غريب عن ألفاظ اللغة العربية، فمنشأه نصراني إسباني للدلالة على كيان عربي غريب عن النصارى، ينظر: سمية لكحل و بومدين كروم، **ظهور المصطلح الموريسكي ومحاولة اجتثاث الهوية الإسلامية في الأندلس**، مجلة أنثروبولوجية الأديان، ع 21،أفريل 2018، ص 118.

[2] الصباغ ،المرجع السابق ، ص 136.

[3] المرجع نفسه، ص ص 127-135.

[4] علج أو قلج وهي كلمة تطلق على المسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام . ينظر: سامح التر، المرجع السابق، ص 224.

[5] محمد سي يوسف ، **قيلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية** ،رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر الجزائر، 1988، ص 97.

كما شغلته فكرة إنقاذ مسلمي الأندلس ودعم ثوارتهم من أجل إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا[1].

وبمقابل ذلك طلب العلج علي من الأندلسيين تشجيع الجهادوتوحيد جهودهم ضد الصليبيين الإسبان، وذلك تنفيذا لأوامر السلطان سليم الثاني[2]، ولأجل إضعاف الإسبان ومناورتهم، قرر مهاجمة وهران أولاّ،ومنها الإنتقال إلى السواحل الإسبانية، وهو ماحدث فعلا، فقد أرسل جيشا يتألف من أربعة عشر ألف جندي مسلح بالبنادق وستين ألف جندي محلي مع مدفعية ضخمة مزودة بألف وأربعمائة جمل محمل بالبارود، ليتجه الجيش الجزائري بعدها مباشرة إلى مزغان ومستغانم[3]. ثقل هذه الحملة العظيمة لا يدع مجالا للشك بأنّه كان يريد إستعادة الأندلس وتخليص أهلها من الإبادة.

أمر العلج علي أربعين كادرغة بالرسو أمام السواحل الإسبانية بالقرب من المرية وكلفّها بحماية الثوار،أماّ داخل إسبانيا فقد كان من المقرر أن تقوم الثورة يوم الخميس المقدس الموافق لـ 15 أفريل1568وهو يتزامن مع انشغال النصارى يومئذ بإحتفالهم وصلواتهم، كما كان من المفروض أن يتزعمها أحد الصباغين المدعو فرج بن فرج، إلاّ السلطات الإسبانية كشفت أماكن الأسلحة المقرر استخدامها في الثورة ومخططاتها بسبب تصرف أحد رجال الثورة الأندلسية، لتلقي القبض على بعض الثوار، ليرغم المورسيكيون إلى تأجل إعلان ثورتهم[4].وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الإسبان.

إنّ تأخير اندلاع ثورة الأندلس المتوقعةجعل علج علي لا يعلم وقت انطلاقها، حيث تزعم شخص إسمه محمد ينتمي إلى فرع العائلة الأموية التي حكمت الأندلس الثورة وأعلن بدايتها، وقد استطاعت حركة الثوار والمسلمين بالأندلس أن تمتد إلى الجنوب الغربي من

[1] نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 393.

[2] مهمة دفتري رقم9 ، ص 89، حكم 231، تاريخ 977/10/24هـ ، 1569م. (ينظر ملحق رقم 11).

[3] التر ، المرجع السابق ، ص 226.

[4] سي يوسف ، المرجع السابق ، ص 97، وينظر : الصلابي، المرجع السابق، ص 256.

إسبانيا، لكنّ عدم وجود سند شعبي واسع من الداخل بالإضافة إلى عدم توفردعم خارجي قوي يساندها أدّى بها إلى الفشل، وبمجرد سماع العلج علي باندلاع ثورة الموريسكيين شهدت المنطقة قيام عاصفة قوية شتتت البواخر الحربية، وبالتالي عدم إستفادة مسلمي الأندلس من إغاثة كانوا في أشد الحاجة إليها، إذ لم تصل إلى الشواطئ إلا ست بواخر فقط لا تستطيع إيفاء الغرض المرجو[1].

وبالرغم من هذه الأحداث صمّم الجزائريون على إعادة إرسال مدد جديد لمسلمي الأندلس، وتمكنوا من إنزال أربعة آلاف جندي جزائري خلال شهر أكتوبر سنة 1569م وبعض قدماء المحاربين العثمانيين من الذين لهم خبرة في خوض المعارك البحرية لأجل إدارتها، كما أعادوا الكرّة في السنة الموالية 1570وقاموا بإرسال مدد جديد من الرجال والسلاح إعانة للثورة الأندلسية[2]. وكان علج علي يريد الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك لكن الاشاعات حول التعبئة المسيحية لتوجيه ضربة للمسلمين في معركة حاسمة جعلت السلطان يأمر بالبقاء على أهبة الاستعداد في الجزائر للمشاركة في هذه الحملة الكبيرة[3].

وفي الجهة المقابلة كان الردّ الإسباني على الثورة الأندلسية عنيفا بقيادة دون جوان النمساوي الذي قمع الثورة بين سنتي(1569-1570م) ولم يدع مجالا للمسلمين وقام بارتكاب الفضائع والجرائم من ذبح النساء والأطفال، و وتتبع الثوار وقام بتصفيتهم في أنحاء كثيرة من إسبانيا وعمل على الطرد الجماعي للموريسكيين بداية من شهر جوان سنة 1569م، ومن مظاهر ذلك نقل حوالي 3500 شخص من غرناطة إلى المناطق البعيدة عن

---

[1] الميلي ، المرجع السابق،ج3، ص 105 .

[2] لقد صدرت الأوامر من السلطان العثماني إلى علج علي في 23 شوال 983ه / 1570 م : (..عليك بالتنقيد بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل مايتيسر تقديمه لهم و أن الغفلة عن الكفار غير جائزة ...) ينظر الصلابي ، المرجع السابق ، ص ص 256-257. و ينظر أيضا: الجيلالي، المرجع السابق،ج3،ص 95.

[3] المدني، **حرب الثلاثمائة**...، المرجع السابق، ص 394.

المدينة، واستمرت معاناة الأندلسيين، ففي يوم 28 أكتوبر 1570 أعطيت الأوامر لطرد كل المسلمين،حيث شهد اليوم الأول من شهر نوفمبر جمع قوافل طويلة وتحويلها إلى منطقة الكاستيل[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ السلطان السعدي مولاي عبد الله وعد بمساندة الثورة إلاّ أنّه لم يوفي بوعده[2]، ونظرا لفشل الانتفاضة تم عقد الصلح بين الإسبان والمنتفضين في 20 ماي 1570م و بموجب هذا الصلح سمح للذين شاركوا في الثورة والذين قارب عددهم الثلاثين ألفا بأن يغادروا بلاد الإسبان، حيث وضع علج علي تحت تصرفهم يوم 15 جوان سفنا عثمانية نقلتهم إلى الجزائر حيث بلغ عددهم 30000[3].

3-3- معركة ليبانت 1571م وإعادة التوازن في المتوسط:

لقد فرضت الدولة العثمانية الهيمنة في كل البحر الأبيض المتوسط بواسطة أسطولها القوي حين بلغت قمة مجدها، ففي الحوض الشرقي من المتوسط استولت على أغلب المقاطعات التي أصبحت تحت سلطتها ما عدا بعضها كالبندقية البعيدة عنه في حين كانت حتى اليونان وشبه جزيرة البلقان تخضع لها، وما ساهم أيضا في هذه السيطرة قوة الأساطيل التابعة لها ببلاد المغارب في كل من الجزائر وطربلس الغرب وفي تونس قبل تحريرها نهائيا من الإسبان وحلفائهم من الحفصيين، فبواسطة إيالاتها وصلت حتى لتهديد السواحل الإسبانية.

توفي السلطان سليمان القانوني عام 1566م فخلفه ابنه "سليم الثاني"، هذا الأخير كان أمام مسؤولية عظيمة وهي المواصلة في نهج والده وحفظ البلاد والأقاليم التابعة الدولة العثمانية وهي الفترة التي ظهور فيها البابا " بيوس الخامس" الذي اعتلى كرسي البابوية

---

[1] سي يوسف ، المرجع السابق ، ص 103، وينظر:المدني، **حرب الثلاثمائة**...، المرجع السابق، ص 395.

[2] في حين يرى بعض الباحثين أنّ عبد الله الغالب ساعد الأندلسيين في محنتهم من خلال رسالة السلطان العثماني سليم الثاني إلىالسلطان السعدي والذي أثنى فيها عليه، ينظر: علي غنابزية، المرجع السابق، ص 107.

[3] عباد ، المرجع السابق ص 92.

وبدوره كان موقفه أصعب من السلطان العثماني. فقد ارتعدت فرائص الدول المسيحية من الخطر الإسلامي الكبير الذي هدّد القارة الأوروبية من جراء تدفق الجيوش العثمانية برا وبحرا.ما جعل البابا يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قوادها بحرا تحت راية البابوية، وقد كتب يقول"...إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطا هائلا بسبب نذالتنا ..."[1] فقد تولى القديس بيوس الخامس القيادة الروحية لهذه المعركة حين قال " أيها القرن المثقل بالشرور ... إنّ الأتراك سيهدمون المسيحية جزء بعد جزء ... وكانت لهم الجرأة على الأراضي المسيحية ... وبعد أن أتبعوا آسيا كلها تقريبا، استولوا على القسطنطينية واحتلوا اليونان ... إلى أين سينتهي الشره التركي ... وهاهو سليم (الثاني) اليوم بعد أن إنتهك قوانين الأمم إنتهك عقيدته هو ... إن شرهه في مد طغيانه قد جعله يهاجم مملكة قبرص " [2].

قرّرت الدولة العثمانية فتح جزيرة قبرص التي كانت تابعة آنذاك للبندقية، إذ قامت السفن القبرصية بمهاجمة المصالح العثمانية في عديد المرات، ورغم أنّ السلطان سليم الثاني قام بإنذارهم في كثير من المناسبات إلاّ أنّ ذلك لم يغير من سلوكهم اتجاه كل ما يمت بصلة للعثمانيين، الذين جهّزوا قوة بحرية في سنة 1570م بلغت مائة الف جندي تحت قيادة بيالي باشا، الذي قام بحصار مناطقها وتمكنّ في النهاية من فتحها في 2 أغسطس 1571م[3].

نستطيع القول بأنّ التحضير لمعركة ليبانت بدأ من الناحية العملية بعد سقوط قبرص مباشرة، إذ استعانت البندقية بالدول المسيحية الأخرى، على الرغم بأنّها لم تكن على وئام معها إلا أنّها لبت ندائها خوفا من امتداد سلطة العثمانيين إلى إيطاليا حتى لبت النداء جميع

---

[1] الصلابي ، المرجع السابق ، ص 280.

[2] وولف ،المرجع السابق ، ص 86 .

[3] محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص ص 255-256.

الأمم الأوروبية بما فيها بريطانيا التي كان البابا قد طرد (Excommuniée) ملكتها من الكنيسة في العام الماضي[1].وبالتالي اتضح جليا أنّ الوازع الديني الصليبي هو من ساهم في جمع كلمة الصليبيين.

تجلّت مظاهر ذلك الإتفاق بعقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك إسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل شهر ماي 1571م، تمخض من خلالها الدعوة إلى القيام بهجوم ضد الدولة العثمانية، ومن بين المشاركين أيضا في هذا الإتفاق بعض المدن الإيطالية وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف، فقد ارتبطت توسكاني وجنوة وسافوي وبعض الإيطاليين في الحلف المقدس[2]، وتمّ اختيار (دون خوان) النمساوي[3] قائدا للحملة هو الذي ساهم في قمع ثورة الموريسكيين في الجنوب كم ذكرنا آنفا .

إنّ عزيمة الأوروبيين من خلال هذا الحلف كانت كبيرة واختلفت عن المرات السابقة لأجل إنهاء التفوق الإسلامي، والدليل على هذا هو قبول الفرنسيين الدخول في هذا الحلف بالرغم من أنّهم أبرموا عدة إتفاقيات مع العثمانيين كما ذكرنا آنفا، فقد جاء في أحد بنود المعاهدة: " إنّ البابا بيوس الخامس وفيليب ملك ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية و الدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبوها من المسيحيين، ومن جملتها تونس و الجزائر وطرابلس[4] "، ويعلّق عليها الأستاذ عبد الرحمان الجيلالي بقوله:"عملا بقاعدتهم التعصبية التي ينص على أن ما استأثر به الصليب

---

[1] سي يوسف، المرجع السابق، ص 115 .

[2] تم التوقيع على هذا التحالف في يوم 25 ماي 1571م بكنيسة القديس بطرس بروما من طرف الدول المسيحية، التي أسرعت لتجهيز أسطول قوي شاركت فيه إسبانيا وإيطاليا وألمانيا والبابا وجنوة والبندقية.ينظر: سي يوسف، المرجع السابق، ص 116 .

[3] ولد دون خوان سنة 1545م بمدينة راتسبون بعد موت والده شارلكان أراد فيليب الثاني إدخاله الرهبنة ولكنه لم يقبل فعينه قائدا في جيشه سنة 1570م وكلفه باضطهاد ما تبقى من المسلمين بإقليم غرناطة ،ينظر : محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق ، ص 257.

[4] الصلابي ، المرجع السابق ، ص ص 280-281 .

واغتصبه من الهلال لا يرد، وأن كل ما حازه الهلال أو ضمّه إليه وأخذه منها تتحتم عليه إعادته وهو ما أسموه سياسة الاسترداد أي إعادة النفوذ والقوة على المسلمين"[1].

وهكذا بدأ بتشكيل الإتلاف المسيحي لحرب الدولة العثمانية،ونشأت وقعة معركة ليبانتو البحرية جنوب بلاد اليونان في 7أكتوبر 1571حيث كانت سيطرة الأتراك العثمانيين على قبرص التي كانت تابعة للبندقية سببا مباشر ودافع لهذه الحرب[2]، وقد وصلت أخبار هذا التحالف إلى إستانبول، كما وجب التذكير بأنّه إحياء لذلك الذي خطط له البابا ليون العاشر مع بداية القرن حين كانت الدولة العثمانية في أوّج قوتها[3].

لقد سار دون جوان القائد العام للأسطول و وصل حتى الجزء الضيق من خليج كورنت بالقرب من باتراس الذي لم يكن بعيد عن ليبانتو[4]. في حين عينت الدولة العثمانية قائدا جديدا للأسطول وهو علي باشا وقائد للقوات البرية وهو يرتو باشا، إضافة إلى تدعيم الأسطول العثماني بالأساطيل القادمة من الإيالات، الجزائر، تونس، وطرابلس ومصر ومن جهات أخرى من الدولة. فقد تكونت حملة الأسطول العثماني من200 سفينة حربية، و 60غلياطة، و 570 مدفعا و25 ألف جندي وعدد لا يحصى من الملاحين والجدافين، أما الأسطول المسيحي فتشكل من 300 سفينة قديمة، وست سفن شراعية ضخمة تحمل المدافع، و25 ألف جندي، و13بالإضافة إلى الملاحين والجدافين[5]وفي هذا الشأن سنتناول دور المغاربة في هذه الموقعة الشهيرة.

---

[1] الجيلالي ، المرجع السابق ، ج3،ص 97 .

[2] المرجع نفسه.

[3] سي يوسف ، المرجع السابق ، ص 115.

[4] الصلابي ، المرجع السابق ، ص 280 .

[5] وولف ، المرجع السابق ، ص 88 -89، وينظر :التر ، المرجع السابق ، ص 230 .

3-3-1- الدور المغاربي في المعركة:

لقد لعبت الجزائر دورا بارزا ومهما في الحروب العثمانية قبل 1571م، لذا وجه السلطان العثماني رسالة إلى بايلرباي الجزائر العلج علي، يدعوه فيها إلى تجهيز سفنه والالتحاق بالأسطول العثماني ومما جاء فيها : "... فقد تقرر في هذه السنة الخيرة غزو الكفار من البر والبحر والإغارة وإلحاق الخسارة بجزره المعادية وأسطوله هزمه الله وكذلك بقصد دفع مضرته وفساده ... ونظرا للاعتماد الهمايوني على فراستك وكياستك ووفور شجاعتك وشهامتك فإني آمرك ومن معك من السفن والقاليتات بكامل أسلحتها بالتوجه عاجلا لملاقاة المشار إليه الوزير برتو باشا... وبالجملة على أن تكون متحد الجبهة واللسان مع قائد الحملة كي تكونوا على أحسن اتحاد واتفاق... "[1].

وتنفيذا للأوامر وعلى وجه السرعة غادر علج علي الجزائر في ربيع سنة 1571م على رأس حوالي خمسين سفينة قصد الالتحاق بالاسطول العثماني في كورفو، وأثناء الطريق قام بغزو عدة مواقع مسيحية بالجزر الأيونية [2].

وبينما كان الصليبيون يقتربون من ميناء اينبختي (Lepante) الذي يرسو فيه الأسطول العثماني،عقد يرتوباشا قائد الحملةاجتماعا طارئا مع كبار قادة البحر لللتشاور حول هذه الحرب، وهم علي باشا قائد الأسطول، علج علي بايلرباي الجزائر، جعفر من إستانبول، حسن باشا بن خيرالدين وعدد آخر من قادة الأسطول وخرجوا بما يلي:

- إما الإنتظار في ليبانتو وإنتظار هجوم دون جوان.
- أو الخروج من الخليج والهجوم على العدو[3] .

---

[1] مهمة دفتري رقم 12، ص 173 ، حكم رقم 367 بتاريخ 978/11/2هـ،(1570م).

[2] وجاء عند هايدو عشرين سفينة.HAEDO,op ,cit , pp 147-148 وينظر: Grammont,op ,cit , p 108-110.

[3] الصلابي ، المرجع السابق ، ص 281 ، وينظر: سي يوسف ، المرجع السابق ، ص 123 .

غير أنّ العلج علي كان له رأي آخر وهو أنّ الأسطول غير مجهز تجهيزا كافيا بالمدافع والذخيرة إضافة إلى حالته السيئة فقد طالت مدة وقوفه في البحر وهي ستة أشهر، كما أن عددا من الإنكشاريين قد توزعوا بإذن أو بدون إذن، وبالتالي لا يستطيع الأسطول الهجوم على العدو، و اقترح فترة نهاية فصل الشتاء ليكون الأسطول جاهزا، وعندها يكون قادرا على العمل والهجوم، وكان من رأي القادة البحريين في الأسطول عدم الدخول في هذه المعركة -غير المتكافئة- والحل الوحيد هو أن تقصف المدافع العثمانية سفن العدو وتتلفها، وهو ما يتيح فرصة كبيرة لسفن الأسطول العثماني لتتبع ومطاردة الأسطول المسيحي،غير أن الأميرال علي باشا عارض الفكرة،حيث أنّه كان من الإنكشارية ولم يسبق له أن تولى قيادة الأسطول[1].

وكان علج علي مصّرا على رأيه وفي هذا الصدد يقول :" ألا ترون أن هذه المعركة إذا أجريت قرب الساحل فإننا نعطي فرصة لقواتنا المنهوكة المتعبة للهروب إلى الشاطئ عند أول هجوم"، إلا أن قائد الأسطول كان دائما مستبدا برأيه،كما لم يوافق على إقتراح يتعلق بإخفاء الفوانيس المستعملة للإنارة حتى لا يتمكن العدو من معرفة سفن المسؤولين[2].

وفي نهاية الأمر أسندت قيادة الجناح الأيسر من الأسطول العثماني إلى علج علي أمّا الجناح الأيمن فقد قاده محمد سيروكو الذي جاء من الاسكندرية، أمّا الوسط فقد قاده علي باشا[3].

اندلعت المواجهة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الصليبي من محاصرة السفن التركية التي بلغ عددها 230 سفينة، وقد كانت السفن المسيحية سفن متطورة استعملت في هجومها

---

[1] المدني ، **حرب الثلاثمائة سنة...**، المرجع السابق ، ص 124 .

[2] سي يوسف ، المرجع السابق ، ص ص124-125 .

[3] الترّ ، المرجع السابق ، ص 231 ،وينظر :سي يوسف ، المرجع السابق ، ص 125.

المدفعيـة، أمّـا السـفن الإسـلامية فقـد اسـتعملت فـي غالـب الأحيـان وسـائل بسـيطة كـالرمح والأقواس وغيرها[1].

منـذ البدايـة تجلّـت مظـاهر الهزيمـة للجانـب الإسـلامي، حيـث كانـت ميمنـة ووسـط الأسطول العثمـاني قـد انهزمتـا منـذ السـاعات الأولـى للمعركـة، وخـلال المواجهـات انسـحبت ميمنـة الصـليبيين التـي كانـت تحـت قيـادة أنـدري دوريـا إلـى عـرض البحـر، فاسـتغل علـج علـي هـذا الفـراغ وزحـف وراءهـا وهـو مـا وضـع الأسـطول الصـليبي فـي حالـة فوضـى، كمـا أنّـه قـام بـالهجوم علـى قيـادة سفن فرسان مالطـة. مستغلا الخطأ الذي ارتكبه دوريـا بابتعاده عن بقيـة الأسطول المسيحي ليتمكن من قتل قبطـان مالطـة والإستيلاء علـى سفينته التـي تحمل الرايـة البابوية[2].وبعد مقتل علي باشا تولى علج علي قيادة الأسطول الإسلامي بنفسه[3].

ولمـا تأكّـد علـج علـي مـن الهزيمـة لـم يكـن أمامـه إلاّ الإنسـحاب و الإفـلات مـن محاصـرة الأسطول المسيحي، فقد أنقذ جميـع سفنه والبـالغ عددها 30 سفينة علـى عكس بـاقي وحـدات الأسطول العثماني التي غرق بعضها أو احترق أو وقع غنيمة في أيدي المسيحيين[4] .

كانت خسائر الجيش العثماني في معركة ليبانتو كبيرة، حيث فقد أكثر من ثلاثين ألف مقاتل وخسر 200 سفينة حربية منها 93 غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة وأسر لهم عشرة آلاف رجل، استطاع علج علي إنقاذ نفسه واستطاع كذلك المحافظة علـى بعـض السـفن التـي غنمهـا ومـن بينهـا السـفينة التـي تحمـل علـم البابـا وعـاد بهـا إلـى استابنول التي استقبلته استقبال الفاتحين رغم الكارثة التي حلت بالعثمانيين في هذه المعركة[5]

---

[1] عباد، مرجع سابق ، ص ص 94-95، وينظر: وولف ، المرجع السابق ، ص 89 .

[2] محمد سي يوسف ، المرجع السابق ، ص ص 125-126،وينظر: التر ، المرجع السابق ، ص 231 .
وينظر: HAEDO,op ,cit , pp 147-148.

[3] DE GRAMMONT,op,cit,pp108-109.

[4] سي يوسف ، المرجع السابق ، ص 126.

[5] التر ، المرجع السابق ، ص 231، وينظر : الصلابي، المرجع السابق، ص 281.عباد، مرجع سابق ، ص 94

.وفـي مقابـل ذلـك يتبـاهى الباحـث جـون وولـف باسـتيلاء دون خـوان علـى رايـة العثمـانيين بقوله"... وأصبحت الراية الكبرى للأسطول العثماني- وهي الراية التي جيء بها من مكة _ بين يدي الأميرال المسيحي ، وقد أرسل دون خوان تلك الراية إلى الاسكوريال كشهادة على انتصاره..."[1].

أمّا خسائر الجانب المسيحي فتمثلت فيمقتل حوالي ثمانية آلاف، و 20 ألف جريح وأصيبت غالبية السفن المسيحية وحرر نحو 12 ألف من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب العثمانية وأيضا كانت هناك خسائر في الأسطول ، حيث لم تصل السفن الإسبانية والإيطالية إلى موانئ نابولي وصقلية إلاّ بعد صعوبة كبية نتيجة للأضررار الكبيرة التي لحقت بها [2].

ووجب الإشارة إلى المشاركة الفعّالة للبحرية الطرابلسية في معركة ليبانت سنة 1571م إذ قاد القوات الليبية جعفر باشا، والذي خلف علج علي في ولاية طرابلس، وقد قدم الليبيون الكثير من أبنائهم في المعركة إضافة إلى الخسائر المادية الكبيرة [3]، كما يشير الباحثون إلى مشـاركة عبـد الملـك وأحمـد المنصـور إلـى جانـب الجـيش العثمـاني فـي المعركـة رغـم أنّ المعلومـات شـحيحة حـول حقيقـة هذه المشـاركة، حيث تنـاول المؤرخ المغربـي " عبـد المجيد قدوري " هذه المسألة من خـلال مـا ذكرتـه بعض الوثـائق الإسبانية فقد جعل أحد المفكرين الإسبان ويـدعى " سيرفانتيس " شخصية عبد الملك في مسرحية بعنوان "سجناء الجزائـر "(Los banos Angel) واستعمله كشخصية متميزة وقعت في الأسر لدى الإسبان في معركة ليبانت، فعلاقات عبد الملك المميزة مع الأمراء الإسبان دفعتهم كي يتوسطوا لـه عند الملك

[1] وولف، المرجع السابق، ص 90.

[2] يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص 374، وينظر : وولف ، المرجع السابق ، ص 90 .

[3] محمود علي عامر ومحمد خير فارس ، المرجع السابق ، ص 178.

فيليب الثاني ليطلق سراحه ومن ثم يقدم له الدعم لاسترجاع العرش من ابن اخيه محمد المتوكل[1]. والتي سنتاولها في مبحث منفرد.

3-3-2- تداعيات ونتائج معركة ليبانت:

احتفل المسيحيون بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين فهلل الأوروبيون وكبّروا لذلك الانتصار وأقيمت إحتفالات كبيرة مشيدة بـ "دون جوان" الذي أحرز هذا الانتصار إلى حد أنّ البابا لم يتورع عن القول الإحتفالات في كنيسة القديس بطرس بمناسبة هذا النصر" ... إن الإنجيل قد عنى 'دون جوان' نفسه حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا... "، وظلّ العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر، حتى أنّ الكتب والقواميس المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانتو إلا وتذكر معه دون جوان على اعتباره أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها.وفي نفس الوقت كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوى في البحر المتوسط، كما أنّه أنهى عصرا من عصور العمليات البحرية الطموحة للعثمانيين في هذا المسطح المائي المهم[2].

تميزت معركة ليبانت خلال القرن 10هـ/16م عن أحداث أخرى، لأنّها حدث فريد لعدة اعتبارات، ولكنّها في الوقت نفسه تمثل واحدة من سلسلة المعارك التي تواجه فيها الإسبان والعثمانيون. فمن خلالها يتضح جليا لنا وجود نمطين من أنماط الاقتصاد، وبوجود مجتمعين وحضارتين وسياستين توسعيتين كان لا بد لهما من التصادم . وهو ما حدث كثيرا، ولم تتصادما حيث كانتا ، وإنّما في خطوط التماس بين حوضي البحر المتوسط في مستوى حدودهما التقريبية، فهذه الأحداث تعبر عن انهيار التوازن وإعادة بنائه [3]. لذلك فهي صنفت من أعظم وأشهر المعارك في التاريخ الحديث، ليس فقط لأنّ خسائر الدولة العثمانية كانت

---

[1] وللمزيد ينظر: عبد المجيد القدوري، المرجع السابق، ص ص 168-169.

[2] الصلابي، المرجع السابق ،ص ص 282-283 .

[3] جاك لوغوف ، **التاريخ الجديد** ، تر وتق : محمد الطاهر المنصوري ، مر : عبد الحميد هنية ، ط1، المنظمة العربية للترجمة ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2007م، ، ص ص 217-218.

كبيرة وإنّما العامل النفسي و المعنوي كان أشد تأثيرا في تحول علاقة الدولة العثمانية بالأوروبيين، والنتيجة زوال أطروحة أنّ الدولة العثمانية دولة لا تقهر فمن خلال نجاح الحلف المقدس، سيعمل الأوروبيين على قيام التحالفات الأوروبية ضدّها فيما بعد[1].

لقد كان انهزام الأسطول العثماني أمام التحالف الصليبي الكبير في معركة ليبانت ونجاة الأسطول الجزائري من التحطم بفضل حنكة القائد" علج علي" وهو ما جعل من الجزائر دار الجهاد الإسلامي التي تعلق عليها آمال المسلمين في الجزء الغربي من البحر المتوسط بل و إلى تدخل الأسطول الجزائري في كثير من القضايا الشائكة واعتبرت مسألة الدفاع عن مصالح الأمة الاسلامية واجبا مقدسا[2].

ومن بين ما يستنتج من هذه المعركة هو تفوق التقنية البحرية وهو أهم حدث عسكري عرفه القرن السادس عشر في البحر الأبيض المتوسط[3]. ما ينذر بتحولات سيشهدها العالم الحديث، خاصة في الجانب الصناعي العسكري.

وممّا يلاحظ أنّ بروديل صاحب كتاب المتوسط والعالم المتوسطي لا يتحمس كثيرا لإبراز تفاصيل المعركة العسكرية بقدر ما تستدعيه نتائجها (هزيمة الدولة العثمانية) من تفكير وتأمل وتقييم لدلالات الحدث وربط هذه الدلالات بتراجع القوة العثمانية كجزء من بدايات تراجع أهمية المتوسط العالمية[4].

إذا ما نظرنا إلى أقوال بعض المؤرخين الغربيين ومنهم بروديل، فإنّ نصر المسيحيين في ليبانت لم يحقق نتائج عظيمة ولا أي أهداف إستراتيجية، برغم أنّه أدّى إلى تحقيق حلمهم

---

[1] الصلابي ، المرجع السابق ، ص 282 .

[2] حنيفي هلايلي، **بنية الجيش الجزائري**...، المرجع السابق، ص 121، وينظر : غطاس وآخرون ، المرجع السابق، ص 48.

[3] Fernand Braudel,**La Mediterranee et le monde Mediterraneen a L epoque de Philippe** II,t3,2 ed , Armande Colin, paris, 1966, p233.

[4] وجيه كوثراني ، **تاريخ التأريخ (اتجاهات ، مدارس ، مناهج)** ، ط2، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات ، بيروت ، 2013م، ص216.

بالإنتصار على العثمانيين وهو ما يعني إمكانية تحقيق انتصارات أخرى على الدولة العثمانية مستقبلا، فهذا الفوز لم ينهي القوة العثمانية للأبد إلاّ أنّه أنهى فترة طويلة من الاضطهاد البحري العثماني[1].ويشير جون وولف أيضا إلى أنّ الأسطول المسيحي كان أيضا بحاجة إلى إصلاح ما لحق به من أضرار وذلك في خضم حديثه عن سبب عدم ملاحقة الأسطول العثماني إلى غاية عاصمتهم[2].

إنّ إنتصار الإسبان في معركة ليبانت لم يكن إلاّ إنتصارا مفردا لأنّه كان يهدف إلى إعادة توازن يهدده التقدم العثماني، فالعثمانيين قد توجهوا نحو المحيط الهندي، والإسبان نحو المحيط الأطلسي ونحو الشمال[3].

إنّ الحديث عن تفاصيل معركة ليبانت[4]يدعو إلى الإشادة ببعض المحاربين وشجاعتهم وحسن قيادتهم، فإذا أطرى النصارى القائد دون خوان ومدحوا شجاعته وصفاته، فكان ولا بد من أن نثني على علج علي قائد الأسطول الجزائري المشارك في هذه المعركة، فهو الوحيد من القادة العثمانيين الذي جنى ثمار انتصار شخصي أمام الهزيمة العامة، فهو لم يهاجم ويستولي على سفينة راية فرسان القديس يوحنا، ويحمل رايتهم الكبيرة إلى استانبول كشهادة على شجاعته فقط بل استطاع أن ينقذ ما تبقى من السفن والجنود، وأن يقود أسطوله الذي كان يشكل الجناح الأيسر من الأسطول العثماني خارج المعركة ويعود به سالما على إستانبول دون خسائر تذكر. والأكثر من هذا لو استمع أميرال الأسطول العثماني " علي باشا " واتبع نصائح علج علي لأمكنه تفادي الكارثة، هذا الأخير كان قد أرسل " قارة علي " نائبه للتجسس على الأرمادة وتعدادها، واعتمادا على تلك المعلومات اقترح انتشار الأسطول العثماني وسيسمح له ذلك بالمناورة بدل أن يحشر في مكان ضيق بحيث أن نصف تعداد

---

[1]Braudel op .cit ,t3, pp251-253.

[2] وولف، المرجع السابق، ص ص 90-91.

[3] جاك لوغوف، المرجع السابق، ص 217.

[4] ينظر الملحق رقم 04.

السفن تحطم في بداية الحرب.فقد حصل على سمعة حسنة بعد دوره الفعّال وتم ترقيته على رتبة اميرال وقائد الأسطول العثماني[1].

بعد معركة ليبانت تراجع الصدام بين الإمبراطوريتين، فكانت بمثابة نهاية المواجهات الكبرى بينهما، فقد جنحت كلتاهما إلى السلم، فالدولة العثمانية إتجهت بكل ثقلها لحربها مع الصفويين في سنة 984هـ/1578م، أمّا بالنسبة لإسبانيا فقد كانت منشغلة بحروبها في الأراضي المنخفضة (هولندا) . وتم توقيع معاهدة في 1581/02/05م لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وبالتالي ابتدأت الإمبراطوريتان تبتعدان عن المتوسط بالوتيرة نفسها، في حين كانت تدق في قلب المتوسط ساعة تراجع الإمبراطوريات[2]. وتفسير هذا ما ذكره برودال" ... لن تعود الحروب إلى المتوسط، لأنّه لم يعد قادرا على تحمل أعبائها ونفقاتها. فالحروب الكبرى اتجهت، بعد معركة ليبانت، نحو الشمال والأطلسي، في نهاية القرن السادس عشر لتقبع طيلة قرون فيها، حيث راح يخفق قلب العالم..." ، ففي بلاد المغارب التي كانت نقطة صراع محورية بينهما شهدت تحولات في توجهات واهتمامات الدولة العثمانية، حيث لم تعد مصالحها ومصالح طائفة رياس البحر الجزائريين مشتركة بالضرورة، إذ استمرت الحروب بين الجزائر واسبانيا، فقد كانت بعض المناطق من الأراضي الجزائرية ما تزال تحت وطأة الاحتلال الإسباني كوهران والمرسى الكبير، أماّ فيما يخص معاناة الأندلسيين فقد ظلت هي الأخرى مستمرة[3].

---

[1] نجيب دكاني،المرجع السابق، ص 134.وينظر أيضا: يحي بوعزيز، **علاقات الجزائر الخارجية**...، المرجع السابق، ص 53.

[2] فرنان بروديل ، **المتوسط والعالم المتوسطي**،تع: مروان أبي سمرا ، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993 ، ص 125.

[3]غطاس وأخريات ، المرجع السابق، ص 103.

4-المغرب الأقصى ومسألة التحالفات في ظل التوازنات الجديدة:

تمهيد:

بعد نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر كان المغرب الأقصى السعدي أمام حتمية المحافظة على وحدة أراضيه في ظلّ التجاذبات الجديدة، وذلك لن يتأتى إلاّ بتحرير المناطق من المعارضين في الداخل أبرزهم بقايا النظام الوطاسي وبعض القوى الدينية والقبلية الأخرى،والقوى الخارجية المتمثلة في إسبانيا والبرتغال اللتان كانتا تحتلان بعض المواقع المغربية، في حين شهدت الجهة الشرقية إقتراب الدولة العثمانية شيئا فشيئا من الحدود وبدت واضحة أطماع العثمانيين في ضم المغرب الأقصى وإلحاقه بالجزائر، فقد استطاعوا الوصول حتى تلمسان وتمكنوا من إخضاعها وهي نقطة صدام مباشرة بين الطرفين خلال سنتي 1549 و1550م، ولكنّ حلم الملوك السعديين بعد وصولهم للسلطة كان أكبر من ذلك وهو إعادة إحياء دولة الموحدين من جديد والسيطرة على كل بلاد المغارب في ظل بداية إنهيار حكم الأسرة الوطاسية.

4-1- سياسة المغرب الأقصى في ظل حكم محمد الشيخ السعدي:

لقد كان طموح سلاطين المغرب السعدي يتمثل في تحقيق مغرب الموحدين.إنّ إلتجاء بعض أمراء بني وطاس إلى الجزائر ينشدون العون لردِ السلطة إليهم، ما جعل السلطان سليمان القانوني يرسل خطابا إلى أمير الأمراء نزولا عند رغبة الجزائر وبني وطاس ويوفد رسولا إلى محمد الشيخ ويصفه في رسالته " برئيس العرب"[1]و"حاكم ولاية فاس" فكانت هذه الرسالة دلالة واضحة تشير إلى أنّه خادم من خدمه وأن المغرب الأقصى ولاية عثمانية ، وأنّه مجرد حاكم فيها، وهو ما جعل السلطان المغربي يطرد السفير، وفي خضّم كل هذه الظروف دخل محمد الشيخ في صراع مسلح مع الحكام العثمانيين للجزائر، فقام بمهاجمتهم في شرق المغرب حيث انتصر عليهم في وجدة ولاحقهم إلى غاية تلمسان وترك بها حامية

---

[1] دي طوريس، المصدر السابق، ص 128.

مغربية، لكن لم يلبث أن خسر هذه المكاسب عام 1552م إثر هجمات العثمانيين وباستخدام المدفعية ضد أنصار محمد الشيخ[1] فالفارق في القوة العسكرية والعتاد الحربي كان شاسعا بين الدولة العثمانية ممثلة في إيالة الجزائر والمغرب الأقصى خلال العهد السعدي.

منذ أن انتهى محمد الشيخ من تقوية أركان الدولة والاتجاه إلى تحقيق أهداف أخرى ربما تكون أكثر أهمية ممّا تحقق، اصطدم بأخيه الطامح للعرش أبي العباس أحمد الأعرج الذي قام بالفتك بنصارى السوس، فكانت شرارة لاقتتال الشقيقين بعدما كاتب أمراء هنتانة أصحاب مراكش محمد الشيخ المهدي ودخلوا في طاعته فوافقهم إلى ذلك وانتقل إليهم ،وقام بطرد "أحمد الأعرج"[2]واستمر سعيه في القضاء على الثورات، وبعدها قاد حملة على تلمسان، وهذا ما دفع العثمانيين لتأييد "أبي حسون" وإرجاعه إلى فاس باعثين بذلك الدولة الوطاسية من جديد كان هذا في جانفي 1553م، وتجدد الصراع بين الملك السعدي وأخيه وابنه اللذين فرا إلى تافيلالت، فقام "المهدي" بالتعاون مع البرتغاليين المتواجدين في المنطقة لمحاصرتهما، فقد تمكن من الدخول إلى تافيلالت والقبض على أخيه وأبناءه[3].

حاول السعديون في البداية إخراج العثمانيين من الجزائر، فقاموا بهجومات على تلمسان في فترات مختلفة إلى غاية النصف الثاني من القرن 16م حين أرسلت الدولة العثمانية في طلب مهادنة السعديين وترسيم الحدود بينهما وذلك عن طريق الفقيه أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي عام 961/ 1553م، وتشير الباحثة المغربية زهراء النظام إلى أنّ هذا السعي العثماني كان دافعه التحكم في القبائل التي كانت ناقمة على الحكم العثماني ومرحبة بالحكم السعدي، ومراقبتها كقبيلتي الأحلاف وبني يزناسن هذا من جهة، ومن جهة

---

[1] السويكت ،المقال السابق، ص ص 188. 189 .

[2] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق ، ج5، ص18.

[3] أبي العباس بن أحمد بن محمد المكناسي (أحمد بن القاضي)،**درة الحجال في أسماء الرجال**،مج2،ط1، تح محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، 1971، ص205.

ثانية محاولة لعرقلة التحالف الإسباني السعدي[1]، لكنّ محمد الشيخ رفض الطلب رغبة منه في ضم مصر وطرد العثمانيين منها[2]، ويظهر ذلك في قوله: " لابد لي أن أذهب إلى مصر وأخرج منها الأتراك من أحجارهم وأنازلهم من ديارهم " ، ووصف السلطان العثماني بسلطان الحواتة، ولمّا جاء رسل سليمان القانوني طلبا في الدعوة له في مساجد المغرب، وضرب اسمه على السكة. لم يكرم وفادتهم، بل وأجابهم بقوله: " أخبروا صاحبكم أني مفتح عليه بلاده ومتوجه للقائه " [3] ، ويشير المؤلف المجهول لتاريخ الدولة السعدية إلى هذه المسألة بأسلوب آخر بقوله : " ... إذ وفد عليه رسول السلطان سليم وهو يسعده في ملكه ويعلمه بما كان عليه بنو مرين من الهدايا والوداد والخدمة إليه وأنه في نصرتهم ...سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له أن سلطان المغرب لا بد له أن ينازعك على مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك على مصر والسلام ..."[4]، فكان ردّ العثمانيين عنيفا بأن استجابوا للوطاسيين وأخرجوا السعديين من تلمسان وافتكوها من يد الزيانيين سنة 1554م ووصلوا إلى فاس ممّا أدّى إلى فرار محمد الشيخ إلى مراكش، ورغم هذا تمكن السعديون من استرجاعها وإجبار أعدائهم على التراجع نحو الجزائرفي نفس السنة كما سبق القول. وفي الوقت الذي توقع فيه الصليبيون حدوث تحالف بين الشريف السعدي والسلطة في الجزائر نظرا لعديد الاعتبارات على رأسها الوازع الديني، والذي سيعجّل من اقتراب نهاية الحلم الإسباني باحتلال بلاد المغارب؛ حدث العكس تماما بتقارب سعدي إسباني كان نتيجة للضغط العثماني المتواصل على المغرب الأقصى من أجل أن يصبح تابعا لهم، خاصة بعد

---

[1] زهراء النظام ، المرجع السابق ، ص ص 195- 196.

[2] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، المرجع السابق ، ص31.

[3] محمد الصغير بن عبد الله الوفراني ،**نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** ، صحح عبارته التاريخية: هوادس ، مطبعة بردين ، باريس ، 1888 ، ص 42.

[4] مجهول ،**تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية** ، تح و تق : عبد الرحيم بنحادة ، ط1،دار تينمل ، مراكش، المغرب 1994 ، ص ص 30 - 31.

احتلالهم لحجر بادس في شمال المغرب، ورأى الإسبان في محمد الشيخ الشخصية القوية التي يمكن أن تقف في وجه العثمانيين[1]الذين هددوا الوجود الإسباني في تونس و وهران والمرسى الكبير، ووقفوا في وجه توسعاتهم في المنطقة، خاصة وأنّهم فقدوا مراكز مهمة في الشرق الجزائري مثل بجاية[2]وبالتالي محاولة إضعاف الجزائر وإحداث نوع من التوازن في القوى.

يذهب بعض الباحثين إلى أنّ السلطة في الجزائر كان لها الفضل في إطالة عمر الدولة الوطاسية من خلال دعمها المتواصل لأبي حسون وأسرته وإرجاعهم إلى السلطة أكثر من مرة وهو سبب رئيسي في اختلافه مع العثمانيين، وذالك لدفعهم عن ضم المغرب الأقصى وتوحيد كامل الشمال الإفريقي تحت راية الخلافة العثمانية خاصة بعد ضمّهم طرابلس الغرب في سنة 1551م.

بعد أن تمكّن الملك السعدي من القضاء على الحكم الوطاسي نهائيا وتثبيت دعائم السلطة في الداخل، وتوحيد البلاد من خلال القضاء أيضا على معارضيه من زعماء القبائل والمرابطين والشخصيات البارزة، وعلى رأسهم أفراد أسرة أبي حسون، كان من المنتظر أن يضع كل ثقل الدولة السعدية من أجل تحرير الثغور المحتلة على غرار مليلة التي تقبع تحت سيطرة الاحتلال الإسباني منذ أواخر القرن الخامس عشر، ولكنّ محمد الشيخ تقرّب من الإسبان وطلب ودّهم[3].

يتضح أنّ هدف محمد الشيخ والإسبان في هذه الفترة كان مشتركا، وتمثّل في العمل على تصفية الوجود العثماني في شمال إفريقيا، أو على الأقل الحد من توسعاتهم في بلاد المغارب، ولأجل ذلك دخل الطرفان في مرحلة مفاوضات رسمية منذ سنة 1555م، ولتحقيق هذه الغاية المشتركة اتفقا في البداية على شنّ حملة عسكرية على مدينة الجزائر.

---

[1] محمد مرزوق، **دراسات في تاريخ المغرب**، ط1،إفريقيا الشرق، الدار البيضاء،المغرب ،ص ص 89 - 90 .وينظر: دييغو دي طوريس ، المصدر السابق، ص217.

[2] المدني، **حرب الثلاثمائة**...،المرجع السابق، ص 358.

[3] إبراهيم حركات ،المرجع السابق، ص 249.

طلب الشريف السعدي من حلفائه أن يمدّوه بعشرة آلاف مقاتل إسباني مدججين بالسلاح والعتاد، متعهدا من جهته بالمساهمة بنحو ثلاثين ألفا من الفرسان آملا في الاستيلاء على المدينة[1]، وأرسل الإسبان "ميكل دي لزكانو" ممثلا عن الحاكم الإسباني إلى مدينة فاس ، أين مثل المغاربة في هذه المفاوضات المنصور بن أبي غانم نائبا عن محمد الشيخ ، وتوسط بينهم مترجمون يهود، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشريف السعدي حرص على أن تتم هذه المفاوضات في سرية تامة لعلمه بأن يهود فاس ووهران كانوا على صلة بيهود مدينة الجزائر، لأنّه كان يخشى رد فعل المغاربة على تحالفه مع أعداء الإسلام من جهة، ولإخفاء هذا المشروع عن الجزائريين كي لا يحتاطوا له من جهة ثانية قبل أن يتمكن منهم، و يبدو بأنّ المغاربة كانوا أكثر تحمسا لهذا الحلف من الحاكم الإسباني الذي بدأ يضع شروطه من أجل تفعيل هذا الاتفاق، ففي مراسلاته مع عبد الله بن محمد الشيخ والمنصور بن أبي غانم، كان دائما ما يؤكد على تحمل المغاربة لتكاليف الحملة، ويكون دفع المال مسبقا لأنّ غزو الجزائر يهم بالدرجة الأولى الشريف وأبناءه أكثر من الإسبان أنفسهم[2].

استغل حكام الجزائر العثمانية مرحلة التجاذبات في المفاوضات الإسبانية المغربية محاولين استعادة وهران، وبعدها التوجه إلى المغرب الأقصى من أجل القضاء على الشريف السعدي إلى أن قام حسن باشا بايلرباي الجزائر بإرسال أحد القادة العثمانيين ويدعى "صالح

---

[1] Henry deCastries ,**les sources inédits de histoire du Maroc**.Archives et bibliothèques despagne,PARIS, 1956,t2,p213.

[2] Francisco De Tovar ,**Relation adressee au compte d Alcaudete par Migule de Le Ziano ,sur les negociayion avec le cherif Malaga 22 Juillet 1555**,arch de simancas , estado,logjo R.A,N21 , 1877,p 271. وينظر عمار بن خروف ، المرجع السابق، ص ص 197-198.

كاهية[1]" مرفوقا بعشرين من جنود الإنكشارية إلى فاس متظاهرين بتذمرهم من حاكم الجزائر، فاستقبلهم السلطان المغربي وقرّبهم منه وجعلهم في حرسه الخاص الذي هو متكون بالأساس من العثمانيين الذين كانوا ناقمين على الشريف السعدي لأجل مرتباتهم المتأخرة ، وهذا ما دفعهم للاقتناع بمشروع صالح كاهية الذي أطلعهم عليه ووعدهم بالحصول على مكافآت وأنّهم بهذا يقدمون خدمة عظيمة للسلطان الأعظم، وفي إحدى الأيام استغل مبعوث الجزائر فرصة تواجد محمد الشيخ لوحده قرب خيمته أثناء مشاهدته مناورات عسكرية ، وحين همّ بالدخول إلى الخيمة وقع على الأرض بسبب اصطدام قدميه بالحبل فأجهز عليه بقطع رأسه[2]في يوم الأربعاء 29 ذي الحجة سنة 964هـ/23 أكتوبر1557م، وحملوا رأسه إلى القسطنطينية[3]. لينتهي حلمه ومشروعه التوسعي في توحيد كل بلاد المغارب تحت سلطته هذا ما يدفعنا إلى البحث في موقف السلطان الجديد من هذه الأحداث، وأيضا حول الثوابت والمتغيرات في سياسات المغرب الأقصى خلال الفترة المقبلة في ظل ثنائية الصراع العثماني الإسباني أي بين التقارب المصلحي والتباعد العدائي.

2-4- التحالف السعدي الإسباني في عهد عبد الله الغالب ضدّ إيالة الجزائر:

بويع المولى "عبد الله الغالب" على حكم المغرب الأقصى بعد مقتل أبيه محمد الشيخ السعدي، تزامن هذا الحدث عودة "حسن باشا" بايلر بايا على الجزائر في 965هـ/ 1557م بعد فشل جهود صالح رايس في ضم المغرب الأقصى والعبور إلى الأندلس واستئناف الجهاد

---

[1] لفظ تركي من أصل فارسي معناه رب الدار ، وأطلق فيما بعد على حاكم وأصبح يطلق رسميا على المعاون الاول لأغا الانكشارية ، ينظر : مصطفى عبد الكريم ، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية** ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1996م ، ص 363، وينظر: سهيل صابان، المرجع السابق، ص 188.

[2] دي طوريس ، المصدر السابق ، ص ص220 -221.

[3] الوفراني ، المصدر السابق ، ص ص 43 - 44.

ضدّ الصليبيين.وانتقل من فاس إلى مراكش التي جعلها عاصمة له لأنّ فاس كان بها الكثير من أنصار العثمانيين[1].

من الطبيعي أن يستمر السلطان السعدي عبد الله الغالب في عدائه للعثمانيين لأنّهم من قتل أباه، ويتحالف مع الإسبان والبرتغاليين لتكوين جبهة قوية من شأنها تحقيق الثأر وإخراج العثمانيين من بلاد المغارب، ولكنّ الباحثة المغربية زهراء النظام تعزوا هذا العداء بين المغرب الأقصى والدولة العثمانيةإلى أنّ هذه الأخيرة هي السبب في إثارة الصراع في المنطقة مستندة في ذلك إلى ما جاء في الإستقصاء " لمّا ولي السلطان أبو محمد عبد الله الغالب بالله الخلافة اشتغل بتأسيس ما بيده وتحصينه بالعدد والعدة ولم تطمح نفسه إلى الزيادة على ما ملك ابوه من قبله"[2].

قد تكون هذه الأطروحة صحيحة إلى حد بعيد إذا ما علمنا أنّ بايلر باي الجزائر حسن بن خير الدين استغل الفوضى التي اعقبت مقتل محمد الشيخ وشنّ هجوما عسكريا مع مطلع شهر أبريل من سنة 1558م، حيث تقدمت القوات العثمانية من تلمسان نحو فاس ودارت معركة بين الطرفين في وادي اللبن، إذ تمكّنت القوات المغربية من صد العثمانيين وانتصروا عليهم، هذا الغزو العثماني دفع بالسلطان المغربي إلى تهدئة الأوضاع والتحالف مع الأوروبيين وخاصة الإسبان وعبّر لهم عن ذلك بالتنازل عن بعض الجزر في السواحل المغربية ومنها حجرة بادس[3]، قد يبدو موقفه مبررا من أجل حماية المغرب الأقصى من الهجومات العثمانية من جهة البحر، ولكنّ ذلك يسيئ إلى سيادة البلاد[4] .

---

[1] محمود علي عامر، محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 47.

[2] زهراء النظام، المرجع السابق، ص 213، وينظر أيضا: الناصري،**الإستقصاء**... ، المرجع السابق،ج5، ص 39.

[3] يشك الوفراني في حقيقة تنازل عبد الله الغالب عن حجرة بادس للإسبان ويرجع هذا الرأي إلى أعداء الدولة السعدية الذين حاولوا تشويه تاريخها ويقول:"وهذه الأمور شنيعة إن صح أنه فعلها ولست أدخل في عهدتها إنما رأيتها في أوراق مجهولة المؤلف اشتملت على ذم هذه الدولة السعدية وظنّي أنها من وضع بعض أعدائهم لحطهم من قدرهم وإخراجهم من النسب الشريف ووصفه دولتهم بالدولة الخبيثة ". ينظر: الوفراني ، المصدر السابق، ص 49.

[4] داهش، المرجع السابق، ص 40.

أماّ الإسبان فقد شعروا بخطر العثمانيين الذي بات يتهددهم من جهة وهران والمرسى خاصة بعد أن استطاع البايلرباي السابق صالح رايس ضم مدينة تلمسان، ليتطلع بعدها إلى تحرير مدينة وهران إذا ما علمنا أنّ هذا الأخير اتصل بالباب العالي طلبا للإمدادات ببعض السفن الحربية، وهو ما وافق عليه السلطان العثماني وبعث إليه بأربعين سفينة[1].

حاول صالح رايس ضرب الحصار على وهران ولكنّه توفي قبل أن يبدأ فيه، ليواصل خليفته حسن قورصو على نهجه[2] وهو ما أشار إليه مارمول كربخال بقوله: " ... وانطلق قاصد غزو وهران، فحاصرها من جهة البحر ومن جهة البر بثلاثة آلاف من الأتراك وأربعة عشر ألفا من مسلمي مدينة الجزائر وولايتها وبما يزيد عن ثلاثين ألفا من عرب و بربر جاءوا معززين جيوشه..." [3].

على عكس المرة الفائتة في علاقاتهم بمحمد الشيخ اتجه الإسبان على إثر هذه الأحداث إلى التعجيل في الإتصال بالسعديين مخافة اعتراف المغرب الأقصى بالتبعية للباب العالي وهو الأمر الذي سيقضي عليهم نهائيا في البقاء بالمغرب الأوسط وببلا المغارب عموما، لذلك هيئوا لعقد اتفاق وباشروا في المفاوضات عن طريق "كونزالوا هرنانديز" مبعوث الملك الإسباني إلى وهران، ومن جانب السعديين القائد منصور بن أبي غانم ممثلا للسلطان عبد الله الغالب[4]، حيث اقترح هذا الأخير إلى إقامة تحالف عسكري للتصدي للأتراك العثمانيين ومنعهم من التدخل في المغرب الأقصى، بل و ذهب إلى الإتفاق على شنّ حملة عسكرية مشتركة لطرد أعداءهم من مدينتي مستغانم والجزائر[5].

---

[1] كربخال ، المصدر السابق، ج2، ص 331.

[2] نفى جون وولف عملية حصار وهران والمرسى الكبير،حيث يذهب إلى أنّه كان من المقرر لإسترجاع مدينة وهران ، ولكن ألغي هذا المشروع بعد وفاة صالح رايس. ينظر : جون وولف، المرجع السابق، ص 71.

[3] كربخال، مصدر سابق،ج2، ص 332.

[4] وهو ما جاء في الوثائق . ينظر : Henry deCastries,**les sources inédits de histoire du Maroc,ESP,t2,** op.cit,p 234.

[5] النظام، المرجع السابق، ص ص 214-215.

ويتطلّب تجهيز حملة لإحتلال مستغانم إمكانيات كبيرة وقصد ذلك سافر دالكويت إلى إسبانيا يطلب موافقة حكومته ومساعدتها، وهو ما حصل إذ وافقت الحكومة الإسبانية على هذه الحملة وساهمت بإرسال إثني عشر ألف جندي لها، كما استجاب الكثير من نبلاء إسبانيا لنداء الحاكم الإسباني، وقد تم إرسال هذه القوات على دفعتين باتجاه مدينة وهران وكانت إنطلاقة الدفعة الأولى من قرطاجنة وضمت ستة الاف جندي على رأسها دالكويت نفسه، ووصلت إلى وهران في 16 جويلية 1558م، بينما سافرت الدفعة الثانية من مدينة مالقة يوم 23 جويلية، وضمّت خمسة ألاف جندي على رأسها الدون مارتن ابن دالكويت[1] .

وفي 22 أوت 1558م سارت الحملة الإسبانية وقوامها عشرة آلاف رجل تحت قيادة دالكويت نحو مستغانم، ويشير مارسيار إلى انضمام الكثير من الأعراب إلى الحملة، يقودهم المنصور بن بوغانم، فقد تم نقل الأسلحة والمؤونة على متن أربع سفن[2] .

قام الإسبان بالهجوم على مستغانم من البحر والبر، أمّا عبد الله الغالب فقاد الهجوم على تلمسان واستولى عليها لقلة الحامية العثمانية المتواجدة بها و التي ذهب غالبية أفرادها لنجدة مستغانم تحت قيادة العلج علي مع الجيش القادم من الجزائر، غير أن حسن بن خير الدين حاصر الإسبان وقضى عليهم في معركة مزغرانفي 1 ذي القعدة 965ه /26 أغسطس 1558م.وقتل في المعركة الكوديت وأسر الكثير منهم لعلّ ابرزهم الدون مارتين ابن الكونت ألكوديت وهذا الانتصار الجزائري جعل عبد الله ينسحب من تلمسان قبل مجيئ الجيش الجزائري إليها، لتشكل هذه الهزيمة ضربة أخرى قوية للوجود الإسباني في بلاد المغارب[3].

---

[1] صالح حيمر، المرجع السابق، ص ص 127-128.

[2] وللمزيد من المعلومات حول الحملة ينظر: MERCIER,op.cit,pp93-94.

[3] المكي جلول، **مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 1234-1847م**، إشراف: مولاي بلحميسي، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1993، ص 99.وينظر: مارمول كربخال، المرجع السابق، ج2، ص ص 334-337.وينظر : القبج، المرجع السابق، ص ص 676-677. وكذلك:.DE GRAMMONT,op.cit.pp 88- 90

وقد نظمّت قصيدة تخليدا لهذا النصر على الصليبيين وحلفائهم من المغاربة :

يا فارس من ثم جيت اليوم قصة مزغران معلومة

يا عجلان ريض الملجوم ريت أجناب الشلو موشومة

يا سايلني على طراد اليوم قصة مزغران معلومة

يا سايلني كيف ذا القصة بين النصراني وخير الدين

اجتمعوا في برنا الأقصى بجيش اقوية وجاو متهددين

ترى سفون الروم محترصة صبحوا في الميناء أعداء الدين

قطعوا سيق اتجهو لهنا زادوا بالحركة المازغران

حزناهم للصور ذاك اليوم تسعة الاف بقات معنومة

من حيط الدشرة لحوض الدوم عشر الاف مشات محطومة[1].

واعترافا لهذه الجهود والتضحيات بعث السلطان العثماني سليمان القانوني برسالة إلى حسن باشا طالبا منه تقديم مكافآت للمشاركين في انتصار مازغران[2].

4-3- التكتلات والأحلاف وأثرها في معركة وادي المخازن1578م:

تجدّد الصراع الجزائري المغربي حين لجأ عبد الله الغالب السعدي إلى حلفائه الإسبان طلبا لمساعدته في تحرير باديس فاستجابوا لطلبه، وعلى إثر ذلك قاموا بحملة عسكرية في سنة 1563م لكنّها لم تفلح أمام صلابة الجزائريين في الدفاع عنها، وهذا لم يمنع الإسبان من إعادة توجيه حملة كبيرة مرة أخرى مكنتهم في نهاية الأمر من انتزاع الميناء من العثمانيين والجزائريين في 28 محرم 972هـ/6سبتمبر 1564م والذين سيطروا عليه لفترة طويلة أي منذ 1554م[3].

---

[1] وللإطلاّع على كامل أبيات القصيدة ينظر: جمال قنان ،**نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500-1830م)** ،طبعة خاصة، وزارة المجاهدين ، الجزائر ، ص ص 59-61.

[2] مهمة دفتري رقم4 ، ص 175، حكم 1824، تاريخ 968/5/3هـ ،(1560م).

[3] بن خروف، المرجع السابق، ص 125.

وتجدر الإشارة إلى أن وثيقة إنجليزية مؤرخة في 30 جوان 1565م أشارت إلى الاتفاق والتحالف بين العثمانيين والسعديين جاء فيها: "... لقد انتهى إلى مسامع الملك فليب الثاني أن ملك الجزائر حسن بن خير الدين والشريف عبد الله بن محمد الشيخ قد عقد بينهما اتفاق وحلفا عظيما ..."[1].

على صعيد آخر تمكّن السعديون من تحرير أغلب الثغور ولم يبق في قبضة البرتغاليين سوى طنجة وسبتة، وحين اعتلى الضون "سباستيان"(Sabastian)[2] مقاليد الحكم في البرتغال وجّه أنظاره نحو المغرب الأقصى، ليقرر في إطار حربه ضد المسلمين توجيه حملة عسكرية ضخمة لاحتلالها، ولمّا وصلت أخبار الحملة البرتغالية للسلطان المغربي "عبد الله الغالب" عمل على الإستعداد و تجهيز قواته لمواجهة هذا الغزو والتصدي للصليبيين، بالرغم من تخوف الرأي العام البرتغالي من هذا القرار حيث توافدت العرائض على الملك من أجل العدول عن فكرة غزو المغرب الأقصى محذرين إياه من مغبة التورط في مغامرة غير مضمونة العواقب،وفي أثناء ذلك توفي السلطان المغربي "عبد الله الغالب" في شوال 982هـ/ 1574م ليتولى بعده الحكم ابنه "محمد المتوكل" الذي عرف بسوء سيرته لدى الرعية التي كانت ناقمة عليه.فقد ذاع صيته منذ عهد أبيه بحياة اللهو والمجون،إضافة إلى أنّ أعمامه (

---

[1] نقلا عن عمار بن خروف ،المرجع السابق، ص 221.

[2] الملك سباستسيان: ولي عهد البرتغال ووريث عرش سلاسة "أقيز" الحاكمة تولى الملك في جانفي 1554م بعد وفاة أبيه الأمير جان،كان سيباستيان في السادسة عشر من عمره عندما قاد الحملة البرتغالية على المغرب والتي كان يعد لها منذ عام (978هـ/1570م) ، وقد تربى في وسط اخلاقيات نثالية تهفو إلى نشر التعاليم الجزويتية التي ترى في الجندية المثل الأعلى للحياة ، وأن نشر العقيدة الكاثوليكية في مقدمة الأهداف ،كان يعتبر أن حل المشكلات الاقتصادية التي كانت تعاني منها البرتغال بسبب مزاحمة الانجليز وغيرهم من الدول الأوربية لا تنتهي إلا بالعبور إلى إفريقيا وخوض الحرب المقدسة بنفسه ضد (الكفار) المسلمين وسحق بلاد المغرب العربي أولا . للمزيدينظر، حنظل ، ص 453. وكذلك:جلول بن قومار، **معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا : البرتغال – إسبانيا – فرنسا، (986هـ- 1578م/1012هـ- 1603م)**، معهد العلوم اجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ،غرداية، الجزائر 2010-2011، ص63.

عبد الملك واحمد وعبد المؤمن) كانوا من أشدّ معارضيه رافضن توليه مقاليد السلطة[1].ولم يخفى سلوك المتوكل اتجاه شعبه عن الملك البرتغالي ما زاده إصرارا على تنفيذ مشروعه[2].

عمل عبد الملك وأحمد على إيجاد طريقة تمكنهم من استرجاع حقوقهم في وراثة عرش المغرب والقضاء على المتوكل. وساعدهم وحفزهم في ذلك أنّ عبد الملك كان شخصا مرغوبا شعبيا أكثر من ابن أخيه السلطان محمد المتوكل، وكانت عبارات المديح تنهال عليه باستمرار كونه شاعرا بارعا، يجيد الإسبانية والايطالية ويتحدث التركية بطلاقة ويتقن اللعب على آلات موسيقية مختلفة، وهو جندي مقدام وباسل ومواظب على متابعة أمور التسليح والجندية وكان على علم تام بالعادات والعلاقات الدولية والدبلوماسية والأحداث العالمية وطرق إدارة الدول، تساعده في ذلك أمه (لالا سحاية الرحمانية) بتوجيهاتها ونصائحها القيمة، وزوجته التركية ابنة القائد التركي البحري رايس مراد، التي ساعدته على نيل محبة وعطف العثمانيين إضافة إلى مساعدة أخيه أحمد المنصور في كل الأمور[3].

لجأ أبو مروان عبد الملك وأخوه أحمد المنصور إلى الأتراك العثمانيين في الجزائر بعد وفاة والدهم محمد المهدي وبعدها انتقلا إلى القسطنطينية للاستنجاد بالسلطان العثماني الذي كان له معهما علاقات جيدة منذ لجوئه وأمه وإخوته إليهم هربا من بطش عبد الله الغالب مبديا استعداده لتولي السلطة والإعتراف بالخلافة العثمانية على العالم الإسلامي ولعلّ انخراطه في صفوف المحاربين العثمانيين أبرز دليل على ذلك، فقد شاركا في تحرير تونس سنة 1574م[4]. وقبلها في معركة ليبانتو في سنة 1571م كما مرّ معنا.

---

[1] فالح حنظل، **العرب والبرتغال (93هـ-1134هـ/711-1720م)**، ط1، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، 1418هـ-1997م ، ص 445.

[2] بن قومار، المرجع السابق، صص 65-66.

[3] حنظل ،المرجع السابق ، ص ص 445-447.

[4] حركات ،المرجع السابق، ص 257.

حاول محمد المتوكل التقرب وتحسين علاقاته مع الدولة العثمانية بعد لجوء عميه إلى الجزائر لإفشال خطة عمه عبد الملك، فأرسل سفيره وهو عالم جليل يدعى ابن الشيخ إلى السلطان العثماني محملا بهدية ثمينة ورسالة أكّد من خلالها رغبته في توطيد العلاقات بين العثمانيين والمغرب الأقصى معترفا له بالسيادة الروحية للسلطان العثماني عليه[1]. وهذا ما طمح له العثمانيين منذ عقود.

ومن جهة أخرى واصل المتوكل السعدي في سياسة والده عبد الله الغالب في التقرب وتوطيد علاقاته بالأوروبيين خاصة مع الإسبان والبرتغاليين أعداء وخصوم العثمانيين، وحتى مع الانجليز[2]،لذلك كان السلطان العثماني الجديد مراد ناقما عليه و استجاب لطلب عبد الملك وأصدر فرمانا يطلب فيه من حاكم الجزائر رمضان باشا أن يساعد عبد الملك في أخذ الحكم في فاس، وامتثالا لأوامر السلطان، خرج رمضان باشا بجيش مؤلف من سبعة آلاف جندي وألف فارس إنكشاري وستة آلاف فارس عربي[3] وحولي عشرين مدفعا قاصدا فاس ساهمت هذه المساعدة العثمانية في الإنتصار على جيش المتوكل في معركة الروكن أو الروكان في أحواز فاس ثمّ ينتقل إلى مراكش ليبايع أهلهما عبد الملك سلطانا عليهم ولقب بالمعتصم بالله كان ذلك في 31 مارس من سنة 1576م، أماّ المتوكل فقد فرّ إلى جبل درن[4].

أثارت التدخلات الجزائرية في المغرب بعد تعيين عبد الملك الموالي للعثمانيين قلق الإسبان والبرتغاليين، وهو ما تؤكده سياسة حاكم فاس الجديد، فقد ظلّ حريصا على أن تكون علاقاته مع الجزائريين ومع السلطان العثماني حسنة، يسودها التآخي وحسن الجوار بل

---

[1] بن خروف، المرجع السابق، ص 232.

[2] كريم ،المرجع السابق ، ص 97.

[3] التر ، المرجع السابق ، ص ص 249-250.

[4] أحمد سالم علي ،المقال السابق، ص 52.وينظر :الناصري، **الاستقصاء** ...،ج5، المصدر السابق، صص64-65.وينظر أيضا:شوقي عطا الله الجمل ،المرجع السابق ، ص 175.

أكثر من ذلك فقد أغدق عليهم أمولا كثيرة مكافأة لهم وكان يلقي الخطبة باسم السلطان العثماني، كما ضرب اسمه على النقود،وهذه كلّها مظاهر تعبر عن حقيقة تبعية المغرب الأقصى للباب العالي خلال هذه المرحلة[1].

ومن جتهتها الدولة العثمانية في رسائلها للسلطان السعدي كانت تؤكد على ضرورة الجهاد والتعاون مع إيالة الجزائر في الحروب وفي هذا الصدد نذكر رسالتين : جاء في الرسالة الأولى :" هذا كتابنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لازال نافذا في المشارق والمغارب إلى الجناب الأمير الكبير الأمجدي ... نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية ... سيد الأمراء والأشراف في العالمين نصير الغزاة والمجاهدين ظهير الملوك والسلاطين المحصن بمزيد عناية الملك المبين الأمير (كذا) عبد الملك الوالي (كذا) يومئذ بولاية (كذا) فاس أدام الله تعالى سعده وأنجح قصده ... بالانتساب إلى جانبنا الشريف العالي السلطاني والإستناد إلى بابنا المنيف السامي الخاقاني ... وتحصيل مرادكم ... فالواجب عليكم وعلى من لديكم بمقابلة هذا لمن وأعلى (كذا) عليكم ان تكونوا في جادة الصداقة ... وطريق الاستقامة ثابتين ودائمين وتعينوا للسفاين التي تمر من جانب أعتابنا العلية ... وتتفقوا احسن الاتفاق والاتحاد مع أمير الكرام حسن باشا ... الوالي يموئذ بولاية الجزائر الغرب ، وتدافعوا مضرة الأعداء وكيد الكفرة وسائر الأسقياء وتبذلوا غاية جدكم وتصرفوا نصر جهدكم في طريق الغزاة والجهاد وإصلاح أحوال الرعايا وسائر أهلي البلاد حتى تكونوا مستاهلين الألطاف العلية ومستوجبين لأصناف الأعطاف الجزيلة ، فغن الله تعالى لا يضيع أجر المجاهدين "

وجاء في الرسالة الثانية :" هذا كتابنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف الخاقاني لا زال نافذا بالعون الرباني ومطاعا له في القاصي والداني ...إلى الجناب الأميري

---

[1] خاليد فؤاد طحطح، "**العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن السادس عشر-اواخر القرن الثامن عشر**"، مجلة كان، ع 14،السنة الرابعة، ديسمبر 2011، ص 107.

الهمامي الكبيري ... الأصلي لا الحسبي العريقي النسبي، نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الزكية النبوية ... مولاي عبد الملك الحكم – الحاكم يومئذ بولاية فاس ومرنقوش (مراكش) ... فغن كنتم على قدم الصداقة قائما وساق الاستقامة ثابتا دائما في الانتماء والانتساب إلى أبوابنا العالية الاعتبار لحصل لكم الارتقاء على الشأن ويكون اركان المودة بيننا مرصوص البنيان ، وبنيان المحبة سديد الأركان ، فلما آل الحال إلى هذا المآل وجب عليكم وعلى كل من كان لديكم أن يجتهد في تشييد مباني الإخلاص ومعاقد الاختصاص ، ويعامل مع أمير الأمراء الكرام حسن باشا أدام الله اقباله وحسنت خصاله ... حسن المعاملة والاتفاق العادي عن سوء الشقاق فيما يتعلق بضمانة عرض الدولة والدين واحكام الشرع المبين وإذا أحضرنا من سدتنا السنية لدفع ضرر الأعداء عن تلك الديار أو للجهاد مع الكفار سفنا ... فعليكم ان تعاونوا غياهم بالعساكر وبلات الحرب والذخائر وغيرها ..."[1] .

وعلى إثر ذلك إنزعج الأيبيريون من هذا التقارب الإسلامي الذي لم يسبق له نظير منذ غزوهم لبلاد المغارب، فطلب الملك البرتغالي "سباستيان" من ملك إسبانيا الإسراع في التدخل عسكريا في المغرب الأقصى، لكنّ طلبه لم يلق إجابة بسبب انشغال الإمبراطورية الإسبانية بثورات الأراضي المنخفضة، إضافة إلى الحروب الدينية التي شهدتها أوروبا، ومن جهة أخرى حاول "محمد المتوكل" استعادة عرشه الضائع لكنّ "عبد الملك" تصدّى لكلّ محاولاته، فلم يبقى أمامه إلاّ الإستنجاد بالبرتغاليين في طنجة كان ذلك في صائفة 985هـ/ 1577م، وهو ما وافق عليه البرتغاليون الذين أرادوا استغلال أوضاع البلاد المضطربة وتنفيذ مشروع سيباستيان، ما جعلهم يقومون بالاستعدادات العسكرية التي من شأنها أن تمكنّهم من التوسع في المغرب الأقصى[2].

---

[1] داهش، المرجع السابق، ص 48.

[2] الناصري، **الاستقصاء**،ج5، المرجع السابق، ص ص 68-69.

وبالتجاء المتوكل للبرتغاليين في طنجة خضعت معظم البلاد للمعتصم، ما عدا منطقة الغرب والتي كانت تضم القصر الكبير وأصيلا والعرائش، وهي تحت حكم صهر المتوكل المدعو عبد الكريم ابن تودة الذي تنازل عن مدينة أصيلا للبرتغال[1].

لقد وجد في الملك البرتغالي سيباستيان في استجاد المتوكل فرصة سانحة لتنفيذ مخططاته التي طالما سعى لتحقيقها من أجل الاستيلاء على المغرب واشترطوا على المتوكل أن تكون لهم السواحل وله ما ما دونها، وهو ما وافق عليه وتعهّد له به[2].

أدّى تصاعد الموقف العسكري البرتغالي إلى قيام عبد الملك السعدي بمراسلة الملك سيباستيانبتاريخ 22 جويلية 1578م من أجل إحلال السلام بينهما وثنيه عن غزو المغرب الأقصى. وجاء في الرسالة :"... الحرب التي تعلنها ضدّي هي غير عادلة، لقد أتيت تنزعني عن عرشي ومملكتي لأجل هذا الشريف الجاحد لما وعدك به، وأستطيع أن أوكد لك أنّني سأمنعه من الالتزام بقوله ما دمت حيا، لني أريد أن أجعله خادما للخدم والعبيد عندي ، ولا أنت ولا قواك تستطيع منعي من ذلك، ولأجل أن تكون عدالتي أكثر شهرة ، أريد تصحيح خطئك، وأقدم لك بحرية ما لا يستطيع الشريف إعطاء ما وعدك به، يعني ثلاثة عشر ميلا من البحر حتى الأرض الصلبة لأجل أن تتمكن من بناء الحصون التي تريد وليكون لديك أرضا زراعية أكثر مما تحتاج لتأمين التّموينات الضرورية ..."[3].

ويعلّق الباحث بن قومار جلول على الرسالة بقوله:" أراد المولى عبد الملك برسالته هذه، على أن يحمل الملك البرتغالي على التخلي عن حليفه المتوكل، حيث عرض عليه جملة من المحفزات السياسية والاقتصادية، لعلّه يرجع عن مشروع حملته، وينبهه إلى أن المتوكل لا يستطيع أن يفي بما وعده به، لأنه سيجد مقاومة عنيفة من الشعب المغربي لكن

---

[1] عبد الكريم كريم، المرجع السابق، صص 102-103.

[2] مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، المصدر السابق ، ص 58.

[3]Henry de Castries,**lessources inedites du Lhistoire du maroc 1530-1845,dynastie saadienne** ,Archive et bibliotheques de France , T1, paris, 1905,pp392-393.

الملك البرتغالي أغلق أي سبيل للحوار، أو محاولة للصلح، أو الوصول إلى حلول توفيقية تنهي الأزمة المتفاقمة بين المتخاصمين، لأنّ الملك الشاب كان في هذه الظروف الحماسية والتعبئة الشاملة لفرقه العسكرية لا يسمع إلاّ قرع طبول الحرب ونذرها القادمة"[1].

لم يمنع هذا الإتصال بين الطرفين، إضافة إلى تحذير فيليب الثاني من عاقبة التوغل في أرض المغرب الملك البرتغالي من تحييد فكرة غزو المغرب الأقصى، فقد كان يتطلع إلى محو ما وصم به عرش البرتغال خلال فترة حكم أبيه يوحنا الثالث والذي عرف عهده بانسحاب البرتغاليين من آسفي وأزمور وأصيلا وغيرها، ومن جهة ثانية كان يريد إعلاء شأنه بين ملوك أوروبا، ليصبح إمبراطورا على بلاد المغرب الإسلامي، ولعلّ الدافع الأكبر هو التعصب الصليبي والعقلية الإستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة في كل أرض عربية مسلمة عاجزة عن حماية نفسها من الأخطار الخارجية[2].

4-3-1- وقائع المعركةونتائجها:

اختلفت المصادر التاريخية حول عدد فرق الجيش البرتغالي، نجد أن المصادر البرتغالية أيضا اختلفت فيما بينها فقد ذكر أنّه كان يضم عشرين الف مقاتل منهم 3000 ألماني و 2000 إسباني و 600 إيطالي ومعهم 12 مدفعا، فيما مصادر برتغالية أخرى تذكر إلى أنّ عدد الجنود تراوح من 14000إلى 20000 جندي، فيما كان عدد المدافع 36 مدفعا إلى جانب قوات المتوكل التي كانت حوالي 400 فارس، فيما ذكرت هذه المصادر أنّ عدد الجيش المغربي بلغ 66000 من الفرسان و 44000 من المشاة، وكانت قطع المدفعية 22 وعبّر أحد المصادر البرتغالية عن ضخامة الجيشين بقوله:" ... إنّ مشاهدة عظمة الجيشين . الإسلامي والمسيحي . وعدد الرماح والخيام ولمعان السلاح والضجيج والطلقات

---

[1] بن قومار جلول، المرجع السابق، ص 70.

[2] شوقي أبو خليل ،"**وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة- القصر الكبير**"، ط1، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ،1988،ص ص 45-47.

وأصوات الجنود تجعل القلوب ترتجف وألوان الوجوه تتغير. وتجعل كل واحد يخاف على مصيره حتى ولو كان فريقه هو الأكثر أمنا ..."[1] . وهذا ما يفسّر على أن الجيش البرتغالي الصليبي كان أكبر بكثير مما جاء في المصادر الأوربية والبرتغالية خاصة.

أماّ المؤرخ الفرنسي فقد ذكر أن عدد الجيش البرتغالي بلغ حوالي 80000 جندي وهو أكبر عدد ذكر في المصادر التاريخية الأوروبية[2]، وفي الجهة المقابلة نجد أنّ المصادر المغربية ومنها أبو عبد الله محمد العربي الفاسي فقد ذكر في مرآة المحاسن ما نصّه : " ... وعظيمهم سيباستيان ملك البرتغال، واحتشد أمما من النصرانية يقال أن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفا، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون الف مقاتل ..."[3].وذكر اليفرني عدد 125 ألف مقاتل[4].

ومن جانب الجيش المغربي فقد ذكر المجهول في تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية أنّ عدد الجيش بلغ 36000 بقوله :" ... وأشتد عليه المرض حين توجه الناس للقتال وكان عدد المسلمين ستة وثلاثين ألفا والنصارى مثلهم مرتين ..."[5] . وهو تقريبا العدد الذي تذكره الكثير من المصادر المغربية أخرى. وتم الحديث عن مشاركة ما يقارب 50000 مقاتل مغربي[6].

---

[1] أحمد بوشرب، "**معركة وادي المخازن من خلال كتاب حملة دون سبستيان على إفريقيا لمؤلف برتغالي مجهول**"، مجلة المناهل، ع 28-السنة العاشرة ، دجنبر 1983، ص ص 124-125.

[2]Ernest Charriere, **Negociations de la France dans le levant**,T3, imprimerie imperiale, paris, p 722.

[3] أبو حامد محمد العربي الفهري ، **مرآة المحاسن من اخبار الشيخ أبي المحاسن** ، در و تح: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني ، منشورات رابطة أبي المحاسن ، د.ت ، ص 146.

[4] اليفرني، المصدر السابق، ص 73.

[5] مجهول ، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية** ، المصدر السابق ، ص 61.

[6] النظام، المرجع السابق، ص ص 281-282.

رست القوات البرتغالية والقوات الأوروبية المتحالفة معها بأصيلا يوم الاثنين 12 يوليو 1578م إضافة لقوات المتوكل والتي بلغت خمسمائة فارس، أمّا السلطان السعدي عبد الملك فقد قام بتوجيه نداء للجهاد المقدس عبر كافة ربوع المغرب مدعما بالقوى الدينية " أن اقصدوا واد المخازن للجهاد في سبيل الله"[1].

وجدير بالذكر أنّ السلطان السعدي المعتصم بالله كتب رسالة إلى ملك البرتغال بعد نزوله بأصيلا يقول فيها : " ... إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر إلى عدوة المسلمين فإن تثبت في الساحل إلى أن نقدم عليك فأنت نصراني حقيقي وشجاع وإن زحفت إلى البلاد وحقرت بعض الرعية قبل أن يقابلك أمير مثلك، فأنت كلب ابن كلب ..."، (وقيل يهودي بن يهودي)[2].

لم يأبه الملك البرتغالي برسالة السلطان السعدي فقد انتقل هذا الأخير من مراكش إلى القصر الكبير، وكتب إلى سبستيان ثانية يقول : " ... إني جئتك من مراكش ورحلت إليك ستة عشر مرحلة ، وانت لم تدن إلي مرحلة واحدة ..." ، وحين وصلت الرسالة اغتاظ الملك البرتغالي وانتقل من وادي " تهدارت " إلى وادي المخازن (القصر الكبير).[3]

أمّا الجزائر العثمانية فقد كان موقفها من كل هذه الأحداث داعما للمغرب الأقصى للتصدي لهذه الحملة الصليبية، فقد صدر الأمر إلى باشا الجزائر بمساعدة عبد الملك بأربعة آلاف أو خمسة آلاف من الأتراك وقد غادروا الجزائر في ماي 1578 متظاهرين أنّهم في حملة لجمع الضرائب. والجدير بالذكر هو أنّ عبد الملك قبل معركة وادي المخازن كان على اتصال مع باشا الجزائر ومع السلطان العثماني يخبرهما عن تطور الأوضاع حول هذه الحملة، بالرغم من أنّه لا يحبذ مساعدة العثمانيين والجزائريين في المشاركة في حربه ضد

---

[1] شوقي أبو خليل،المرجع السابق،ص 50.

[2] المجهول ، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، المصدر السابق ، ص 59.

[3] نفسه ، ص 60.

البرتغاليين وذلك قصد إبعادهم عن ضم المغرب الأقصى وإنهاء الحلم ودیا الذي لطالما طمح العثمانيون له[1].

في صباح يوم الاثنين 30 جمادي الأولى عام 986 هـ الموافق ل1578/08/04م إلتقى الطرفان قرب وادي المخازن، ولا نجد في هذا المقام إلاّ أننا نعتمد على الوثيقتين اللتان حصل عليهما الباحث محمد بن تاويت، فقد وصف لنا الشاهد الأول الطبيب اليهودي الخاص لعبد الملك المعركة بقوله : " ... أمر الملك بإطلاق نار المدافع التي كانت عدتها أربعة وعشرين قطعة جيدة ، ولما أطلقت المدافع طلقاتها مرتين ألحقت بالنصارى أضرارا ، كما ظهر لي ،وكما علمنا فيما بعد ، فأجار عليها النصارى بمدافعهم ، قتل بها فرسان ورجل من حاملي علم الملك ... وفي هذه الأثناء اقترب الجمعان من بعضهما ، واحتدم القتال من الجانبين ، وجعل فرساننا يهجمون على النصارى المدرعين وتقدمت بعض الفيالق من النصارى على يميننا ، وشمالنا ، وأشتد هجومهم علينا بشراسة ، لدرجة تراجع رجالنا من المشاة والفرسان ، وصاروا وراء علم الملك ، يبحثون عن النجاة ... واعتقدت أننا سوف نهلك ... عن الملك لما رأى رجاله ينهزمون ... غستوى على جواده وامتشق سيفه ثم ارتعش ارتعاشا شديدا ... فوجدته قد لفظ انفاسه... وصرت أسقيه الماء حتى لا يشعر الناس بومته ... وفي هذا الوقت كان على يميننا مولاي أحمد فحمل حملة قوية على النصارى ، انزل بهم خسائر فادحة ، وفعل ذلك مرتين أو ثلاثة وبذلك ضيق عليهم الخناق ... ولما شاهد النصارى هزيمتهم جعلوا يقيمون الحواجز ، مستخدمين فيها العربات التي أتوا بها فقاتلوا وراءها حتى قتلوا ، أو وقعوا في الأسر ، وكان عددهم ثلاثين ألفا ، لم ينج منهم إلا عشرون أو خمسة وعشرون من فرسان طنجة ...وكان مولاي محمد قد فر مع شرة من الفرسان لما

---

[1] بن خروف، المرجع السابق، ص 245، وينظر : النظام، المرجع السابق، ص 282.

شاهد الهزيمة وكان من بينهم أولاد بن تودة وحمو بن معيزة فأرادوا اجتياز النهر فغرق المتوكل وأفلت فرسه، ومات ملك البرتغال متأثرا بجرحين أصيب بهما ..." [1].

وهناك أيضا رواية لجندي انجليزي شارك في الحملة وقال : "... وفي اليوم التالي وكان رابع أغسطس لسنة 1578م، قسم ملك البرتغال جيشه إلى أربعة كراديس ، وعين القائد " ضون دويرطي دى منيس في قيادة المقدمة، أما الكرودس الثاني فإن ملك البرتغال تولى بنفسه قيادته، وكان على الميمنة " الشريف الأسود " مع فرسانه وكان على الميسرة " دوق فيرو" الابن الأكبر لدوق " برنكسي " مع أربعة فيالق ، وقد قام مولاي عبد الملك الترتيب في عسكره ... فوجه الملك مولاي عبد الملك أولا هجوما عنيفا على فرسان البرتغال المقاتلة ، ولكنهم دافعوا على أنفسهم بشجاعة ، وانتهوا أخيرا إلى اضطرار رجال مولاي عبد الملك إلى التأخر بعد فقدان الكثير منهم ولكن مولاي " ملوك " مع هذا لم يهن أبدا .

وقد قذف برجاله ثانية في أحسن ترتيب لخوض المعركة من جديد، هاجما بعنف وشدة على فرسان ملك البرتغال، فجعلهم ينهزمون إلى قلب الميدان . ثم إن فرسان البرتغال وهم غير قادرين على جمع شتاتهم مرة أخرى وفي نظام أحسن، هجموا على المسلمين نفس الهجوم العنيف، بحيث أنهم قتلوا عددا عظيما منهم . فأعاد هؤلاء الكرة على فرسان البرتغال ، ولم ينهوا وأكرهوهم على الاختلاط بمشاتهم. ثم هجم فرسان البرتغال على المغاربة من جديد ، ولكن كانوا قد قتل أحسن رجالهم من قبل، ولم يكن لهم غوث جديد ... فقد فروا عن زملائهم مرتاعين هلعينضاربين في بلاد غريبة عليهم، وهم بين أعدائهم يقاتلونه، وقواتهم تفوقهم[2].ودامت المعركة أكثر من أربع ساعات وانتصر فيها المسلمون وقتل فيها الملوك الثلاث المتوكل، عبد الملك، والملك البرتغالي سيباستيان[3].

---

[1] محمد بن تاويت، "**وثيقتان هامتان عن معركة وادي المخازن**"، مجلة دعوة الحق، ع 8، 1978م، ص 50.

[2] نفسه، ص 55.

[3] شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 67 .

4-3-2- أراء حول المشاركة العثمانية في المعركة[1]:

اختلف الباحثون المعاصرون من خلال ما حصلوا عليه من وثائق في تاريخ المغرب الأقصى حول مشاركة العثمانيين في المعركة،حيث ذكر محمد فريد بك المحامي في كتابه تاريخ الدولة العثمانية ما نصّه : "... واستعان مدعي الملك بالبرتغاليين ، فأوعزت الدولة أو بالأحرى محمد باشا صقللي لوالي طرابلس بإنجاد سلطانها الشرعي ، فأسرع إلى مساعدته ، والتقى الترك بالبرتغال بالقرب من محل يقال له القصر الكبير ، وكان يوما مشهودا ، دارت فيه الدائرة على البرتغال ، وبعد تمام النصر وإعادة الأمن والسكينة إلى ربوع مراكش ، عادت الجيوش العثمانية حاملة ما أغدق إليها، من هدايا ..."[2] وهو ذهب إليه الباحث شوقي خليل في كتابة الذي خصصه لهذه المعركة[3].وأيضا الباحث العراقي محمد علي داهش في مؤلف الدولة العثمانية والمغرب[4]، في حين نفى بعض الباحثين المغاربة مشاركة أي عنصر آخر غير المغاربة ضدّ التحالف الصليبي من بينهم الباحث عبد الكريم غلاّب[5]، أمّا الباحث الجزائري عمار بن خروف فقد ذهب إلى أنّحملة حسن باشا لم تشارك مباشرة في المعركة إلاّ أنّ 14 سفينة جزائرية بقيادة سنان رايس أحكمت قبضتها على السفن البرتغالية التي حاولت النجاة والإفلات من الكارثة التي حلت بحملة سيباستيان، وتمكنت من الحاق مزيد من الخسائر بالبرتغاليين[6]، وهو ما تدعمه تقريبا الباحثة المغربية زهراء النظام في أطروحتها للدكتوراه والتي تناولت فيها العلاقات المغربية الجزائرية من خلال مقاربة سياسية ثقافية خلال

---

[1] ينظر الملحق رقم 05.

[2] محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 260.

[3] شوقي خليل، المرجع السابق، ص 75.

[4] محمد علي داهش، المرجع السابق، ص 49.

[5] عبد الكريم غلاب، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر**،ج2 ، ط1، دار الغرب الإسلامي،بيروت، لبنان، 2005،ص 309.

[6] عمار بن خروف، المرجع السابق، ص 246.

القرن 16م، فقد أكدّت أنّه كانت هناك مشاركة من الأتراك العثمانيين ولكنّها ضعيفة[1] أي ليست بالتي تقلب موازين المعركة لصالح المسلمين. وهو نفس المسار الذي سلكه الباحث المغربي خاليد فؤاد طحطح بقوله:" ... وقد ظلّ الباب العالي مساندا لعبد الملك السعدي وهو ما يتجلى في مشاركة الأتراك في معركة وادي المخازن بغض النظر عن طبيعة وحجم هذه المشاركة"[2]. كلّ هذه المواقف لها ما يدعمها من الوقائع التاريخية والذي أراه هو أنّ العثمانيين ساهموا في نجاح المغرب الأقصى ليصبح قوة دولية في المتوسط ، أولا بدعم عبد الملك للوصول إلى السلطة وأيضا من خلال الإنتصار في معركة وادي المخازن والدليل أن عبد الملك وأخيه أحمد منذ البداية اتصلا بالأتراك العثمانيين وشاركا في تحرير تونس وفي موقعة ليبانت فكيف لا يكون هناك رد للجميل هذا من جهة؟، ومن جهة ثانية الدولة العثمانية كانت تريد ضم المغرب الأقصى بأي طريقة وبالتالي يصبح تابعا للخلافة العثمانية التي أرادت تطهير كل بلاد المغارب من المعتدين الصليبيين وخاصة الإسبان والبرتغاليين خلال هذه المرحلة.

لقد بويع أحمد ولقب بالمنصور لخلافة أخيه عبد الملك المتوفى على عرش المغرب الأقصى، حيث أرسل بعثة مرفقة بأنفس الهدايا إلى الخليفة العثماني وهذا من أجل جعل بلاده في مأمن من الخطر العثماني وهو ما حدث فعلا خاصة أنّ الدولة العثمانية انشغلت بحروبها مع الدول الأوروبية من جهة وبالصراع المستمر القائم في الجزائر ضد الإسبان من جهة أخرى[3].

كانت معركة وادي المخازن الحاسمة نقطة تحوّل في تاريخ المغرب الأقصى الحديث الحديث ، وانعكست نتائجها على العلاقات الدولية في تلك الفترة، فأصبح المغرب ليس ذلك

---

[1] زهراء النظام، المرجع السابق، ص 282.

[2] فؤاد خاليد طحطح، المقال السابق، ص 107.

[3] ابراهيم حركات، المرجعالسابق ، ص 297.

القطر التي تصارعت من أجله القوى الدولية المجاورة كمنطقة نفوذ حيوية، بل اكتسب من القوة السياسية والعسكرية والاقتصادية، ما أهلّه إلى أن يلعب دورا بارزا مع القوى التي هيمنت على البحر الأبيض المتوسط في القرن السادس عشر، فقد أعطت معركة وادي المخازن للمغرب زخما سياسيا قويا لدى دول العالم فتهاطلت عليه الهدايا، ووجهوا له السفارات، والبعثات وأخذ المغرب الأقصى يقوم بدور بارز في السياسة العالمية والتجارة الدولية وتسابقت الدول الأوروبية للفوز بالتعامل معه والحصول منه على امتيازات تجارية[1].

5-جوانب من مظاهر آثار التحالف الفرنسي العثمانيببلاد المغارب:

استمرت العلاقات العثمانية الفرنسية في التطور في ظل تلك الظروف الدولية والأوضاع السائدة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، فالدولة العثمانية شهدت خلال عصر سليمان القانوني انتصارتها في جبهات متعددة خلال بداية النصف الثاني من القرن السادس عشر، وهو ما دفع بالأوربيين التقرب أكثر منها وكسب ودّها أبرزهم الفرنسيين والإنجليز للحصول على مكاسب في جوانب عديدة، فقد عقدت تلك الدول عدة اتفاقيات ومعاهدات مع إيالتي الجزائر تونس التابعتين للعثمانيين.ومن مظاهر تلك المكاسب خلال هذه الفترة التعاون العسكري وتأسيس مراكز تجارية ببلاد المغارب وتعيين قناصل سيلعبون دورا مهما في نسج تلك العلاقات وترقيتها والدفاع عن مصالح الأوروبيين، ومن جانبهم أتراك الجزائر استغلوا هذه الصداقة في بعض الفترات.

5-1- مظاهرالتعاون العسكري:

ومن مظاهره حين أرسل الملك الفرنسي هنري الثاني في سنة 1552م النبيل دالبيس (dAlbisse) إلى الجزائر من أجل دعوة البيلرباي لمهاجمة السواحل الإسبانية معا. وهو ما حدث فعلا بعدما توجه البيلرباي صالح رايس في بداية جوان 1553م وقام بمهاجمة

---

[1] جلول بن قومار، المرجع السابق، ص ص 92-93.

السواحل الإسبانية على رأس أربعين سفينة حربية، وأنزل بميورقه، ووصل إلى ميناء بادس في المغرب الأقصى ليستولى على عشر سفن إسبانية وبرتغالية[1].

وفي مقابل ذلك لبّى الفرنسيون طلب علج علي وزودوه بمعدات كان يحتاجها أسطوله خلال تواجده بميناء مرسيليا سنة 1579م، واعدا إياهم بأن يضمن المعاملة الحسنة للرعايا الفرنسيين في الجزائر، وبعدها بست سنوات أي سنة 1584م تلقى حسن فنزيانو المساعدة من قبل المرسيليين، وأقام لديهم ثمانية أيام أثناء حملته على دوريا[2].بالرغم من نشاط رياس البحر ضد السفن الفرنسية في فترات مختلفة من النصف الثاني من القرن السادس عشر إلاّ أنّها لم تؤدي إلى الصدام بين الطرفين.

وفي العقد الأخير من القرن 10هـ/16م تحسنت العلاقات الجزائرية الفرنسية حيث قامت إيالة الجزائر بتقديم يد العون للملك الفرنسي هنري الرابع إبتداءا سنة 1593م إلى سنة 1598م ضد أعدائه في الداخل وفي الخارج، فقد ساعده رياس البحر الجزائريون بقيادة مراد رايس ضد رعاياه المتمردين في مارسيليا الذين أرادوا تسليم مدينتهم للإسبان فقد توسط الجزائريون للملك الفرنسي[3].

5-2- تأسيس المراكز التجارية:

ومن جانب آخر فقد عرفت العلاقات التجارية بين المغاربة والفرنسيين تطورا ملحوظا خلال القرن 10هـ/16م وخاصة بعد تمكن هذه الأخيرة من الحصول على حق صيد المرجان على السواحل الجزائرية والتونسية وتأسيسها لمراكز تجارية فيما يسمى بالباستيون ليمتد نشاطها إلى المتاجرة ببعض السلع التي تنتجها البلاد المغاربية.

---

[1]De Grammont, op.cit,p79.

[2]Charriere Erneste, op.cit,pp799-800.

[3] غطاس عائشة ،**العلاقات الجزائرية**...،المرجع السابق ، ص ص 17-18.

لم يكن التعاون العسكري المظهر الوحيد الذي نتج عن التحالف العثماني الفرنسي فالجانب الإقتصادي أولى له الفرنسيون والأوروبيون بشكل عام عناية خاصة على عكس العثمانيين وممثليهم في بلاد المغارب، فقد حصلت فرنسا على حق صيد المرجان في القالة منذ عهد خير الدين بربروس، كما استطاع توماس لانش "Thomas Lenche" وأخيه أنطوان وشريكهما ديديي "Didier" الحصول على امتياز صيد المرجان في القالة عام 1561م. ويبدوا أن عددا كبيرا من الرياس الذين هم من أصل أوروبي (الأعلاج) وخاصة من جنوب فرنسا كانوا يتدخلون لتسهيل بعض الصفقات التجارية أو بعض العقود لبعض أقاربهم الأوربيين منهم توماس لانش[1].

بدا واضحا سيطرة الفرنسيين على التجارة ببلاد المغارب وفي الجزائر خاصة واستغلالهم لمعاهدة تحالفهم مع الدولة العثمانية، إلاّ أنّ بعض حكام الجزائر تدخلوا لوقف هذا التمادي في النفوذ، من بينهم علج علي الذي قام بنزع حق صيد المرجان من الفرنسيين بمركز القالة، بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات، وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة[2]. فقد استطاع الفرنسيون في عهد العلج حسن فنزيانو الحصول على حق صيد المرجان في خليج سطورة بالقرب من سكيكدة وقد أعلم السلطان مراد الثالث حسن فنزيانو بأن الفرنسيين لا يعارضون دفع عشر ما يحصلون عليه من المرجان مثلما كان يدفع الجنويون من قبل، وقد اشترط عليهم عدم إقامة أي قلعة[3].

وكذلك الحال في تونس فقد أعطت تلك الامتيازات ومختلف المعاهدات العثمانية الأوروبية للتجار المسيحيين في البلاد التونسية يدا طويلة، وفي ظلّ ذلك تم تأسيس وكالة تجارية فرنسية في سنة 1575م وتسمى وكالة "فيومارا صلاتا" وهي ملحق للوكالة المركزية

[1] سي يوسف، المرجع السابق ، ص 47-49، وينظر : جمال قنان ، **العلاقات الفرنسية الجزائرية**، ط .خ، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار،الرويبة، الجزائر، 2005 ، ص 224

[2] الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ،ج3، المرجع السابق ، ص ص 95-96.

[3] مهمة دفتري رقم 35، حكم رقم 314، ص 122 ،تاريخ 986/06/02هـ،(1578م).

برأس نيقرو واستعملت كمخزن للمرجان، وعملت السفن الفرنسية على نقل البضائع للأهالي ، كالأقمشة وأنواع النسيج المطرزة بمقابل اقتناء القمح والشعير والذرة الصفراء وقصب السكر والشمع والمنتوجات الحيوانية، وقد امتدت الحركة التجارية للوكالة حتى مدينة باجة، وفي سنة 1580 استعادت شركة لنش المارسيلية المراكز التجارية الفرنسية في تامكرت بعد تدخل السلطان العثماني، لأنّ العلج علي كان قد انتزعها منه كما حدث في الجزائر، كما تأسست شركة دي نيكول في 1591م وبعدها بسنة تأسست شركة أخرى في مرسيليا لصيد المرجان في تونس[1].

ومن مظاهر استغلال الفرنسيين لمراكزهم التجارية في الجزائر متاجرتهم في سلع كانت إيالة الجزائر قد منعت تصديرها. فقد قام قائد الأسطول العلج مامي رايس في سنة 1595م باستيلاء على سفن تابعة للتاجر الفرنسي " توماس لانش " ،لأنّها قامت بعملية تهريب في منطقة عنابة[2].

إن الموقع الإستراتيجي لإيالتي الجزائر وتونس وكذلك توفر المواد الأولية في البلاد المغاربية دفع فرنسا بالاهتمام المنقطع النظير من أجل أن تستحوذ على خيراتها لذلك لم توفر أي جهد لأجل ذلك وما محاولاتها المستمرة والمتتالية إلاّ خير دليل على ذلك. عكس طرابلس الغرب التي يذكر الباحثون من بينهم سامح آلتر بقوله:" إنّ طرابس الغرب بالنسبة إلى تونس والجزائر بلاد فقيرة ..."[3]، لذلك لم يتوجه الفرنسيون إليها.

---

[1] درويش الشافعي، **العلاقات التونسية الفرنسية ما بين 1577 و 1685 (التميز والتنوع)** ، مجلة روافد للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والانسانية ، مج 4 ، ع 2، ديسمبر 2020، ص ص 346-348.

[2] مروش ، المرجع السابق، ص ص 276-277.

[3] التر، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية** ، تر: عبد السلام أدهم،ج1، ط1،دار لبنان،بيروت، لبنان 1969، ص 91.

5-3- تعيين قناصل بالجزائر وتونس:

سعت فرنسا منذ توقيعها لمعاهدة 1535-1536م مع العثمانيين إلى إيجاد سبل لتعيين قناصل لفرنسا في كل من الجزائر وتونس، وهو ما كان لها، فقد تم تسمية أوّل قنصل فرنسي بالجزائر وتعينه بتاريخ 15 سبتمبر 1564م ، وذلك لحماية مصالح التجار الفرنسيين الذين يتعرضون للقرصنة من قبل الجزائريين، لكنّ هذا القنصل لم يستلم مهامه، ولعلّ ذلك يعود لأسباب قد تتمثل في أن التجار الفرنسيين في الجزائر يرون أنّ مهنة القنصل انذلك كانت عبارة عن تاجر في ثوب دبلوماسي وهو ما قد يعطل من مصالحهم، إضافة إلى أنّه قد يكون هناك تخوف لهذا القنصل من الإقامة بالجزائر [1].

يبدوا أنّ هذا التخوف له مبرراته، فقد عارض الجزائريون بدورهم اعتماد هذا القنصل نظرا لأنّ معاهدة الامتياز نصت على أنّ كلّ الأوروبيين الذين ليس لهم أي قنصل في الموانئ العثمانية يدخلون آليا تحت وصاية القنصل الفرنسي، وهو ما يجعل وظيفة هذا القنصل واسعة الصلاحيات، وهي في هذه الفترة تجارية بالدرجة الأولى، لذا فقد راسلت الجزائر فرنسا من أجل توضيح وظيفة القنصل[2].

حاولت فرنسا التدخل لدى الدولة العثمانية وعملت على استصدار فرمان سلطاني بواسطة سفيرها في اسطنبول لتعيين قنصل بإيالة الجزائر، ولم يتم تعيينه إلاّ عام 1580م، وقبل ثلاث سنوات من هذا التاريخ استقبلت تونس القنصل الفرنسي سنة 1577م[3]، هذا الإهتمام نابع من الأهمية التجارية التي يمارسها الرعايا الفرنسيون في الجزائر وفي كامل السواحل الإفريقية، وهو ما يتضح من خلال رسالة اعتماد الملك شارل التاسع للقنصل

---

[1] وللمزيد ينظر: بركاهم دهان، **دور القناصل الفرنسيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية 1689-1789**،إشراف: براهيم سعيود، ماجستر تاريخ حديث، قسم التاريخ، جامعة غرداية، 2012-2013، ص 19.

[2] وللمزيد ينظر: قنان ،**معاهدات...** ، المرجع السابق ، ص 39-42.

[3] درويش الشافعي، المقال السابق، ص 347.

فانسون بيرطول[1]. وإذا ما نظرنا في بنود معاهدات الامتياز فإنّه كان لهؤلاء القناصل صلاحيات واسعة منها منح من يشاءون من رعايا السلطان أو الوالي جنسية بلادهم للعمل في الترجمة لديهم، فيكن إصدار براءة تعفي هؤلاء من دفع الضرائب أو الجزية، ولم يقف الفرنسيون عند هذا الحد بل وصل الأمر إلى أن اقترح الملك "شارل التاسع "، ملك فرنسا إلى السلطان العثماني " سليم الثاني" سنة 979هـ/1572م، عن طريق سفيره فرانسوا دي نوايل تعيين الدوق دان جويو أخ الملك شارل التاسع ليكون ملكا وحاكما على الجزائر، وقد استقبل البلاط العثماني هذا الاقتراح أو الطلب باللامبالاة لأنّهم يعلمون أنّ الجزائريين لا يمكن ابدا أن يقبلوا حاكما مسيحيا عليهم، وأوقع رجال السلك الدبلوماسي في دهشة وحيرة كبيرتين[2].

طرحت هذه المعاهدات في وقت مبكر اختيارات صعبة خاصة بالنسبة لإيالتي (الجزائر وتونس) في ظل الظروف المتوترة التي كانت تعيشها بلاد المغارب وما تعرفه من هجمات مستمرة من طرف الإمبراطورية الإسبانية[3].

لقد أبرم السلطان العثماني محمد الثالث الذي تولى الحكم ما بين(1595-1603م) معاهدة الامتياز مع الملك الفرنسي هنري الرابع سنة 1597م، وتم الاعتراف بالامتيازات الفرنسية بالجزائر، وممارسة التجار لنشاطهم الاقتصادي وهو ما أدّى إلى غضب الديوان في الجزائر، لذلك أمر الباشا خضير باي قسنطينة محمد بن فرحات بتحطيم وتهديم الباستيون الفرنسي في ساحل القالة، ولمّا علم السلطان العثماني بهذه الحادثة غضب على الباشا، وقام بتنحيته وتعويضه بالباشا " محمد قوصه " الذي قتل ليعوض هو الآخر بأخيه " مصطفى قوصه "، بعد ثورة الانكشاريين عليه، ويتم التخلي عن فكرة هدم الباستيون[4].

---

[1] جمال قنان ،**معاهدات**...، المرجع السابق ، ص 39.

[2] سامح التر ، المرجع السابق ، ص 241.

[3] جمال قنان ،**معاهدات**...، المرجعالسابق، ص 38.

[4] ابن العنتري ،المرجع السابق ، ص 33.

نستطيع القول أنّ نهاية القرن السادس عشر هي نهاية للحروب الكبرى باتجاه الشمال والأطلسي، وفي هذا السياق يبرر بروديل هذا الطرح بقوله: "... لن تعود الحروب الكبرى إلى المتوسط، لأنّه لم يعد قادرا على تحمل أعبائها ونفقاتها. فالحروب الكبرى اتجهت بعد معركة ليبانت نحو الشمال والأطلسي في نهاية القرن السادس عشر لتقبع طيلة قرون فيهما، حيث راح يخفق قلب العالم. هكذا بدأت في العام 1026هـ/1618م حرب الثلاثين سنة بعيدا عن البحر الداخلي (المتوسط) الذي لم يعد يخفق بعنف لأنّه فقد موقعه القديم كقلب للعالم كله "[1]، ويدعم ذلك برودال بقوله :" ... كان العثمانيون في الجهة الأخرى من المتوسط يديرون ظهورهم لهذا الأخير ويتجهون نحو الصراع مع إيران. لقد كانت الإمبراطوريتان تبتعدان عن المتوسط بالوتيرة نفسها، فيما كانت تدّق في قلب المتوسط ساعة تراجع الإمبرطوريات"[2].

لا أحد كان يستطيع التكهن بالمآل الأخير للمغالبة القائمة بين المسلمين بقيادة العثمانيين وأوروبا المسيحية بقيادة الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وبعدها إسبانيا التي ستتولى الموقف القيادي لأوروبا في النصف الثاني من القرن"[3]. ومن هنا نطرح السؤال التالي : كيف ستكون خارطة التحالفات في ظل هذه النتائج خلال القرن السابع عشر، وما مصير هذه التوازنات؟.

---

[1] فرناند بروديل ،المرجع السابق ، ص 154.

[2] المرجع نفسه ، ص 125، وللمزيد من التحليلات حول هذه المسألة ينظر: نخبة من الأكاديميين، **موسوعة تاريخ العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب**، ط1،المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، طهران، إيران، 2010، ص ص 266-269.

[3] شمس الدين الكيلاني، **الإسلام وأوروبا المسيحية من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن السادس عشر الحرب والسياسة .التجارة والثقافة**، مكتبة المهتدين، دمشق، 2007، ص ص 150- 151.

الفصل الثالث:

مصير التوازنات ببلاد المغارب خلال الفترة (1587- 1705م) - الثوابت والمتغيرات-

1- إيالات المغارب والباب العالي مظاهر التبعية وتجليات الإنفصال.
2- حركة الجهاد البحري المغاربي المشترك وردود الأفعال.
3- ثنائية المغارب أوروبا بين السلم والمواجهة.
4- صراع التحالفات بين دول المغارب أواخر القرن 17م مطلع القرن 18 م.

تمهيد:

منذ تولي العثمانيين الحكم في كل من إيالات الجزائر وطرابلس الغرب و تونس على التوالي سيطروا على مقاليد السلطة، إلاّ أنّ فترة آواخر القرن 10هـ/16م شهدت بعض الأحداث التي ستؤدي إلى تغيير على مستوى الأنظمة السياسية في هذه الإيالات كان أولّها قرار السلطان العثماني فصل الإيالات العثمانية عن بعضها في بلاد المغارب سنة 1587م لأسباب سنأتي على ذكرها، وكذلك الحال بالنسبة للمغرب الأقصى في ظلّ الحكم السعدي الذي شهد استقرارا بعد تولي أحمد المنصور الذهبي السلطة إلى غاية بداية العقد الثاني من القرن 11هـ/17م، رافق هذا الصراع الداخلي التنافس فيما بينهم و الذي كان في بعض الأحيان في شكل تحالفات وتكتلات سواء على المستوى الداخلي وحتى الأطراف الخارجية التي غذّت هذا الصراع بتحالفها ودعمها المباشر وغير المباشر لأحد الأطراف الفاعلة فيه، وفي المقابل كانت هناك بعض مظاهر التعاون المغاربي من خلال الجهاد البحري المشترك بين المغاربة ضد الدول الأوروبية، كما استمرت مظاهر الدعم والتعاون المغاربي مع الدولة العثمانية في صراعها ضد الأوروبيين. ومن خلال هذه الأحداث سنقف على بعض النماذج التي كان لها تأثيرات داخلية وخارجية. وعليه نطرح الإشكال التالي : هل كان التحالف المغاربي العثماني في القرن 16م ظرفيا أم استمر خلال القرن السابع عشر وحتى مطلع القرن الثامن عشر ؟ وما هي أهم المتغيرات والثوابت ؟

1- الإيالات المغاربية والباب العالي مظاهر التبعية وتجليات الإنفصال:

1-1- الجزائر:

كان النظام السائد في إيالة الجزائر كما أشرنا إليه سابقا هو نظام البايلربايات أو إمرة الأمراء إلى غاية أواخر القرن السادس عشر ميلادي حين تغير نظام الحكم بالجزائر، من

نظام البايلربايات إلى الباشاوات[1]، وفي حقيقة الأمر أنّ إلغاء النظام السابق كان لعدّة اعتبارات، إلاّ أنّه يعود بالدرجة الأولى إلى تخوف الدولة العثمانية من استقلال الجزائر عنها، بل إنّ حكم البايلرباي شمل أيضا إيالتي طرابلس الغرب وتونس، فالدول الثلاثة خضعت لسلطة شخص واحد يعينه السلطان العثماني، حيث كان ولاة البايرباي أقوياء وأصحاب نفوذ واسع تخطّت سلطتهم الجزائر إلى تونس وطرابلس الغرب بحكم أنّهم ساهموا بشكل كبير في تحريرهما وإلحاقهما بالأراضي التابعة للعثمانيين في بلاد المغارب، ليس هذا فحسب بل حتى مساهتمهم في انقاذ مسلمي الأندلس كما ذكرنا في الفصل الثاني، ولهذا كافأهم السلطان العثماني من خلال منحهم امتيازات واسعة من بينها تعيين باشاوات تونس وطرابلس الغرب واختيار من يخلفهم في منصب البايلرباي عندما يتقرر رحيلهم أو تعيينهم في منصب آخر غالبا ما يكون أعلى من رتبتهم،وأحسن مثال على ذلك العلج علي، و بالرغم من أن فترة حكمهم غير محدودة بعدد معين من السنوات وهو ما انعكس على هؤلاء بأن أصبحوا ذو نفوذ واسع لدرجة أنّ الباب العالي بدأ يشك في ولائهم له، وبالتالي التمرد ومحاولة الانفصال عن العثمانيين والاستقلال بهذه البلاد، خاصة وأن المسافة كانت بعيدة بين الباب العالي والجزائر[2] هذا من جهة، ومن جهة ثانية تغير الأوضاع خلال هاته الفترة، إذ أنّ الدولة العثمانية شعرت بالضعف وتدهور أسطولها خاصة بعد هزيمة ليبانت سنة 1571م وانشغالها بالحرب مع الفرس، يضاف إلى ذلك تلاشي الخطر الإسباني على المغارب عامة و الجزائر خاصة، لأنّ إسبانيا هي الأخرى كانت منشغلة بالحرب ضد كل من فرنسا وهولندا وإنجلترا[3]، وترجع الباحثة عائشة غطاس توقيت قرار السلطات العليا في الدولة العثمانية في

---

[1] الباشا: أصله باش بمعنى الرأس و الرئيس باللغة التركية ، وهو أعلى لقب بين العسكريين والمدنيين في الإمبراطورية العثمانية، ينطر: نينل الكسندروفنا دولينا،المرجع السابق،ص174.

[2] يحي بوعزيز، **الموجز**...، المرجع السابق، ص ص 33-34.

[3] ارزقي شويتام، **نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م**، ط1، دار الكتاب العربي ، الجزائر،2011، ص 18.

استبدال النظام السابق إلى نظام الباشاوات لهزيمة العثمانيين في معركة ليبانت 1571م أمام التحالف المسيحي. وحددت فترة حكمهم بثلاث سنوات، ولم يستتب الأمر للباشوات في البداية نظرا للصراع بين الطائفة الإنكشارية والحكام الجدد للجزائر كان سببها الرئيسي مشكلة دفع الأجور[1].

1-1-1-الباشاوات :

يعتبر أحمد دالي أول باشا يتولى الحكم في سنة 1586م، حيث نجد أنه اهتم اهتماما كبيرا بالغزوات البحرية على السواحل الأوروبية، والدليل توليه قيادة المراكب بنفسه التي هاجمت شواطئ ممكلة نابولي، وصقلية، والدول البابوية وكورسيكا، وإسبانيا التي كانت في عداء دائم مع الجزائر ابتداء من مطلع القرن 10هـ/16م، وقد غادر الجزائر في سنة 1589م مستصحبا معه ثروة ضخمة، وتوجه إلى طرابلس الغرب التي كانت تشهد حالة من الفوضى والاضطرابات، قادها شيخ طريقة صوفية يدعى سيدي يحي، فانتصر جيش باشا الجزائر لكنّه قتل في المعركة[2]. وقد كان خليفته خضر باشا[3].

شهد النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي تضاعف عدد فرق اليولداش، لذلك أحسّ الانكشارية بزيادة قوتهم ونفوذهم، فانتشرت الخلافات فيما بينهم وكثرت أعمال السلب والنهب ضد السكان المحليين وطائفة الكراغلة، هاته الأخيرة التي يرجع أول تكتل لها

---

[1] غطاس، **العلاقات الجزائرية**...، المرجع السابق، ص 24.

[2] الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 139.

[3]خضر باشا: تجددت فترة حكمه ثلاث مرات من 1589-1592م، أخضع ثورة قبائل بني عباس نشط (القرصنة)الجهاد البحري ضد السفن الأوربية التي لا ترتبط بمعاهدة مع الجزائراتهم بالاختلاس فسجن إلى أن ظهرت براءته، وكانت الفترة الثانية أقصر من الأولى أي من 1595-1596م، عاد للانتقام من أعدائهواستعان بالأعراب على الجند التركي فاضطرت الأوضاع فعزله الباب العالي ، أما فترة حكمه الأخيرة فهيمابين(1599-1603م)، وخلال هذه الفترة وقعت خلافات بينه وبين فرنسا فقام بهدم مركزها التجاري القديم في القالة وسجن قنصلها ، ولأن فرنسا تربطها علاقات ومعاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية تدخلت لدى الباب العالي فأصدر هذا الأخير حكم الإعدام في حقه. ينظر: المدني ، **محمد عثمان باشا داي الجزائر**...، المرجع السابق، ص ص 32-33. وينظر أيضا: ابن المفتي، ،المصدر السابق، ص ص 44-45.

إلى عام 1596م، وذلك حينما حاول خضر باشا الاستنجاد بهم للقضاء على عصيان الإنكشارية، ومنذ تلك السنة أدرك الإنكشارية خطر الكراغلة عليهم، خاصة وأنّهم كانوا يمثلون نسبة لا بأس بها من مكونات الجيش البري، إضافة إلى أنّ أهل البلد كانوا سندا لهم لأنّ أمهاتهم من السكان المحليين و الذين حاولوا الاتحاد معهم من أجل انتزاع بعض الحقوق من الأتراك العثمانيين. ففي سنة 1629م نظموا تمردا ضد الإنكشارية محاولين طردهم من الجزائر، إلاّ أنّ رد فعل هؤلاء كان سريعا وحازما، واستطاعوا هزيمة الكراغلة وطردهم من مدينة الجزائر، وإحكام القبضة عليها فيما تفرّق الكراغلة عبر العديد من مناطق الجزائر، ولكنّهم عادوا مرة أخرى إلى مناطقهم بعد ثورة الإنكشارية في سنة 1633م وكان السبب مرة أخرة عجز حكومة الباشا عن دفع رواتبهم[1].

وفي خضّم هذه الأوضاع المتقلبة بين الباشاوات والرياس، فقد ثار هؤلاء ضد إبراهيم باشا(1656-1659م)، وقرّر الأوجاق الإستيلاء على مقاليد الحكم، فقد اتهموا نظام الحكم وعلى رأسه الباشا بحرمانهم من حقوقهم المتمثلة في المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضا عن خسائرهم في البحر الأدرياتيكي، ونهب المعاشات والضرائب، وهو ما دفع بالديوان إلى إلغاء امتيازات الباشا وبالتالي إلغاء نظام الباشوات، واتفقوا على إسناد السلطة التنفيذية للآغا[2] على أن لا تزيد مدة حكمه عن الشهرين ليعوضه آغا آخر، ولم يترك للباشا سوى اللقب الشرفي، كان ذلك في سنة 1659م[1].

---

[1] أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م**، رسالة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر ،إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، 2005-2006، ص ص 26-27.

وينظر: طاهر تومي، **العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر على ضوء المصادر المحلية**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد القادر صحراوي، قسم العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 2014-2015م، ص ص 165-166.

[2] الآغا: مصطلح من أصل فارسي، ويعني السيد، وقد استعمله الأتراك لدلالات كثيرة، منها الضباط الأميين مثل الإنكشارية الذين لا يحتاج عملهم إلى معرفة القراءة والكتابة وأيضا تعني صاحب المنصب الكبير، وفي الفترة الأخيرة من

استمرت فترة حكم الباشاوات ما بين (990هـ/1069هـ/1587-1659م)، إذ لا يعرف عددهم بدقة، حيث اختلف المؤرخون والباحثون في هذه الفترة في عددهم وفي أسماء بعضهم، وفترات حكمهم، إلاّ أنّ البعض ممن كتب عنهم يشير إلى أنّ عددهم على وجه التقريب كان حوالي أربعين باشا، منهم من أتّم فترة ثلاث سنوات في الحكم، ومنهم من مات أو عزل أو قتل قبل نهاية فترة حكمه، وقليلون فقط هم الذين تولوا الباشوية فيها مرتين أو ثلاثة[2].

ومن خلال تتبعنا و سردنا للأحداث خلال فترة الباشاوات، يمكن القول أنّ حكم هؤلاء الباشاوات لم يكن إلا استمرارا لنظام البايلربايات، ويكمن الاختلاف فقط في طريقة تعيين الحكام، إذ أنّ الرياس هم من كانوا يرشحون بايلربايا لتولي السلطة، والسلطان العثماني يقوم بالمصادقة على التعيين، أماّ الباشوات فكانوا يعينون من السلطان مباشرة من استانبول ولمدة ثلاث سنوات[3].

1-1-2-نظام الأغوات:

استمر الصراع في إيالة الجزائر، وأصبح أكثر حدة من ذي قبل والدليل هو أن فترة حكم الأغوات هي من أقصر فترات الحكم العثماني في الجزائر، إزداد فيها الوضع سوء أكثر من ذي قبل لكثرة الإغتيالات، حيث نجد أن كل الأغوات اغتيلوا ابتداءا من خليل آغا(1659-1660م)،ثم رمضان آغا (1660-1661م)، إلى شعبان آغا (1661-1665م)، وأخيرا علي آغا(1665-1671م)، إضافة إلى المؤامرات التي كانت تغذى من طائفة رياس البحر

العهد العثماني أصبح يطلق على الإنسان الكريم، صاحب المكانة العالية. ينظر: سهيل صايان، المرجع السابق، ص ص 15-16.

[1] محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 66-67، وينظر: يحي بوعزيز ، **الموجز** ...، المرجع السابق ، ص 42.

[2] عمار بن خروف، **العلاقات بين الجزائر والمغرب 923-1069هـ/1518-1659م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة دمشق، 1983، ص 63، وينظر: محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث، المرجع السابق، ص 64.

[3] أرزقي شويتام، **المجتمع الجزائري وفعالياته** ...،المرجع السابق، ص 25.

التي لم تعد تقدم أي دعم إقتصادي لطائفة الإنكشارية[1]، فقد شهدت هذه الفترة نوعا من تقلص نفوذ السلطان العثماني و غياب السيادة العثمانية بالجزائر، إضافة إلى اشتداد الغزو الأوربي للبلاد و تحفز رياس البحر باستمرار لاستعادة السلطة منهم و تصارعهم فيما بينهم[2]. وقد وصف الباحث " منور مروش" فترة حكم الأغوات بقوله: " إنّ نوع من الجمهورية العسكرية المنبثقة مباشرة من جماعة الإنكشارية الذي أقيم سنة 1658-1659م وقد استمر هذا النظام إلى سنة 1671م في شبه فوضى مستمرة تتخللها انقلابات عسكرية دامية لم يكن قادتها يتحلون بمقدرة سياسية إلا نادرا"[3].

1-1-3-الدايات:

من أسباب سقوط نظام الأغوات سياسة علي أغا(1665-1671م) آخر الآغوات فقد قام بعقد صلح مع فرنسا و إطلاق سراح الأسرى الفرنسيين و هذا ما أغضب طائفة رياس البحر، ما أدّى بالديون لإلغاء نظام الأغوات و استبداله بنظام الدايات[4]، إلى جانب هذا لم تكن الجزائر بمنء عن ما كان يحدث في تونس وهو ما سنتناوله في المطلب الموالي، التي كانت هي الأخرى تحت السيادة العثمانية،حيث ظهر نظام الديات بمظهر جيد تحسن خلاله الوضع بتونس، لذلك قرّر الجزائريون قبول هذا النظام الجديد مع شرط أن يبقى الديوان مع بقاء الباشا أمير الأمراء و لكن بدون أي عمل[5]، و بعد تأسيس طائفة رياس البحر لهذا النظام كان الحكام الأربعة الأوائل من الطائفة البحرية لأنّها كانت أقوى من طائفة الإنكشارية، فأوّل داي حكم الجزائر هو الحاج محمد باشا (1671-1682م) الذي اشترط

---

[1] الطائفة الإنكشارية : وتعنى القوات الجديدة ، مصدرها الدرويش حاج بكتاش ولي ، وهي فيالق عسكرية تكونت من أبناء رعايا الدولة الذين تم جمعهم مابين السادسة والخامسة عشرة من عمرهم من مختلف الولايات العثمانية في أوربا،أنظر :سهيل صابان،المرجع السابق،ص41.

[2] بوعزيز، **الموجز**...، المرجع السابق، ص44.

[3] مروش، المرجع السابق، ص 330.

[4] المدني ،المرجع السابق، ص41.

[5] التر، المرجع السابق، ص405.

لقبول تولي حاكم الجزائر الحصول على سلطة مطلقة[1]، إلاّ أنّه كان شيخا كبيرا ترك أمور الدولة إلى صهره بابا حسن الذي أدخل تعديلات، و بفضله أصبح رجال السياسة لهم دور كبير في تسيير شؤون الدولة[2]. ولعلّ من أبرز الدايات الذين سعو إلى توحيد كل دول المغارب خلال العقد الأخير من القرن 17م/11هـ مثلما كان عليه الحال في عهد الموحدين وحتى في علاقاته مع الأوروبيين خاصة فرنسا هو الداي شعبان خوجة دولاتي، فقد تولى الحكم في 24 ذي الحجة 1101هـ-1690م والذي يعتبر من أكبر قادة الجيش البري[3].

وقد أورد الدكتور أبو القاسم سعد الله وصفا له في كتابه "أبحاث وأراء" نقلا عن التونسي أحمد برناز(1664-1727م) صاحب " الشهب المحرقة لمن ادعى الاجتهاد لولا انقطاعه من أهل المخرقة" وهو من معاصري الداي شعبان فقد وصفه بأنه كان ظلوما للناس ومع ذلك كان يكثر من قراءة القرآن، حتى أن المصحف لا يكاد يفارق يده، وأمّا شيمه فكانت التواضع، وكان آمنا في داره فلا يوجد عند بابه سوى شيخ نصراني يقضي حوائجه ويخبره بالقادم إليه، وكان الباشا قد حفر قبره أثناء حكمه، وكان كثير البكاء و كثير الصدقات على الفقراء، وكان ديدنه جمع المال[4] . ويعلّق الباحثان صحرواي عبد القادر، ومحمد عطية على هذا الوصف في مقال بعنوان" مشروع توحيد الإيالات المغاربية في عهد الداي شعبان 1688-1695م" بأن هذه الصفات التي أوردها صاحب "الشهب المحرقة" أحمد برناز هي صفات تحمل الكثير من التناقض، أي أنّه كيف يجتمع في قلب وعمل رجل الظلم وحب جمع المال من جهة والمداومة على قرءاة القرآن الكريم والاهتمام بالآخرة[5]، وفي الحقيقة يبدوا

---

[1] مروش، المرجع السابق، ص 336.

[2] عباد، المرجع السابق، ص139، وينظر: ابن المفتي ، المصدر السابق، ص 55.

[3] منور مروش، المرجع السابق، ص 338.

[4] سعد الله أبو القاسم، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج2، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2007، ص 326.

[5] عبد القادر صحراوي و عطية محمد، " **مشروع توحيد الإيالات المغاربية في عهد الداي شعبان 1688-1695م**"، مجلة الحوار المتوسطي، ع 15-16،مارس 2017، ص 550.

هذا النقد منطقي نظرا للحال الطبيعية، ولكنّ الدكتور أبو القاسم سعد الله من جهته يؤكد بأنّ أحمد برناز صوّر لنا الجانب غير المشرف من تاريخ هذا الداي لأسباب مجهولة، إلاّ أنّه هذا لا يمنع من أنّها قد تكون الحقيقة نظرا لأنّ معظم الباشوات قد ساروا في نفس النهج من خلال الاستيلاء على السلطة بالعنف وظلم الناس وجمع المال مع التظاهر بالتدين، وهي صفة حكام الجزائر في العهد العثماني على حد تعبير أبو القاسم سعد الله.

على غرار باقي الباشوات وقبلهم الآغوات لقي الداي شعبان نفس مصير أغلب حكام الجزائر، بعد سجنه لمدة عشرة أيام[1] وتعذيبه لأجل تكتمه عن المكان أموال الخزينة،فقد عوقب ضربا ب 800 ضربة، وكان قد اشترط عليهم مقابل ذلك بأن يطلقوا سراحه ويختار هو وعائلته مكان يلجأ إليه، فاستجابوا لطلبه، لكنّ الباشا الجديد أسرع للتخلص منه فخنقه في السجن ليلقى حتفه في يوم 15 أوت من سنة 1695م[2].

ويستشف ممّا ذكر بأنّ الجزائر دخلت في مرحلة جديدة من الحكم أو نظام سياسي جديد يحاول التخلص من التبعية إلى الدولة العثمانية والاستقلال في تسيير البلاد داخليا وحتى في علاقات الجزائر الخارجية، رغم أنّ الفترات التي سبقت نظام الدايات كانت هناك بوادر تجلت من خلال بعض المظاهر لاتخاذ هذا النهج، فالجزائر صارت قوة إقليمية ودولية في المتوسط، فهل يتفكك التحالف العثماني مع الجزائريين، أم هي مجرد محاولات إنفرادية لا تؤثر في مسار العلاقات الجزائرية العثمانية؟.

1-2-تونس:

يبدو أنّ حالة الفوضى وعدم الاستقرار على مستوى السلطة لم تقف عند الجزائر فحسب، بل انتقلت إلى تونس التي كانت تعتبر إقليما تابعا لإيالة الجزائر بعد سنة 1574م لأنّ هذه الأخيرة كان لها الفضل في تخليصها من الإسبان وضمّها لممتلكات الدولة العثمانية

---

[1] وقد ذكر أنّ أيام سجنه دامت 15 يوما ، ينظر: أبو القاسم سعد الله، **أبحاث وأراء**...، المرجع السابق، ص 327.

[2] Gammont, **Histoi**r…,op.cit, p266.

كما أسلفنا الذكر، وكان يحكمها الباشاوات المعينيين من طرف السلطان العثماني، فمنذ ذلك الحين حاولت الجزائر باستمرار أن تجعل هذه التبعية حقيقية وملموسة، ولكنّ التونسيين رفضوا ذلك، واعتبروا أنّ تونس مثل الجزائر تتبع رأسا للعثمانيين إلى أن قام ديوان الأوجاق بالتمرد على الجزائر، ففي ذي الحجة من 999هـ/ 1590م أصبحت البلاد تتبع الخلافة العثمانية مثلها مثل الجزائر وطرابلس الغرب[1]هذا من جهة، ومن جهة أخرى لعلّ السبب الرئيسي في تغيير النظام الذي دام قرابة ستة عشر سنة يكمن في سلوك الضباط الذين اتخذوا من سلطتهم المطلقة في البلاد ذريعة للفساد والطغيان، فابتعدوا بتصرفاتهم عن كل مبادئ الحق والعدالة وهو ما عجّل بوقوع فتنة داخلية ثار من خلالها الجيش على ضباط البولكباشية الذين لم يعد الأهالي يطيقون أعمالهم، فهاجم الجند القصبة وقاموا بتكسير أبوابها ونهبوا مخازن السلاح، وبمساعدة شخص يدعى "طبال رجب" كان يعمل وكيل الخرج- أي وزير البحرية وصاحب عتاد الجيش، فقد كان من بين مدبري هذه المؤامرة حين غاب عن الديوان في ذلك اليوم من أجل تسهيل عملية التمرد، وهو ما تم فعلا ونجح الثوار في القضاء على الضباط وإزاحتهم من الحكم، وتمكنوا من السيطرة على القصبة، ولم ينج منهم إلا ثلاثة، ورميت جثث وأشلاء القتلى في ساحات القصبة، لجعلهم عبرة لكل من يتسلط ويستبد[2].

1-2-1- فترة حكم الدايات:

بعد نجاح الانقلاب في تونس ظهرت سلطة عسكرية وصفت " بالديمقراطية العسكرية" إذ انقسم الجيش إلى مجموعات ترأس كل واحد منها داي منتخب، ليتشكل الديوان وتصبح بذلك القرارات داخل المجلس جماعية، إضافة إلى أن التمثيل أصبح قاعديا، ليجتمع هذا المجلس المتكون من الباشا وأربعين دايا وانتخبوا من بينهم إبراهيم رودسلي(1590-

---

[1] يحي بوعزيز، **الموجز**...، المرجع السابق، ص 51.

[2] ألفونص روسو، المرجع السابق، ص 106.

1592م) الذي كان أكبرهم سنا، وجعلوه حاكما على تونس، والملفت للنظر هو أنّ هذا الداي بدأت صلاحياته تتجاوز مهام الباشا ليصبح الحاكم الحقيقي في تونس[1]، من خلال هذه الأحداث عرفت الإيالة نوعا من الاستقرار النسبي.

تولّى حكم الإيالة بعد إبراهيم رودسلي الذي ذهب إلى الحج ولم يعد، موسى داي في سنة 1001هـ/1592م، حيث أراد هذا الأخير أن ينفرد بالسلطة، إلاّ أنّ واقع تونس كان مليئا بالإضطرابات خلال هذه الفترة فلم يتحقق له مراده فكان مصيره نفس مصير الداي السابق، إذ طلب الإذن بالحج بسبب خوفه على حياته، فكان له ذلك، وهو أيضا لم يعد للبلاد بسبب أنّ الدايات طلبوا منه عدم العودة، بعدها استقر الحكم لعثمان داي في سنة 1598م، بعد صراعه مع بعض الإنكشارية أبرزهم صفر داي الذي فرّ إلى الجزائر[2].

اعترف الباب العالي بعثمان دايا على تونس، وأرسل العثمانيون باشا اسميا فقط بدون سلطة، وقد بذل الداي الجديد جهدا كبيرا لتعمير البلاد، وأيضا بما أصدره من قوانين منظمة لشؤون الرعية وكذالك ما بذله في سبيل تسهيل استقرار مهاجري الأندلس، ودامت فترة حكمه حوالي 12 سنة أي ما بين (1598-1610م)، فبداية عهده كانت تعبّر حقيقة عن مرحلة جديدة سيطر فيها الدايات سيطرة مطلقة على الوضع في تونس.

بعد وفاة عثمان داي خلفه في الحكم يوسف داي (1610-1631م) الذي استقر له الأمر ،ففي عهده اشتد الخلاف على الحدود بين الجزائر وتونس، كما استطاعت هذه الأخيرة استرجاع جزيرة "جربة" من ولاة طرابلس الغرب[3].

ولقد استمر حكم الدايات إلى غاية منتصف القرن 11هـ/17م بفضل حنكتهم وتسييرهم لشؤون الإيالة، فقد برعوا في السياسة على غرار الإسط مراد(1637-1640م) وكان مملوكا

---

[1] دلندة الأرقش وآخرون، مرجع سابق، ص 57، وينظر: شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص 353.

[2] ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص ص 190-191.

[3] شوقي عطا الله الجمل ، المرجع السابق، ص109.

جنوي الأصل، وبعده أحمد خوجة (1640-1647م)، من خلال اتباعهم لسياسة حازمة فعملوا على حماية أعيان البلاد، وكذلك دافعوا عن مصالح الرعايا من تجاوزات الباشا وتمكنوا من فرض الأمن والإستقرار في البلاد، كما ازدهر نشاط الجهاد البحري في هاته الفترة، ومن الناحية الشرعية الدينية فقد حرص الدايات على إقرار نظام المدينة الإسلامية، وهذا ما زاد من تقدير الرعية لهم[1].

1-2-2- فترة حكم البايات المراديين:

إنّ أوّل من سمي باسم الباي القائد رمضان وهو من الأعلاج جاء من الجزائر، حيث شغل بها مناصب عديدة، وانتقل إلى تونس وتحصّل على رتبة الباي، ونظير جهوده وحسن تدبيره علت رتبته، وتخرّج من مماليكه عدة رجال أخذوا المناصب في حياته وحملوا هذا الإسم قبل مماته، من بينهم مراد باي[2] ورمضان باي وحسن باي، وآخرون، ولعلّ مراد باي أعلاهم همة وأبعدهم صيتا، فكان فيه زيادة حذق وقوة علم بسياسة الرعية وتدبيرها، و ينطبق ذلك حتى على الجانب الاقتصادي، فقد عمل على جباية الأموال وتحصيلها، واستخلف سيده بل واستولى في حياته على الولاية[3].

وبعد وفاة سيده في سنة 1613م تخلص من منافسيه إلى أن تمكن من شغل وظيفة الباي، وسيطر على شؤون تونس، ونجح في أن يظفر من الخلافة العثمانية بمنصب الباشا

---

[1] A.Masmoudi et M. Smida, **Tunis au XVI de la chute des Hafsides a Linstllation des turcs**, societe tunisienne de diffusion, Tunis, 1983, p 37.

و ينظر: محمد الهادي شريف، تاريخ تونس، المرجع السابق، ص ص 72- 73.

[2] مملوك من أصل كورسيكي، أسر صغيرا وجاءوا به إلى تونس ، فاشتراه رمضان باي ورباه ودربه على قيادة المحلة الخاصة بجمع الضرائب، ينظر: محمد الهادي شريف، المرجع السابق، ص 77. وكذلك، محمد بن الخوجة، **صفحات من تاريخ تونس**، تق: حمادي الساحلي و الجيلاني بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 ، ص ص 52-53.

[3] محمود مقديش، المصدر السابق، مج2، ص ص 97-98.

فتحوّل النفوذ من يد الداي إلى الباي، بل وورث ذلك لأبنائه من بعد وفاته، لذلك يعتبر مؤسس الأسرة المرادية التي حكمت تونس[1].

تقلّد حمودة باي منصب الباشا بعد وفاة والده في سنة 1631م، حيث طلب اللقب من الدولة العثمانية، فحصل عليه وأصبح يخاطب في الفرمان " بالباشا بن الباشا" وما زاد من شهرته الحد من الفوضى والاضطرابات المتواصلة من قبل القبائل داخل البلاد التونسية، كما قلّص من نفوذ الدايات متبعا في ذلك نهج والده، فحصر سلطتهم في الشؤون العسكرية بل ووصل الأمر به إلى نفي بعضهم وإغتيال البعض الآخر[2].

استمر المراديون في سياسة إقصاء وملاحقة الدايات خلال عهد مراد باي الثاني (1659-1675م) ، ومن مظاهر ذلك خلعه للداي مصطفى كوز وتنصيب الحاج محمد أغولو مكانه، وفي سنة 1671م زجّ بالداي في ظلام السجن، ليستقر في قصر باردو كحاكم البلاد الوحيد[3].

بلغ الصراع أشدّه بين المراديين والدايات، ففي أفريل 1673م استغل الدايات خروج مراد باي الثاني بالمحلة إلى دواخل البلاد للانقضاض على السلطة، وقاموا بتعيين محمد آغا بايا والحاج علي لاز دايا، كما لاحقوا أنصار المراديين وصادروا أموالهم مستنصرين بقبائل المثاليث وأولاد سعيد الذي كانوا في خلاف حاد مع المراديين، وفي آخر المطاف قضى مراد الثاني على هذه الحركة في واقعة الملاسين في 2 جوان 1673م[4].

شهدت الفترة بعد وفاة الباي مراد الثاني سنة 1086هـ/1675م صراعا داخل الأسرة المرادية، فقد ترك مراد باي ثلاثة أبناء: "محمد"، و"علي"، و "رمضان"، وكان له أخ يدعى "

---

[1] الجمل ،المرجع السابق ، ص109.

[2] رشاد الإمام، **سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م**، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، دكتوراه في الفلسفة، لبنان،د.ت.ن، ص 50.

[3] نفسه.

[4] دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 60.

"محمد الحفصي"، فقد آلت السلطة إلى إبنه الأكبر محمد، وهو ما لم يتقبله عمه محمد الحفصي، فبادر هذا الأخير إلى تأليب وإغراء إبن أخيه علي ليقف ضد أخيه، واتفق معه على أن يدلي بأن عمه هو الأحق بالعرش لكبر سنه، ووعده بأن يتنازل له عن السلطة فيما بعد، وتمت المؤامرة بمساعدة الداي " مامي جمال" الذي اتفق مع الأعيان وجمع أفراد الأسرة المرادية لأجل النظر في الخلاف، وانتهوا إلى قرار خلع الباي محمد ومبايعة عمه محمد الحفصي حاكما على الإيالة التونسية[1].

أصبحت الأمور في غاية التعقيد بين أفراد الأسرة المرادية وازدات هوة الخلاف خاصة بين الأخوين الشقيقين محمد وعلي أبناء مراد باي، إلى أن تدخلت الجزائر في عديد المرات لحل هذا النزاع، بل وإن الجزائر كانت طرفا فيه على حسب "ألفونس روسو" وغيره، والجدير بالذكر أن الدايات استغلوا هذه الصراعات من أجل إستعادة مكانتهم، خاصة مع تولى أحمد شلبي منصب الداي، وهو ما قد يشكل خطر يهدد كيان الأسرة المرادية، هذا الوضع دفع للصلح بين الشقيقين اللذان اتفقا على اقتسام السلطة في الإيالة التونسية، واتجها إلى العمل على التخلص من الداي أحمد شلبي الذي صار عدو لكليهما، وما زاد من تلك العداوة أنّه نصب بايا جديدا يدعى محمد مينوط[2].

تدّخلت إيالة الجزائر من جديد في الصراع التونسي من خلال دعم المراديين ضد الداي أحمد شلبي المساند من طرف الدولة العثمانية، وتواصل المدد من الجزائر برا وبحرا تلبية لدعوة الأخوين، وهو ما ساعد في وقوع الداي شلبي في قبضة المراديين والجزائريين، لينتهي هذا السجال بإنفراد محمد باي بالسلطة بعد مقتل أخيه علي باي في سنة 1096هـ/ 1685م[3].

---

[1] الباجي المسعودي، المصدر السابق، ص 226.

[2] روسو، الحوليات التونسية، المرجع السابق، ص ص 134-136.

[3] محمد مقديش، المصدر السابق، ج2، ص ص 131-132، وينظر: دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 61.

وما يستشف من خلال سردنا لهذه الأحداث هو التحول في طبيعة العلاقات المغاربية العثمانية، فالجزائر وتونس أصبحتا لا تأتمران بأوامر الباب العالي خلال هاته الفترة.

يشير بعض الباحثين إلى أن مساعدة دايات الجزائر للبايات المراديين لم يكن إلاّ للمصلحة، وممّا يفسره غزو الجزائر لتونس في نوفمبر من سنة 1694م وأيضا في شهر جويلية من سنة 1695م لإعادة الدايات الأتراك إلى السلطة، رغم أنّها لم تفلح في هذا المسعى، وسنعرج على هذا التدخل الجزائري ضمن ما سنتاوله حول مسألة التحالفات في بلاد المغارب أواخر القرن السابع عشر مطلع القرن الثامن عشر.

اضطربت الأوضاع في البلاد التونسية سنة 1699م بسبب ثورة مراد الثالث(1699-1702م) على عمّه رمضان(1692-1699م)، إذ لم يستطع الباي مراد الثالث إعادة الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي في الإيالة، إضافة إلى أن سيرة هذا الأخير وفترة حكمه كانت أكثر دموية، وهو ما جعل الأهالي ناقمين على النظام المرادي، ليتمكن في الأخير إبراهيم الشريف[1] من القضاء على الباي المرادي في جوان من سنة 1702م، وسرعان ما أخذ مقاليد السلطة، محاولا إعادة الامتيازات التي تمتع بها الدايات الأتراك من قبل، لكنه وجد معارضة شديدة من قبل الرعية، الذين أعلنوا الثورات والانتفاضات ضده هذا داخليا. أمّا خارجيا فقد وجد نفسه في صدام مباشر مع إيالة الجزائر كانت نتيجته الهزيمة مع أسره وسقوط نظامه في شهر جويلية من سنة 1705م[2].

---

[1] إبراهيم الشريف: ضابط تركي أرسله مراد باي في سنة 1113هـ/ 1701م إلى إستانبول لجلب مرتزقة أتراك من أجل إعداد جيش لمحاربة الجزائريين، من المرجح أنه قدم من استانبول إلى تونس بإيعاز من الباب العالي لأجل إنهاء حكم الأسرة المرادية المناهضة للعثمانيين في أواخر عهدها ، و هو ما تم، بحيث استغل الصراع والانقسام بين أفراد الأسرة المرادية وأصبح حاكما للإيالة التونسية، دامت فترة حكمه ثلاث سنوات. للمزيد من المعلومات حول فترة حكم إبراهيم الشريف، ينظر: ألفونص روسو، المرجع السابق، ص ص 149-157.

[2] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق ، ص ص 80-81.

3-1- طرابلس الغرب:

تميزت فترة أواخر القرن السادس عشر بالفوضى والاضطرابات في الإيالة الطرابلسية ففي سنة 980هـ/1577م شهدت منطقة فزان ثورة ضد الحكم العثماني قادها أحد الزعماء المحليين يدعى المنتصر، وبعد وفاته واصل ولده عصيان النظام وامتنع عن دفع الضرائب فالانكشاريون أساءوا المعاملة مع الأهالي وتسلطوا عليهم، وفي هذا يقول ابن غلبون:" وتغلب الجند على أمر البلد فلم يكن لواليها من قبل السلطان تصرف، واضطرب أمرها وفسد نظام الملك وكثر الهرج في الرعية..."[1]، إلاّ أنّ السكان المحليين لم يستسلموا للأمر الواقع، فكلّما قضى الأتراك العثمانيون على انتفاضة، ظهرت ثورة جديدة في مكان آخر، من أبرزها هذه الثورات نجد ثورة يحي بن يحي السويدي[2]في تاجوراء خلال سنة 996هـ/1588م وكانت ردا على المذبحة التي قام بها الأتراك في حق مجموعة من الحجاج[3].

نجح السويدي في إثارة القبائل المحلية ضد الحكم التركي،وتمكن مع الثوار من هزيمة جند الترك في منطقة مسلاتة، وقتلوا منهم نحو الألف، بل ووصل به الأمر إلى حصار طرابلس، إلا أنّ الدولة العثمانية تمكنت من قمع حركته نهائيا في سنة 998هـ/1590م، حين

---

[1] محمد بن خليل غلبون الطرابلسي، المصدر السابق، ص 99، وينظر: النائب الأنصاري، **نفحات النسرين** ،المصدر السابق، ص 44.

[2] يحي بن يحي السويدي: ويعرف أيضا في بعض المصادر والمراجع بيحي بن سليمان، أظهر هذا الرجل العلم والورع قدم من المغرب وقيل أنه من عرب بلدة تاجوراء، تزعم الثورة التي اندلعت في سنة 966هـ (1587-1588) بتاجوراء على المذبحة التي قام بها الأتراك لمجموعة من الحجاج، بايعه أهل تاجوراء سرا ، كان لسنا فصيحا جواد مقداما. وذكر أيضا أنه إدعي بأنه المهدي. للمزيد حول تمرد هذا الأخير وتمرد الإنكشارية. ينظر: شارل فيرو، مرجع سابق، ص ص 131-133. وينظر: اتوري روسي، **ليبيا**...، ص 239، وينظر أيضا: محمد بن خليل غلبون الطرابلسي، مصدر سابق، ص 101.

[3] نيكولاي إيليتش بروشين، **تاريخ ليبيا في العصر الحديث من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين**، ، تر و تق: عماد حاتم، ط2، دار الكتاب الجديدة المتحدة ،بيروت، لبنان، 2001، ص 52. وكذلك ،اتوري روسي، **ليبيا**...، المرجع السابق، ص ص 238-239.

تم اغتياله خلال المعركة، واستمرت حركته إلى غاية سنة 1592م، وفي نهاية المطاف أعيد فرض النظام في الإيالة من جديد[1].

لم يكن الولاة[2] الذين خلفوا درغوث رايس في مستواه، فهذا الأخير يعد من قادة العصر الذهبي لطرابلس الغرب خاصة بل وفي بلاد المغارب عامة، إذ بدأ النظام العثماني في البلاد يتدهور ولعلّ الملاحظ في هذا الصدد، هو أن الدولة العثمانية غيّرت الولاة في كثير من المرات كما يجرى به العمل في الإيالات الأخرى، وسبب ذلك خشية العثمانيين من تفكير الولاة في الانفصال بالإيالات عن مركز الخلافة في إستانبول، إلاّ أنّ هذا التغيير المستمر كان له عواقب سلبية في الإيالة، تمثلت في توسع نفوذ جنود الإنكشارية واستبدادهم بالأمر لذلك اضطر الولاة لإسترضائهم، فكانوا يعتبرون أنفسهم طبقة في أعلى الهرم متميزين عن غيرهم[3]. وعليه يمكن اعتبار الفترة الممتدة ما بين(1595-1606م) فترة تمهيدية ساعدت ديوان الانكشارية على تجريد الوالي من أي سلطة فعلية[4]. فبداية من مرحلة الوالي إبرهيم باشا الذي تولى الإدارة في سنة 1595م محاولا تجنب إثارة الخلاف مع الديوان منصرفا إلى جمع المال، وفي حال تصرفه بما لا يرضي الديوان يطلب منه مغادرة الإيالة[5].

---

[1] فاضل بيات،**الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا(مطلع العهد العثماني- اواسط القرن التاسع عشر)**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت،2007، ص ص 562-563.

[2] وللمزيد من المعلومات حول ولاة طرابلس الغرب بعد درغوث باشا ينظر: محمود ناجي، **تاريخ طرابلس الغرب**، تر: عبد السلام ادهم ومحمد الإسطى، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ليبيا، 1970م، ص ص150-152.

[3] الجمل، المرجع السابق، ص ص 131-132.

[4] إنّ إزاحة الوالي الموفد من السلطان العثماني يصفه بعض المؤرخين بالانقلاب العسكري في إيالة طرابلس الغرب.

[5] محمود علي عامر، محمد خير فارس ، المرجع السابق، ص 186.

1-3-1- عهد الدايات :

تأثر الانكشارية في طرابلس الغرب بما سمعوه عن التغييرات الإدارية في الإيالة التونسية وما حققته هذه الطائفة من مكاسب نتيجة مشاركة أفرادها في الحياة السياسية والإدارية[1]، فسعوا إلى إتباع هذا النهج، وأخذوا يتولون إدارة البلاد من خلال ديوانهم بعدما وضعوا نظما وقواعد على الفائز بثقة الديوان الإلتزام بها منعا من حدوث اضطراب أو شغب، كما حددت مهمة الوالي المعين من استانبول، ونصت النظم التي وضعوها على انتخاب رئيس ديوان الجند لمدة ستة أشهر وأن يلقب الشخص الفائز بثقة الديوان باسم الداي[2].ومن جهة أخرى لم تكن لدى الباب العالي آنذلك القوى الكافية للسيطرة على طائفة الإنكشارية في طرابلس الغرب وقبلها في تونس، ومنها لضبط تحركات الداي الذي تختاره الانكشارية، لكنّ هذا لا يعني على الإطلاق أن العثمانيين كانوا ينوون إطلاق يد نظام الدايات في التصرف أو إعطاءه الاستقلالية التامة عن الخلافة العثمانية، لأنّ هذا سيكون بداية لنهاية الوجود العثماني في المغارب بل وفي الحوض الغربي من البحر المتوسط، لذلك اشترط العثمانيون منذ الوهلة الأولى أن تكون سلطة هؤلاء الحكام المحليين منظمة[3] و غير مطلقة، فمن خلال تعرضنا لأهّم الدايات سنتعرف على مظاهر هذه التبعية.

1-3-2- الداي سليمان:

اختلفت الروايات في فترات حكم بعض الدايات وحتى حول إسم أوّل داي لطرابلس الغرب، فمنهم من يروي بأنّه كان سليمان داي ومنهم من يشير إلى أنّ الداي سليمان يكنى بصفر، وقد أثار أيضا هذه المسألة شارل فيروا، إذ يقول في هذا الصدد:" وتختلف الروايات المحلية حول إسم هذا الداي الأول ويبدوا أنها جعلت من شخصية داي واحد شخصيتين،

---

[1] علي مسعود البلوشي، **تاريخ معمار المسجد في ليبيا في العهدين العثماني والقرمانلي 1551-1911 نشأة ونمو وتطور انماط المساجد الليبية**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس ، ليبيا، 2007، ص ص 35-36.

[2] محمود علي عامر، محمد خير فارس ،المرجع السابق ، ص 187.

[3] بروشين، المرجع سابق، ص 59.

هما صفر داي وسليمان داي الذي اعتبر خليفة له... وتقول بعض الروايات الأخرى أن سليمان داي قد خلف صفر داي في سنة 1020هـ/1610م..."[1]. وهو على ما يبدوا ينتصر لرواية ابن غلبون الذي يرجح بأنّهما نفس الشخص، فالعوام كانوا يطلقون على سليمان صفر داي لأنّه بويع في شهر صفر، ولكن بدون تعليل[2]، وهو ما يرجحه الكثير من المؤرخين والباحثين من بينهم" الطاهر أحمد الزاوي في كتابه " ولاّة طرابس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي"[3] . وكذلك أتوري روسي.

نال الداي سليمان ثقة الديوان، حيث يعتبر أوّل إنكشاري ترأس ديوان الجند في إيالة طرابلس الغرب. ورغم هذه الثقة إلا أنه لم يكن يريد الإلتزام بقرارات الديوان ونظامه، ولكن أعضاء الديوان علموا نواياه، فطالبوه بالتخلي عن منصبه أو الالتزام بالنظام لأجل منع إثارة الفتن والاضطرابات بعد أن استقرت الأوضاع في البلاد، ونتيجة ذلك تأزمت الأمور، وفي خلال المناقشات التي دارت في قاعة المجلس كادت تتحول إلى صدام مسلح بين أعضاء الديوان وأنصار الداي سليمان ومؤيديه[4].

استمرت منطقة تاجوراء في الانتفاضات والقطيعة مع الحكام الأتراك، ومن مظاهر هذه الفترة خلع أهلها البيعة عن الداي سليمان ومبايعة رجل يدعى أويس، وساندتهم قبيلة بنو رقيعة، وهو ما جعل الداي سليمان يخرج في جيش كبير لقتالهم و القضاء على هذا التمرد، فضرب عليهم حصار طويلا إلاّ أنّ الجيش الإنكشاري وجد مقاومة عنيفة ولم يستطع إلحاق الهزيمة بهم، ليضطر الداي إلى الاستعانة بالمرابط سيدي محمد الصيد اليحياوي طالبا منه العمل على إحلال النظام في المنطقة وإقناع أويس أبي الهاجدي بالعودة إلى جباله، وهو ما

---

[1] شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص 139-140.

[2] المرجع نفسه، ص 139.

[3] الطاهر أحمد الزاوي، المرجع السابق ، ص 84.

[4] محمود علي عامر و محمد خير فارس ،المرجع السابق، ص 187.

تم بعد تسلم هذا الأخير لبعض الهدايا[1]، وفي رواية أخرى تمّكن الإنكشارية من التغلب على المتمردين بعد أن أوقعوا الشقاق بين أعيان تاجوراء وشيوخ الرقيعات، ممّا دعى إلى انسحاب بنو رقيعة وهو ما ساهم وسهّل لدخول الجند إلى البلد وإخضاع سكان تاجوراء بعد أن قتل منهم عددا كبير وفرضوا عليهم دفع الاتاوات[2]. وكذلك الحال بالنسبة لإمارة فزان التي امتنعت عن دفع الإتاوات وأعلن حاكمها الاستقلال عن الإيالة في سنة 1613م [3].

وأثارت الأحداث التي كانت تجري في الإيالة الطرابلسية اهتمام الباب العالي، وتربص العثمانيون بالداي لأجل الإطاحة به، ونظرا للشكاوى المتواصلة من السكان المحليين ضد سياسة صفر داي، وحتى من بعض جند الانكشارية الناقمين على الوضع، أرسل السلطان العثماني أسطولا بقيادة الأميرال خليل باشا كان ذلك في سنة 1614م، ومن خلال الرسائل المتبادلة بينهما تم استدراج صفر داي إلى السفينة وصدرت فتوى بإعدامه مشنوقا على أبواب القلعة أمام الجميع، كما صودرت ممتلكاته وتم تحويلها إلى أوقاف أميرية[4].

بعد النهاية المؤسفة للداي سليمان (صفر) تقاسم السلطة في إيالة طرابلس الغرب الباشا العثماني وديوان الأعيان حتى سنة 1624م حين استطاع مصطفى شريف وهو أحد أعضاء الديوان وكان من الأغنياء أن يجمع كل السلطات في يده، فقد عرفت هذه المرحلة اضطرابات وثورات من القوى المحلية من القبائل الداخلية بسبب الضرائب المفروضة، إذ تمكن الداي مصطفى شريف من إخضاعها والسيطرة عليها، وهو ما أكسبه ثقة وتأييد الوالي العثماني حسن باشا، إلاّ أنّه قتل في سنة 1630م[5].

---

[1] شارل فيرو، المرجع السابق، ص 140.

[2] ابن غلبون، المصدر السابق، ص 102، وينظر: بروشين، مرجع سابق، ص 60.

[3] بروشين، المرجع السابق، ص 61.

[4] بروشين، المرجع السابق، ص ص 61-62، وينظر: محمود علي عامر و محمد خير فارس ، المرجع السابق، ص190، وينظر أيضا : الطاهر أحمد الزاوي، المرجع السابق، ص 170.

[5] علي مسعود البلوشي، المرجع السابق، ص ص 37-38.

1-3-3- محمد باشا الساقزلي[1] :

تعدّ فترة محمد باشا من أكثر الفترات هدوءا واستقرار في كل الجوانب الأمنية والإقتصادية، إضافة إلى تشجيعه النشاط البحري لدرجة أنّ بعض المؤرخين قارنها وشبهها بفترة حكم درغوث باشا، وأعلن ولاءه للباب العالي وأرسل هدايا ثمينة وباهضة للسلطان مراد الرابع(1623-1640م) الذي منحه لقب باشا، فيصبح أوّل من تحصل على لقب داي وباشا في نفس الوقت، وبعد ذلك ألغى الديوان وقضى على المتمردين من أمثال " ابن موسى" و " احمد بن عبد الهادي" و" الطاهر بن المنتصر"، ومن أجل حماية سلطته قام بتنظيم الإيالة تنظيما إداريا وماليا محكما لم تعرف الإيالة مثله، كما أولى الداي اهتماما خاص بالجيش، فعين خادمه الأمين عثمان نائبا له على قيادة الجيش، وأشرف بنفسه على تنظيمه وحدد له الرواتب وأنزل عقوبات صارمة بطواقم السفن المهملة، وقام بتشكيل قوات عسكرية إضافية سماها" الرديف" وهي تتألف من الأهالي والعبيد وكلفها بحفظ الأمن، ولأنّ القبائل البدوية كانت دائما في صراع مع السلطة، فقد عهد إلى زعمائها مهمة تنظيمها[2]، وأوكل المناصب المهمة إلى كثير من المسيحيين الذين اعتنقو الإسلام حديثا، وهو ما أزعج ضباط الإنكشارية القدامى، وحتى الأهالي لم يتقبلوا هذا الإجراء[3]. إضافة إلى سخط السكان عنه بسبب ميله الشديد والعلني للفرنسيين وسماحه بممارسة البعثات التبشيرية لنشاطاتها الدينية بشكل واسع، كما اتهموه بمخالفة أوامر الباب العالي[4]. فدبروّ مؤامرة ضدّه من أجل قتله، فكان أن اشتروا

---

[1] محمد الساقزلي: ساقس نسبة لساقس وهي جزيرة نصرانية مشهورة من جزر الروم، وهو نصراني انتقل إلى الجزائر وأسلم واشتغل بغزو السواحل الأوربية وأتى إلى طرابلس أيام رمضان داي .ينظر: ابن غلبون الطرابلسي، المصدر السابق، ص 105. وينظر: الطاهر أحمد الزاوي، المرجع السابق، ص 177.

[2] محمود علي عامر و محمد خير فارس ، المرجع السابق، ص 195. وينظر: البلوشي، المرجع السابق، ص 38.محمود ناجي ، المرجع السابق، ص 154.

[3] كوستا نزيو برنيا، **طرابلس من 1510 إلى 1850، تعر: خليفة محمد التليسي**، ط1،الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1985م، ص 133.

[4] محمود علي عامر و محمد خير فارس ، المرجع السابق، ص196.

طبيبه الإفرنجي، فدس له السم في تفاحة وأغلقت عليه الأبواب في قصره إلى أن توفي سنة 1649م ودفن في مقبرة درغوث باشا[1].

1-3-4- عثمان باشا الساقزلي:

يذكر أنّه كان من أقارب[2] الحاكم السابق وهو خادمه كما أسلفنا الذكر، ونظرا لخدماته وخبرته التي اكتسبها من محمد باشا، لم يختلف عليه أحد من الأهالي والجنود، فاتفق أعيان المدينة على تعيينه دايا للإيالة، فراسل السلطان محمد الرابع في طلب الإمارة فتم له ذلك وأصبح واليا ودايا في نفس الوقت وهذا يخول لها صلاحيات واسعة، وقد أولى اهتمامه بالأعمال البحرية، حيث بلغت قطع الأسطول أربع وعشرين قطعة، فعمّ الرخاء نتيجة الغنائم الوفيرة، وأعاد النظر في قرارات سلفه خاصة في مسألة الضرائب، وفي مقابل ذلك ضيق على الناس في الميدان التجاري[3]. عرفت نهاية فترة حكمه تدهورا خاصة في الإدارة والنواحي المدنية والعسكرية، وبلغت الأزمة في البلاد ذروتها، وهو ما ألّب عليه الرعية واستمرت ولاية عثمان باشا الساقزلي مدة أربعة وعشرين سنة، وهو أمر غير مسبوق و لم يحدث في كل الإيالات المغاربية وكانت وفاته في سنة 1672م[4].

وفي خلال الفترة ما بين (1673-1687م) حكم طرابلس الغرب خمسة عشر دايا وباشا وكان الديوان قد عيّن بالي شاوش دايا جديد خلفا للداي عثمان، ويبدوا أنّه وبهذا التعيين بدأ يضعف نظام الدايات لأنّ الدولة العثمانية أرسلت خليل باشا كوالي للإيالة، وبالتالي أصبحت وظيفتا الداي والباشا منفصلتين عن بعضهما البعض[5] بعد مدة نصف قرن

---

[1] ابن غلبون الطرابلسي، المصدر السابق، ص 107.وينظر :محمود ناجي ، المرجع السابق، ص 154.

[2] ومن المؤرخين والباحثين من ينفي صلة القرابة بينهما. ينظر:محمود ناجي ، المرجع السابق، ص 154.

[3] وللمزيد من أعماله خلال فترة حكمه ينظر، ابن غلبون اطرابلسي، المصدر السابق، ص ص 109-111.كوستا نزيو برنيا ، المرجع السابق، ص ص 150- 162.

[4] كوستا نزيو برنيا ، المرجع السابق، ص ص 154-155.

[5] علي مسعود البلوشي، المرجع السابق، ص 40.

من توحيد سلطة الداي والباشا خلال فترة حكم محمد وعثمان باشا الساقزلي وهي مرحلة القوة بالنسبة لنظام الدايات، إلا أنه وبعد تولي محمد باشا شائب العين الحكم ما بين (1687-1701م) وهي فترة نوعا ما تعبر عن الاستقرار فقد تمكن من فرض النظام على الأقل مقارنة بالسنوات السابقة ما جعل السلطان العثماني مصطفى الرابع (1695-1703م) يمنحه لقب الباشا نظير جهوده، وهكذا مرة أخرى يجمع الداي بين الوظيفتين[1].

يعتبر محمود أبو مويس آخر دايات طرابلس، فقد انتخب من طرف الديوان، وفور توليه المنصب عمل على فرض الأمن والاستقرار، اشتهر خلال فترة حكمه الضابط أحمد القرمانلي الذي بدا للداي بأنّه خصما عنيدا له، فدبّر مؤامرة للتخلص منه، وكلّفه مهمة تأديب مدينة غريان، إلاّ أنّ القرمانلي تفطّن للأمر وجمع العساكر من حوله وأخبرهم بنوايا محمود أبي مويس، فتمردوا على الداي وخلعوه من منصبه وأرادوا قتله، لكنّه أفلت منهم، فنادى الجند بالقرمانلي دايا على البلاد وهو ما رحّب به الأهالي لأنّه يعتبر من نسبهم[2]. ونشير هنا إلى أنّ الثورات والانتفاضات التي قامت ضد الدايات من قبل الأهالي مردّها إلى عاملين أساسيين هما :

- اعتبار أن الحكام ليسوا من أهل البلد.
- ظلم وفساد هؤلاء الحكام.

إنّ واقع الإيالات المغاربية في القرن 17م هي أوضاع مشابهة نوعا ما مع الأوضاع الحاصلة دوليا، فالأنباء القادمة من إستانبول من فوضى سياسية وصراع على الحكم وثورات داخلية وحرب على الحدود هي نفسها أو تكاد تشبهها وبشكل طفيف هي نفسها ما يحدث في الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط من انتقال وتطور في الحكم تارة بقوة السلاح

[1] كوستا نزيو برنيا ، المرجع السابق، ص 175 . وينظر: علي مسعود البلوشي، المرجع السابق، ص ص 41-42.
[2] محمود علي عامر و محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 206.

وتارة ديمقراطي، وكل هذه التطورات الحاصلة في العالم إنّما تدل على إختلال في موازين القوى وتعبر عن بداية ظهور قوى عالمية جديدة وتراجع أخرى[1].

و من خلال سردنا لهذه الأحداث يتبين لنا بأنّ مسألة درجة ولاء إيالات الجزائر وطرابلس الغرب وتونس للسلطان العثماني في فترة آواخر القرن السادس عشر ومطلع القرن الثامن عشر متوافتة على الأقل من خلال تصرفات حكامها في الشؤون العامة الداخلية، فالملاحظ لعلاقات هذه الإيالات بالدولة العثمانية يرى بأنّها لم تصبح مثلما كانت عليه في الفترة الأولى من الحكم العثماني في بلاد المغارب، فيمكن اعتباره شبه انفصال عن الباب العالي وفي هذا الصدد يقول اتوري روسي:" وهكذا أخذت تضعف باستمرار العلاقات بين طرابلس والقسطنطينية، وبين القسطنطينية والجزائر وتونس، حيث سيطر القواد وأخذوا يتنازعون السلطة، ويستقلون بها كما لو كانوا في أرض منقطعة عن الحكومة المركزيةوكانوا يتصرفون تصرف الملوك المستقلين، ويعقدون الاتفاقيات مع الدول الأخرى. وذلك يفسر تلك التسمية التي أطلقها الأوربيون على هذه المقاطعات (Reggenez. Remi) (الممالك البربرية) "[2]، ويضيف قائلا: " ... بعد أن كان الحكام والولاة يعينون من القسطنطينية، أصبحوا يختارون اختيارا حرا من قبل الأهالي وكثير ما يحصل هؤلاء الدايات والبايات على اعتراف القسطنطينية ... وقد تدخلت الآستانة في بعض الحالات لفض النزاع المحلي، وفرض الوالي الذي تعينه..."[3]، ولعلّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: هل انعكست هذه الصورة على علاقات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ببعضها البعض، ومع المغرب الأقصى، إضافة إلى علاقاتها بالدول الأوروبية؟ وهل استمرت هذه الإيالات في دعم الدولة العثمانية خاصة

---

[1] مصطفى بن عمار، **التحول السياسي في الجزائر العثمانية(1710-1830م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: فلة موساوي القشاعي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2015-2016، ص 19.

[2] اتوري روسي، **ليبيا منذ الفتح العربي...**، المرجع السابق، ص 257.

[3] المرجع نفسه، ص 258.

عسكريا؟ وهل انعكست هذه الأحداث على صراع التحالفات في بلاد المغارب سواء داخليا أو ضد الأوروبيين؟. وهو ما سنتعرف عليه ضمنيا من خلال عناصر هذا الفصل.

2- حركة الجهاد البحري المغاربي المشترك:

إنّ الباحث في مظاهر التعاون العسكري في إطار الجهاد البحري(القرصنة) بين دول المغارب خلال القرن 11هـ/17م ضد الأوروبيين يجدها امتداد واستمرار لما كانت عليه منذ انتصاب الحكم العثماني في الجزائر وطرابلس الغرب وتونس، وحتى المغرب الأقصى الذي لم يكن تابعا للدولة العثمانية. ولكنّ الملاحظ هو تحول الصراع القائم في بلاد المغارب من صراع إمبراطوريات ودول في شكل حملات عسكرية كبيرة بين العالم المسيحي الأوروبي بقيادة الإمبراطورية الإسبانية والعالم الإسلامي بقيادة الخلافة العثمانية في الحوض الغربي من المتوسط إلى صراع قراصنة لأسباب مختلفة. وفي هذا الصدد يقول الباحث الساحلي أوغلي:" كانت القرصنة في القرن السابع عشر متفشية بين دول البحر الأبيض المتوسط... وكان قراصنة طرابلس الغرب وتونس والجزائر يسطون على سواحل أوروبا الجنوبية وعلى السفن الغربية دون تفريق. وكان هؤلاء أيضا يردون الفعل بالفعل ويعتدون على السفن العثمانية وعلى سواحل بلاده..."[1].بالرغم من أنّ البحرية العثمانية بدأت في التراجع من حيث القوة العسكرية منذ نهاية القرن 16م وخاصة بعد هزيمة ليبانت 1571م ، ولم تتدخل في معارك بحرية كبرى إلاّ أنّه ظلّت هناك غارات بحرية سريعة و التي كان يقوم بها رجال البحر في وكان لها أثرها في بث الرعب لدى السفن الصليبية بل ذهبت حتى لفتح جزيرة كريت خلال النصف الأول من القرن 11هـ/17م وبمشاركة سفن إيالات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب في كل تلك الغارات، فقد مثّل التنافس والصراع في جزيرة كريت خلال القرن السابع عشر مظهرا من مظاهر الصراع الإسلامي المسيحي من خلال التحالفات، حيث

---

[1] خليل ساحلي أوغلي، **من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، بحوث ووثائق وقوانين**، مركز الأبحاث والفنون الإسلامية ، استنبول، 2000، ص 331.

يعتبر فتح جزيرة كريت من أهم الفتوحات العثمانية في أوروبا، فمشاركة المغاربة في المعركة لعب دورا هاما فيه في مواجهة القوات الأوروبية المتحالفة المدافعة عن الجزيرة، ففي ظلّ الحصار العثماني طلب الصدر الأعظم أحمد كوبورلي من حكام الإيالات التونسية الجزائرية، والطرابلسية بمؤازرة فعّالة لفتح ميناء كاندي بجزيرة كريت، وهو الميناء الذي حضر من أجل فتحه الصدر الأعظم شخصيا كان ذلك في شهر فيفري 1667م، وهو ما استجاب له حكام الإيالات المغاربية، فأرسلت إيالة طرابلس الغرب دعما حربيا تمثل في 6 سفن تمكنت في طريقها من الاستحواذ على سفينة أوروبية[1].تمكن العثمانيون من فتح الجزيرة رغم استمرار حصار العثمانيين للجزيرة لأكثر من سنتين بسبب الدعم الكبير من الأوروبيين خاصة من فرنسا وإنجلترا، والنصارى بصفة عامة[2]. فقد كانت المساعدات الأوروبية عبارة عن 15 سفينة فرنسية ، 9 بابوية 7 مالطية و 4 بندقية[3]. هذه الصورة توضح بأنّ العامل الديني لعب دورا مهما في تشكيل التحالفات.وما يهمنا من خلال هذ الصراع معرفة مظاهره وتطوراته وانعكاساته في بلاد المغارب.

2-1-الظروف الممهدة للصراع:

مع حلول القرن 17م بدت مظاهر تحولات في الشأن السياسي والعسكري والاقتصادي سواء في الضفة الشمالية[4] والجنوبية كما أسلفنا الذكر من الحوض الغربي للبحر المتوسط،

---

[1] شارل فيرو، المرجع السابق، ص 166.

[2] محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 298.

[3] يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص ص 511-512.

[4] تمثلت في ظهور إنجلترا وهولندا في أوائل القرن (11هـ/17م) كقوتين بحريتين معاديتين لإسبانيا أدى هذا إلى حدوث تطورات في موازين القوى والتحالفات السياسية وفي الوقت الذي عمدت فرنسا إلى التحالف مع إسبانيا لمواجهة الحركة البروتستانتية وشعرت الدولة العثمانية بأنّ التحالف الفرنسي أصبح قليل الفعالية، عمدت إلى تكوين حلف مع إنجلترا إحدى أركان الحركة البروتستانتية في أوربا وذلك منذ عهد الملكة إليزابيث(966-1012هـ/1558-1603م) والتي عرفت بعدائها الشديد لإسبانيا. وبالتالي استغلال التنافس بين الأمم الأوربية لمواصلة الفتوحات العثمانية في القارة الأوربية وحتى استغلاله في التنافس في بلاد المغارب.ينظر: سمية محمد حمودة، **حركة الفتح العثماني في القرن (11هـ/17م) دراسة تاريخية حضارية**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 2006م، ص ص 54- 55.

إلاّ أنّ مسألة القرصنة بقيت ثابتة واستمر الجدال فيها وأخذت حيزا كبيرا في اهتمامات الباحثين والمؤرخين من الجانبين خاصة خلال هذا القرن.

إنّ الحديث عن الظروف التاريخية التي أفرزت ظاهرة القرصنة على امتداد سواحل المغرب الإسلامي كشكل من أشكال الدفاع الشعبي تارة، ومظهر من مظاهر الرفض الرسمي للهيمنة الأوروبية وتهديداتها في اختلال القوة تارة أخرى. ينبغي أن لا يخفى الوجه الآخر للقرصنة المتوسطية المتمثل في نشاط القراصنة الأوروبيين، كما وجب الإشارة إلى أنّ مسألة القرصنة لم تكن وليدة[1] ظروف الكشوف الجغرافية، والطرد الأندلسي[2] فحسب، بل هي امتداد لاحتكار حضاري وصراع عسكري تجلّت أبرز مظاهره خلال الحروب الصليبية المتوالية ابتداء من العصر الوسيط. ومن هذا المنطلق يمكننا التشديد على دور العامل الديني في تحريك الجانبين نحو الصدام، وكونه ظل عاملا في ذلك الاحتكاك حتى بداية القرن التاسع عشر[3]. وفي هذا الصدد يصف لنا جون وولف هذه الحرب بقوله:" ... وفي القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، حين كان الهلال يقف في وجه الصليب في البحر الأبيض ...، كان البحارة يحاربون إما باسم الصليب وإما باسم الجهاد. فهؤلاء فرسان القديس يوحنا نصبوا أنفسهم في جزيرة مالطا، وفرسان القديس ستيفان في توسكانيان بينما كان البحارة الخواص من المسيحيين قد تجندوا من قبل خلفاء الملك الإسباني وكذلك أمير

---

[1] يعود نشاط القراصنة الأوروبيين، إلى ستينيات القرن 13م، حين أغارت إسبانيا على مدينة سلا في المغرب الأقصى سنة 659هـ/1260م. ينظر : إبراهيم سعيود، **القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية انموذجا**"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، قسم التاريخ ، المركز الجامعي غرداية، العدد 11، 2011، ص 148.

[2] تعتبر مسألة الأندلسيين نقطة مهمة في بداية الصراع الأوربي وخاصة إسبانيا والبرتغال مع دول المغارب في مطلع القرن 16م، فقد تجدد الصراع الديني عقب صدور قرار الطرد النهائي والجماعي للأندلسيين في التاسع من شهر ديسمبر سنة 1609م، فكانت بذلك أكبر عملية طرد لهم، إذ لم يكن أمامهم مرة أخرى إلا الاستقرار ببلاد المغارب.

[3] محمد أمين: **القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر**، المجلة التاريخية العربي للدراسات العثمانية، ع21، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، سبتمبر، 2000م، ص 24.

مالطة...، ونفس الشيء يقال عن البحارة الذي انطلقوا من شمال افريقيا..."[1]. ويقول كورين شوفاليه في هذا الصدد أيضا:" القرصنة هي حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب ...، إذ بالنسبة للمسلمين فإنّ القرصنة قبل كل شيء هي شكل من أشكال الجهاد في البحر ولو أنّها تتخذ أحيانا طابع الحروب الصليبية من جانب المسيحيين"[2].

وفي ظلّ هذه المعطيات التاريخية رأينا كيف نشأت حركة دفاعية في بعض مدن الساحل الجنوبي للمتوسط لم يكن هدفها في البداية مهاجمة البلاد الأوروبية ونشر الدين الإسلامي وفتح بعض المناطق، بل اقتصرت على نوع من الغزو البحري[3]. فكانت بالتالي ردّة فعل طبيعية على الغزو الأيبيري لبلاد المغارب مطلع القرن السادس عشر والتي تناولنا أحداثها في الفصول السابقة. وفي هذا الصدد يذكر مؤرخ فرنسي يدعى "هانري غارو":" إن القرصنة الإسلامية المنظمة في البدء كدفاع مشروع للرد على الفرسان النصارى الذي ظلوا يتصرفون تصرفات الحروب الصليبية، قد تحولت في مملكة الجزائر إلى مؤسسة دائمة، وريعها يصب في ميزانية الدولة"[4]. وهنا يظهر أن القرصنة شكّلت عاملا مهما في تدعيم الاقتصاد والتجارة بالنسبة لدول المغارب، ولكن ستتناول هذه المسألة من الناحية السياسية والعسكرية بعيدا عن الميدان التجاري.

اتخذت مسألة القرصنة منحى آخر منفصلا عن الحروب التي تطرقنا إليها سابقا في القرن10هـ/16م، واتسعت أكثر هذه الظاهرة وتطورت عملياتها، وتعددت أقطابها واتجاهاتها،

---

[1] جون وولف، المرجع السابق، ص 179.

[2] كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص ص 49-50.

[3] يذكر بن خلدون بأنّ الأمم الأوروبية كان لها السبق في هذا المجال فيقول: " ... فقد كانت الروم والإفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت اكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم إلى ملك العدوة الجنوبية مثل الروم إلى إفريقية والقوط إلى النغرب أجازوا في الأساطيل وملكوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم أمرها..." . ينظر: ابن خلدون ,المصدر السابق، ج,1ص313.

[4] مولود قاسم نايت بلقاسم، المرجع السابق، ج1، ص 71.

وبالأخص خلال القرن السابع عشر الذي أطلق عليه" قرن القرصنة" وهي كما سمّاها الباحث منور مروش فترة "صعود القرصنة"[1].

ازدادت حدة اعتداءات وتحرشات القراصنة الأوروبيين على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط مع مطلع القرن السابع عشر بعد أن غير القراصنة الأوروبيون موانئهم في انجلترا وايرلندا، واتجه الكثير منهم إلى البلاد المغاربية عقب منع الملك "جيمس الأول" أعمال القرصنة والغارات البحرية، ومن مظاهر ذلك تعرض القرصان توماس مادوك في سنة 1631م لسفينة تابعة لمغاربة، وتمكن من الاستيلاء عليها وأسر ركابها وملاحيها ثم باعهم رقيقا في اسبانيا[2].

شهدت الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط هي الأخرى خلال القرن 11هـ/17م تطورات للخريطة الجيو-سياسية بتراجع الدور الإسباني على الساحة المتوسطية فاسحا المجال لظهور القوة الإنجليزية على مسرح الأحداث، والتي برز تفوقها في حوض المتوسط خاصة بعد سيطرتها على جبل طارق وميوركا، ليس هذا فحسب، بل ظهرت قوى أخرى إلى جانبها مثل هولندا السويد والدنمارك.ولعل التراجع الإسباني في العالم المتوسطي يعود بالدرجة الأولى إلى تحويل الإمبراطورية الإسبانية أنظارها شطر مستعمراتها في القارة الأمريكية، بسبب مصالحها الاقتصادية بصفة عامة وحجم مبادلاتها التجارية التي كانت أكثر نشاطا مقارنة بوضعيتها في بلاد المغارب[3].

---

[1] منور مروش، المرجع السابق، ص 301.

[2] إبراهيم سعيود، المقال السابق ، ص 150.

[3] ماتيوس أندرسون، **تاريخ القرن الثامن عشر في أوربا**، تعر: نور الدين حاطوم، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988، ص 271.

2-2- حركة الجهاد البحري المشترك الجزائري التونسي:

2-2-1- أسبابها:

اختلف الباحثون والمؤرخون حول طبيعة القرصنة، فمنهم من يجعلها عملا خاصا فرديا ومنهم من ينفي هذا الطرح، وعلى هذا يمكن تقسيم هؤلاء القراصنة إلى ثلاثة أصناف، أولّهم الذين كانت أعمالهم ونشاطاتهم البحرية تحت غطاء حكام الإيالة ومن الدولة العثمانية نفسها، وآخرين يأتمرون بأوامر حكام الإيالة التي يتبعونها فقط [1]، أمّا الصنف الأخير الذين كانت نشاطاتهم معزولة وفردية، أو بالاشتراك حتى مع قراصنة أوروبيين من جنسيات مختلفة[2] هدفهم واحد يتمثل في جمع الغنائم وخدمة مصالحهم الشخصية، ويتبين من خلال ذلك أننا أمام نوعين من الحروب البحرية، حرب نظامية وأخرى غير نظامية. ففي هذا العنصر نركز على الحملات البحرية التي كان منطلقها جهادي، وتأتمر بأوامر من الدولة العثمانية والإيالة المغاربية، مع التركيز أيضا على الجهاد البحري المشترك بين المغاربة[3].

بالرغم من انفصال تونس وطرابلس الغرب عن إيالة الجزائر في أواخر القرن 10هـ/16م وما كان له من تداعيات على المدى القريب، تمثّلت في الصراعات السياسة والعسكرية والتنافس، خاصة بين تونس والجزائر هذه الأخيرة التي تدخلت في الشأن التونسي في عديد المرات، إلاّ أن هذا القرار لم يؤثر في مسألة الجهاد البحري ضد الصليبيين والذي

---

[1] وهو ما يذهب إليه كورين شوفاليه بقوله:" ...ان القرصنة ليست عملا خاصا بل هي عمل الدولة...". ينظر: كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص 49.

[2] وفي هذا الصدد نورد ما ذكره سامح التر بقوله:" وكذلك فقد شوهد قراصنة إنكلترا وهولندا تعمل سوية مع قراصنة تونس والجزائر...كما سمحت حكومتا إنكلترا وهولندا لقراصنتهما بمهاجمة السفن الفرنسية ...: للمزيد ينظر: سامح التر، المرجع السابق، ص 375.

[3] يعود الفضل في التأسيس لهذا الغزو البحري (القرصنة) المشترك بين المغاربة في بداية العهد العثماني إلى الرايس درغوث إذ كانت ذات طابع مغاربي نظرا لمشاركة رياس البحر من مختلف الموانئ المغاربية. ينظر: منور مروش، المرجع السابق، ص 113.

كان على أشده خلال القرن 11هـ/17م، بل وتحول المغاربة من أسلوب الدفاع عن الأراضي المغاربية من المعتدين الأوروبيين إلى سياسة الهجوم على السواحل الأوروبية.

يعود هذا التناسق والتعاون بين الجزائريين والتونسيين إلى ثلاثة أسبباب من بينها:

_ الفرمانات الهمايونية المرسلة من الدولة العثمانية[1] والتي تدعو إلى إنهاء الخلافات وتوحيد الجهود والعمل من أجل أسر وإغراق السفن الأوروبية المعتدية، ومن هذا المنطلق فإنّه طيلة القرن 17م عمل كل مركز جهادي سواء الجزائر أو تونس على إرضاء الباب العالي من خلال توجيه حملات مشتركة على السواحل الأوروبية[2]، وفي نفس الوقت الدفاع على السواحل المغاربية. وبطبيعة الحال لأنّ المصير واحد، وبالتالي لا بديل عن الجهاد البحري المشترك الذي يمكن أيضا من إحلال بعض التوازن في القوى.

-إنشغال الدول الأوروبية بحروبها الداخلية والتنافس على النفوذ في البحر المتوسط خاصة فرنسا وإنجلترا وهولندا وجنوه[3].

- حاجة دول المغارب ككل إلى مداخيل، فالقرصنة مثلت نشاط اقتصادي هام يدر غنائم مختلفة ومتنوعة وضخمة تمول خزينة الإيالتين[4].وبما أن القرصنة كانت تزداد أهمية بالنسبة لإقتصاد دول الشمال الإفريقي فإن حكام الجزائر وتونس وطرابلس الغرب[5] قد دخلوا في

---

[1]ساهمت سفن إيالات الجزائر، تونس وطرابلس الغرب في الغارات الموجهة بشكل رئيسي ضد السفن التابعة لكل من فرسان مالطة، والبابوية وإسبانيا. ينظر: سمية حمودة، المرجع السابق، ص ص 199-200.

[2]Dan pierre,op.cit, pp31-32.

[3] شوقي عطاء الله الجمل ، المرجع السابق، ص 103.

[4] شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص 355.

[5] لقد كان عهد الداي مصطفى الشريف من أعظم الفتراتالتي نشطت فيهالبحرية الطرابلسية التي كان لها دور مهم في البحر المتوسط، إلى جانب تونس والجزائر وسلا وغدت تمثل تهديدا حقيقا لأساطيل أوروبا، كما عرف أيضا محمد الساقزلي أنه كان من كبار المغامرين في البحرن فقد شهدت الخزينة في عهدهنمو غير مسبوق، فقد دعموساهم في نشاط حركة الجهاد البحري للإيالة الطرابلسية ، وهو ما أدى إلى ارتفاع دخل الإيالة إلى نحو مائة وثمانين ألف دوكاتو كما بلغ عدد الأسرى خمسمائة شخص. وواصل على نهجه خليفته عثمان باشا الساقزلي وهو ما تطرقنا إليه آنفا. ينظر: محمد خليفة

تحالف مع الدول الأوروبية عبر استخدام بارع للتنافس فيما بينها. فالتحالف وعقد الصلح مع هذه الدولة الأوروبية أو تلك كان يؤدي في العادة إلى تقلص غنائم القرصنة وانخفاض واردات الإيالة. وعلى هذا فإنّ العلاقات السلمية مع الدول الأوروبية كانت حائلا دون النهب البحري ولهذا فكثيرا ما كان الرياس[1] يؤثرون على هذه العلاقات حالة الحرب التي تعود بالغنائم الكبر على الرغم ممّا في ذلك من أخطار.

– التطور الذي شهده المجال البحري خاصة السفن، ففي بداية القرن السابع عشر أخذ القراصنة المسلمون في الشمال الإفريقي يستخدمون المراكب ذات الشراع المربع، إذ أن الأوروبيين المستجدين على الإسلام قد علموهم فنا جديدا في إنشاء السفن والبحرية. وأدخل الانتقال إلى الزوارق الشراعية الخفيفة والسريعة انقلابا حقيقيا على نشاط القراصنة[2]. ولم تكن المراكب الشراعية تحتاج إلى أعداد كبيرة من رجال المجاديف أو إلى الإصلاح الدائم لها بالإضافة إلى ضروارات تزويد الأسرى بالمواد الغذائية والملابس. وانطلاقا من هذا كله كان يمكن للمركب أن يمكث في البحر الأبيض فترة طويلة وكان نتيجة ذلك أن صارت سواحل انجلترا وايرلندا والسفن التجارية لهذين البلدين هدف غارات القراصنة[3].

التليسي، **حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب**، ط3، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1997، ص ص 87-88.

[1] كان رياس البحر يقومون بمهمة تضفي طابع الشرعية لنشاطاتهم، حيث أنهم يتصرفون بالغنائم وفق ما ينظمه الأمير التابعين له. ينظر: جون وولف، المرجع السابق، ص 179.

[2] قامت البحرية التونسية باستبدال المراكب المستديرة التي يطلق عليها اسم "الجفون"، بمراكب ذوات المجاذيف، حيث أدخل هذا النظام في بناء المراكب بترسانات الجزائر من قبل، فبالتالي حذا التونسيون حذو جيرانهم الجزائريين في تبني هذا النظام. وكذلك الحال بالنسبة لطرابلس الغرب. ينظر: الفونص روسو، المرجع السابق، ص 115. وللمزيد من المعلومات حول موضوع تطور السفن خلال اواخر القرن 16 وبداية القرن 17م.ينظر: جون ولف، المرجع السابق، ص ص 180-183. وينظر: جان كلود زليتنر ، **طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا 1500-1795م**، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، 2001، ص 238.

[3] نيكولاي أبليتش بروشين، المرجع السابق، ص ص 88- 89.

يعتبر الكثير من المؤرخين بأنّ القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر الهجري[1] هو العصر الذهبي للجهاد البحري أو ما يسمى (القرصنة) بالنسبة للمغاربة وخاصة الجزائر وتونس، استنادا إلى نتائج وانعكاسات ممارسة هذه الأعمال البحرية[2]. ويشير "الأب دان" إلى أن البحارة الجزائريين شكلوا تحالفا مع جيرانهم البحارة التونسيين ضد البحارة المسيحيين الذين يعتبرونهم أعداء الملة، فعمل حكام الإيالتين على تبادل الدعم المادي والمعنوي لمواجهة القوى المسيحية في البحر المتوسط، وذلك من خلال تسخير وتجميع كل الإمكانيات والقدرات من أجل التصدي للأوروبيين وإلحاق الضرر بسفنهم، وعلى عكس الصورة النمطية السابقة، فقد كان هذا التحالف والتعاون القائم بينهما يدعوا إلى نبذ الفرقة و تغليب المصلحة العامة على المصالح الضيقة التي سببت لهممآسي وصراعات أدت إلى إضعاف قدراتهم فيما سبق[3].

2-2-2- مظاهرها وتداعياتها:

من أكبر المتضررين من عمليات البحارة الجزائريين[4] والتونسيين[1] سفن البندقية، فخلال الفترة ما بين سنتي 1611 و 1613م تمكن الجزائريون بالتعاون مع التونسيين من الاستيلاء

---

[1] وعرف أيضا فيما يخص نظام العلاقات الدوليةوالتي ظهرت بعدد من الخصائص التي ميزت شكله، وخلقت له أنماطا واضحة من التفاعل بين دوله حتى سمي " بنظام توازن القوة ". ينظر: لياس نايت قاسي و مليكة بلقاضي، **نظام توازن القوى في أوروبا بعد مؤتمر وستفاليا 1648**، مجلة الباحث، ع01، مج13، ص 08-29، المدرسة العليا للأساتذة الشيخ مبارك الميلي، بوزريعة، الجزائر، 2021، ص 13.

[2] شارل اندري جوليان، المرجع السابق، ص ص 355-356. وينظر: كورين شوفاليه، المرجع السابق، ص 5.

[3] Dan pierre,op.cit ,pp31-32.

[4] وإذا تكلمنا عن الجهاد البحري(القرصنة) بالنسبة للجزائريين بدون الإشتراك مع التونسسن والطرابلسيين والمغاربة، فيمكن اعتبار القرن السابع عشر ميلادي عصرا ذهبيا للقرصنة الجزائرية، فمدينة الجزائر هي المركز الجهادي الأول والأقوى في المغارب، أما بقية المراكز فهي ثانوية وتابعة لها منذ أن أصبحت الجزائر إيالة عثمانية. فقد شملت الأعمال البحرية لرجال البحر في الجزائر مجال البحر المتوسط كله، وامتدت إلى السواحل الشمالية لأوروبا، بل وصلت إلى البرازيل وأيسلندا والأرض الجديدة، ويذكر أنه في الفترة الممتدة بين 1621 إلى 1628م كان في الجزائر خمسة وعشرون الف اسير من مختلف الجنسيات. ينظر: خير فارس محمد، المرجع السابق، ص 92.

على سفينتين كبيرتين من سفن البندقية تقدر قيمتها ب 700 ألف قرش، في حين تذهب مصادر أخرى إلى أن حصيلة الغنائم خلال هذه الفترة كانت أكبر من هذه القيمة، فقد بلغت هذه الغنائم حوالي 36 سفينة مع أسر 694 شخص[2].

شهدت حدّة الصراع بين الطرفين وتيرة متصاعدة خلال الفترة (1621-1630م)، فقد تضرّرت البندقية بسبب غارات القراصنة التونسيين والجزائريين، ففي الأيام الأواخر من شهر جوان 1624 سيرت حملة تونسية جزائرية مشتركة مكونة من ست سفن حربية جزائرية " بقيادة مامي"، و سبعة سفن تونسية بقيادة "اسطا مراد" على قاعدة بحرية تابعة للبندقية، واستولن من خلالها على غنائم معتبرة قدرت بأكثر من 100 إيكو، وتمكنت من أسر حوالي 450 شخص كما استولت سفن الجزائر وتونس على قادسين من برشلونة محملين بقطع نقدية موجهة على السوق الفصلي الكبير المنعقد في صقلية، فقد ذكر شاهد عيان أن قيمة الغنائم ب 860 ألف كوروزودو[3]، وبعد هذه العمليات أرسلت البندقية مبعوثا إلى الجزائر وتونس للتفاوض من أجل عقد صلح، كما نهب الجزائريون مدينة سيرلونجا التابعة للبابا وأسر أكثر من 1500 شخص[4].

وفي خضم هذه الأحداث كانت أوروبا تشهد حرب الثلاثين عاما خلال الفترة (1618-1648م)[5]، و كانت الدولة العثمانية هي الأخرى في صراع وحرب مع إيران، حاولت أنظمة

---

[1] كان النشاط البحري للقراصنة التونسيين أيضا كبيرا خلال بدايات القرن السابع عشر حيث تمكنو في سنة 1616م من غنم أكثر من مليوني فرنك فرنسي من خلال اعتراض السفن التجارية المارسيلية. ينظر: روسو ، المرجع السابق، ص 118.

[2] المنور مروش، المرجع السابق،ص 314.

[3] كوروزداو: هي قطعة ذهبية برتغالية عالية القيمة. ينظر منور مروش، المرجع السابق، ص 318.

[4] المرجع نفسه، ص ص 317-318.

[5] إن التطورات السياسية في أوربا خاصة ما تعلق منها بالحروب الدينية وانعقاد مؤتمر وستفاليا في سنة 1648م الذي وضع حد للحروب الدينية، أحدثت تطورا ملحوظا في سبيل بناء النظام الأوربي القائم على مبدأ توازن القوى، وأسست لعلاقات أوربية أوربية قائمة على مبدأ المصالح والتموقع السياسي لا على أساس الانتماء الديني ، وبالتالي هذا يخدم المصلحة الإسلامية والمغاربية بشكل خاص. ينظر: لياس نايت قاسي و مليكة بلقاضي، المقال السابق، ص 24.

الدايات في الجزائر وطرابلس الغرب وتونس أن ترسخ استقلالها عن استانبول. فراحت تدعم علاقاتها مع الدول الأوروبية لتحقيق هذا الغرض ونتيجة لذلك فإنّ سياسة إيالات الجزائر وطرابلس الغرب وتونس، والتي كانت تحددها التصورات الاقتصادية الخاصة لهذه المناطق كثيرا ما تعارضت مع السياسة التي تطبقها الإمبراطورية العثمانية نحو نفس هذه الدول الأوروبية[1]، وعلى إثر ذلك خلا الجو لقراصنة الدول المغاربية وعلى رأسهم تونس والجزائر من جهة ضد فرسان مالطا وأسطول البندقية من جهة أخرى، هذه الأخيرة كانت ترى في تونس والجزائر أنهما تتبعان الدولة العثمانية، وأنهما كانتا تساهمان في كل المعارك البحرية كما كان الحال في القرن 10هـ/16م، وتلتحقان بالأسطول العثماني كلّما اقتضى الأمر، ففي سنة 1638م/1047هـ غارت سفن قراصنة تونس والجزائر على سواحل جزيرة "اقريطش"، فسبوا ونهبوا وولوا راجعين[2] ، كان ذلك في فترة حكم إسطى مراد، فقد خرجت حملة عسكرية متمثلة في ثمانية غلايط تونسية، وكذلك وردت ثمانية مراكب (غلايط) جزائريةبقيادة الأميرال الجزائري علي بتشين لمحاصرة عمارة البندقية[3] على ساحل البحر الأدرياتيكي، حيث عاثت هذه السفن السلب والنهب في سواحل البحر الأدرياتيكي مما دعى إلى خروج أسطول بندقي لمطاردة العمارة المشتركة الجزائرية التونسية بقيادة الأميرال كوبيللو، الذي قام بمهاجمة الإيالة التونسية واستحوذ على السفن المغاربية وقام بتحطيم الكثير منها[4]، وتمكنت بقية سفن الأسطول المشترك الجزائري التونسي من الفرار،وأخذوا الأموال والأسرى التي غنموها في تلك المعركة، وأرسوا بفالونا التابعة للأراضي العثمانية للاستراحة وفي هذا الصدد يذكر بن أبي دينار أنه: " ...في أوّل سنة من أيام اسطا مراد جاءت غلايط الجزائر إلى تونس وكان عددها ثمانية وسافرت مع غلايط تونس وهي ثمانية أيضا، انتصار السلطان في

---

[1] نيكولاي أبليتش بروشين، المرجع السابق، ص ص 90-91.

[2] خليل ساحلي أوغلي، المرجع السابق، ص ص 332- 333.

[3] ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 197.

[4] روسو، المرجع السابق، ص 120. وينظر: ساحلي أوغلي ، المرجع السابق، ص 333.

حرب ألونيه فحصرتها عمارة البندقية في مكان استحالة الخروج منها، وكان من رأيهم أنهم نزلوا إلى البحر باجمعهم ومن معهم من أسارى النصارى وأحرقوا الغلايط كلها وتوجهوا برا إلى قسطنطنية فأنعم عليهم السلطان بغلايط من عنده ورجعوا إلى بلادهم وكانت هذه الواقعة سنة ثمانية وأربعين..."[1]،ثم يبدوا انهم تعرضوا لملاحقة من طرف أسطول البندقيةالذي كان يتركب من 28 سفينة من نوع (Galleys) وسفينتين من نوع (Galleanes)، وتعرض المغاربة لهزيمة خسر على إثرها الرايس علي بتشين ثمان سفن من نوع الغاليات[2]، ومعهم جميع الأسرى النصارى[3].

وإذا سلّمنا بتحطيم عمارة الغزو المشتركة التونسية الجزائرية[4]، إلاّ أنّ التعاون الجزائري التونسي يثبت بأنّ المغاربة كانوا على دراية كبيرة بالمصير المشترك الذي يجمعهم هذا من جهة، ويتضح أيضا من خلال هذه الأحداث بأنّ المغاربة بإمكانهم العمل على تسيير حملات هجومية نحو السواحل الأوروبية[5]، وهو دليل على قدرة وقوة رياس البحر في هذه الفترة، ومن جهة ثانية ما تمثله قيمة هذه الغنائم من السلع والأسرى، وهو ما يعود بالفائدة على الخزينة الجزائرية والتونسية.

---

[1] ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص 197.

[2] جون ولف، المرجع السابق، ص 203.

[3] الملاحظ اختلاف الروايات بين المؤرخين المسلمين والمسيحيين، حيث يذهب بن أبي دينار إلى التأكيد على أن العمارة الجزائرية التونسية تمكنت من الفرار وأخذت كل الأسرى، أما الأب دان فيذهب إلى أن أسطول البندقية تمكن من تحرير جميع الأسرى من النصارى. ينظر: ابن ابي دينار، المصدر السابق، ص 223. وأيضا: Dan,op.cit.p31. ، وكذلك:ساحلي أوغلي، المرجع السابق، ص ص 333-334.

[4] روسو، المرجع السابق، ص 120.

[5] ومما وجب الإشارة إليه عملية التمويه، حيث كان البحارة التونسيين يحملون الراية الجزائرية للهجوم على السفن والسواحل الأوروبية التي هي على سلم مع تونس وفي حالة حرب مع الجزائر، أما البحارة الجزائريون فيحملون الراية التونسية للهجوم على سفن وسواحل الدول المسيحية التي هي على سلم مع الجزائر وفي حالة حرب مع مدينة تونس. وهذا بحد ذاته يثبت التنسيق والتعاون بين الجزائريين والتونسيين. ينظر: E.Rauad de Card,Traites de la France avec les pays de lAfrique du Nord (Algerie,Tunisie, Tripolitaine, Maroc), A-Pedone, edition, Paris , 1906, p117.

شهدت أساطيل دول المغارب تطورا ملحوظا كما أسلفنا الذكر، فقد بلغ أسطول البحارة الجزائريين خلال العقد الرابع من القرن 17م مستوى من الحداثة مكنهم من أن يجوبوا البحر المتوسط من البحر الأدرياتيكي إلى مضيق جبل طارق، بل ووصلوا حتى المحيط الأطلسي[1]، وما زاد من هذه القوة والفعالية هو أن البحارة الجزائريين كانوا يأخذون الاستراحة في سلا [2] بالمغرب الأقصى عند اتجاههم إلى المحيط، ويتزودون بالمؤن في حال اتجاههم نحو تونس[3]، ففي عهد الداي أحمد شلبي قدم مركبان من الجزائر، ونزل الجند الجزائريين بوكالة العطارين بمدينة تونس(تكلمنا عن ما تمثله الأهمية الاستراتيجية لتونس في الفصل الأول) للاستراحة حتى يتزودوا بمختلف ما يحتاجونه من المؤن والذخائر استعدادا لحملات جهادية جديدة ضد الصليبيين، وعلى السواحل الإيطالية خاصة[4] وعلى هذا يمكن اعتبار أن هذا الدعم المتبادل بين الطرفين يدخل في دائرة الجهاد المقدس وهو ماسمح بالمحافظة على الاستعداد الدائم للمواجهة من حيث العدة والعتاد[5].

استمرت الخرجات المشتركة للأسطولين الجزائري والتونسي خلال النصف الأول من القرن 17م، ففي سنة 1646م تمكّن عشرين قادسا من الجزائر وتونس من إلحاق أضرار جسيمة في كل الجزر التابعة للبندقية[6].

---

[1] جون ولف، المرجع السابق، ص 186.

[2] سلا: مدينة بناها الرومان وتغلب عليها القوط فتحها طارق بن زياد وبنيت هذه المدينة على شاطئ المحيط وهي ضمن مملكة فاس تبلغ المسافة بينها وبين الرباط ميل ونصف . أنظر حسن الوزان ، وصف إفريقيا ، المصدر السابق، ج1 ،ص 207 .

[3] Dan,op.cit.p32.

[4] محمود مقيدش ،المصدر السابق، ص 119.

[5] Dan,op.cit.p 32

[6] المنور مروش، المرجع السابق، ص 327.

2-3-حركة الجهاد البحري المشترك بين المغرب الأقصىوالجزائر:

لم يقتصر التعاون في الجهاد البحري المشترك ببلاد المغارب خلال القرن السابع عشر على الإيالات التابعة للدولة العثمانية (الجزائر وتونس وطرابلس الغرب) فقط، بل تعداه إلى مشاركة أبناء المغرب الأقصى الذي لم يكن يتبع الخلافة العثمانية، وقد تطرقنا فيما سبق إلى الصراع بين أتراك الجزائر والسعديين حكام المغرب الأقصى قبل سنة 1578م وما كان له من تداعيات.

2-3-1- قيام الدولة العلوية:

دخل المغرب الأقصى بعد وفاة المنصور السعدي سنة 1603م في أزمة ودوامة صراعات، حيث شهدت البلاد تنافسا حاد على السلطة ما بين أولاد المنصور[1]، أثرت على الوضع السياسي عموما وما كان له من تداعيات خارجيا، فقد انقسمت البلاد إلى وحدات صغيرة متناحرة فيما بينها[2]، وبحكم الجوار مع الجزائر حاولت هذه الأخيرة ربط علاقات مع أندلسي سلا الحاقدين على الإسبان والمعارضين للأسرة السعدية خلال هذا العهد[3]. فقد تمكنت الزعامات المحلية الدينية والعسكرية من فرض نفسها في ظل ضعف الحكم السعدي، فظهرت في الشمال الحركة العياشية[4]، وفي الوسط الدلائيين، وجنوبا ظهرت السملالية.

---

[1] قبل وفاة السلطان السعدي قام بتقسيم الأقاليم على أبنائه، فعين "أحمد المنصور" ابنه "أبا فارس" على السوس و"أبو عبدالله محمد الشيخ" تولى ناحية فاس والمولى "زيدان" على تادلا والمولى "أبو الحسن" عقد له مكناسة، اضطربت الأوضاع وظهرت الفتن وتنازع أبناء المنصور وحفدته على السلطة بعد وفاة "أحمد المنصور" فالمولى "زيدان" بويع في فاس وأخوه، "أبوفارس عبد الله" أعلن له ملكا على مراكش. وللمزيد ينظر: أبي فارس عبد العزيز الفشتالي، المصدر السابق ، ص92. وينظر أيضا: الوفراني،المصدر السابق ،ص ص190-191.

[2] ويصف لنا المؤرخ التازي المشهد السياسي في المغرب الأقصى بقوله: " لقد أصبح المغرب في منتصف القرن الحادي عشر الهجري منتصف القرن السابع عشر الميلادي سبعة مغارب...". ينظر: عبد الهادي التازي، **الوسيط**، المرجع السابق ، ص 135.

[3] التر، المرجع السابق، ص 384.

[4] العياشية:نسبة إلى شخص يدعى العياشي هو أبو عبد الله محمد ابن أحمد المالكي الزياني المعروف بالعياشي، استوطن مدينة سلا ، ثم سافر لأزمور لدواعي جهادية حتى شاع خبره بين الناس ونصبه السلطان زيدان قائدا للجيش بها . ثم نجح

وفي خضّم هذه الصراعات وضعف السعديين، ظهرت الدولة العلوية[1] وأخذت مكان الدولة السعدية المتهاوية، وكان السبب في قيامها أنه كان بين المولى "الشريف بن علي الحسيني السجلماسي" وبين قوم أهل تابو عصامت من أهل سجلماسة عداوة وغيرة. فاستنجد بأهل الساحل فكانممن أجابه السيد"علي أبو حسون" وكانت من بينهم صحبة وصداقة فقام"علي أبو حسون" لحصار تابو عصامت بمن معه من الجموع وذلك في 1043هـ /1633م، في عهد المولى "الوليد بن زيدان السعدي فاستغاث أهل تابو عصامت بأبي "عبدالله محمد بن أبي بكر الدلائي"المجاطي المحسوب على الزاوية الدلائية[2]، لكن تدخل العقلاء أدى إلى انسحاب النجدتين من غير قتال وسويت الأمور لصالح مولاي الشريف وكان ذلك سنة 1043هـ / 1633م، وعندئذ عمل أهل تبوعصامت على إفساد الجو بين "أبي حسون"[3] و"الشريف" فتقربوا من الأول وأفسدوا مابين الرجلين وعندئذ هاجمهم "محمد بن الشريف"واستولى على قلعتهم أو (حصن تبوعصامت) وأموالهمثم عاد إلى مقره وبويع في الحين[1].

البرتغاليون في إيغار صدر زيدان عليه ما دفعه للانتقال إلى الغرب حيث لقي تأييدا من قبائل المنطقة في ضد جهاده ضد الإسبان في العرائش والمعمورة. أنظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصاء** ...، ج6، المصدر السابق، ص،ص:24- 25.

[1] الدولة العلوية: ينتسب الأشراف العلويون لجدهم "الحسن ابن القاسم بن الحسن بن عبد الله بن أبي محمد بن عرفة"، والذي تعود أصوله " لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه"، فهي سلالة شريفة قرشية نبوية وقد أجمعت المصادر على النسب الشريف للعلويين، وفي هذا الصدد يقول الناصري: "... أعلم أن نسب هذه الدولة الشريفة العلوية من أصرح الأنساب وسببها المتصل برسول الله صلى من أمتن الأسباب...وهو حقيق بأن يسمى سلسلة الذهب...".ينظر الناصري، **الاستقصا**...، المصدر السابق،ج7، ص 3.

[2] الزاوية الدلائية : وقد إشتهرت بالزواية البكرية، نسبة إلى جدهم أبي بكر، ولا عبرة برغم من زعم من بقاياهم، أنهم أولاد ألي بكر الصديق رضي الله عنه فلم يقل بهم أحد من سلفهم ولا خلفهم، فلما وجها أبوا بكر ولداه إلى حجاز، ومن جملة وصيته له قال له " توجه على طريق الصحراء على بلاد داين عصبة ولتوارك فإنهم رهطك "فهم كان سلفهم صلحاء، تشد لزاويتهم الرحال من أقطار المغرب، ومن أهم علمائهم جدهم أبوا بكر بن محمد بن سعيد المجاني الصنهاجي من قرية بدلا، لمزيد من المعلومات انظر :أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف من النشأة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله** ، تح: رشيد الزاوية، ج1، ط1، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992م، ص120.

[3] أبو حسون السملالي: تزعم الحركة السملالية، يكنى ايضا أبو الحسن وبودميعة وصاحب المحل من أحفاد الشيخ أحمد بن موسى السملالي، وكان قيام أبو حسون واستيلاؤه على السوس سنة 1022هـ/ 1613-1614 وأسس زاوية "إيليغ" ثم

استطاع الرشيد العلوي(1666-1672م) خليفة أخيه محمد الشريف القضاء على آخر مدّعي العرش السعدي "العباس أحمد" ودخل العاصمة فاس عام 1666م، وبدأ العمل على توحيد المغرب الأقصى فقضى على القوى المحلية(الدلائية- العياشية-السملالية)، ومنذ تلك الفترة بدا المغرب كيانا سياسيا موحدا في ظل الأسرة الحاكمة الجديدة، وتمكن السلطان العلوي من وضع أسس قوية لنظام سياسي وإداري في البلاد، ويعد بحق المؤسس الأول للمغرب العلوي، وبعد وفاته عام 1672م تولى السلطة أخيه السلطان إسماعيل العلوي الذي استمرت فترة حكمه أكثر من نصف قرن، أي إلى غاية سنة 1727م[2].

2-3-2- المظاهر والتداعيات:

شهدت بوصلة عمليات حركة الجهاد البحري الإتجاه نحو المحيط الأطلسي، فقد كان البحارة الجزائريون يحتكرون الجهاد في البحر الأبيض المتوسط، إلاّ أنّ قوة وكثرة وخبرة المجاهدين (قراصنة) في الجزائر وخاصة الأوائل منهم جعلهم في بعض الأحيان يخترقون جبل طارق ويمارسون نشاطهم وعملياتهم في المحيط الأطلسي، إمّا لحسابهم الخاص أو بالاتفاق مع المجاهدين السلاويين[3]. وهذا النوع الأخير من العمليات البحرية هو الذي سنركز عليه.

امتد نفوذه إلى درعة وسجلماسة سنة 1040 هـ/ 1630-1631 فصار أمير الجنوب المغربي كله،أخرجه المولى "محمد بن شريف" ثم أخرجه من درعة كذلك وبقي "أبو حسون" قائما في السوس إلى أن توفي 1070هـ /1659م، وخلفه ابنه "عبدالله محمد علي" وبقي حاكما على السوس إلى أن قضى عليه المولى الرشيد.ينظر: محمد حجي، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي**، من تاريخ المغرب في القرن 17، طبعة موسعة ومنقحة، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط، 1988، المغرب، ص ص 149-148. وكذلك: اليفرني، **نزهة الحادي**...، المصدر السابق، ص 286.

[1] محمد الضعيف الرباطي، **تاريخ الضعيف**، تح: أحمد العماري،ط1، دار المأثورات ،المغرب، 1986، ص7.

[2] محمد علي داهش، **الدولة العثمانية والمغرب**...، المرجع السابق، ص ص 74-75.

[3] محمد رزوق، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17م** ، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1998،ص 219.

رغم العلاقات العدائية التي كانت بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال أطوار كثيرة من العهد السعدي، إلاّ أنّ أتراك الجزائر كانت تربطهم علاقات جيدة بمرابطي سلا وبقراصنتها من خلال المصالح المشتركة المتبادلة بينهما، ويبدوا أنّ هذه العلاقات تطورت بسرعة خاصة بعد أن اتحدو وتعاونوا لمهاجمة الدول الأوروبية بحرا، وقد التزم قراصنة سلا بالمحافظة على الاتفاقيات الجزائرية التي تخص دول لها علاقات حسنة مع الجزائر[1]، كما كان عليه الحال مع الإيالة التونسية، فعلى سبيل المثال لا الحصر الاتفاقية المنعقدة بين هولندا و الجزائر أوائل القرن 17م تسمح للسفن الهولندية بالرسو بميناء مدينة الجزائر بكل حرية وأمان مقابل استظهار الهولنديين لجوازات سفرهم لحكام الجزائر وتونس على السواء وتأكيد أن سلعهم غير موجهة لإسبانيا ويتعهدون بالتعاون مع بحارة المدينتين أثناء حربهم ضد إسبانيا وإيطاليا[2]. وهذا في حد ذاته من مظاهر التعاون المغاربي المشترك.

ولعلّه ممّا زاد في هذا النموذج من التقارب والوحدة الجزائرية المغربية خلال القرن 17م هو أنّ الإسبان مثلوا العدو المشترك واللدود للطرفين، حيث كانت بعض المدن الجزائرية كمدينة وهران والمرسى الكبير، والمغربية كسبتة ومليلة تحت وطأة الاحتلال الإسباني منذ مطلع القرن 16م، فكما كان التعاون بين قراصنة الجزائر وتونس ضد شبه الجزيرة الأيبيرية من خلال الواجهة المتوسطية، تحالف أيضا السلاويون مع الجزائريين واستهدفوا الواجهة الأطلسية من شبة الجزيرة الأيبيرية، ونحن نعلم أنّ أغلب أولئك القراصنة كانوا من نسل الأندلسيين المطرودين من إسبانيا، وبالتالي نتحدث عن الانتقام، وهو سبب رئيسي للجهادي البحري عموما[3].

[1] عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 349.

[2] Dan,op.cit, p 32.

[3] جون ب وولف، المرجع سابق، ص 185.

تعود أولى الحملات المشتركة بين البحارة من الجزائر وسلا حسب بعض المصادر التاريخية إلى فترة أواخر القرن السادس عشر على يد "مراد رايس" والذي توقف بسلا التي لم تكن مشهورة بعمليات القرصنة بعد، وتمكّن هذا الرايس من الاستيلاء على مدينة لنزروت وأسرى خلال هذه العملية ثلاثمائة شخص كان ذلك في سنة 1585م[1].

ومن مظاهر التحالف أيضا، عندما كان هناك رايس جزائري يصطاد في خليج بسكاي بالتعاون مع قراصنة سلا المغاربة الذين كانوا يجهزونهم بالإرساء والمؤن حين يطلبون ذلك، ففي سنتي 1624/1623م تمكن البحارة الجزائريون بالتعاون مع السلاويين من نهب ميناء اسكندرون[2].

وبعيدا عن السواحل الأيبيرية، فقد كان التنقل بين الموان المغربية يجعل بعض الرياس ينتمون لعدة موانئ في آن واحد[3]، ففي عهد الرايس " مراد يانسز " كان قراصنة الجزائر وسلا يغزون سويا الجزر الشمالية البعيدة مثل جزيرة نيوفولاند قرب كندا، وكذا الهجوم على اسلنده سنة 1627م بثلاثة سفن جزائرية وسفينة سلاوية أين تمكنوا من أسر حوالي 110 شخص، إضافة إلى المواشي والبضائع الثمينة[4].

وبعدها بأربع سنوات، أي في سنة 1631م تمّ تنفيذ عملية مشتركة جزائرية سلاوية أخرى في ارلندا، أسفرت عن أسر حوالي 237 شخصا، وتمكنوا من العودة بهم إلى الجزائر

---

[1] روجي كواندرو، **قراصنة سلا**، تر: محمد حمود ، مطبعة ومكتبة الأمنية، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، المغرب، 1991م، ص59.

[2] وليام سبنسر، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تع: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006، ص ص170-171.

[3] ومن بين المظاهر التي تثبت لنا بما لا يدع مجالا للشكك استراتيجية التمويه، حيث أن السلاويين كانوا يدعون أنهم جزائريون، وكان الجزائريون يدّعون أنهم سلاويون ، كما كانوا يتداولون العنائم فيما بينهم ، كما أن موانئ البلدين مجالاكانت مفتوحا للجهاد البحري، فكان المغاربة يسمحون للسفن الجزائرية بالرسو في الموانئ المغربية بتطوان العرائش وسلا، المعمورة وآسفي وازمور ، والوليدية، والتموين منها بل وحتى بيع حمولتها من الأسرى، واتخاذها قواعد لعملياتها الجهادية. ينظر: محمد رزوق، المرجع السابق، ص ص 219-221.

[4] المنور مروش، المرجع السابق ، ص ص 284-285.

أين عرضوا للبيع[1]. وفي النصف الثاني من هذا القرن شهد أيضا بعض الحملات المشتركة على الرغم من التحول السياسي في المغرب الأقصى كما أسلفنا الذكر. فقد أصبحت مدينة سلا تخضع للسلطة العلوية، هذه الأخيرة صار سلاطينها يدعمون ويجهزون سفن القراصنة، بل ويدعون إلى الوحدة المغاربية ونبذ الصراع بين دول المغارب[2].

وفي سنة 1683م/1095هـ استولى الرئيس القرصاني السلاوي محمد التاج على سفينة انجليزية مشحونة بالرخام وسلع أخرى وهو في طريقه إلى الجزائر، فأسر بحارتها وعددهم 26 بحارا وقادها إلى الجزائر فتعرض له مركب فرنسي فأسرها وأخذ ما فيها من السلع، ووجهها إلى فرنسا[3].

ومن ذلك أنّه في حدود سنة 1097هـ/1686م أسر ريس جزائري يدعى "محمد البوسطانجي"(أصله مسيحي أسلم وكان يعمل مع قراصنة الجزائر) سفينة هولندية كانيتواجدبها 48 هولنديا وساقها إلى سلا، فاشترى المولى إسماعيل اولئك الأسرى فقامت قيامة هولندا من أجل ذلك وجهزت أسطولا يتكون من عشرين قطعةمهددة كلا من الجزائر والمغرب الأقصى[4].

ومن الحملات الجزائرية السلاوية المشتركة أيضا وخلال سنة 1687م تمكن القراصنة وعلى رأسهم"ابن عائشة" المدعوم من السلطان المغربي إسماعيل العلوي، من السطو على

---

[1] روجي كوندرو، المرجع السابق، ص 61.

[2] أورد صاحب كتاب "المنزع اللطيف" رسالة تتضمن هذا الدعوة إلى لم الشمل المغاربي ونبذ الصراع، وتوجيهه ضد المسيحيين، كان ذلك في عهد المولى إسماعيل العلوي الذي خاطب صاحب تونس سنة 1077هـ بقوله: :"... والمسألة الثانية : هي مسألة جيرانك أهل الجزائر نوصيك أن تتفق وإياهم على المسالمة وجميل المعاشرة فإنكم كلكم في قطر واحد وجيران في البلاد وإيالتكم واحدة ورعيتكم واحدة ليس بينكم حاجز ولا سترة..." . ينظر: ابن زيدان، المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف ، تق وتح: عبد الهادي التازي ، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء، المغرب، 1993، ص ص 208-209.

[3] الناصري، **سلا ورباط الفتح أسطولهما وقرصنتهما الجهادية**، تح:أحمد بن جعفر الناصري، ج3، مطبعة المعارف الجديدة ، المغرب، 2006، ص 89.

[4] نفسه،ص 270.

أكثر من خمس سفن أغلبها من فرنسا و إنجليزا على حسب أسماء تلك السفن كانت محملة بسلع متنوعة أبرزها : المدافع، القمح ، الأرز، البندق والخمر[1].

وشهدت فترة أواخر القرن17م نشاطا قرصنيا مكثفا فرديا ومشتركا، وفي إحداها تمكنت سفينة جزائرية من الاستيلاء على سفينة فرنسية بشواطئ سلا المغربية وأسفرت العملية عن أسر مائة فرنسي كانوا على متن السفينة، وجهت ستين منهم برا إلى الجزائر على طريق أراضي المغرب الأقصى[2].ومن مظاهر التعاون كذلك حين سمحت الحكومة الجزائرية لأحد بحارة سلا ببيع غنيمة فرنسية، فأعلنت فرنسا الحرب على الجزائر بعدما كانتا في حالة سلم ووجهت حملة ديستري في يوليو من سنة 1688م، وعلى إثر هذا الحادث قرر الملك الفرنسي السفن مطاردة الجزائرية في كل الجهات[3]، وهذا يثبت التنسيق التام بين الإيالة الجزائرية وقراصنة سلا من المغرب الأقصى.

وتعد مسألة افتداء أسرى عمليات الجهاد البحري(القرصنة) من كل بلاد المغارب خلال القرن السابع عشر أيضا مظهرا من مظاهر التعاون المغاربي بدافع الدين، فعلى سبيل المثال نجد في إحدى مراسلات المولى إسماعيل مع فرنسا ما يؤكد ذلك بقوله:" ... فنحن العرب لا نعرف إلاّ الصحيح ولايسرنا إلا ما فيه مصلحة المسلمين كلهم ومع ذلك أعطينا لصاحبك عشرين نصرانيا...وظننا انك ولابد تراعي الخير... وقلنا أنك تراعي وتعمل لأولئك طريقا وتسرحهم وإن كانوا ليس فيهم من هو خديمنا ولا من هو محسوب من جيشنا ولا هو من معرفتنا..."[4].

---

[1] روجي كوندرو، المرجع السابق ، ص 62.

[2] الناصري ،**سلا ورباط الفتح**...،المرجع السابق، ج3، ص 97.

[3] عائشة غطاس، **العلاقات**...،المرجع السابق، ص ص 92-93.

[4] ابن زيدان، **المنزع اللطيف**...، المصدر السابق، ص 174.

2-4-موقف الدول الأوروبية تجاه حركة الجهاد البحري المغاربي:

إنّ هذه العمليات البحرية المشتركة بين بحارة الدول المغاربية ضد الأوروبيين والتي لاحظنا كيف أنّها تحولت إلى حملات هجومية خاطفة، أثّرت على التجارة الأوروبية في المقام الأول، ومن خلالها على الأمن العام في البحر الأبيض المتوسط الذي أصبح مقرا رئيسيا للقراصنة، فإسبانيا لم تعد قادرة على حماية سواحلها، ولهذا تركت البحارة أحرار في الاعتداء على سفنها ونهبها دون حارس أو رقيب، ومن جهتها صقلية وإيطاليا التي تعرضت كثيرا لهذه الحملات المغاربية، بدت عاجزة عن المقاومة في ظل تزايد هذه الآفة البحرية وحاولت فرنسا صد المغاربة من خلال إنشاء فرق بحرية[1]، خاصة لمقاومتهم والحد من خطورتهم[2].

وعليه فإنّ الصراع المسيحي الإسلامي في المتوسط من خلال ظاهرة القرصنة أخذ أبعاد ومقاربات مختلفة، فيبدوا بأنّ الطرف المسيحي شجع قيام مؤسسات قرصانية خاصة لا تخضع في الظاهر لأي نفوذ، ولا لأية دولة كانت، على عكس ما حدث في دول المغارب البحرية التي أشرفت غالبا على هذا النشاط عن كثب، وضبطته ضمن القوانين والأعراف التي كانت سائدة في تلك الفترة، إلاّ أنّ هذا لا يمنع ولا يخفي بأنّ البحريات المغاربية كان يقوم على شؤونها، ويشرف عليها الخواص وليس الدول، ويستشف من هذا الطرح بأنّه من الصعب ضبط نشاط البحارة الخواص في إطار القوانين والأعراف الجارية[3].

---

[1] وبدورها استعانت الدول الأوروبية خاصة جمهورية جنوة بقوات فرسان مالطة تارة، وبقوات فرسان القديس ستسفان تارة أخرى، في ممارسة القرصنة ضد السفن المغاربية في البحر المتوسط ، وبالتالي المعاملة بالمثل وليس الدفاع عن السفن والمصالح الأوروبية كما يصوره الباحثون الغربيون. ينظر: إبراهيم سعيود، المقال السابق، ص 157.

[2] سامح التر، المرجع السابق، ص 375.

[3] جمال الدين سهيل، **ملامح من شخصية الجزائر خلال القرن 11هـ/17م**، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 13، 2011، جامعة غرداية ، الجزائر، ص 143.

ومهما اختلفت الأراء حول دوافع القرصنة، ومسؤولية كل طرف فيها، فإنّ البحر المتوسط في ضفته الشمالية عرف في القرن السابع عشر تحولات أدّت إلى ظهور دول أوربية قوية ، مثل فرنسا، وإنجلترا، وهولندا، تمكنت من أخذ مكانة الإمبراطوريتين القديمتين، إسبانيا والبرتغال. وكانت الحياة الاقتصادية انعكاسا للصورة السياسية، فقد عرفت تجارة تلك الدول نجاحا مبهرا في البحر المتوسط وغيره من المناطق الأخرى فأسست شركات تجارية لاستغلال ثروات إفريقيا وجزر الهند الشرقية. وقد ساعدها ذلك على احتكار التجارة العالمية وبالتالي إنهاء الاحتكار البرتغالي[1].

مع استمرار عمليات الجهاد البحري المشترك للمغاربة في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وفشل الإجراءات الأوروبية للحد من نشاط هؤلاء، اتجهت هذه الدول الأوربية لاتخاذ أساليب أخرى علها تنجح في التصدي لهذه الظاهرة، من بينها عقد معاهدات هدنة وعدم الاعتداء على السفن الأوروبية. خاصة فرنسا التي عملت على تدعيم مركزها في البحر المتوسط وفي إيالتي الجزائر وتونس على وجه التحديد استنادا إلى معاهدتها مع السلطان العثماني المتضمنة احترام مراكبها في البحر خلال القرن السادس عشر[2].

رغم كثرة سلسلة الاتفاقيات والمعاهدات التي أبرمتها الدول الأوروبية وعلى رأسهم فرنسا وإنجلترا مع الجزائر، طرابلس الغرب وتونس والمغرب الأقصى خلال القرن السابع عشر خاصة في النصف الثاني منه، إلاّ أنّها لم تفلح في ضمان أمن المراكب بصفة نهائية. فالمعاهدة لم تكن في العادة تسري لفترة طويلة بعد توقيعها إذ كان حكام دول المغارب يقومون بخرقها والعمل دون مراعاة بنودها. وبينما تجري المفاوضات مع دولة من الدول كان رياس سفن القرصنة يغيرون على سفنها. ولما كان نواب السلطان في إيالات الجزائر وتونس وطرابلس يتطلعون إلى الحصول على أكبر عوائد من القرصنة فإنّهم عرفوا كيف يستغلون

---

[1] شويتام، **دراسات ووثائق** ....، المرجع السابق، ص 75.

[2] الجمل، المرجع السابق، ص 103.

المنافسة بين إنجلترا وفرنسا وهولندا وغيرها من الدول الأوروبية ببراعة. فعندما كانوا يعقدون اتفاقية مع إحداها كانوا يشددون غاراتهم البحرية على الآخرين وهو ما كان يعوض النقص في الغنائم إلى حد ما[1].كما حدث مع إيالتي الجزائر وتونس وفي هذا الصدديقول " فردريك لاين":" إنّ تونس والجزائر لا تعترفان بالعهود والمواثيق التي عقدها السلطان مع الدول الغربية ويعتبر أن كل دولة لم تتعاقد معها رأسا دولة عدوة يجوز السطو على سفن بلادها ..."[2] . وهذا ما أثار الأوروبيين في فترات مختلفة من القرن 17م رغم المساعي المبذولة وتوجهو إلى أسلوب المواجهات العسكرية المباشرة مع المغاربة.

لقد ساهمت عوامل عديدة في استمرار عمليات الجهاد البحري وما تدره من الغنائم التي تعود بالفائدة على المغاربة عموما، ومن بينها حرية حركة بيع وتبادل الغنائم التي يحصل عليها البحارة بين الموانئ والمدن المغاربية رغم ارتباط بعض الدول بمعاهدات، وهو ما سبب لها إحراجا تجاه الدولة المتعاهدة معها، فعلى سبيل المثال ما حدث في سنة 1649م حين حاول قائد الأسطول الهولندي" جوريس فان كا "horis van cats" تخريب أسطول المجاهدين بسلا، وقام بمحاصرتها، إلى أن اتفق الطرفان على توقيع معاهدة في سنة 1651م، كان من أهم بنودها عدم السماح لمجاهدي الجزائر وتونس وطرابلس الغرب ببيع ما يغنمونه من الأسرى الهولنديين، وهو الشيء الذي لم يحدث، إذ سمح الأندلسيون(مجاهدي وبحارة سلا) لكل من بحارة ومجاهدي تونس والجزائر وطرابلس ببيع الغنائم الهولندية في سلا[3]. وبالتالي لا جدوى من تلك الاتفاقيات.

ومن بين الاستراتيجيات الأوروبية اتجاه القراصنة المغاربة محاولة استخدامهم في الحروب القائمة بين الأوروبيين، ففي ثمانينات القرن السابع عشر هزت أوروبا الحروب

---

[1] بروشين ، المرجع السابق، ص 94 .

[2] الساحلي خليل، **الصراع بين قراصنة تونس والجزائر والبندقية في القرن 17م**، المجلة التاريخية المغربية، العدد 4، زغوان، تونس، 1975م، ص ص 105-106.

[3] رزوق محمد، **الأندلسيون وهجراتهم ...**، المرجع السابق، ص 214.

التجارية التي شاركت فيها هولندا وإنجلترا وفرنسا. واتحدت كلا من إنجلترا وهولندا في حلف واحد ضد فرنسا، واستخدمتا قراصنة الشمال الإفريقي فقدمتا لهذه الغاية مساعدة اقتصادية لطرابلس الغرب و الجزائر وتونس. ومن مظاهر ذلك في سنة 1680م حين بدأ الهولنديون و الانجليز بتزويد الأسطول الجزائري بالحبال والصواري والأسلحة. في مقابل حصول انجلترا وهولندا على الحق في استيراد القمح من إيالة الجزائر[1].

ومن جهة أخرى عملت فرنسا على الحد من القرصنة المشتركة بين المغاربة من خلال التحالف مع أحد الفاعلين فيها، ففي سنة 1693م عين سانت أولون قائما بالأعمال الفرنسية في المغرب، واتضح أنه كان هناك اتفاق مبدئي بين فرنسا والمغرب الأقصى يقضي بأن تتحالف فرنسا مع المغرب ضد اسبانيا في مقابل أن يقف المغرب إلى جانب فرنسا ضد أتراك الجزائر نظرا لنشاط سفن الجزائر في عمليات الجهاد البحري[2].

يتضح من خلال هذه الأحداث التناقض في المواقف الأوروبية، فمن جهة التنديد المستمر بأعمال القرصنة المغاربية ونشاطها، وفي الوقت نفسه تشجع استمرار النشاط البحري لدول المغارب من بينها الجزائر. لا يمكن تفسير هذه المواقف إلاّ بحدّة التنافس العسكري والعداء السياسي والمصالح التجارية التي أدت إلى تصادم القوى الأوروبية دون سيطرة أي واحدة منها على المتوسط ساعية بذلك لكسب قوة يصعب الانتصار عليها[3].

إنّ قيام دول المغارب بالتعاون من خلال الجهاد البحري المشترك والدور البطولي الذي أظهره المغاربة في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وشنّهم الغارات على السفن بل حتى على السواحل الأوروبية جعل هذه الأخيرة خاصة فرنسا وإنجلترا توجه حملات عسكرية منها ما كان تحالفا صليبيا نحو الجزائر والمغرب وتونس وطرابلس الغرب بحجة القضاء على

---

[1] بروشين ، المرجع السابق، ص 96.

[2] إبراهيم حركات، المرجع السابق ، ص ص 55-56.

[3] دكاني، المرجع السابق، ص 106.

القرصنة، فعلى سبيل المثال : الجزائر تعرضت لعدة حملات فرنسية من بينها حملات الدوق دي بورفو في سنوات 1663 و1664و1665م وأيضا حملتي دوكين في سنتي 1682م و 1683م،وكذلك حملة الماريشال ديستري ضد مدينة الجزائر في 26 جوان 1688م، وبدورها إنجلترا سيرت حملات ضد مدينة الجزائر خلال سنوات 1620 و 1655 و 1672م .

وكذلك الحال بالنسبة للمغرب الأقصى الذي تعرض لعدة حملات فرنسية من بينها حملتي جون ديستري في سنتي 1670 و 1671م وحملات شاطوا رونو ابتداءا من سنة 1680م ، وبدورها سيرت إنجلترا حملات على المغرب الأقصى في 1685 و1698م حين استولى الإنجليز على ثمانية مراكب للسلاويين.

لقد كان التنافس بين الدول الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط كبيرا لكنّه لم يؤثر على دول المغارب عموما، والجزائر والمغرب استثنائيا طيلة القرن 17م ومطلع القرن 18م، بل ساعد في الحفاظ على التوازن الدولي، فالجزائر كانت تفرض الإتاوات على الدول الأوربية لضمان ملاحة أساطيلها، فكانت تدفع الجزية لأنّها لم تستطع أو أنّها لم تطور من سياسة عمل جماعي حقيقي ضد المغاربة، خاصة ضد الجزائر، تقريبا منذ الحملة الصليبية ضد الجزائر في سنة 1541م، كما كانت تقدم الهدايا في المناسبات المختلفة ولضمان نجاح أعمالها ولكسب ودّ حكام المغارب وخاصة الجزائر التي كانت تعتبر القوة الإقليمية والمركز الجهادي الأول التي تنطلق منه عمليات البحارة في المنطقة[1].

ومجمل القول هو أننا خلصنا إلى أنّ حملات البحارة المغاربة المشتركة خلال القرن 11هـ/17م أظهرت لنا إمكانية التحالف والتعاون المغاربي وتشكيل قوة يمكنها الوقوف في وجه القوى الأوروبية، كما ساهمت في ظهور مراكز جهادية كمدينة سلا إلى جانب الجزائر التي استعصت على الدول الأوروبية منذ الحاقها بالدولة العثمانية، ولهذا يمكن اعتبار

[1] شويتام،**دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري و السياسي** ...،المرجع السابق، ص 80.وينظر: شوقي عطاء الله الجمل، المرجع السابق، ص 103. وينظر ايضا: نيكولاي أبليتش بروشين،المرجع السابق، ص 85.

القرصنة المغاربية إحدى أهم المؤشرات الرئيسية عن ذلك التوازن بين الضفتين للبحر المتوسط فالقرصنة المغاربية الإسلامية كانت تقابلها من الضفة الأخرى قرصنة أوروبية مسيحية[1].وفي هذ الشأن يقول الباحث "نيكولاي إيليتش بروشين":إنّ تآزر القراصنة، المسيحيين منهم والمسلمين، على أساس من الإثراء وتوحيد القوى ضد العدو المشترك، تدحض أيضا الأسطورة الواسعة الانتشار في الأدبيات الغربية حول وحشية الشعوب الشرقية. ففي القرن السادس عشر- الثامن عشر كان الأوربيون متوحشين وقراصنة ، مثلهم مثل الترك أو العرب أو المور فالبنسبة للقراصنة الأوربيين وقراصنة الشمال الإفريقي والإمبراطورية العثمانية كانت القسوة أمر مميزا وكان ثمة محاولات للتنافس فيها. وعد فرنسان السبيتارية أشد القراصنة فظاعة. وفي القرن السادس عشر صار هؤلاء يستخدمون في غاراتهم غاليرات كثيرا ما يجدف عليها مسلموا الشمال الإفريقي بعد ان تم استرقاقهم وشدوا إلى المجاديف. وكان قراصنة الجزائر وتونس وطرابلس تالغرب بدورهم يستخدمون من يقبضون عليهم من الأوربيين مجذفين..."[2].

لقد تنوعت الأساليب الأوروبية في التعامل مع دول المغارب خلال القرن السابع عشر من خلال مسألة الجهاد البحري أو القرصنة بالتحديد بين ما هو سياسي وماهو عسكري، وفي العنصر الموالي ستناول بالتفصيل سياسة الدول الأوروبية تجاه دول المغارب في إطار الصراع والتنافس من خلال التحالفات بين ضفتي المتوسط وسنعتمد النموذج الفرنسي.

3- ثنائية المغارب أوروبا(فرنسا أنموذجا) جدلية التحالف والصراع:

تمهيد:

شهدت علاقات دول المغارب مع الدول الأوروبية خلال القرن 11هـ/17م مظاهر متنوعة بين التقارب المصلحي والتنافر العدائي، ولكن ما يهمنا في هذا الإطار هو التركيز

---

[1] دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 312.

[2] بروشين، المرجع السابق، ص ص 87-88.

على التحالفات التي كانت فيها إحدى دول المغارب طرفا مع دولة أوروبية لضرب دولة مغاربية أخرى هذا من جانب، إضافة إلى بعض الحملات الأوروبية التي كانت في شكل تحالف صليبي ضد البلاد المغاربية الإسلامية. وكل ذلك هو نتيجة محاولات الأوروبيين المتكررة لزرع الفتنة والتفرقة بين المغاربة لأجل بسط نفوذهم وتوسعاتهم واستغلال خيرات هذه البلاد لتطوير الأمم الأوروبية على حساب الشعوب المغاربية. ومن جهة أخرى فقد استعانت بعض الدول كالمغرب الأقصى بفرنسا لإختلال التوازن في الصراع بينه وبين الأتراك العثمانيين في الجزائر، فقد كانت هذه الأخيرة الأكثر عرضة لكل هذه التحالفات والحملات من خلال المصادر والمراجع المغاربية، وبالتالي سنضعها أنموذجا مع الأطراف الفاعلة الأخرى في التحالفات.

إن اختيار النموذج الفرنسي لدراسة هذه الأشكال من التحالفات ليس اعتباطا وإنما لأن فرنسا بالدرجة الأولى كانت من أبرز الفاعلين في المنطقة خاصة خلال القرن السابع عشر وبدت كأنّها أخذت مكان إسبانيا والبرتغال[1]، كما أنّها كانت ترتبط بمعاهدة الامتيازات مع الدولة العثمانية منذ ثلاثينيات القرن السادس عشر التي مرت معنا خلال الفصل الأول. وعليه سنرصد سياسة التحالفات المنتهجة من قبل فرنساتجاه بلاد المغارب، خاصة إذا ما علمنا أن إنهيار القوة البحرية الإسبانية أحدث تغييرا جذريا في سياسة التحالفات، لينعكس على العلاقات العثمانية الفرنسية وتأثيراتها في بلاد المغارب[2].

---

[1] لقد تبوأت فرنسا المكانة الأولى بين الدول الأوروبية في عهد لويس الرابع عشر Louis XIV وأصبحت اقوى مملكة، ومركز السياسة العامة في أوربا. حيث خاض الملك الفرنسي عدة حروب في أوربا خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر وإلى غاية سنة 1714م، وتعتبر حرب الوراثة الإسبانية(1701- 1714م) آخر هذه الصراعات والحروب، ينظر: يحي جلال، **التاريخ الأوربي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى**، المكتب الجامعي الحديث، د. ت .ن، الإسكندرية، مصر، ص ص 61-62.

[2] سمية حمودة، المرجع السابق، ص 56.

3-1- الحملات الصليبية الأوروبية ضد المغارب (الحملة الصليبية على مدينة جيجل 1074هـ/1664م أنموذجا).

كثيرا ما تتعرض بعض المصادر والمراجع إلى هذه الحملة وتصفها بأنّها كانت فرنسية محضة، ولكن في الواقع غير ذلك تماما استنادا على بعض الدراسات حتى الأوروبية منها، وهو ما سنتعرف عليه عند الخوض في تفاصيل هذه الحملة، فهناك عدد من الدول كانت لديها رغبة شديدة في القضاء على إيالة الجزائر في هذه الفترة بالذات التي عرفت كما لاحظنا بتزايد حركة الجهاد البحري ضد السفن الأوروبية. من أبرزها دولتا إنجلترا وهولندا فالأخيرة كانت بينها وبين الجزائر عداوة كبيرة في البحر المتوسط. ولكنّ النصيب الأكبر من العدة والعتاد كان فرنسيا بالطبع.

3-1-1- ظروف ودوافع الحملة:

لقد اتضح لنا مدى تأثير إيالة الجزائر ونشاط بحارتها(قراصنتها) سواء بالاشتراك مع القراصنة من دول المغارب أو حملات البحارة الجزائريين الفردية في البحر المتوسط، فالجزائر كانت تمثل المركز الجهادي الأوّل في بلاد المغارب الذي ينطلق منه البحارة وهو ما جعلها عرضة لعديد الحملات الأوروبية والفرنسية خاصة، فبداية من شهر أكتوبر من سنة 1660م إلى غاية أفريل من سنة 1661م تمكن الجزائريون من الاستيلاء على حوالي ثلاثين سفينة، ومن خلالها أسر خمسمائة شخص، وهو ما دفع بالكثير من المؤرخين الأوربيين إلى الإجماع بأنّ نشاط القراصنة هو الدافع الرئيسي لحملة"دي بوفور" ، إلاّ أن بعضهم أشار إلى أنّ السبب الحقيقي وراء هذه الحملة يكمن في فشل المحاولات الديبلوماسية الفرنسية من أجل إعادة فتح المنشآت التجارية الفرنسية بالجزائر[1]، فقد كان الفرنسيونيخشون من عقد الإيالة الجزائرية اتفاقيات مع إنجلترا وغيرها من الدول. ويحاولون إعادة مكانة مصالحهم التي خسروها من خلال مؤسسة الباستيون إثر فرار حاكمها " توماس بيكي"

[1] عائشة غطاس، **العلاقات الجزائرية الفرنسية**...، المرجع السابق، ص 71.

(Thomas Piquet) الذي كان سببا في تراكم الديون والإتاوات المستحقة عليه، حيث انتهى به المطاف إلى إخلاء الباستيون وإحراق المنشآت، وتمكن من أخذ ثمانين جزائري كأسرى باعهم في ليفورنة. بعد هذه الأحداث أوفد الملك الفرنسي المفاوض"لويس كامبون"(Louis Campon) إلى الجزائر ليصبح الحاكم الجديد للباستيون في نهاية شهر يونيو(جوان) من عام 1659م لإعادة العلاقات بين الدولتين إلاّ أنّ هذا الأخير فشل في مسعاه برغم أنّه حمل معه نحو خمسين جزائريا من أسرى "بيكه"، الأمر الذي رفضه الديوان في الجزائر مشترطا إعادة كل الأسرى و تسوية الديون العالقة بالمؤسسة[1].

سيّرت حملة فرنسية في صيف سنة 1660م بقيادة الفارس"بول" على رأس أربعة عشر سفينة ضد إيالات المغاربللمطالبة بتحرير الأسرى، وهو ما تحقق للفرنسيين في كل من طرابلس الغرب وتونس تواليا،أمّا الجزائر فقد وصلت إليها قطع الأسطول الفرنسي في شهر أوت من نفس السنة، حيثحاول تحطيم وحرق السفن المتواجدة بالميناء وكان عددها أربعين سفينة إلاّ أنّ علم الجزائريين المسبق بهذه الحملة مكنّهم من التصدي لها لترجع دون تحقيق أهدافها[2].

حاولت فرنسا مجددا عن طريق المفاوضات والدبلوماسية التوصل إلى إتفاق مع الجزائر وأرسلت مبعوثا آخر يدعى "روميناك" حاملا معه الترضيات المطلوبة التي أوفت بالغرض من خلال تسوية قضية الديون إضافة على عدد من الضمانات و الامتيازات، حيث إستطاع هذا الأخير إبرام إتفاق جديدا حول مؤسسة الباستيون في يوم 09 فيفري من عام1661م[3].

تتضمن معاهدة 29 فيفري 1661م الخاصة بالباستيون ستة وعشرون بند، من بينها:

---

[1] محرز أمين، **الجزائر في عهد الاغوات 1659-1671م**،دار البصائر الجديدة، الجزائر، 2013م، ص ص 76-82.

[2]Belhamissi(Moulay), Marine **et Marin D ALGER (1516-1830) FACE A L EUROPE**,T2,B.N, D ALGERIE, ALGER, 1996,pp 40.

[3] قنان ،**معاهدات الجزائر...**، المرجع السابق، ص71.

- كل السفن والمراكب فرنسية هي أم تابعة للأمم الأخرى يمكن لها التردد على هذا الميناء(الباستيون) .
- لا تتعرض السفن الحربية أو غيرها التابعة للجزائر، في ذهابها وإيابها من تونس أو إلى جهة أخرى للمراكب القائمة على صيد المرجان.
- يمنع منعا باتا بيع الجلود والشمع والصوف إلى رياس المراكب من التونسيين والجربيين بدعوى إرسال ذلك إلى ميناء مدينة الجزائر، والذين يبيعونها بدورهم في طبرقة أو في تونس، أو في ميناء مدينة الجزائر إلى أصحاب المراكب من الأجانب.
- ستدفع اللزمة التي للأهالي القاطنين حول الباستيون كما كانت تؤدي من قبل.
- في حال وقوع خلاف بين أوجاق الجزائر والفرنسيين، وإمكانية نشوب حرب بين الطرفين فإن القائمين على شؤون الباستيون لا يعتبرون مسؤولين على ذلك وبالتالي استمرارهم التمتع بالامتيازات[1].

ومهما قيل عن هذه الاتفاقية ومدى تطبيق بنودها من عدمه، فإنّ مشروع توجيه حملة فرنسية صليبية إلى بلاد المغارب عموما وإلى الجزائر خصوصا يعود إلى سنة 1658م، وبالتالي فرنسا لم يكن سبب حملتها على جيجل الحد من نشاط البحرية المغاربية والجزائرية كما أسلفنا الذكر، وإنّمالتحقيق مشروع الملك الفرنسي ضد مدينة الجزائر، كما كان هدف

---

[1] وللمزيد حول بنود هذه الإتفاقية ينظر :المرجع نفسه، ص ص 277-284 .

لويس الرابع عشر[1] من وراء ذلك أيضا إلى تبرير امتناعه عن المشاركة في حصار فيينا ضد العثمانيين أي مساندة الجبهة المسيحية في صراعها ضد الإسلام[2].

هذا الموقف لا يعبّر عن إلتزام الحياد تجاه مسألة الصراع المسيحي الإسلامي بقدر ما هو يراعي المصالح الفرنسية قبل كل الاعتبارات، فأوضاع فرنسا خلال هاته الفترة كانت ملائمة لتوجيه الحملة، خاصة بعد زوال الهيمنة الإسبانية، فقد أصبحت منطقة بلاد المغارب مصدر اهتمام الفرنسيين، وكانت فرنسا تسعى إلى استكشاف منطقة المغرب وخاصة الجزائر[3] تجلى ذلك في خريف سنة 1661م حينما أمر الملك الفرنسي لويس الرابع عشر" دي كليرفيل" بالتوجه نحو الجزائر في مهمة استطلاعية[4].

وللقيام بهذه المهمة وحتى لا يثير الشكوك حوله عمل الفارس كليرفيل على تمويه السلطات وأهالي الجزائر، فامتطى سفينة تجارية[5]، وتمكن من إرسال تقرير إلى كولبير في 22 جوان 1662م يحدد فيها المكان الملائم لإنزال الجيش، حيث اختار ميناء سطورا. وهو ما تم فعلا، ففي فصل الخريف من سنة 1663م شنّ الفارس بول هجوما سريعا وخاطفا على البحارة الجزائريين في سطورا ما نتج عنه بعض الخسائر في السفن. وأعاد الكرة على ميناء القل لكنّه لم ينجح لسوء الأحوال الجوية، وبعدها توجه للالتحاق بأسطول "دى بوفور"

---

[1] لويس الرابع عشر: أشهر وأكبر ملوك فرنسا، ولدفي سنة 1638م، ولما توفي والده لويس الثالث عشر لم يكن عمره يتجاوز خمسة أعوامن فحضنته أمه أنا الأوسترية التي نصبت وصية على عرش فرنسا على ان بلغ سن الرشد وصار يباشر منذ سنة 1661م امور مملكته بنفسه بعد موت مازاران الذي كان يساعد امه في الحكم، وقد توطدت السلطة في عهده وعرفت فرنسا في أيامه إصلاحات كثيرة وحققت تقدما كبيرا، توفي سنة 1715م. ينظر: محمد الصغير اليفرني، **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف** ، تح: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1995، ص 97.

[2] Turbet Delof, **La presse periodique francaise et L Afriique barbaresque au XVIIe sicle (1661-1715)**, Librairie Droz. Geneve, 1973,p 180.

[3] غطاس عائشة، **العلاقات**...، ص 72.

[4] De Grammont, **Histoire d Alger**..., op.cit, p 212.

[5] غطاس، **العلاقات**...، المرجع السابق، ص 73.

الذي رسا في مدينة سطورا يوم 2 أوت لأجل التزود بالماء والمؤن دون خشية هجوم القبائل. تابع الأسطول الفرنسي سيره نحو مدينتي دلس والجزائر لتنفيذ هجومات أخرى، فقد ارسلت تقارير إلى المجلس الحربي تحمل معلومات عن مدينة الجزائر والإيالة ككل : "... أن الجزائر التي كانت تعتبر أهم مدينة وأشهرها على السواحل الإفريقية. وأصبحت لا يتجاوز عدد سكانها خمسة وعشرين أو ثلاثين ألف نسمة ذلك أنّ الطاعون الذي اجتاح المدينة في سنة 1663م قد أودى بحياة ما يزيد عن ثلثي سكانها وتعداد القوات العسكرية الدائمة التي تتمثل في الأوجاق لا تتجاوز الستة آلاف رجل، نصف هذا العدد موزع في شكل حاميات على مختلف مدن البلاد والنصف الآخر إمّا مقسم على محلات تجوب في المناطق لاستخلاص الضرائب والباقي يشكل حامية مستقرة في مدينة الجزائر، والنصف الآخر عبارة عن محال تجوب البلاد لإستخلاص الضرائب و أن عدد عساكر هذه الحامية خلال شهور الصيف لا يتجاوز الألفين وخمسمائة رجل، وأنّه لا يوجد من سكان المدينة الذين هم قادرون على حمل السلاح سوى الثلث، ومع ذلك فهم لا يحسنون إستخدامه...، ويحيط بالمدينة سور ضعيف التحصين تتخلله عشرة أبراج صغيرة..."[1]. أسفرت هذه العمليات عن إغراق سفينتين للرياس[2] مع تحرير عدد كبير من الأسرى بلغ عددهم عشرة آلاف أسير مسيحي، كما تمكن من أسر مجموعة من الجزائريين، إلاّ أن سوء الأحوال الجوية دفعهم إلى الالتجاء نحو ايفيسا[3].

---

[1] قنان ،**معاهدات الجزائر...**، المرجع السابق، ص74.

[2] وذكر أن الفرنسيين استولو على أربعين سفينة ، وأرادو تحطيم قوة الأسطول الجزائري داخل مرسى الجزائر. ينظر: أحمد توفيق المدني، **الداي محمد بن عثمان...**، المرجع السابق، ص40.

[3] De Grammont, **Histoire d Alger** ...,op.cit, p 213.

3-1-2- تفاصيل الحملة:

بعد المحاولات الفرنسية لجس نبض حكام إيالة الجزائر قرر المجلس الملكي الفرنسي تسيير حملة كبرى نحو مدينة جيجل بدلا من سطورة، حيث كان انطلاقها من ميناء طولون في 2 جويلية من سنة 1664م بقيادة الدوق "دي بورفو".

حشدت فرنسا لهذه الحملة قوات كبيرة، تمثلت في القوات البرية التي بلغ عددها أربعة آلاف وستمائة وخمسين جنديا، مدعومة بجنود البحرية التي قارب عددها ثمانمائة جندي، إضافة إلى انضمام قوات أجنبية إلى القوات الفرنسية، كالفرقة التابعة لفرسان مالطة والتي تكونت من مائة وخمسين جندي، ليس هذا فحسب بل حتى مشاركة قوات إنجليزية وهولندية ومئات المتطوعين في أسطول متكون من ستين سفينة[1].وهو ما يؤكد بأن الحملة كانت تحالفا صليبيا ضد إيالة الجزائر. ووجب الإشارة إلى أن بعض الدراسات قدرت أن العدد الإجمالي للحملة كان سبعة آلاف جندي[2] .

لقد كانت النزعة الصليبية واضحة من خلال هذه المشاركة، خاصة من الإنجليز الذين شجعوا الفرنسيين للقيام بهذه الحملة ضد إيالة الجزائر خدمة للبابا والمسيحية ككل، ويظهر ذلك في قضية تحرير الأسرى، حيث كانوا يعملون على تحرير كل الأسرى المسيحيين وليس الإنجليز فقط، فلا البابا ولا أي أمير مسيحي آخر يمكن أن يعطي أي تأويل غير جيد لهذا التحالف الإنجليزي الفرنسي، فهو مكسب ليس بالهين، إذا تمكن الفرنسيون من إنشاء مراكز على سواحل الجزائر، يمكن أن تستخدم مستقبلا كقواعد للصليبيين إذا ما سعوا إلى استرداد البقاع المقدسة. كما نجد أيضا أن الملك لويس الرابع عشر أثنى وأشاد بمشاركة فرسان مالطا الصليبيين في الحملة بل واعتبرها خدمة للمسيحية، فقد كافئ قائد الفرقة المالطية

---

[1]WatbeldErnest, **Expediton du duc de Beaufort contre Djidjeli 1664**,R.A, 1873,N17, p218.

[2] غطاس، **العلاقات**...، المرجع السابق، ص 75.

المسمى " بيبي" نظير تلك المشاركة بتقليده بالأوسمة[1]. فقد كان الملك الفرنسي يريد خلافة شارلكان في التكلم باسم الأمم النصرانية كلها[2].

عندما علم الجزائريون بخبر الحملة الصليبية سارع الداي شعبان آغا إلى إرسال أحد الأسرى الفرنسيين إلى الملك لويس الرابع عشر يعرض عليه مجموعة من الشروط لأجل الصلح، ولكن هذا الأخير رفض العرض لأنه كان مصمما على احتلال الجزائر[3].

وفي يوم 22 جويلية 1664م رست سفن الصليبيين في ساحل مدينة جيجل[4]، وبدأت عملية إنزال القوات في اليوم الموالي شرق المدينة، حيث اندلعت مواجهات مع الحامية العثمانية التي تمكنت من التصدي للعدوان الأوروبي بكل شجاعة رغم ضعفها وبعدها عن مركز الإيالة، خاصة بعد دعم الأهالي لها، واستمرت المعارك بين الطرفين مدة أسبوع كامل رغم الفارق الشاسع في ميزان القوى، فالقوات الأوروبية كانت تدعمها مدفعية الميدان إضافة إلى مدافع سفن الأسطول، ورغم ذلك لم تتمكن هذه الأخيرة من السيطرة على المدينة إلاّ في يوم 29 جويلية[5] بعد فرار السكان الذين لجؤا إلى البوادي، وأسفرت هذه المواجهة عن خسائر لدى الجانبين تمثلت في مقتل أربعمائة شخص[6]. وبما أنّ الطابع الديني كان دائما سببا رئيسيا للحملات الأوروبية على بلاد المغارب، حيث و في هذه الحملة عندما دخل الدوق دي بوفور المدينة كان يحمل الصليب في يده اليسرى والسيف في يده اليمنى، وقام برفع

---

[1] قنان ،**معاهدات الجزائر**...، المرجع السابق، ص ص 73-74 .

[2] نايت بلقاسم، المرجع السابق، ج2 ، ص 42.

[3] بوعزيز، **علاقات** ....، المرجع السابق، ص 80.

[4] لقد اقترح الجواسيس الفرنسيين مدينة عنابة كي يتسنى لهم إقامة حصن دائم، ثم بدرجة أقل ميناء سطورة بالقالة، ويستنتج من التقرير المرسل إلى الملك الفرنسي أن " جيجل " التي تم الاتفاق حولها في الأخير لم تكن من المناطق المقترح احتلالها بسبب أن ميناءها غير صالح، أما الجاسوس "كليرفيل" فقد كانت مدينة جيجل ضمن مقترحاته حيث اعتبرها نقطة صالحة للاحتلال. ينظر: غطاس، **العلاقات**...، المرجع السابق، ص 73.

[5] قنان، **معاهدات الجزائر**...، المرجع السابق، ص ص 75-76.

[6] Watbled, op.cit, pp 218-221.

العلم الفرنسي والصليب على مئذنة المسجد، كما فعل ذلك سابقا الكاردينال خمينيس عند دخوله مدينة وهران في سنة 1509م[1].

عزا الكثير من المؤرخين سقوط المدينة إلى ضعف الحامية العثمانية المتواجدة بها ، فقد بدأ قائد الحملة بتحصين المدينة واتخاذ كافة الاحتياطات لضمان أمنها من أجل الاستقرار والبقاء بها وجعلها قاعدة عمليات فرنسا في كل بلاد المغارب، ولكل عملياتها البحرية للسيطرة على المتوسط بناء على تعليمات وأوامر لويس الرابع عشر الذي أسدى تعليمات إلى الدوق دي بوفور يطلب منه التحرك دوما قرب الساحل لمنع وصول أي مدد من الجزائر على جيجل.

لم يتقبل الداي شعبان هذا الوضع في جيجل وقام بتجهيز فرق الجند مزودين بالمدفعية واتجهوا نحو المدينة حيث بلغ عددهم ثلاثة آلاف انكشاري وخمسمائة صبايحي[2]، وفي طريقهم انضم إليهم الكثير من الأهالي[3] الناقمين على الغزو الفرنسي ليصبح العدد الإجمالي للجيش حوالي عشرة آلاف إلى اثنا عشر ألف مقاتل[4]، فكان موعد وصولهم يوم 5 أكتوبر، ليتم وضع المدفعية على المرتفعات قصد حصار الفرنسيين والتضييق عليهم، وانطلقت عمليات قصف المراكز الفرنسية بكل قوة وعنف بعد عشرين يوم من الوصول، أسفرت هذه الأحداث عن إلحاق خسائر كبيرة في صفوف الجيش الفرنسي الذي آثر الانسحاب لاستحالة المقاومة لإنقاذ ما تبقى من الجنود، فكانت هزيمة كبيرة صدمت الملك لويس الرابع عشر[5].

---

[1] Belhamissi, op.cit,T2, p 45

[2] في حين يخبرنا الأسير الفرنسي بأن عدد أفراد الجيش الجزائري وهو يسميه (الجيش التركي) بلغ ألفين وخمسمائة رجل. ينظر: جمال قنان، **نصوص** ...، المرجع السابق، ص 132.

[3] لقد ظن الفرنسيون أن السكان سيتحالفون معهم ضد الأتراك، ولكن حدث العكس وفضل البربر الانضمام للمسلمين بدل المسيحيين. وللمزيد ينظر: جون وولف، المرجع السابق، ص ص 316-317.

[4] أمين محرز، المرجع السابق، ص 115.

[5] المدني، **حرب الثلاثمائة**...، المرجع السابق، ص ص 423-424.

3-1-3- نتائج الحملة:

يلمّح بعض المؤرخين إلى أنّ الخلاف بين القادة الفرنسيين كان سببا في انتكاسة الصليبيين، حين أرسل لويس الرابع عشر تعزيزات معتبرة إلى القوات المتواجدة في جيجل في يوم 22 أكتوبر وعلى رأسهم " الماركيز دو مارتيل"(Marquis de Martel)[1] بقطع ليصبح عدد الحامية أفراد الفرنسية ثمانية آلاف، وكان من بينهم المبعوث الخاص بالملك الذي طلب من الدوق دي بوفور ترك القيادة " لدي غادييه" واستمرار ملاحقة الجزائريين في البحر، وعند قدوم جيش علي آغا عقد الفرنسيون مجلسا حربيا دعى فيه دي بوفور كل الضباط إلى الهجوم الجماعي على الجيش الجزائري، ولكن قوبل هذا القرار بالرفض لأنه يخالف أوامر لويس الرابع عشر[2]. وبالتالي فإن مسؤولية سبب فشل الحملة يعود إلى القائدين البحريين شوفالي بول والدوق دي بوفور[3]. وهو ما يؤكده الأسير الفرنسيبقوله: " لقد علمت أن السيد دوق بوفور والضباط الذين كانوا معه كان من رأييهم لملاقاتها (المحلة الجزائرية)...ولكن منعوا وتحولوا إلى راي الآخرين الذي يقضي بعدم ترك الحصن والمجازفة بالخروج..."[4]. فقد رأى هذا الأسير أن انتصار الجزائريين لم يكن إلاّ صدفة قياسا على الإمكانات بين الطرفين، فالجيش الجزائري لم يكن يملك في هذه الحملة إلاّ ثلاثة مدافع من عيار 44 إلى 48 رطلا، ومتعجبا أيضا من عدد الجنود الذي كان الفارق بينها الضعف، فالجزائريون أنفسهم كانوا يرون استحالة غلبة الفرنسيين[5]، ويحضرني هنا قوله تعالى:" الآن خفف الله عنكم وعلم أن

---

[1] De Grammont, **Histoire d Alger** …,op.cit, p 216.

[2] أمين محرز، المرجع السابق، ص ص 115-116.

[3] وولف، المرجع السابق، ص 317.

[4] قنان ،**نصوص ووثائق**...، المرجع السابق، ص132.

[5] المرجع نفسه.

فيكم ضعفا فإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يك منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين"[1].

إثر هذه الهزيمة التي أدّت إلى مقتل حوالي ألف وخمسمائة شخص و حوالي خمسمائة أسير[2]، ترك الفرنسيون الفارون من ميدان المعركة المدفعية والمعدات الحربية التي أصبحت غنيمة للجزائريين الذين أخذوها للعاصمة[3].

أورد الدكتور "جمال قنان" رسالة لأحد الأسرى الفرنسيين في مدينة الجزائر يدعى "لوقران" تصف لنا الغنائم التي نقلت على مدينة الجزائر على إثر إندحار الفرنسيين من مدينة جيجل يقول فيها: ... وإنما كانت من جراء ما أشعر به من العار والذل الذي أحس به كما يحس به الآخرون(الأسرى الفرنسيون). بسقوط جيجري(جيجل) الذي لم أود تصديقه إلاّ عندما ألقيت نظرة إلى البحر ورأيت الأجفان العائدة وعلى متنها ثمانين فرنسيا أو أكثر وأربعة عشر قطعة مدفع إلى جانب غنائم كثيرة ... لقد وصلت في هذا اليوم ثلاثة سفن تحمل عددا من الأسرى مماثلا للذي حمله الأجفان ...كما نقلت المدافع التي هي في مجموعها تتكون من اثنين وثلاثين قطعة مصنوعة من الحديد والصلب وستة عشر قطعة مصنوعة من الحديد ... كما حملت كمية كبيرة من قطع المنجنيق وكمية هائلة من الذخيرة والقذائف وما يملئ عشر مغازاة كبيرة من الدقيق وأكثر من ثمانمائة برميل من الخمر التي أتلفت بأمر من القائد التركي..."[4]، كلّ هذه الغنائم تعبر لنا عن قوة جنود وأهالي الإيالة الجزائرية في الدفاع عن الأراضي الجزائرية ومدى نجاحهم في طرد الفرنسيين ومن تحالف معهم من الأوروبيين. ولعلّه ممّا زاد في من حجم الكارثة والخسائر التي حلّت بالفرنسيين

---

[1] الآية 66 من سورة الأنفال.

[2] De Grammont, **Histoire d Alger** …,op.cit, p 216.

[3] قنان، **معاهدات الجزائر**...، المرجع السابق، ص 77.

[4] قنان، **نصوص ووثائق**...، المرجع السابق، ص ص 131-132.

غرق سفينتهم (القمر-لالون) والتي كان على متنها ألف ومائتي جندي، غرقوا بأكملهم في السفينة أثناء عملية الانسحاب[1].

وقد أشار أيضا المؤرخ "جون .ب. وولف" إلى هزيمة الصليبيين النكراء في جيجل، حين قام الجزائريون برمي الفرنسيين في البحر وهو ما جعلهم يخسرون جميع مدافعهم(خمسة منها نحاسية وخمس عشر من الحديد)، وكان أيضا من بين من رصد أصداء ذلك الانتصار الجزائري القنصل الإنجليزي الذي وصف حالة الاحتفالات العارمة في الجزائر، وكان الفرنسيون في إيالة تونس تلاحقهم أصوات كمواء القطط :" جيجل! جيجل! "[2].

3-1-4- تداعيات الحملة على بلاد المغارب:

لم يستوعب الملك الفرنسي لويس الرابع عشر هزيمة فرنسا في جيجل، فقام بإيفاد مبعوث مطالبا قادة الحملة بتقديم تفسيرات وتوضيحات في شأن انسحابهم من المعركة بدون إذنه. ولأنّ انتشار أخبار الهزيمة في أوروبا سيجلب العار سارع لويس الرابع عشر لتوجيه تعليمات إلى الصحافة تقضي بعدم التطرق لتفاصيل حملة جيجل. ومن ناحية أخرى فإنّ الحزب المعارض وخاصة الإتجاه الديني الساخط على سياسة الملك أبدى السعادة حيال هذا الحدث[3]. وبعد أربعة أشهر من هذه الهزيمة حاولت فرنسا رد الاعتبار، فخرج دي بوفور مجددا في يوم 17 فيفري 1665م[4] من ميناء تولون على رأس ست سفن متجها إلى السواحل التونسية، فقصد ميناء حلق الوادي أين قام بمطاردة فرقة بحرية تابعة لإيالة الجزائر ليتمكن على إثرها من إحراق ثلاث سفن. وفي يومي 02 و 27 ماي قصف ميناء مدينة الجزائر، دون أن يتمكن الجزائريون من الرد على هذا القصف. وواصل الفرنسيون في نهجهم وهاجموا سفن للبحارة في شرشال، وأحرقوا اثنتين منها وتمكنوا من أسر ثلاثة سفن أخرى

---

[1] بسام العسلي، **الجزائر والحملات الصليبية(1547-1791م)** ،ط3، دار النفائس، بيروت، 1986، ص 115.

[2] وولف، المرجع السابق، ص 317.

[3] غطاس، **العلاقات**...، المرجع السابق، ص 77، وينظر أيضا: جمال قنان، **معاهدات**...، المرجع السابق، ص 77.

[4] وذكر أنه كان في شهر جوان، ينظر: روسو، المرجع السابق، ص 123.

إضافة إلى استيلائهم علىمائة وثلاثة عشر مدفعا كان ذلك في يوم 24 أوت من نفس السنة[1].

على الرغم من أنّ هذه الأحداث لم تخدم المصلحة الفرنسية كثيرا إلاّ أنّها أرغمت الإيالتين التونسية والجزائرية إلى توقيع معاهدات سلم وصداقة، ففي 25 نوفمبر من سنة 1665م وقعّت فرنسا معاهدة سلم مع تونس تخص الملاحة البحرية ومسألة افتداء الأسرى[2].وكذلك الحال بالنسبة للجزائر في العام الموالي أي في سنة 1666م والتي مكّنت الفرنسيين من توجيه كلّ ثقلهم نحو الصراع في أوروبا[3]، ولكن مع وصول الدايات إلى الحكم في سنة 1671م كما تطرقنا إليه آنفا تغيرت السياسة الخارجية مع فرنسا، حيث بدا واضحا تخلي السلطة في الجزائر عن تقديم التسهيلات. وردّت فرنسا من جهتها وحذرت بالقطيعة اتجاه الجزائر في حال عدم احترام القواعد المتفق عليها من أجل السلام بين البلدين، وقد ذكرت هذه القواعد في مراسلة من الداي مؤرخة في 23 سبتمبر 1674م: " إنّ وسيلة تدعيم السلام بين بلدينا هي ان تمنعوا رعاياكم من استقبال اكثر من ثلاثة مسيحيين من أعدائنا على متن سفنكم، وأن لا يبحر رعاياكم في سفن أعدائنا. إنّ هذا سيكون سببا في القطيعة وستكون هذه الحالة خارجة عن إرادتنا... كما أننا لن نسمح لكم بحجز رعايانا الذين يفرون من جنوة وليفورنو وإسبانيا وأماكن أخرى عندما يلتجئون على مملكتكم بناء على السلام القائم بيننا"[4].

---

[1] De Grammont, **Histoire d Alger** …,op.cit, p217.

[2] روسو، المرجع السابق، ص 123.

[3] لقد كانت أغلب الحروب الأوروبية التي اندلعت منذ عام 1648م تسعى إلى إجهاض المحاولات التوسعية لملك فرنسا لويس الرابع عشر، وذلك من خلال سلسلة من التحالفات ضده، فمثلا قيام تحالف سنة 1665م تزعمته بريطانيا والنمسا وعدد من الدويلات الأخرى لإجهاض المحاولة الفرنسية لضم هولندا إلى ممتلكاتها، وعندما نجحت فرنسا في احتلال هولندا، لجات إسبانيا وبريطانيا والسويد والدويلات الألمانية ودولة الهابسبورغ إلى إقامة تحالف كبير ، استطاع كبح الأطماع الفرنسية ووضع حد لها. ينظر: لياس نايت قاسي و مليكة بلقاضي، المقال السابق، ص 20.

[4] نقلا عن : غطاس، **العلاقات** ...، المرجع السابق، ص ص 80-82.

وهو ما حدث أيضا بالنسبة للمغرب الأقصى، ففي رسالة مؤرخة في يوم 19 نوفمبر من سنة 1665م، بعث فيها لويس الرابع عشر إلى سلطان المغرب الأقصى خلال هاته الفترة وهو المولى الرشيد، أعرب من خلالها الملك الفرنسي عن رغبته في إقامة علاقات صداقة وتجارة بين فرنسا والمغرب الأقصى[1].

لقد غيّرت الحملة الفرنسية على جيجل سنة 1664م من سياسية لويس الرابع عشر اتجاه بلاد المغارب، حيث نجد أن هذه الحركة من خلال الاتفاقيات والمعاهدات كانت من أجل هدف وحيد وهو أن يفرض الملك لويس الرابع عشر سلما بالرؤية الفرنسية في البحر الأبيض المتوسط[2]. وفي نفس الوقت يمكن أن تنقلب هذه العلاقات العدائية مع المغاربة إلى تشكيل تحالف قوي مع كل دول المغارب أو مع طرف منها قد يساعده في إطار التنافس الإقليمي والدولي في في البحر المتوسط.

3-2-تحالف المغارب مع الدول الأوروبية(التحالف الفرنسي المغربي ضد الجزائر 1093هـ/1682م أنموذجا):

لم تتوقف المحاولات الفرنسية لاحتلال مناطق في بلاد المغارب والتوسعات فيها بالرغم من أنّها كانت في توافق مع الدولة العثمانية منذ النصف الأول من القرن السادس عشر فبعد أن سيرت حملة صليبية ضد إيالة الجزائر في سنة 1664م بمشاركة وتعاون عدد من الأمم المسيحية الأوروبية رغم أنّها لم تفلح في مسعاها، هاهي بعد ذلك فرنسا تغيّر من الإستراتيجية السياسية والعسكرية تجاه المنطقة وقرّرت التحالف مع المغرب الأقصى لأجل إضعاف الجزائر وربّما احتلالها، هذا التغير قد يعود إلى الأوضاع التي شهدتها أوروبا خلال

---

[1] للإطلاع على تفاصيل رسالة الملك لويس الرابع عشر إلى الشريف العلوي المولى الرشيد ينظر: عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس**، تح: علي عمر، ج3، ط1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، مصر، 2008، ص ص 75-76.

[2] قنان، **معاهدات...**، المرجع السابق، ص 78.

تلك الفترة، وأيضا إلى فتور العلاقات الجزائرية المغربية من جهة ثانية، وبالتالي هي فرصة ثمينة لاستغلال الوضع من طرف الملك الفرنسي لويس الرابع عشر.

3-2-1- لمحة موجزة عن العلاقات الجزائرية المغربية قبيل 1682م:

تعرّفنا في الفصول السابقة ضمنيا على مظاهر العلاقات الجزائرية المغربية خلال العهدين الوطاسي والسعدي وما حملته من حالة الشد والجذب، وجدلية الصراع والسلم وما كان لها من تداعيات على المنطقة، أمّا العلاقات الثنائية بين الطرفين في عهد العلويين فقد اتضح منذ بدايات حكم هؤلاء مدى محاولاتهم والعمل على توسيع سلطتهم على حساب الأراضي الجزائرية؛ فبعد أن إستولى السلطان محمد الشريف على وجدة[1]، وجّه أنظاره نحو تلمسان وقام بالإغارة عليها وعلى القرى القريبة منها،وكانت هناك ردود أفعال على هذا الغزو،فخرج أهل هذه المناطق وعسكرها للدفاع عن أوطانهم، إلاّ أن السلطان العلويتمكن من هزيمتهم، وقتل الكثير منهم، وعاد إلى وجدة ليقضي فيها فصل الشتاء، ولما إنقضىهذا الأخير توجه عن طريق الصحراء فأغار على الجغافر ونهب أموالهم، ودخل في طاعته محمود شيخ حميان من قبيلة أولاد خيسة ففرح بهم و أكرمهم، فقادوه إلى بني لغواط وعين ماضي والغاسول ليتمكن أيضا من نهب تلك القرى كلّها الإستيلاء على أموالها، إلاّ أنّ عرب الحارث و سويد وحصين تمكنوا من الفرارأين نزلوا و تحصنوا بجبل راشد[2].

لقد إضطربت أحوال المغرب الأوسط(الجزائر) من خلال هذه الأحداث، حتى وصل الحد إلى إنتفاض الرعية على الحكم التركي بالجزائر، فقد أخذ باي معسكر يخندق على نفسه، وبعث إلى حاكم الجزائر يخبره بما لحق الرعايا من غزو وظلم السلطان المغربي؛

---

[1] عمر بن قايد، **أضواء على علاقات الجزائر مع المغرب الأقصى خلال القرن(11م/17م)**، مجلة الواحات للبحوث و الدارسات، ع17، 2012م، ص.144

[2] أبو القاسم الزياني، **البستان** ...،المصدر السابق، ص42.

فأخرج عثمان باشا الجيش لأجل الدفاع عن رعاياه، ولما سمع محمد الشريف بخبر توجه الجزائريين نحوه انسحب إلى وجدة[1].

توّجه الطرفان إلى الحل الدبلوماسي عن طريق المفاوضات حين إجتمع أهل الديوان بالجزائر، و اتفقوا على أن يوجهوا رسالة للسلطان محمد بن الشريف مع إثنين من علماء الجزائر و إثنين من أعيان الأتراك، وإنتهت المفاوضات برسم الحدود بين إيالة الجزائر والمغرب الأقصى، وجعل وادي التافنة[2] حدا فاصلا للحدود الطبيعية بينهما وتعهد السلطان العلوي باحترام الاتفاقية بقوله: "والله ما أوقعنا في هذا المحذور إلا شياطين العرب إستنصروا بنا على أعدائهم وأوقعونا في معصية الله، وأبلغانهم غرضهم، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وأنا أعاهد الله تعالى أنا لا أعود لرعاياكم ولا لبلادكم وأعطيتكم ذمة الله وذمة رسوله لا قطعت وادي تافنة إلا فيما يرضي الله ورسوله"[3]،و قام بكتابة تعهد إلى حاكم الجزائر يخبره بأنّه مقتنع بما فتح الله عليه من سجلماسة ودرعه وأعمالها[4]. وهو ما تم فعلا خلال ما تبقى من فترة حكمه، كما احترم أيضا خليفته أخوه الرشيد الإتفاقية[5]، إلى أن وصل المولى إسماعيل إلى الحكم وفسخ تلك المعاهدة مع الجزائر فيما بعد[6].

---

[1] الناصري، **الاستقصا**...،المصدر السابق، ج7، ص21.

[2] واد التافنة: وهو نهر ينبع من جبل بني ورنيد قرب قرية" سبدو" في جنوب تلمسان، وينحد في اتجاه شمالي غربي إلى أن يتصل برافده نهر " المويلح" شمال شرق مغنية، ثم يغير مجراه في اتجاه شمال شرقي بين مرتفعات" ترارة" و" " سبع الشيوخ" يصب في البحر الأبيض المتوسط أمام جزيرة" ارشكون" مارا على تلمسان بنحو بعد 19 ميلا، كان لذلك العهد يمثل الحد السياسي الذي يفصل الجزائر عن المغرب الأقصى في عهد السعديين والعلويين بعدهم، ينظر: أبو القاسم الزياني، البستان الظريف...، المصدر السابق، ص82. وينظر أيضا: الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المصدر السابق، ج2، ص ص250-251

[3] أبو القاسم الزياني، **البستان الظريف**...، المصدر السابق، ص ص 43- 47.

[4] محمد بن محمد بن مصطفى المشرقي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المنسية**، ج1، ط.1، درا وتح: ادريس بوهليلة، دار ابي رقراق للطباعة، الرباط، 2005م، ص204.

[5] Auguste Cour, **Letablisment des dynasties des cherifs au maroc leur rivalite avec les turces de la regence d Alger (1509-1830)**, paris, 1904, p 197.

[6] بن قايد، المقال السابق، ص 144.

إنّ جلّ الباحثين الذين عرجوا على موضوع العلاقات الجزائرية المغربية في عهد السلطان المغربي إسماعيل العلوي تطرقوا إلى تلك المناوشات مع جيرانه الأتراك في الجزائرمن خلال استنادهم على الوثائق المغربية والتركية والفرنسية وغيرها، بالرغم من الإتفاق بين السلطة التركية في الجزائر والعلوية في المغرب الأقصى منذ بداية أيام السلطان إسماعيل على إقرار ماتم بين أخويه محمد والرشيد وبين أتراك الجزائر من خلال جعل إتخاذ واديالتافنة حدا لترسيم الحدود بين الطرفين[1]،إلا أنهوفي سنة (1090هـ-1679م) أخذ الشريف العلوي فيالدخول والخروجمن الجهة الغربية من إيالة الجزائر وفي تلمسان تحديدا وفي بعض المرات تم إخراجه بالقوة[2]حين قدم إلى وجدة جاءته أهل ووفود العرب من ذوي منيع وحميان والمهابة والعمورية وأولاد جرير وسقونة وبني عامر والحشم فسار بهم إلا أن نزلوا القويعة على رأس وادي شلف، أين خرج الجيش الجزائري بكل ما أوتي من العتاد والقوة العسكرية والمدفعية التركية المتطورة، فوقع القتال بينهما، وانتهى بهزيمة القوات المغربية ومن تحالف معها من القبائل[3]، وعزا بعض الباحثين منهم الباحث محمد علي داهش هذه الهزيمة إلى التفوق التسليحي للجيش الجزائري وهو يسميه الجيش العثماني[4].

وفي سنة 1092هـ-1681م فبينما كان السلطان المغربي إسماعيل العلوي يحاول توحيد بلاد المغرب الأقصى والقضاء على الثورات والتمرداتمعتقداأنّ أمر إبن أخيه الأمير أحمد محرز قد إنتهي بعد طرده من سوس وردت إليه أخبار مفادها مساهمة ودعم أتراك

---

[1] عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، مج9، الهيئة العامة المكتبة الأسكندرية، المملكة المغربية، 1988م، ص13.

[2] نور الدين عبد القادر، **صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم العصور إلى انتهاء العهد التركي**، د.ط، دار الحضارة، الجزائر،2006م، ص130.

[3] الناصري،**الاستقصا**...،المصدر السابق، ج7، ص59.

[4] داهش، المرجع السابق، ص ص 76-77.

الجزائر تمرد إبن محرز في الجنوب من خلال ما ضبط من بعثات متبادلة ومراسلات منتظمة بينهما، إنتهت إلى عقد حلف سري بين السلطة في الجزائر وبين عناصر التمرد[1].

3-2-2- الإتصالات الفرنسية المغربية:

كان إسم الجزائر متداولا في كثير من المناسبات واللقاءات المغربية الفرنسية، وأثناء تبادل السفارات أيضا باعتبارها العدو المشترك للبلدين، فالأوضاع الراهنة في المنطقة توجب تشكيل تحالف ضدها، وبالرغم من اختلاف الأهداف وتباعد المصالح الاستراتيجية بينهما. إلاّ أنّ إيالة الجزائر ودورها البارز خلال هذه المرحلة ساهم في إثراء المباحثات بين الطرفين، حيث حاولت فرنسا أن تربط علاقات ديبلوماسية مع العلويين بدءا من السلطان المولى الرشيد، ولكنّ الظروف السياسية لم تسمح بتوسيع الاتصالات وتحقيق الأهداف المنشودة منها[2].

وتعود جذور الاتصالات بين المغرب الأقصى وفرنسا خلال بداية القرن 17م /11ه إلى مطلع هذا القرن، حيث يحصي الباحث "سهيل جمال" البعثات الديبلوماسية المغربية إلى البلاط الفرنسي في الفترة ما بعد وفاة المنصور السعدي أي في سنة 1603م إلى غاية نهاية الدولة السعدية، بأنها عرفت تكليف ثلاثة مبعوثين في عهد المولى زيدان (1610-1619م) هم: أحمد بن قاسم الحجري الملقب " بأفوقاي"، أحمد الجزولي، سيدي فارس، ثم شهدت العلاقات بين البلدين مرحلة جمود وقطيعة ديبلوماسية، إذ لم يذكر وجود لأي بعثة مغربية نحو فرنسا إلى غاية سنة 1681م[3]. بالرغم من أنّ التحركات السياسية بين البلدين كانت بداية من تولي المولى إسماعيل الحكم بالمغرب الأقصى في سنة 1083ه/1672م الذي ما إن وصل إلى سدة الحكم حتى وصلته تهنئة من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر.

---

[1] التازي،**التاريخ الدبلوماسي**...،المرجع السابق، ص13.

[2] بن قايد، المقال السابق، ص 144.

[3] سهيل جمال، **البعثات الديبلوماسية المغربية إلى البلاط الفرنسي خلال القرن 11ه/17م**، رسالة ماجستير، تاريخ حديث، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، 2010-2011م، ص 106.

وإزاء تطور وتزايد، واستمرارا لمسلسل عمليات القرصنة البحرية خلال هذا القرن، عمل القراصنة الأوروبيين وخاصة الفرنسيين منهم على استهداف السفن المغاربية، ففي جوان 1681م تمكن القرصان الفرنسي المدعو "جون بارت" (Jean Bart) من مدينة (Dunkerque) من أسر العديد من المغاربة، كما أسر قرصان فرنسي آخر يدعى "دي بيتين" (De Bethune) مجموعة أخرى، وتوجه بهم إلى موانئ طولون ومرسيليا[1]. كانت هذه العمليات ردا على أعمال البحارة السلاويين.

وعلى الرغم من تأزم العلاقات بين البلدين من خلال هذه الأعمال العدائية، إلاّ أنّ الديبلوماسية لعبت دورها في حلحلة المشاكل بينهما، حيث وبتاريخ 01 جويلية 1681م عقدت اتفاقية بين القائد الفرنسي" شاطو رونو" والقائد المغربي عمر بن حدو، لتتواصل بعدها مفاوضات بين هذا الأخير و"لوفيفر دولابار"(Le fevre de la Barre) في مدينة المعمورة انتهت بتوقيع اتفاقيةفي يوم 13 جويلية 1681م بين فرنسا والمغرب الأقصى تضمنت 16 بندا[2].

لقد نصّ البند السادس من الاتفاقية على توضيح حقوق وواجبات القنصل الفرنسي وكذلك الحال في البند الثالث عشر إذ حدد أماكن إقامة القناصل الفرنسيين في سلا وتطوان وكلفهم بتقديم جوازات مرور للتجار الفرنسيين ومساعدتهم في مهامهم، إضافة إلى السماح بممارسة الشعائر الدينية للفرنسيين المقيمين بالمغرب بكل حرية وفق ضوابط، كما نص نفس البند بمنح القنصل حق القضاء في النزاعات بين الرعايا الفرنسيين في المغرب[3].

---

[1] Raimond thomassy, **le maroc, relation de la France avec cet empire**, ed 03, librairie de charle douniol, paris, 1859, P 132.

[2] التازي، **التاريخ الديبلوماسي...**، المرجع السابق،ج9، ص 71.

[3] زهراء إخوان، **بدايات إستقرار أليات التدخل الأوروبي في المغرب**، في مجلة مكناسة، العدد 11، جامعة مكناس، 1997، ص ص 73-74.

ويتضح من خلال الإطّلاع على بعض بنود هذه الاتفاقية بصفة عامة بأنّ فرنسا اتخذت نفس الأسلوب مع المغرب الأقصى الذي سبق واتخذته مع الإيالات المغاربية، مع الإيالة التونسية في سنة 1665م، ومع إيالة الجزائر بعدها بسنة، أي في 1666م كما اسلفنا الذكر.

لم تبق العلاقات الفرنسية المغربية خلال هذه الفترة تراوح مكانها، بل أخذت منحى آخر مع مطلع سنة 1682م حين جسد ذلك التوافق بين البلدين ابتداء من مصادقة السفير المغربي على معاهدة سان جارمان بتاريخ 20 محرم 1093هـ/29 جانفي 1682م، والتي أشارت إلى تبني سياسة قانونية ضدّ الإيالات المغاربية ومنها الجزائر، وتعني بالخصوص البحارة المغاربة. لتكتمل الصورة مع سفارة" بيدو سانت أولون " التي وجهها لويس الرابع عشر إلى المغرب الأقصى أكدّ فيها العمل على إقامة حلف وتعاون إستراتيجي ضد الإيالة الجزائرية[1] التي اتحد قراصنتها مع بعض الأطراف الخارجية الأخرى للنيل من أساطيل فرنسا التجارية[2]، ولعلّ الملاحظ هو تردد السلطان المغربي مولاي إسماعيل في مسألة التحالف مع مع المسيحيين ضد إخوانه المسلمين[3]. ومن خلال مجريات هذه الحملة سنتعرف على الموقف الحقيقي الذي اتخذه الشريف العلوي.

3-2-3-دوافع سير الحملة ونتائجها:

لم تكن إيالة الجزائر الإيالة الوحيدة المستهدفة من قبل الفرنسيين خلال هذه الفترة بالضبط فقدحاول قبل ذلك الأميرال "دوكين" الذي حلّ بسواحل طرابلس الغرب في يوم

---

[1] حنيفي هلايلي، **أوراق...**، المرجع السابق، ص 61.

[2] في ثمانينيات القرن السابع عشر هزت أوروبا الحروب التجارية التي شاركت فيها هولندا وانجلترا وفرنسا. حيث حاولت إنجلترا وهولندا المشتركتان في الحرب ضمن حلف واحد ضد فرنسا أن تستخدما قراصنة الشمال الإفريقي فقدمتا لهذه الغاية مساعدة إقتصادية لطرابلس الغرب والجزائر وتونس. ففي 1680م بدأ الهولنديون ثم الإنجليز من بعدهم سنة 1682م بتزويد الأسطول الجزائري بالحبال والصواري والأسلحة. ولقاء ذلك حصلت انجلترا وهولندا على الحق في استيراد القمح من الجزائر، ينظر: بروشين، المرجع السابق، ص 96.

[3] بن قايد، المقال السابق، ص 144.

1680/08/14م بأسطول متكون من خمس قطع بحرية الحصول على وعد بإطلاق سراح الأسرى، وعقد اتفاقية مع الطرابلسيين ولكنه فشل في مسعاه[1].

وأعاد الأسطول الفرنسي بعد سنة حصار طرابلس أي في أغسطس 1681م، وتمكن من توقيع معاهدة استسلام من طرف الطرابلسيين وعلى رأسهم قائد الأسطول محمد شيكيتو بالرغم من كل الجهود المبذولة وتوصل الطرفان لعقد الاتفاقية يوم 1681/10/28م الموافق 11 شوال 1092هـ، فقد تطرقت بنود الاتفاقية الستة بشكل عام إلى إطلاق سراح الأسرى، وعدم تفتيش المراكب الفرنسية وغيرها[2].

لقد ساهمت عدة عوامل في توجيه فرنسا لحملة دوكين على الجزائر إلاّ أن السبب الرئيسي لها حسب الفرنسيين هو مساعدة إيالة الجزائر لقراصنة سلا والتي طرقنا إليها سابقا ولاحظنا كيف تحوّلت الموانئ الجزائرية لملجأ للقراصنة من المغرب الأقصى، وهو ما ذكره القسيس جان لوفاشي في إحدى رسائله في سنة 1681م وهو الذي شغل قنصل فرنسا بالجزائر خلال الفترة (1673-1683م) بقوله:" لا تزال قوة البحرية الجزائرية تساعد قراصنة سلا على النزول بميناء مدينة الجزائر، وبها تباع الغنائم التي أخذت من الفرنسيين، وعندما تدخلت بخصوص هذه المظالم لدى السلطات كانت إجابتهم بأن هؤلاء القراصنة إخوانهم في الدين، ويمكن في كثير من الحالات تقديم لهم يد العون والمساعدة، وإذا اقتضت الظروف أمددناهم بسفننا عند الحاجة"[3]. وهي نفس الذريعة التي يتخذها الكثير من الأوروبيين في حملاتهم وغزوهم للبلاد المغاربية خاصة خلال القرن السابع عشر، وهي حجة داحضة إذا ما نظرنا إلى المعطيات التاريخية لتلك الحملات ومن زوايا متعددة، وعلى رأسها فقدان فرنسا

---

[1] شارل فيرو، المرجع السابق، ص 196.

[2] حول بنود هذه الاتفاقية ، ينظر: بول ماساي، **الوضع الدولي لطرابلس الغرب(المعاهدات الليبية الفرنسية 1685-1830)**، تع: محمد مفتاح العلاقي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 1991، ص ص47-48.

[3] حنيفي هلايلي، **بنية الجيش الجزائري...**، المرجع السابق، ص 122.

لسمعتها ومكانتها بين الأمم الأوروبية خلال هذه الفترة[1]، فتسيير حملة إلى الجزائر في نظر الكثير من الفرنسيين سيرد نوعا من الهيبة[2]، خاصة بعد أن أعلن الديوان الحرب على فرنسا[3] حيث استولى الرياس الجزائريون على 29 سفينة فرنسية، وتمكنوا خلال هذه العملية من أسر ثلاثمائة شخص. ونظرا للتنافس بين فرنسا وإنجلترا، فقد استغلت هذه الأخيرة تعكر الجو بين الطرفين وأبرمت معاهدة مع الجزائر وصفها " لوبير لوفاشي" بالمعرة للانجليز لأنّها تكاد كل بنودها في صالح الجزائريين[4].

وفي الناحية الأخرى فقد سعى حكام المغرب الأقصى العلويون الأوائل إلى التوسع شرقا نحو تلمسان ولم يتأت لهم ذلك نظرا لقوة الإيالة الجزائرية في هذه المرحلة، فالتحالف مع الفرنسيين فرصة لا تعوض بالنسبة للسلطان إسماعيل العلوي إذا ما أراد تنفيذ مشروعه التوسعي في المنطقة والانتقام من الجزائريين الذين لطالما عملوا على مساندة كل المعارضين والثائرين ضده[5].

سخرّت فرنسا جميع الموارد المادية والبشرية لإعداد حملة عسكرية ضخمة بقيادة الأميرال "دوكين"" Duquene" الذي غادر ميناء طولون[6] على رأس أسطول عظيم يتكون من 33 مركبا بحريا كان ذلك في يوم 12 شهر جويلية 1682م-1093ھ متجها نحو

---

[1] شهدت فرنسا خلال حكم الملك لويس الرابع عشر، عدة حروب منها : حرب الوراثة في الأراضي المنخفضة(1667-1668م) ومنها حروبها مع هولندا(1672-1679م)، بالإضافة إلى معاداة فرنسا لكل من إسبانيا وألمانيا. ينظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار،المرجع السابق، ص ص 165-170.

[2] جون وولف، المرجع السابق، ص343.

[3] اتفق البلدين على تبادل الأسرى بين الجانبين في سنة 1681م، وأوفت الجزائر بالتزامها وأطلقت سراح الأسرى الفرنسيين، بالمقابل رفض الفرنسيون إطلاق سراح الأسرى الجزائريين الذين أرسلوا إلى المشرق لأجل عمليات التجديف على متن السفن الفرنسية، ينظر: محمد مبارك الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 186.

[4] محمد بن ميمون الجزائري، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تق و تح: محمد بن عبد الكريم، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص19.

[5] حنيفي هلايلي، **أوراق**...، المرجع السابق، ص61.

[6] طولون: أكبر قاعدة عسكرية وبها الميناء العسكري لفرنسا على البحر المتوسط. ينظر: محمد شفيق غربال(إشراف)، المرجع السابق،ص1167.

مدينة الجزائر واضعا هدفا واضحا من خلال هذه الحملة ألا وهو تخريب المدينة عن آخرها[1]. لقد كان الفرنسيون معتمدين على سلاح جديد وهو مدفع الهاون[2].

وصل الأسطول الفرنسي في البداية إلى مدينة شرشال، ليتم قصفها لكن لم يتحقق لهم أي هدف، ويصف ابن رقية التلمساني المشهد بقوله: ... في إمارة بابا حسن في أول شهر رجب قدمت عشرة أجفان كبار، وخمسة عشر غربة من الفرانسيس إلى الجزائر...، وبعد أيام قدمت العمارة الكبيرة ، وهي خمسة عشر جفنا كبارا ...فأول ما بدأ اللعين بالحرب مشي بسفائنه وغربته إلى مدينة شرشال وحاربهم وقابل اللعين شرشال بالمدافع بقدر طاقتهم، فلم يصل اللعين إلى طائل من أهل شرشال... "[3]، وبعدها توجهو نحو مدينة الجزائر في غرة شهر رجب، ونورد في هذا الموقف وصفا لشاهد عيان كان يتواجد بمدينة الجزائر خلال قصفها وهو "ابن زاكور" حيث يقول:" ... وغص بشفائن النصارى بحرها، فزلزلوا قصورهم النواضر، بصواعق أمثال القناطر، ورجموا مصانعهم العادية، بشهب هندوانية...ورائحة تصرع من على مسافة القصر..."[4]. وفي هذا الصدد أيضا يستفيض التلمساني عن أحوال و تفاصيل المعركة وما أسفرت عنه بقوله: " ...ورموا قدر مائة وخمسين بومبة، كل بومبة في الثقل قنطار واحد، وهدّموا بها قدر مائتي دار وسقطت منها بومبة واحدة في الجامع الجديد،

---

[1] يحي بوعزيز، **علاقات...**، المرجع السابق، ص 85

[2] مدفع الهاون : من اختراع شخص يدعى " ريتو ديليكاغاري، يمكن له أن يطلق قذيفة ضخمة من المتفجرات على مسافة تقدر ب 1350 متر، وهو ما يسمح بتحطيم أي بناية تكون في واجهة المتفجرات. ينظر: وولف، المرجع السابق، ص 343.

[3] ابن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 128.

[4] ابن زاكور محمد الفاسي، **رحلة ابن زاكور الفاسي المتوفى (1120هـ/1708م) المسماة: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان،** تح: مصطفى ضيف و محفوظ بوكراع، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص74.

وأخرى في الجامع الكبير، واستشهد من المسلمين قدر عشرين نفسا... ورموا ثمانية وسبعين بومبة، ولم يصل للمدينة غير ثلاث بومبات..."[1].

وقد اختلفت المصادر والمراجع في تقدير الخسائر من الجانبين، فالمؤرخ "جون ولف" ذكر بأنّ عدد الجزائريين الذين قتلوا خلال هذه الحملة كان خمسمائة شخص، وتهديم حوالي خمسين بناية ولم يذكر الخسائر من الجانب الفرنسي[2]، أمّا ابن رقية التلمساني فقدّ ذكر بأنّ عدد القتلى في صفوف الجيش الفرنسي بلغ 2000 عند هجومهم على شرشال، واستشهاد عشرين من الجزائريين، ففي معرض حديثه حول الخسائر يضيف التلمساني:" ...ولم يمت من أهل شرشال ولو نفس واحدة، ومات من الملاعين أكثر من ألفي فارس ... واستشهد من المسلمين عشرين نفسا... رجع الملاعين إلى بلادهم خائبين خاسرين، ومات من الملاعين خلق كثير خصوصا من المرضى..." [3]. كلّفت حملة سنة 1682م فرنسا ميزانية ضخمة[4].

رغم الفرق في موازين القوى العسكرية بين الطرفين إلاّ أنّها لم تؤثر في نتائج الحملة سياسيا وعسكريا، ومهما كانت الخسائر التي عرفنا بأنّها كانت محل خلاف بين المؤرخين إلاّ أنّ إيالة الجزائر بقيت صامدة في وجه الإعتداء الصليبي الذي تلقى خيبة أخرى في بلاد المغارب تضاف إلى تلك الهزائم التي مني بها الغزاة الأوروبيون أجمعون.

3-2-4- الدور المغربي خلال حملة دوكين:

إنّ اختيار السلطان المغربي مولاي إسماعيل التحالف والصداقة مع فرنسا لم يكن عبثيا باعتبارها الدولة الوحيدة التي لم تكن تحتل آنذاك أي شبر من تراب المغرب الأقصى، مقارنة مثلا مع إسبانيا والبرتغال وإنجلترا التي كانت تحتل أجزاء من المغرب، بالإضافة إلى أنّ فرنسا كان لها حضور قنصلي قوي في البلاد مع تطلعها إلى تنمية التبادل التجاري بين

---

[1] ابن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص ص 128-129.

[2] وولف، المرجع السابق، ص 344.

[3] ابن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص ص 128-129.

[4] ابن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 19.

البلدين وحل مشكل الأسرى، وإقصاء انجلترا منافسة فرنسا في طنجة، وشل جهودها الهادفة إلى الانفراد ببعض جزر الشاطئ المتوسطي[1]، ليس هذه فحسب بل يرى البعض أن مولاي إسماعيل كان في حاجة لهذا التحالف لتعزيز موقفه أمام إيالة الجزائر[2]. كما فعل سابقا السلطان السعدي محمد الشيخ وابنه عبد الله الغالب بتحالفهم مع الإسبان.

لم يتطرق الباحثون في المغرب الأقصى إلى مسألة تحالف المولى إسماعيل العلوي مع فرنسا ضد إيالة الجزائر، من بينهم التازي صاحب موسوعة "التاريخ الديبلوماسي للمغرب"[3]، في حين يذهب المؤرخون الجزائريون إلى طرح قضية التعاون الفرنسي المغربي، من بينهم الباحث "المكي جلول".

وإذا ما تتبعنا العلاقات الجزائرية المغربية خلال حملة دوكين على مدينة الجزائر فإننا نجد تدخلات مغربية في نواحي تلمسان، فقد ذكر "الضعيف الرباطي" أنّه وفي نفس السنة التي أغار فيها الفرنسيون على الجزائر وجّه إسماعيل العلوي محلة إلى تلمسان للانتقام من الجزائريين الذين ساندوا تمرد ابن محرز، وفي هذا الصدد نورد ما ذكره صاحب الاستقصا في هذا الشأن بقوله: ...ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وألف فيها غزا السلطان بلاد الشرق فنهب بني عامر ورجع إلى مكناسة، وأمر بإخراج أهل الذمة من المدينة... ثم بلغه أن الترك قد خرجوا بعسكرهم واستولوا على بني يزناسن وعلى دار ابن مشعل، وانهم قد مدوا يد الوفاق إلى ابن محرز ..."[4] كان ذلك في الخامس عشر من شهر جمادى الأولى من سنة 1093هـ/ 1682م[5]، غير أنّ المؤرخ الجزائري "عبد الرحمان الجيلالي" أورد أنّه تم قصف

---

[1] جمال سهيل، المرجع السابق، ص 107.

[2] مكي جلول، المرجع السابق ، ص 111.

[3] تحدث عن العلاقات المغربية العثمانية ممثلة في إيالة الجزائرية، وكذلك عند تطرقه لمعاهدة سان جرمان في 29 جانفي 1682م، ينظر: التازي، **التاريخ الديبلوماسي**...، المرجع السابق، ص 13-14-72-74.

[4] الناصري، **الاستقصا**...، المصدر السابق، ص ص 64-65.

[5] للمزيد ينظر: محمد الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص ص 64-65.

مدينة الجزائر في شهر رجب[1]، ويبدوا أنّه استند على رواية ابن "رقية التلمساني" صاحب الزهرة النائرة[2]، ومن الناحية الأخرى لم يذكر ابن زاكور الشهر ولا اليوم الذي تم فيه قصف مدينة الجزائر من طرف من القوات الفرنسية، واكتفى فقط بذكر السنة[3]. إلاّ أنّ "الناصري" صاحب الاستقصا و كذلك الزياني صاحب "البستان الظريف" يؤكدان بتزامن التدخل المغربي في تلمسان مع خروج حملة دوكين إلى الجزائر، حيث يقول الناصري:" ... ثم خرج رحمه الله بالعساكر لمصادمة الترك فوجدهم قد رجعوا إلى بلادهم لما بلغهم من خروج النصارى بشرشال، فساروا إليهم وفتكوا فيهم فتكة بكرا وردوهم على أعقابهم صاغرين..."[4]. وما يدعم هذه الفرضية ما ذكره الباحث المغربي" إبراهيم حركات" بقوله:" ... وقد استغرقت تحركات مولاي إسماعيل هذه المرة بالمغرب الأوسط مدة تناهز السنة حتى دخل العام الموالي..."[5]. وبالتالي فإنّ السلطان المغربي سيّر أكثر من حملة ضد إيالة الجزائر خلال هذه الفترة، قد تكون إحداها تزامنت مع حملة دوكين على الجزائر استنادا على معاهدة 29 جانفي 1682م بين المغرب الأقصى وفرنسا.

لقد تصدّى الجزائريون لحملة إسماعيل العلوي حين أرسل الداي بابا حسن قوات عن طريق البحر لنجدة تلمسان، أين تمكنت من إلحاق الهزيمة بالقوات المغربية التي انسحبت وتمت العودة إلى استمرار وادي التافنة حد فاصلا بين البلدين[6]. وهكذا يتضح لنا بأنّ التدخل الأوروبي في الشأن المغاربي زاد من الخلاف بين الدول المغاربية، فعوض تحالف المغاربة

---

[1] الجيلالي، **تاريخ الجزائر**...، المرجع السابق، ج3، ص 191.

[2] ابن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 127.

[3] ابن زاكور، المصدر السابق، ص 74.

[4] الناصري، **الاستقصا**...، المصدر السابق، ص 65.

[5] إبراهيم حركات، **المغرب**...،المرجع السابق، ج3، ص 53. وينظر أيضا:.Auguste Cour, op.cit, pp 198-200

[6] جلول المكي، المرجع السابق، ص ص 111-112. وينظر:الزياني، **البستان الظريف**...، المصدر السابق، ص165.

ضد الأوروبيين لإخراجهم نهائيا من بلاد المغارب، أصبح بعض المغاربة يتحالفون مع الصليبيين ضد إخوانهم المسلمين.

4- صراع التحالفات بين دول المغارب أواخر 17م/11هـ ومطلع القرن 18م/12هـ

كان الصراع الثنائي بين المغرب الأقصى وإيالة الجزائر من جهة، وهذه الأخيرة مع الإيالة التونسية من جهة أخرى على أشدّه خلال القرن السابع عشر وبالتحديد الربع الأخير منه، حيث لم يفضي هذا التنافس إلى تغييرات جذرية تحسم النزاع بين هذه الدول، وتجعل أحدها يسيطر سيطرة كلية على الشأن المغاربي بالرغم من تفوق الجزائر عسكريا في كثير من الصدامات، وما ساهم في استمرار هذا الصراع والندّية أكثر ظهور شخصيات بارزة تولت السلطة في دول المغارب تحمل فكرة توحيد بلاد المغارب في سلطة واحدة، على رأسها السلطان إسماعيل العلوي في المغرب الأقصى والداي شعبان في الجزائر، وهو ما أسسّ لتشكيل تحالفات زدات من حدّة هذا الصراع خلال العقد الأخير من القرن 11هـ/17م ومطلع القرن 12هـ/18م.

فكما كانت العلاقات السياسية والعسكرية متوترة بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال القرن 17م وشهدت تجاذبا وتنافرا بين الحكام في البلدين، كذلك الحال بالنسبة للعلاقات الجزائرية التونسية، فقد تمثل الصراع بينهما في مشكلة الحدود والتي أدّت إلى اندلاع الكثير من الحروب بينهما، فتم عقد أوّل معاهدة لتحديد الحدود في سنة 1614-1615م/1023هـ حيث اتخذ وادي سراط حدا فاصلا بين الإيالتين كان ذلك في عهد يوسف داي[1]. لكن الاتفاق لم يدم طويلا فاندلعت حرب بين البلدين في سنة 1628م/1037هـ، وقد عرفت بواقعة السطارة[2] لينتهى الصراع بتوقيع معاهدة أخرى تم فيها تعيين الحدود من واد السراط

---

[1] A. Guellouz et d autre, **Histoire Genrale De La Tunisie,Les Temps Modernes(941-1247 H./ 1534-1881)**, t3, Sud Edition, Tunis, 2010, P 52.

[2] السطارة: مكان بقرب بلدة الكاف بالإيالة التونسية على الحدود مع الجزائر.

سابقا إلى واد ملاق ثم إلى البحر[1]. واستمر الحال على ما هو عليه بتدخل الجزائر في النزاعات بين أفراد الأسرة المرادية طوال الفترة المتبقية من القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر.

4-1- التحالف بين المغرب الأقصى وإيالة تونس ضد الجزائر سنة1103هـ- 1692م[2]:

4-1-1- ظروفه ودوافعه:

قاد أولى بوادر التحالف الشريف إسماعيل العلوي ملك المغرب الأقصى الذي كان يتحين الفرص لضرب الجزائر والانتقام من هزائمه، و من أجل تنفيذ مشروعه التوسعي استغل الحملة التي تعرضت لها مدينة الجزائر من طرف الأميرال دوستري 1688م والتي خلفت أضرارا جسيمة عبر عنها تاجر إنجليزي يدعى السيد كول" Cole" بقوله:" ...لقد تسببوا مع ذلك في أضرار فعلية... إنّ عشرين سنة لن تجعل مدينتكم جميلة مثل جمالها السابق..."[3]. إضافة إلى ثورة الانكشارية على نظام الداي الحاج حسين ميزومورتو. وكما فعل سابقا الملك المغربي خلال سنة 1682م حين تحالف مع الفرنسيين، هاهو بعدها بعقد من الزمن، أي في سنة 1692م يعود إلى إيجاد تكتل من شأنه قلب موازين القوى لصالحه ضد الجزائر، لأنّ جل المحاولات الانفرادية لم تؤتي المطلوب منها،فقد أضحت السياسة المنتهجة من قبل الشريف العلوي تجاه الجزائر أكثر وضوحا من ذي قبل، فوجدالسند الإقليمي في محمد باي تونس[4] الذي بويع في 27 رجب 1097هـ/10 مارس 1686م، ولقب بلقب أمير الجيوش، أي باي المحال[5]. فالتونسيون كانوا في عداء مع الجزائريين خلال هذه الفترة.

---

1 نور الدين عبد القادر، المرجع السابق، ص 129.

2 من الباحثين من يؤرخ له في سنة 1691م.

3 جون وولف، المرجع السابق، ص 354.

4 محمد خير فارس وعامر محمود علي ، المرجع السابق، ص 95

5 روسو ، المرجع السابق، ص139.

تدخّلت الجزائر بين الأطراف المتنازعة على السلطة في الإيالة التونسية، ففي بداية عهد الباي محمد، كان محمد بن شكر كاهيته وخليفته وصهره الذي تنكّر له وطمع في الحكمفطلب التوجه إلى الحج، ليغير اتجاه رحلته نحو الجزائر لأجل الاستنجاد بها لمناصرته ضد محمد باي[1] لكن أوضاع الجزائر كانت مضطربة. وبقي ابن شكر يتقلب في أبواب الدايات في الجزائر حتى تولى الداي شعبان خوجة السلطة في أكتوبر من سنة 1689م، هذا الأخير كان على علم بأنّ محمد باي بدأ يتنصل من تبعية الجزائر، ولهذا جهّز داي الجزائر حملة في نفس السنة تمّ من خلالها خلع الباي محمد وتنصيب مكانه بايا جديد هو محمد بن شكر(محمد شاكر)[2]، لكنّ محمد الباي الذي كان يتمتع بسلطة واسعة استعاد سلطته فيما بعد[3].

ومن بين الأسباب الأخرى التي دفعت السلطان إسماعيل العلوي لتوجيه حملة ضد الجزائر، الدعم الأوروبي خاصة من الإنجليز والهولنديين الذين أزعجتهم الإتفاقية التي تم توقيعها بين الجزائر وفرنسا بتاريخ 24 سبتمبر 1689م، والتي قضت بتسوية الخلافات بين الطرفين، وتضمنت سلما بينهما لمدة مائة سنة[4].

4-1-2- مظاهره و نتائجه:

وفي ظلّ هذه الأوضاع وجه الملك المغربي جيشا بقيادة ابنه زيدان لردع قبائل بني عامر الذين كانوا في بعض الفترات يعرضون خدماتهم على العثمانيين رغم أنّها ساندت سياسته في الكثير من المرات[5]. فتم تجهيز حملة ضخمة قوامها 10 آلاف من المشاة و 3

---

[1] محمد الباجي المسعودي، المرجع السابق، ص 234.

[2] يذكر في مراجع "ابن شكر" ، وتورده بعض المراجع الأخرى "شاكر". وكذلك جاء باسم" شركس". ينظر: Grammont, **Histoire**…,op.cit, p262.

[3] عباد، المرجعالسابق، ص 146.

[4] غطاس ،**العلاقات** ...، المرجع السابق، ص ص 96-97.

[5] هلايلي، **أوراق**...، المرجع السابق، ص 62.

آلاف[1] فارس نحو وهران[2]، ليجد المغاربة في طريقهم الداي شعبان في جيش قوامه عشرة آلاف من الجنود المشاة وثلاثة آلاف من الفرسان كان ذلك في سنة 1692م[3]. وفي الوقت نفسه قاد الباي التونسي حملة على قسنطينة تصدّى لها الجزائريون وتمكنوا من هزيمة التونسيين في ناحية الكاف[4].

وإنتصر كذلك الجيش الجزائري على القوات المغربية وكبّدها خسائر جسيمة، حيث بلغ عدد القتلى 5000 قتيل[5] في حين لم يقتل من الجزائريين سوى مائة جندي فقط، وواصل الداي شعبان في التوجه نحو فاس التي كانت محصنة بحامية ضخمة، ورغم ذلك طلب السلطان إسماعيل العلوي عقد معاهدة صلح في وجدة[6]، فتم الاتفاق بين الطرفين على إبرام المعاهدة بوساطة من العلماء ورجال التصوف المواليين لأتراك الجزائر، وكذلك من أتباع الطريقة القادرية والشاذلية والطرق الأخرى الموالية للعلويين[7]، وكان من بين أهم بنودها ما يلي:

1-إعتراف الملك المغربيبواد ملوية حد فاصلا بين حدود البلدين.

2- توقيف الإعتداءات من الجانبين.

3-تعهد الملك المغربي بدفع ضريبة سنوية لإيالة الجزائر.

4- إلتزام السلطان إسماعيل بالتخلي على جيوشه غير الضرورية[8].

---

[1] أورد صاحب "التحفة المرضية" أن الجيش المغربي تكون من 14000 جندي من المشاة، وثمانية آلاف من الفرسان. ينظر: ابن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 23.

[2] داهش ، المرجع السابق، ص 79.

[3]Grammont, **Histoire**…,op.cit, p262.

[4] جلول المكي، المرجع السابق، ص 113. وينظر أيضا: صالح عباد، المرجع السابق، ص 146.

[5]Grammont, **Histoire**…,op.cit, p262.

[6] ابن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 24.

[7] علي غنابزية، المرجع السابق، ص 127.

[8]جلول المكي، المرجع السابق، ص 111، وينظر أيضا: هلايلي، **أوراق**...، المرجع السابق، ص ص 62-63.

4-2-التحالف الجزائري الطرابلسي ضد التحالف التونسي المغربي:

في سنة 1105هـ/ 1694م:

4-2-1-ظروفه ودوافعه:

إنّ رغبة السلطان المغربي في إحتواء كل المغارب تحت سلطته قابلها نفس الطموح لدى الداي شعبان الذي يعتبر من أكبر قادة الجيش البري، وهو ماتناولناه سلفا، إضافة إلى أنّه قضى جزءا كبير من الحروب في كل من المغرب الأقصى وتونس، لذلك سعى إلى تجسيد وحدة كل الأقطار المغاربية تحت إمرته[1].

شكلّت قضايا الحدود والمصالح والأهداف المشتركة، والعدو المشترك بين دول المغارب إلى احتدام التنافس والصراع الإقليمي بينها، وعندما لم ينتج عن هذه الصراعات تغييرات جذرية في المنطقة تم اللجوء إلى سياسة التحالفات، فقد لجأت الإيالتين الجزائرية والتونسية في أواخر هذا القرن إلى إقحام كل من طرابلس الغرب والمغرب الأقصى[2] في منازعاتهما، فتحالفت الجزائر مع طرابلس الغرب وتحالفت تونس مع المغرب الأقصى[3].

يبدو جليا بأنّ هذه الأحداث هي نتاج للأسباب السابقة للحلف التونسي المغربي الأوّل في سنة 1692م، فرفض الباي التونسي العائد إلى السلطة خلال هذه الفترة دفع الضرائب لصالح خزينة الجزائر والمتفق عليها سابقا أزعجت دايات الجزائر وعلى رأسهم الداي شعبان الذي لم يجد وسيلة أخرى غير إعلان الحرب ضد هذا التمرد[4]. فتونس قبل سنة 1694م في

---

[1] المنور مروش، المرجع السابق، ص338.

[2] من الباحثين من يدخل أحداث سنة 1694م في دائرة الصراع الثنائي المستمر بين الجزائر وتونس، وينفي أن يكون للمغرب الأقصى وطرابلس الغرب أي علاقة بالحدث، ولكنّ المعطيات والاعتبارات التاريخية كثيرة تجعل من إحتمالية أنه كان صراع تحالفات شاركت فيه كل دول المغارب، أي الجزائر وطرالس الغرب ضد تونس والمغرب الأقصى وهو ما أجمع عليه الكثير من الباحثين.

[3] محمد خير فارس ، المرجع السابق، ص 110. وينظر أيضا: التر، المرجع السابق، ص 434.

[4] Devoulx Albert, **Tachrifat, Recueil De Notes Historiques**, Alger, imprimerie du Goversment, 1852,p 11.

عهد ابن شكر كانت تعتبر إيالة تتبع إيالة الجزائر التي عينته على رأس هذه الإيالة، ويتبين هذا الإصرار الجزائري في إعادة الوضع إلى فترة قبل استعادة محمد باي السلطة من خلال الرسالة التي وجهها الداي شعبان إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشربتاريخ 01 سبتمبر 1694م والتي جاء فيها:" ... الجزائر وتونس وطرابلس تخضع من الآن لأوامرنا وستخضع لسلطة واحدة ولن تبقى جمهوريات متفرقة مثل ما كانت عليه في السابق وقد وحدنا بين الإيالات الثلاث ..."، فقد بيّن الداي شعبان من خلال نفس هذه الرسالة التي بعث بها إلى الملك الفرنسي، أن هذه الحرب كانت بسبب التحالف التونسي المغربي ضد إيالة الجزائر.حيث جاء في الرسالة أيضا:"... قام محمد باي بالتوجه إلى عربي يحكم في البلدان الواقعة بغرب مملكتنا ويدعى هذا الأخير إسماعيل وهو ملك المغرب وقاما سوية بتأسيس رابطة هجومية ودفاعية بواسطة اتفاقية رسمية تنص من بين أشياء أخرى على حصول إسماعيل مولاي هذه السنة على 400000 راس من جهة وباي تونس على نفس العدد من جهة أخرى وتنظيم حملة لشنّ حرب علينا والاستيلاء على مدينة ومملكة الجزائر، وفي هذا الصدد قام محمد باي بإرسال 200000 ريال وثلاثة سفراء متعاقبين إلى إسماعيل مولاي المغرب وقد عزموا واتفقوا سوية، أن منحهم الله تعالى امتياز غزو الجزائر..."[1].

ومن جهته وردّا على هذا الاتفاق راسل داي الجزائر وباي تونس المخلوع المتواجد بالجزائر داي طرابلس الغرب محمد الإمام يطلعانه على أنّ الباي محمد المرادي ينوي توجيه حملة ضد إيالتي الجزائر وطرابلس الغرب[2].

وعلى العكس من ذلك تطلعنا الرسالة المذكورة سلفا بأنّ السلطان المغربي إسماعيل العلوي عمل على تحريض طرابلس الغرب ضد إيالة الجزائر، بل وحتى دعوة مصر،

---

[1] Eugene plantet,**corrspondance des Deys D Alder avec la cour de France**, T1,(1579-1700),paris,1889, pp 415-486.

[2] يشير الفونس روسو بأنّ هذه الرسالة هي إدعاء وليس حقيقة. ينظر: الفونسو روسو، المرجع السابق، ص 141.

للإطاحة بالأتراك العثمانيين وإخراجهم من شمال إفريقيا، فقد ورد في إحداها:"... وقدر الداي أن مقاومة هذا النوع من الأعداء مدته حدود 3 أشهر لكل من تونس وطرابلس وحتى مصر وسوف يضيعون بلا موارد... وذلك من سبيل الحفاظ على الجزائر التي تعد بمثابة المفتاح الاحتياطي لحاكمنا السامي. انتم على علم أن هذه المملكة تشبه خلية نحل حيث يكاد يكون أفرادها وأجرتهم غير منتهيين..."[1].

4-2-2-تفاصيله ونتائجه:

لقد استجاب الطرابلسيون لطلب داي الجزائر، وتوجه الأسطول الطرابلسي إلى عنابة وانضم إلى الجيش الجزائري الذي انتقل البعض من قواته من مدينة الجزائر إلى مدينة عنابة على متن عشر سفن لتلتحق بقية القوات بعد شهر برّا تحت قيادة الداي شعبان[2]، وفي هذا الصدد يذكر "بلانتي" بأنّه وصلت يوم 25 أوت 1694م 3 مراكب و 5 زوارق طرابلسية التي أنزلت براس قرطاج حوالي ألف جندي لمساعدة داي الجزائر الذي كان مشتبكا في حرب مع محمد باي[3].

ويبدوا أنّ الباي التونسي كان على علم بالحملة الجزائرية الطرابلسية، حيث سارع إلى تجهيز جيش قوامه 14000 جندي، وكان مقسما على سبعمائة خيمة، نصاب كل واحدة منها عشرين رجلا، فقد توجه التونسيون إلى مدينة الكاف[4] أين التقوا بالجيش الجزائري والطرابلسي[5].

---

[1] Eugene plantet, op.cit ,pp415-486.

[2] روسو، المرجع السابق، ص 141. وينظر: اتوري روسي، ليبيا من الفتح العربي...، المرجع السابق، ص312.

[3] E.Plante, **corrspondance des Beys De Tunis est des consuls de France avec la cour 1577-1830**,T1,paris , 1893, p520.

[4] تعتبر مدينة الكاف نقطة التقاءو عبور الجيش الجزائري وحتى التونسي في حالة الحرب بينهما. ينظر: Devoulx A , Tachrifat, op: cit,p11.

[5] روسو، المرجع السابق، ص141.

ومثلما جرت به العادة سابقا تدخل الباب العالي لتهدئة الوضع بين الأطراف المتصارعة، وأوفد مندوبين طالبا منهم استيفاء جميع وسائل الإقناع لحمل هؤلاء القراصنة على التعايش في وئام وقال لهم –بلسان مندوبيه– " إنّ المؤمنين الحقيقيين يعتبرون كالإخوة وعليهم أن يتساندوا وأن يغيث بعضهم البعض بدل التنابذ والتقاتل "[1].

لقد كان الفرق في موازين القوى جلّيا خلال هذا الصدام، فالقوات الجزائرية والطرابلسية شكلّت جيشا عظيما لا يمكن للتونسيين الوقوف أمامه، فما إن التحمت القوات التونسية بهذا الجيش الجرار حتى تفرقت، ولإستحالة المقاومة ولّى الباي محمد راجعا إلى مدينة تونس[2].

ولمّا تمكّن التحالف الجزائري الطرابلسي من دحر القوات التونسية، وشاع الخبر في العاصمة تونس، فرّ كل من رمضان باشا والداي علي رايس إلى بلاد الترك، وهما اللذان كانا بمثابة النواب عنه حين خروجه لملاقاة خصومه، وهو ما زادا في الشرخ داخل بيت الباي التونسي الذي سارع إلى تعيين الداي إبراهيم خوجة دايا على تونس ثم أخذ محمد باي في تحصين حصونه وعسكر وحفر خندقا محيطا وأجراه من البحر إلى البحر، إلاّ أن عساكر الجزائر تتابعت عليه بحرا وبرا مع أهل طرابلس، وتزايد مدد الجزائر رجالا وعدّة من المدافع والقنابل، ونزلوا بقرب تونس أوائل ذي الحجة وعقدوا ديوانا على أن يعين ابن شكر بايا على تونس ومحمود دايا عليها، وبعد نزولهم وقعت معركة بين الفريقين كاد يفنى بعضهم بعضا، حيث بقوا على تلك الحالة ثلاثة أشهر ونصف مع توارد المدد من الجزائر وتراكم العربان وليس مع محمد باي إلاّ العسكر الذي معه، وهكذا شدد عليه الحصار إلاّ أن ضاق عليه الحال خلال فترة الحصار[3]، والتي دامت قرابة خمسة أشهر، ليضطر هذا الأخير

---

[1] فيرو، المرجع السابق، ص234.

[2] Maggil(M,Thomas), **nouveau voyage a Tunis**, publie en 1811, paris, editeur de dictionnair des scinces medicales, 1981,p76.

[3] مقديش، المصدر السابق ،ص ص136-137.

إلى الفرار[1] بنفسه تاركا وراءه زوجته وعبيده[2]. بعد اقتحام الجنود الجزائريين المدينة، حيث يورد لنا ابن غلبون حيثيات التجاوزات الخطيرة لهؤلاء الجنود بقوله:"... ثم إنّ أهل الجزائر دخلوا مدينة تونس وجعلوا بها أمورا شنيعة من القتل والنهب والفسق وغيره..."[3]. ليتم بعدها تولية ابن شكر كباي جديد في تونس خلفا لمحمد باي.

وممّا وجب الإشارة إليه في هذا الصدد هو أنّ الملك المغربي إسماعيل العلوي لم يقدم أي دعم لحليفه الباي التونسي خلال تعرض تونس للحملة الجزائرية الطرابلسية. رجع الداي شعبان إلى الجزائر في شهر فيفري من سنة 1695م الموافق لشهر رجب 1107ه محمّلا بالغنائم التي كانت عبارة عن مائة وعشرين من البغال المحملة بالذهب والفضة وكمية من المدافع وعدد كبير من العبيد[4].

لم يكن السلطان العثماني موافقا على ما حدث بين الإيالات المغاربية من الحروب والصراعات بينها، وبالخصوص تجاه الداي شعبان، هذا الأخير نجد أنّه عبر عن انزعاج السلطان العثماني من سياسته، في رسالة إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر مؤرخة بتاريخ: 15 ذو القعدة 1106ه/1695/06/23م ، بقوله:"... كما نحيط جلالتكم علما بأننا كنّا مجبرين على إعلان الحرب ضد محمد باي تونس بسبب تآمره مع مولاي إسماعيل العربي المغربي، أكبر خونة وألد أعداء إمبراطورنا الرائع وجمهورياتنا الثلاث: الجزائر وتونس وطرابلس، والذي صار ينظر إلينا بعين الخبث والدهاء..."[5]. وهذا يبين لنا مدى استمرار تلك الروابط بين الدولة العثمانية وإياﻻتها بالمغارب، بالرغم من الطرح الذي يشير إلى إنفصال

---

[1] ذكر بأنه فر بإتجاه الصحراء. ينظر: A.Guellouzet d autre, op.cit, p77.

[2] Lougier De Tassy,op.cit, p303.

[3] ابن غلبون الطرابلسي، المصدر السابق، ص155.

[4] محمد مبارك الميلي، المرجع السابق، ج3، ص197. وينظر أيضا: شاوش ابن المفتي حسين بن رجب، المصدر السابق، ص71.

[5] وللمزيد حول تفاصيل هذه الرسالة ينظر: Eugene plantet,**corrspondance des Deys D Alder..**, op.cit, p459-470.

هذه الإيالات عن العثمانيين بداية من آواخر القرن 10هـ/16م والذي تدعمه بعض المظاهر السياسية والعسكرية.

2-3-التحالف التونسي الطرابلسي ضد الجزائر 1699م/1111هـ:

4-3-1-تشكيل التحالف وبداية الأحداث:

كانت العلاقات المغاربية المغاربية خلال أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر جدّ متوترة، ولعلّ تجدد الحرب بين إيالتي الجزائر وتونس هو السبب الرئيسي في هذا التصعيد، فالتنافس الثنائي بين الطرفين ساهم في تأجيج الصراع الذي ساهمت فيه أيضا إيالة طرابلس الغرب والنظام العلوي بالمغرب الأقصى.

أعلن الباي التونسي مراد بوبالة(1699-1702م) الحرب ضد الجزائر، مستعينا بصديقه الوفي خليل باشا الذي وافق على مساندته ضد الجزائريين، فهو الذي ظلّ ناقما على حكام الجزائر منذ سنة 1695م حين افترق على غير وفاق مع الداي شعبان خلال الحملة على تونس[1] ، كما أنّ خليل باشا لم ينسى مساعدة وترحيب باي تونس حينما فرّ من طرابلس بعد تمرد الإنكشارية ضد صهره محمد الإمام حاكم طرابلس الغرب[2].

رغم كل الاتفاقيات بين الجزائر والمغرب الأقصى خاصة منذ تولي إسماعيل العلوي السلطة، إلاّ أنّه وفي كلّ مرة يتضح جليا أنّ هذا الأخير لم يكن أبدا راضيا بمحتوى الاتفاقيات مع أتراك الجزائر والتي رسمت الحدود بين الطرفين، فسياسة الملك المغربي التوسعية على حساب الأراضي الجزائرية كانت تعود في كلّ مرة إلى الواجهة، فبعد اتصال

---

[1] عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 18م/12هـ ،ط1، دار الأمل ،تيزي وزو، الجزائر، 2017، ص 14. ، وينظر أيضا: المسعودي الباجي، المرجع السابق، ص 239.

[2] ابن غلبون، المصدر السابق، ص 157.

الباي التونسي بملك المغرب[1] من أجل أن يكون حليفه في حربه ضد الجزائر، لم يرفض الطلب، واتفق معه على أن يهاجمان الجزائر في نفس الوقت من جهتي الشرق والغرب[2].

بعد أن تمّ التحضير لهذه الحملة توجه مراد باي إلى إيالة الجزائر بجيش قوامه 12000 جندي من المشاة و 4000 من الفرسان مدججين ب: 32 مدفعا[3]، وحين وصوله إلى قسنطينة خرج إليه حاكمها علي خوجة، حيث دار بين الجيشين قتال عنيف أسفر في البداية عن تفوق التونسيين وتم قتل خمسمائة من خيرة أفراد الجيش الجزائري[4]. وفي هذا الشأن يقول صاحب التحفة المرضية عن المعركة:"...ثم إنّ مراد التونسي فاجأ قسنطينة بهجوم غير منظر فذبح حراس الحصون وحاصر المدينة. وبهذا الخبر اضطربت الانكشارية في الجزائر..."[5].

لم يكن منتظرا بأن يقوم التونسيون بمهاجمة الإيالة الجزائرية. وبعد انتصار الباي مراد في المعركة الأولى، جدّد التونسيون الهجوم فاستولو على القلعة التي تقع خارج المدينة، و ضرب حصار على مدينة قسنطينة التي صمدت في وجه العدوان رغم الفوارق العسكرية في العدة والعتاد، وفي حين ذلك وصل المدد من طرابلس الغرب، واستمرت مدة الحصار خمسة أشهر[6].

---

[1] ينفي المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي تحالف إسماعيل العلوي مع باي تونس ضد الجزائر بقوله: " ومن الطريف أن نسمع – مرة أخرى في هذه الأثناء – عن إدعاء جزائري لتواطؤ جديد بين المغرب وتونس لضرب الجزائر...". ينظر: التازي، **التاريخ الديبلوماسي...**، المرجع السابق، ص 21.

[2] Mercier,op.cit ,p 319.

[3] أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية:المجموعة 3205، الملف الأول، ورقة 53. (ينظر الملحق رقم 06)

[4] روسو، المرجع السابق، ص 148.

[5] بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 26.

[6] أحمد النائب بك الأنصاري، المصدر السابق، ص 279.

وفي خضّم هذه الأحداث رفع سكان قسنطينة حالهم للسلطة المركزية بمدينة الجزائر[1] التي لم تتوقع تجرأ الباي مراد بوبالة بالهجوم على بايلك الشرق، فقد كان الجيش الجزائري يركز قواه في الجهة الغربية من ناحية تلمسان[2].

استقال الداي حسن شاوش من منصبه بعد ضغط الانكشارية الذين اتهموه بالتأخر عن إرسال الجيش إلى بايلك الشرق، وانتخبوا مكانه الداي مصطفى (1700-1705م) الذي سارع لإنقاذ مدينة قسنطينة ومواجهة الحلف الثنائي التونسي الطرابلسي، ليلتقي الطرفان في السهول الواقعة بين قسنطينة وسطيف في أكتوبر 1700م[3].

4-3-2- التطورات والنتائج:

لقد تشتت القوات الجزائرية بين الجهة الغربية والشرقية، وبالرغم من ذلك تمك|ن الجيش الجزائري من دحر القوات المغربية وهزمها هزيمة نكراء دفعت السلطان المغربي إسماعيل العلوي من الانسحاب وطلب الهدنة مع الجزائر، الأمر الذي سمح للداي مصطفى من سحب عدد كبير من القوات الجزائرية من أجل إشراكها في صد الباي التونسي وحلفائه[4].

وعودا على بدء إلتقى الجيشان في جوامع العلمة[5] الواقعة قرب سطيف، حيث استطاع الجيش الجزائري إلحاق هزيمة[6] نكراء بالتحالف التونسي الطرابلسي رغم عدم التكافؤ في القوى بينها، وما زاد من وقع الهزيمة انسحاب الطرابلسيين من ميدان المعركة، لتنفرد القوات الجزائرية بالجيش التونسي، وهو ما دفع الباي مراد إلى الفرار مع ما تبقى له من الجنود[7]

---

[1] محمود مقديش، المصدر السابق، ص 145.

[2] عمار بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس**...، المرجع السابق، ص 16.

[3] شارل فيرو، المرجع السابق، ص 236.

[4] عمار بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس**...، المرجع السابق، ص 19.

[5] وذكر باسم جوامع العلماء ، وكذلك سمي بالمجاز الأحمر ، ينظر: العنتري، **فريدة** ...، المصدر السابق، ، ص 50

[6] رجّحت بعض المصادر أن عامل التعب لعب دورا هام في هزيمة التونسين. ينظر: محمد مقديش ، المصدر السابق، ص ص 145-146.

[7] بن المفتي، المصدر السابق، ص 69. وينظر أيضا : محمد مقديش ، المصدر السابق، ص ص 145-146.

وفي هذا الصدد يورد لنا ابن العنتري تفاصيل المعركة بقوله:" ... وأمّا مراد باي المذكور لما وصل إلى الحجاز الأحمر قريبا من سطيف وكان بينه وبين سطيف مرحلة تلقاه هناك عرضي الجزائر فنزل كل عرضي في مكانه وصاروا قبالة بعضهم وكان مع مراد باي نحو سبعمائة خباء والذي مع باشا الجزائر نحو مائة خباء. فاستضعفهم مراد باي وقال اليوم نستريحوا وغدا في الصبح نأخذوهم ونقتلوا الباشا الذي هو أميرهم ثم نسيروا إلى الجزائر ونستولوا على ملكها من غير تعب. وكان باشا الجزائر وعسكره نزل بهم خوف عظيم وتيقنوا انهم صاروا في الهلاك وبقوا يخمموا ويدبروا وقالوا إن ضربنا وهربنا كذلك نموتوا فاتفقوا أن يهجموا على عرضي تونس فلما عسعس الليل ونام كل ذي ذيل، قام باشا الجزائر هو وعسكره عن آخره وتقدموا إلى محلة مرلد باي فهجموا عليه بهجمة واحدة وهم نائمون ودخلوا عليهم بضرب السيوف من كل جهة (كذا) فوقعت ضججة عظيمة وهزيمة كبيرة في محة تونس ومات من عسكرها نحو السبعة آلاف رقبة وفر الباقي وتفرقوا في الوطن سبيا وهرب مراد باي ولم يثبت خوفا يتمكنوا به وركب على حصان اسمه كحيل فلم يتنفس به من المجاز الأحمر إلى مرج كحيل فسقط من تحته ميتا..."[1]. كان ذلك بتاريخ 07 أكتوبر من سنة 1700م ، كما تمكن الجزائريون خلال هذه من أسر حوالي 2000 تونسي[2].

لم يتوقف الجيش الجزائري عند هذا الانتصار بل توجه مباشرة إلى الحدود الغربية فالمغرب الأقصى امتنع عن دفع الضرائب المفروضة عليه من خلال الاتفاقية السابقة وكذلك لم ينسى الجزائريون اشتراك الجيش المغربي برعاية السلطان إسماعيل العلوي في المؤامرة المديرة من قبل الباي التونسي، واستطاعت القوات الجزائرية بقيادة الداي مصطفى تحقيق انتصار باهر في المعركة[3] التي كانت مدتها أربع ساعات، قتل خلالها حوالي 3000

---

[1] ابن العنتري، المصدر السابق، ص ص 50-51.

[2] حنيفي هلايلي، **أوراق** ... ، المرجع السابق، ص48.

[3] جلول المكي، المرجع السابق، ص 117.

من الجنود المغاربة إضافة إلى الغنائم التي تحصل عليها الجزائريون، منها 5000 حصان أمّا بالنسبة للموقف التونسي بعد هذه الأحداث، فقد جنح التونسيون إلى السلم وتوقيع معاهدة صلح مع الجزائر في سنة 1702م بين الداي الحاج مصطفى وإبراهيم الشريف باي تونس الجديد الذي أعلن تبعيته للجزائر [1].

وممّا تجد الإشارة إليه هو أنّ هذه الحروب بين دول المغارب كانت حروبا يقودها ويوجهها الحكام وليس السكان الأصليين، فمثلا هذا الصراع الثلاثي بين الجزائر من جهة وتونس وطرابلس الغرب من جهة ثانية تسبب فيها ودعمها بنسبة كبيرة الجنود الأتراك والمماليك المتواجدين في الإيالات، لذا فإنّ وصفها بإسم كل دولة من هذه الدول لا يزيد عن نطاق تسميتها الرسمية[2].

إنّ انتصار الجيش الجزائري على الحلف التونسي الطرابلسي يتثبت مرة أخرى بأنّ إيالة الجزائر كانت تعتبر القوة الإقليمية الأولى في بلاد المغارب، وكذلك في البحر الأبيض المتوسط ككل خلال القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر، لذلك نجد أنّ أغلب التحالفات الإقليمية والدولية كانت موجهة إلى الأراضي الجزائرية.

من خلال هذا العرض تبين لنا مدى احتدام الصراع من خلال تلك التحالفات على الصعيدين الداخلي المغاربي والمتوسطي، والدور الذي لعبته تلك التحالفات في الحفاظ على التوازنات المشكلة في بلاد المغارب مع نهاية القرن السادس عشر رغم التحولات السياسية والعسكرية وحتى الاقتصادية التي شهدتها المنطقة برمتها.

---

[1] ابن ميمون ، المصدر السابق، ص ص 27-28. وينظر: عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائرالعام**، المرجع السابق، ج3، ص ص 203-205.

[2] روسو ألفونسو، المرجع السابق، ص 141.

الفصل الرابع:

مظاهر التحالفات والصراعات في ظل التحولات السياسية في بلاد المغارب خلال الفترة ما بين (1705-1792م)

1- التحولات السياسية في بلاد المغارب.
2- المغرب الأقصى والدولة العثمانية من الصراع إلى التضامن.
3- ثنائية المغارب – أوروبا جدلية السلم والحرب.
4- ثنائية المغارب(الجزائر أنموذجا) إسبانيا من الحرب إلى السلم.

تمهيد:

يدرس هذا الفصل جوانب من المظاهر السياسية والعسكرية في إطار التحالفات والصراعات الحاصلة في بلاد المغارب في ظلّ التحولات السياسية بالنسبة لأنظمة الحكم المغاربية، وذلك من خلال ثنائية المغارب والباب العالي وما كان لها من تداعيات داخليا وخارجيا، وثنائية المغارب وأوروبا والعلاقات السياسية والدبلوماسية وحتى الصراع العسكري بين الطرفين الذي كان الحوض الغربي للمتوسط مسرحا له، ونفرد أيضا مبحثا كاملا لثنائية المغارب وإسبانيا بسبب أنّ هذه الأخيرة كانت في صراع دائم مع المغاربة منذ مطلع القرن السادس عشر إلى غاية آواخر القرن الثامن عشر، نتتبع المتغيرات والثوابت ومدى تأثيرها على التوازن العام في بلاد المغارب خلال الفترة ما بين (1705-1792م) .

1- التحولات السياسية في بلاد المغارب:

إنّ محاولات حكام الإيالات في بلاد المغارب الاستقلال في القرار عن الدولة العثمانية لم تتوقف مع بداية القرن 12هـ/18م، إذ لاحظنا مظاهر تلك العلاقات العثمانية مع كل من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس وما حملته من تداعيات خلال فترة أواخر القرن السادس عشر إلى مطلع هذا القرن، فالأسباب التي تطرقنا إليها سابقا والتي ساهمت في بناء مظاهر الاستقلالية هي تقريبا نفسها في هذه الفترة، فاستمرار تدهور الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية في الدولة العثمانية، أدّى إلى ظهور عدد من الأسر في الإيالات، تسعى إلى الاستقلال التام عن الباب العالي، ففي تونس ظهرت الأسرة الحسينية سنة 1705م، وفي الجزائر أعلن الداي علي شاوش رسميا الانفصال عن الباب العالي سنة 1710م، وبعدها بسنة تأسست الأسرة القرمانلية في طرابلس الغرب، أمّا في المغرب الأقصى، فبوفاة السلطان إسماعيل العلوي في سنة 1727م، دخل البلاد في دوّامة صراع في الأسرة العلوية أثّرت على كل المستويات والمجالات في البلاد.

1-1- تونس:

1-1-1-الدولة الحسينية في عهد الحسين بن علي(1705-1740):

تمكّن الضابط التركي إبراهيم الشريف من الوصول إلى السلطة في تونس بقضائه على آخر بايات الأسرة المرادية مع بداية القرن الثامن عشر، حيث فرض هذا الأخير النظام وجمع السلطات في يده، وهو ما دفع الأهالي بالثورة عليه ومعارضة سياساته التي رأو فيها المعاملة القاسية والاضطهاد والإقصاء، في حين أعلن التبعية للجزائر كما أسلفنا الذكر، إلاّ أنّه حاد عن هذه التبعية وتورط في حرب مع الإيالة الجزائرية، ولقي قراره معارضة من بعض الجنود والضباط، هذه الحالة من الفوضى الداخلية والخارجية إنتهت بهزيمته أمام الجيش الجزائري في شهر جويلية من سنة 1705م، وتمكّن الجيش الجزائري خلال هذه الواقعة من أسر إبراهيم الشريف[1].

بعد هذه الأحداث اجتمع أهل الحل والعقد من العلماء وكبار الضباط في البلد واتفقوا على تعيين حسين بن علي تركي[2] بايا على تونس في 12 جويلية 1705م، وقبل توليه السلطة شغل حسين بن علي كاهية للباي السابق إبراهيم الشريف، عرف عنه قوة شخصيته وكان حسن التدبير والسياسة، وهو ما عاد على البلاد والرعية بالنعم، فعمرت الفيافي والقفار فضلا عن المدن والقرى والديار، وقام بتأمين البلاد والقضاء على أهل الفساد، وأمر بتعيين محمد ابن أخيه نائبا عنه في المحال وفي حال السفر[3].

---

[1] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص ص 80-81.

[2] يعتبر مؤسس البيت الحسيني، من أصول تركية وهو من جزيرة كندية بجزيرة كريت، تدرج في المناصب في كنف البايات المراديين. للمزيد ينظر:حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس** ، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس، ص ص 149- 150.

[3] مقديش، المصدر السابق، ص ص 156-158. وينظر: ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ج2، ،ص103.

منذ تولّيه السلطة إنتهج الباي[1] الجديد حسين بن علي سياسة تدعم احتكار النفوذ لصالح مؤسسة الباي على حساب المؤسسات الأخرى، وهو ما زاد من صلاحيات شخص الباي، لذلك نجده أخضع الداي إلى مشيئته، وبدا ذلك واضحا عندما منع الداي من تطبيق الحكم بالإعدام دون علمه واستشارته. وكذلك الحال في عديد الوظائف كالقضاء الذي يعتبر رمز الحكم الصالح. كما قاد المحلة التي عن طريقها يعيد تجديد الولاء لشخصه في دواخل البلاد، ويتفقد أحوال الرعية ومعرفة الأوضاع عن قرب[2].

إنّ هذه الإجراءات سعى من خلالها إلى الإطّلاع على كل ما يجري في البلاد، وممّا ساعده على ذلك الاستعانة برجال لم يسبق لهم تقلد المناصب من أجل أن يلتزموا وينفذوا مخططاته، فأخرجهم بذلك من الخمول إلى النشاط، كما استعان أيضا بالأعيان والعلماء والأولياء، أمّا في البوادي فاستخدم قبائل المخزن من أمثال قبيلة دريد، وجعل من رؤسائها مستشارين شخصيين لهم مكانة خاصة في بلاطه[3].

حاول حسين بن علي أن يضع حدا للتنافس بين الطامعين في الحكم، فجعل الولاية وراثية في بيته يتداولها الأكبر فالأكبر بعد أن كان عهد الولاية من بعده لابن أخيه علي باشا، ولكنّه تراجع عن هذا القرار بعد أن رزق بأولاد من زوجته علجية من جنوة[4]، وهو ما دفع إلى تمرد بن اخيه علي باشا في سنة 1728م، حيث قامت حرب بينهما استمرت لعدّة سنوات، تحوّل هذا الصراع إلى حرب أهلية بين الأسرة الحسينية والباشوات، تدخلت فيها إيالة الجزائر لصالح علي الباشا حين أمر الداي باي قسنطينة بتجهيز ألف رجل يوضعون تحت

---

[1] الباي :السيد، لقب إقطاعي كان يضاف للإسم الشخصي أويستخدم مستقلا،وكان للشخصيات الهامة الحق بدرجة ما. في حمله وكانت تعني أيضا الرئيس والحاكم والمحافظ والوالي وهو يعادل لقب داي،ينظر: نينل الكسندروفنا دولينا، المرجع السابق،ص174.

[2] عبد الحميد هنية، **تونس العثمانية بناء الدولة والمجال من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر**، منشورات تبر الزمان، تونس، 2012، ص 164.

[3] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص 83.

[4] جوليان، المرجع السابق، ص 382.

قيادته، ومثلهم تحت قيادة علي باشا، وأرسل من الجزائر الخزندار على رأس 2000 من الإنكشارية انضم اليهم الكثير من أفراد القبائل التونسية خصوم الحسينيين، لتكون حملة ضخمة سارت إلى تونس في ماي 1735م، ليتمكن علي باي من دخول مدينة تونس بسهولة في شهر سبتمبر وينصب نفسه بايا على البلاد[1]، بعد أن فرّ الباي حسين باتجاه القيروان. تجدد الصراع بين الطرفين الذي دام قرابة الخمس سنوات انتهى في الأخير بمقتل حسين باي في القيروان في سنة 1740م[2].

1-1-2-علي باشا(1740-1756م):

حكم علي باشا البلاد بصرامة، فانفرد بالسلطة مع ابنيه يونس ومحمد، ففي الجبهة الداخلية كان يصدر الأحكام سريعا. والتي كانت في كثير من الأحيان دموية مما نتج عنها ظهور عدة ثورات وانتفاضات كثورة عساكر الانكشارية في سنوات 1743 و 1752م، وانتفاضة قبيلة الهمامة الكبيرة في سنة 1750م، ولعلّ أخطر هذه التمردات تخلّي الأهالي عنه بصفة شبه تامة في سنة 1755م. أمّا على الصعيد الخارجي فقد اتسمت سياسته بالحزم والندّية اتجاه الأجانب كالفرنسيين والجنويين، وخاصة طبقة التجار الذين استغلوا ثروات البلاد لمصالحهم[3].

ومن جهة أخرى لم تتوقف الصراعات بين أفراد الأسرة الحسينية خلال الفترة التي حكم فيها علي باشا ما بين(1740-1756م)، كما استمرت التدخلات الجزائرية في الشأن السياسي التونسي خاصة بعد رفض علي باي دفع ضريبة سنوية لأتراك الجزائر، فقد دعم الجيش الجزائري ولدي حسين بن علي لأجل إستعادة السلطة بقيادة باي قسنطينة حسن

---

[1] عباد، المرجع السابق، ص 159.

[2] المسعودي، المصدر السابق، ص 246. وينظر: شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 110.

[3] محمد الهادي الشريف، المرجع السابق، ص 85. وينظر: المسعودي، المصدر السابق، ص 247.

الملقب "بأزرق عينه" حين تدخل في الصراع سنة 1755م، وانتهى بمقتل علي باشا في سنة 1756م[1].

1-1-3- فترة حكم أبناء حسين بن علي (محمد وعلي باي خلال1756-1782م):

تمكّن ابنا حسين بن علي من استرجاع عرش والدهم، فتولى محمد باي الحكم، فقد اعترف بسيادة داي الجزائر على الإيالة التونسية، مع الاستمرار في دفع الإتاوة السنوية والتي قدّرها داي الجزائر، فباشر محمد الرشيد مهامه في الفترة ما بين (1756-1759م)، عرف عن هذا الأخير اهتمامه بشؤون الرعية لكن الظروف لم تكن ملائمة بسبب عمليات النهب التي لحقت بتونس جرّاء دخول الجيش الجزائري مدينة تونس، وهكذا أصبحت الدولة الحسينية ضعيفة فاقدة لمعالم النظام السياسي القوي و تداعيات ذلك على النشاط الاقتصادي والمشهد الاجتماعي والحضاري في البلاد، وبعد ثلاث سنوات توفي محمد باي أي في سنة 1759م، ليخلفه على رأس الإيالة أخوه علي باي بن حسين، والذي وقعت في عهده ثورة إسماعيل بن يونس[2] حفيد علي باشا في جبل وسلات، إلاّ أن الباي الجديد قضى على هذه الانتفاضة في سنة 1762م[3].

تحسنت الظروف العامة في تونس منذ تولي علي باي السلطة، والملاحظ في هذا الشأن أنّ الفترة الممتدة بين سنتي (1765-1776م) عرفت استقرارا سياسيا غير مسبوق انعكس على الحياة الاقتصادية، كما توافرت المداخيل المالية للخزينة من خلال عائدات الجهاد البحري والتجارة، ولعلّ ما ساعد أكثر في هذا الوضع المريح للبلاد هدوء العلاقات

---

[1] عباد، المرجع السابق، ص 163. وينظر: شوقي عطاالله الجمل، المرجع السابق، ص 111.

[2] ولمعرفة تفاصيل حول ثورة إسماعيل بن يونس ينظر: الحاج حمودة بن محمد بن عبد العزيز، **الكتاب الباشي**، تح: محمد ماضور، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970، ص ص 47-59.

[3] عبد الحميد هنية، المرجع السابق، ص ص 183-184.

مع دايات الجزائر، حيث أطلق عليها الباحث "بن خروف" بداية عهد سلام طويل وأيضا وصفها بالسلام المستمر[1].

بعد تقدّم علي باي في السن أشار عليه أهل الحل والمشورة أن يتنازل لمن يرى فيه الصلاح لحكم تونس، فكان صاحب الحق هو محمود بن الرشيد، لكنّ البعض ممّن كانت لهم كلمة مسموعة في الحكم رأوا أن يعهد الولاية لإبنه حمودة باشا وقد جرى ذلك وإلزام إبن أخيه محمود بن الرشيد البيعة لإبنه حموده باشا فأتم البيعة، وراسل علي الباي الدولة العثمانية طالبا موافقة السلطان على تقديم إبنه للولاية، وهو ما تم بالفعل، حيث بدأ حكم حمودة باشا تحت إشراف والده الذي عاش بعد ذلك خمس سنوات[2]. وبالتالي رسم النظام الوراثي في تونس الحسينية.

1-1-4-حمود باشا في فترة ما بين (1782-1792م):

لقد تولّى حمودة باشا[3] السلطة في تونس بعد وفاة والده في يوم الجمعة 31 ماي من سنة 1782م الموافق 18 جمادى الثانية من سنة 1196هـ. فقد عمل على إنهاء الخلافات بين أفراد الأسرة الحسينية من إخوته وبني أعمامه وكل من ينتمي إلى الأسرة الحاكمة، وهو ما عاد باستتباب الأمن في البلاد[4]، رغم بعض الأزمات مثل الطاعون الذي حدث بين سنتي 1784 و 1785م وما ساعده في ذلك أيضا سياسته المبنية على التحالف مع الأعيان من

---

[1] عمار بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس...**، المرجع السابق، ص 200.

[2] فاضل حميد رشيد الشمري، **العلاقات التونسية العثمانية في عهد الأسرة الحسينية**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: نوري عبد الحميد العاني، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، العراق، 2020، ص ص 58-59.

[3] يكنى أبا أحمد، اعتنى والده بتربيته وتهذيبه وأهله لإدارة الملك. وللمزيد ينظر: حسن حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص 156.

[4] مقديش، المصدر السابق، ص ص 169-170.

الأهالي،إضافة الاعتدال النسبي في النظام الجبائي الداخلي بفضل تضاعف الموارد ذات المصدر الخارجي كما كان في عهد والده[1].

أمّا في الجانب الإداري فقد أبعد الأتراك منذ بداية فترة حكمه عن المراكز الحساسة في الدولة كالمراكز الإدارية والعسكرية الهامة التي استولى عليها الأتراك منذ سنة 1574م تاريخ إلحاق تونس بالخلافة العثمانية، وعوضهم برجال أكثر تفانيا له وأصدق عملا لخدمة مصالح البلاد[2].

وفي علاقاته الخارجية فقد سلك حمودة باشا سياسة تقوم على تحرير تونس من التبعية للأجنبي سياسيا وإقتصاديا، فمع الجزائر استمرت العلاقات بين البلدين سلمية في فترة ما بين (1782-1791م) بالرغم من القضايا الطارئة التي كان يمكنها أن توتر العلاقات، وبالرغم من ذلك إلاّ أنّ العلاقات بينهما لم ترق إلى التعاون الحقيقي والفعّال خاصة في مسألة التحالف العسكري ضد الحملات الأوروبية على الإيالتين[3]، أمّا مع الدولة العثمانية فقد حاول حمودة باشا الحد من التبعية للعثمانيين، وبدا ذلك جليا حتى قبل توليه الحكم رسميا، ففي سنة 1781م حين كان مشاركا لوالده في السلطة، فبعد طلب السلطان العثماني عبد الحميد الأول(1774-1789م)[4] لعلي باشا وقف أعمال القرصنة ضد السفن النمساوية في البحر المتوسط، فقوبل هذا الطلب بالرفض من حمودة باشا الذي برّر هذا الرفض بعدم عقد معاهدة مع النمسا والتي لم تتم إلاّ في سنة 1784م، وكذلك ما جرى في سنة 1789م حين طلب السلطان عبد الحميد الأول من الأسطول التونسي الانضمام إلى الأسطول العثماني

---

[1] الهادي شريف، المرجع السابق، ص 88.

[2] وللمزيد ينظر: رشاد الإمام، المرجع السابق، ص ص 171-175.

[3] وللمزيد من التفاصيل حول العلاقات التونسية الجزائرية خلال فترة ما بين (1782-1791م) ينظر : بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس...**، المرجع السابق، ص ص 245-255.

[4] عبد الحميد الأول: تولي الحكم بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث في عام 1187هـ/1773م، تزامنت فترة حكمه مع الحروب العثمانية الروسية ، وهو الذي وقع معاهدة " كوتشوك قينارجه" التي أنهت الحرب بين الطرفين، ولكنها تجددت في سنة 1785م، كما وقعت الحملة الفرنسية على مصر خلال فترة حكمه، ينظر: إسماعيل أحمد ياغي،المرجع السابق، ص ص 23-24

في بحر إيجه لمحاربة اليونان، تم رفض الطلب، وفي سنة 1792م وقعت حاثة للمبعوث العثماني حيث تم نزع سلاحه بالقوة، وهدّد هذا الأخير بإبلاغ السلطان العثماني، غير أنّ حمودة باشا ردّ عليه بأنّ سيادة الحكم في تونس هي من صلاحياته[1]، فهذه كلّها مظاهر تعبر عن بداية استقلال تونس عن الباب العالي وهو ما سنتطرق إليه لاحقا في المسألة الجدلية حول مظاهر استقلال الإيالات المغاربية عن العثمانيين.

1-2- في الجزائر:

1-2-1- مظاهر السيادة عن الباب العالي:

تمّكن الجيش الإنكشاري من السيطرة على كل مقدرات الإيالة الجزائرية منذ أن ظهر نظام الدايات في الجزائر خلال سنة 1671م كما ذكرنا في الفصل السابق، فالدايات الأوائل كانوا في السلطة صوريا فقط إلى غاية بداية العقد الثاني من القرن الثامن عشر، وهذا الموقف لا يمكننا تعميمه على جميع الدايات لأنّ فيهم من عمل على محاولة الإصلاح في شتى الميادين، لكنّ تدخل الجيش في صلاحيات ومهام النظام السياسي حال دون تحقيق هذه الغاية[2].

ففي عهد الداي علي شاوش(1710-1718م) بدت ملامح الاستقلال عن الباب العالي[3] حين رفض الداي السماح للباشا[4] الجديد الذي يدعى" إبراهيم شركان" القادم لإيالة الجزائر بالنزول إلى البر، وأجبره على أن يقفل راجعا، وأتبع هذا القرار بإرسال مبعوث إلى السلطان العثماني محملا بالهدايا في سنة 1711م، وليشرح للسلطان خطورة تعدد السلطات مترجيا إياه في أن يدمج منصبي الباشا والداي في شخص واحد، وهو ما وافق عليه

---

[1] الشمري، المرجع السابق، ص ص 66-67.

[2] بن عمار، المرجع السابق، ص 81.

[3] الباب العالي: مقررئيس الوزراء أومقر الحكم في الدولة العثمانية،ينظر: سهيل صابان،المرجع السابق ، ص49.

[4] الباشا: أصله باش بمعنى الرأس و الرئيس باللغة التركية ، وهو أعلى لقب بين العسكريين والمدنيين في الإمبراطورية العثمانية، ينطر : نينل الكسندروفنا دولينا،المرجع السابق،ص174.

العثمانيون[1]. فيمكننا اعتبار هذا الحدث تحول في النظام السياسي الجزائري، رغم أنّ الدولة العثمانية حاولت أن ترسل مرة أخرى باشا من استانبول إلى إيالة الجزائر في عهد الداي عبدي باشا(1724-1734م)، ولكن تم رفضه وردّ على نفس السفينة التي وصل عليها في سنة 1729م[2].

1-2-2- مظاهر التواصل الجزائري العثماني:

لقد اقتصرت مظاهر التبعية في تقديم الهدايا وتبادل الرسائل بين الحين والآخر بين داي الجزائر والسلطان العثماني كدليل على الولاء له كخليفة المسلمين، وترسّخ هذا كتقليد على كل داي جديد[3]. ومن خلال ذلك يوافق ويصادق على تعيين الداي الجديد على رأس الإيالة كل سنتين أو ثلاثة سنوات، كما واستمر الأسطول البحري الجزائري في تقديم المساعدة للأسطول العثماني عند الحاجة في الحرب مثل الفترة السابقة، ولقد كان دايات الجزائر يجلبون الجنود الأتراك من جزر البحر المتوسط والأناضول، في حين أن استقلال دايات الجزائر إنعكس على إتخاذ القرارات، فحقق حرية عقد المعاهدات مباشرة مع الدول الأجنبية دون تدخل الدولة العثمانية[4].

---

[1] أرجمنت كوران، **السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي**، تر: عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970، ص 26. وينظر: Grammont, **Histoire**…,op.cit, p276.

[2] محمد خير فارس، المرجع السابق، ،ص 70.

[3] إن إرسال الهدايا ارتبط أكثر للتعبير عن الولاء للسلطان أكثر من إرتباطه بالحصول على الترسيم منه، والدليل في ذلك هو أن بعض الدايات لا يقوم بإرسال الهدايا إلاّ بعد بضعة أشهر من توليه السلطة، بل أكثر من ذلك فإن البعض الآخر ينتظر مرور أكثر من سنتين على تعيينهم لإرسال الهدايا، كما أن السلطان لم يعط لهذا التقليد أهمية قصوى، حيث كان يرسل فرمان الترسيم لهؤلاء الدايات قبل أن يقوموا بإرسال الهدايا إليه. ينظر: خليفة إبراهيم حماش، **العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830**، رسالة ماجستير تاريخ والآثار، القاهرة، 1998، ص 150.

[4] حنيفي هلايلي، **أوراق** ...، المرجع السابق، ص 129.

ومع ذلك لم يقم الدايات بالتنكر لسيادة السلطان طالما كانت هذه السيادة إسمية[1] لا تلزمهم في حرية التصرف في الشؤون الداخلية والخارجية للإيالة، بل اقتصر الأمر على إرسال سفير لإبلاغ السلطان بانتخاب أحدهم والحصول على قفطان الشرف وفرمانا[2] بتسميته باشا. كما كان الدايات يرسلون وفودا للتهنئة لدى تولي سلطان جديد، والسلاطين يقبلون بالأمر الواقع ما داموا لا يملكون القوة اللازمة لفرض كلمتهم. وقد شاركت الجزائر في حروب الدولة العثمانية مع روسيا خلال فترة ما بين (1768-1774م). وفي المقابل كانت الجزائر تتدعم بجنود انكشاريين، إضافة إلى إستفادتها من معونات مالية من طرف الباب العالي لأجل تقوية البحرية الجزائرية[3].

شهد النصف الثاني من القرن الثامن عشر استقرارا سواء على مستوى السلطة المركزية أو على مستوى مناطق البيلكات الأربع، فمركزيا وخلال فترة بداية النصف الثاني من هذا القرن وإلى غاية سنة 1792م تداول على السلطة في الجزائر خمسة دايات[4]، وهو ما يعكس صورة البلد المستقرة سياسيا، فالداي محمد عثمان باشا خير مثال فقد جلس على كرسي الحكم مدة خمسة وعشرين سنة أي ربع قرن، فهو يعتبر أهم دايات خلال هذه الفترة، وفي هذا الشأن يقول وليام سبنسر:" ... وبصورة أكيدة فإن الترقية غير العادية جدا تتمثل في أحمد ابن عثمان (1766-1790) أطول حكام الجزائر مدّة وأكثرهم فعالية ..."،[5] بينما وصفه الزهار بقوله: " ... وكان رحمه الله مؤثرا للعدل والإنصاف، عارفا بقوانين الملك ملتزما بأحكام الشريعة المطهرة، وكان يحب الجهاد... وكان استعداده دائما للحرب وكانت لمراكبه

---

[1] أورد الباحث مولود قاسم نايت بلقاسم أقوال لبعض المؤرخين عن مسألة تبعية الجزائر للدولة العثمانية خلال هذه الفترة، ينظر: مولود قاسم نايت بلقاسم، **شخصية الجزائر**...، المرجع السابق، ج1، ص ص 82-84.

[2] الفرمان : هو الأمر السلطاني الرسمي المكتوب الصادرفي قضية من القضايا، ينظر: سهيل صابان،المرجع السابق،ص164.

[3] محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 72.

[4] وولف، المرجع السابق، ص ص 385-386.

[5] وليام سبنسر، المرجع السابق، ص 92.

سمعة...، وكان محمد باشا من حين ولايته لا يفتر عن بعث المراكب لغزو الإسبانيول، فترجع بالغنائم..."[1].

عرفت الإيالة الجزائرية في أوائل النصف الثاني من القرن الثامن عشر بعض الاضطرابات السياسية والتمردات لكن هذا لا يعني أنّ البلاد لم تعرف هزّات سياسية داخلية ففي مطلع النصف الثاني من القرن 18م تعرّض الداي" محمد بكير" باشا إلى تمرد الجند عليه في سنة 1754م، وقد شملت الثورات مختلف أنحاء البيلكات في الجزائر ففي الجهة الغربية تمرد كراغلة تلمسان في سنة 1756م، وكذلك الحال لأولاد عاشور بفرجيوة خلال عام 1756، كما تمردت قبيلة فليسة[2] ببلاد القبائل 1767م، وقبائل أولاد نايل 1772م بالجنوب، ثورة أولاد عمور 1775م، بالإضافة إلى تمرد منطقة الأغواط عام 1784م، وتمرد قبيلة سماتة بالتيطري 1791م[3]، والأحداث التي وقعت بعد إقالة صالح باي[4] ومن الجدير بالذكر أنّ الأسباب التي أدّت إلى هذه الثورات هي في عمومها تتعلق الضرائب والغرامات التي فرضت على السكان، ورغم هذه الفوضى التي حلّت بالإيالة إلاّ أنّ الدايات تمكنوا من من التحكم في كل هذه التمرادات والانتفاضات ومن ثمّا القضاء عليها، وهو ما يفسر لنا قوة وسيطرة الدايات على الوضع الداخلي للبلاد خلال هذه الفترة الحساسة.

---

[1] أحمد الشريف الزهار، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر1168-1246هـ/1754-1830م**، تح: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974، ص 22- 26.

[2] فليسة هي مجموعة من القبائل البربرية ، تقتسم مع قبائل زواوة منطقة القبائل الكبرى، وتمتد جبال فليسة من دلس إلى القل. ينظر: Venture de paradis , **Alger au 18em siècle** ,imprimeur libraire,Alger,1898.P 13.

[3] وللمزيد ينظر: غطاس، **الدولة الجزائرية**...، المرجع السابق، ص ص 191-193.

[4] وحول هذه الأحداث ينظر: ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**،ط2، دار البصائر، الجزائر، 2008، ص ص 254-262.

تولّى الداي حسن باشا السلطة في سنة 1791م خلفا لمحمد عثمان باشا الذي توفي في التاسع من ذي القعدة من سنة 1205هـ/1791م، بايع أهل الحل والعقد الداي حسن والذي في أيامه فتحت وهران الفتح الثاني والنهائي[1].

1-3-طرابلس الغرب:

1-3-1- وصول الأسرة القرمانلية للحكم في طرابلس:

بعد ما حدث في كل من تونس والجزائر من تطورات أسفرت عن الانفصال الرسمي للإيالتين عن الدولة العثمانية، هاهي إيالة طرابلس الغرب هي الأخرى يصلها صدى هذا التغيير، حيث وفي 21 جمادى الآخر من سنة 1123هـ الموافق 1711م تولت الأسرة المحلية القرمانلية[2] السلطة منهية بذلك السيطرة العثمانية المتمثلة في الدايات وضباط الإنكشارية على أركان الدولة، فقد شهدت الإيالة أوضاعا مضطربة بداية خلال الفترة ما بين (1672-1711م) تداول على السلطة خلالها حوالي إثنان وعشرون دايا.

احتشدت شخصيات بارزة في طرابلس من السكان والأعيان والعلماء وعرضو البيعة على أحمد القرمنلي، والقرمانليين من الكراغلة[3] ومكنته من خلافة الحاكم العثماني خليل باشا الذي فّر من المدينة بسبب الفوضى وعدم الاستقرار. لقد استطاع أحمد القرمانلي القضاء على القوة البحرية التي أرسلها الباب العالي من أجل إعادة خليل باشا إلى السلطة والذي قتل

---

[1] الزياني، **دليل الحيران**...، المصدر السابق، ص 247.

[2] تعود أصولهم إلى مدينة قرمان بالأناضول قدم جدهم إلى طرابلس زمن درغوث رايس، وتمت بينهم وبين السكان المحليين المصاهرة. ينظر: شارل فيرو، المرجع السابق، ص 263.

[3] الكراغلة: مفردها كرغلي وهو الذي ينحدر من أب تركي، غالبا من الانكشارية وأم عربية، فقد اعتبرتهم القبائل العربية المحلية كمواطنين. ينظر: البلوشي، المرجع السابق، ص 46.

أثناء هذه المعركة، وأعلن القرمانلي في نفس الوقت ولاءه للسلطان العثماني أحمد الثالث[1] وأتبعها بإرسال الهدايا تعبير عن ذلك، وفي المقابل منح لقب الباشا[2].

بالرغم من كل الصعوبات التي واجهها الباشا أحمد القرمانلي في بداية توطيد نظام الحكم في طرابلس الغرب إلاّ أنّه تمكن من إنهاء حالة التمرد وحركة العصيان في تاجوراء وترهونة[3] ومسلاتة[4] ومناطق أخرى[5]، ولم يفعل الكثير من أجلها لأنّ النّاس دعموه، ثم قام بتنظيم شؤون الدولة وحماية الطرق وملاحقة اللصوص، وكذلك اهتم بالجانب العمراني للمدينة من خلال ترميم أسوارها. حاول أحمد باشا الاستقلال عن الخلافة العثمانية، حيث يتضح هذا من خلال العملة والمعاهدات التجارية مع الدول الأجنبية، ففي عهده ساد العدل وانعكس حتى على الحياة الاقتصادية في البلاد، وخفف من الضرائب على الرعية. توفي في عام 1745م بعد أن تنازل عن السلطة لابنه[6].

---

[1] السلطان أحمد الثالث: هو ابن السلطان محمد الرابع المولود في 3 رمضان سنة 1083هـ الموافق 23 يسمبر 1673م. وللمزيد حول سيرة هذا السلطان ينظر: المحامي، المرجع السابق، ص ص 312-319.

[2] شوقي عطاالله الجمل، المرجع السابق، ص 134.

[3] ترهونة: كلمة ترهونة كلمة بربرية كانت تطلق على قبيلة بربرية من هوارة تسكن تلك الناحية، وحين سكن العرب في هذه النواحي وتكاثروا رحل بعض البربر وبقي بعضهم، واندمج هؤلاء القلة الباقية من البربر مع العرب، ومع مرور الزمن انقطعت صلتهم باللغة والأنساب وتلاشت تلك العنصرية بينهما، فصارت كلمة ترهونة اليوم تطلق على قبيلة عربية من أكبر قبائل العرب في طرابلس، وهي الآن تقع جنوبي مدينة طرابلس وتبعد عنها بحوالي 85 كلم . ينظر: الطاهر أحمد الزاوي، **معجم البلدان الليبية**، ط1، دار الإتحاد العربي للطباعة، ليبيا، 1968م، ص 81.

[4] مسلاتة: هي بلد كبير تقع في الجنوب الشرقي من مدينة طرابلس وتبعد عنها بحوالي 125 كلم، أرضها جبيلة، معروف عن أهلها عنايتهم بزراعة أشجار الزيتون وعرفت منذ القدم بكثرة الزيت، وكلمة مسلاتة هي كلمة بربرية تطلق على قبيلة من قبائل هوارة البربرية، وحين كثر العنصر العربي في بلاد المغرب الإسلامي تغلبوا على أمصارها وسكنو مدنها وقراها، وبعد أن انحاز أغلب سكانها إلى جبل نفوسة وزوارة، اندمج من بقوا مع العرب ، فاصبح العنصر الأخير هو الذي يملك هذه الأراضي ويسكنها. ينظر الزاوي، المرجع السابق، ص 315.

[5] وللمزيد من التفاصيل حول هذه الثورات ينظر: الأنصاري، **المنهل العذب**...، المرجع السابق، ص ص 286-289..

[6] محمود علي عامر و محمد خير فارس، المرجع السابق، ص ص 209-210. ولمزيد ينظر أيضا فيرو، المرجع السابق، ص ص 271- 302. وينظر، الزاوي، **ولاة**...، المرجع السابق، ص ص 223-224. وينظر :رودلفو ميكاكي، **طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي**، تعر: طه فوزي، دار الفرجاني، ليبيا ، ص 84.

1-3-2- طرابلس في عهد محمد باشا القرمانلي(1745-1754م):

تولّى محمد باشا القرمانلي السلطة في إيالة طرابلس في صباح يوم دفن فيه والده عام 1745م[1]. سلك محمد باشا سياسة والده، فاستمر في إرسال الهدايا المعتادة للسلطان العثماني الذي اضطر للاعتراف بولايته. أمّا داخليا فلم تشهد فترة حكمه إضطرابات وثورات فقد كان الجهد الذي بذله والده كافيا لإرساء وتدعيم الأمن والاستقرار، وتدين له القبائل بالطاعة. كما اهتم محمد باشا بالأسطول فجدّد سفنه ومعداته، وزوّده بكل الوسائل الضروية لتطويره[2].

أمّا علاقاته الخارجية، فقد كانت علاقاته بجيرانه طيبة إلى حد بعيد، أمّا فيما يخص العلاقات الطرابلسية الأوروبية فلم تكن على أحسن ما يرام، فنجده شجع القرصنة ضد الدول الأوروبية، فسارعت فسارعت فرنسا لتجديد المعاهدة التي أبرمتها في فترة حكم والده عام 1727م، كما وعقد معاهدة سلام مع بريطانيا في سنة 1751م، في إطار التنافس الفرنسي الإنجليزي في بلاد المغارب خلال هاته الفترة، وفي الأيام الأخيرة من حكمه توترت علاقته بالعثمانيين إلى أن توفي في سنة 1754م[3].وسنفصل أكثر في هذه الجزئية خلال العنصر الموالي.

1-3-3- طرابلس في عهد علي باشا القرمانلي(1754-1795م):

تولّى علي باشا الحكم في عام 1754م كان صغيرا وعديم الخبرة، فبدأ الباشا عهده بالسماح لقراصنته بشنّ غزواتهم البحرية، وهو ما أوقعه في صراع مع بعض الأمم الأوروبية مثل البندقية وفرنسا، والتي كانت مرتبطة مع طرابلس بمعاهدات لضمان أمن سفنها المتنقلة في حوض المتوسط، لكنّ الأعمال البحرية للقراصنة الطرابلسيين دفعت إلى توتر العلاقات مع هذه الدول[4]. وهو ما ستنطرق إليه لاحقا خلال هذا الفصل.

---

[1] شارل فيرو، المرجع السابق، ص 309.

[2] شوقي عطاالله الجمل ، المرجع السابق، ص ص 135-136.

[3] محمود علي عامر ومحمد خير فارس، المرجع السابق، ص 212.

[4] شوقي عطاالله الجمل ، المرجع السابق، ص 136.

ساءت الأوضاع في البلاد فانتشر الفقر والأمراض والمجاعات،وفي سنة 1785م اجتاح الطاعون البلاد، وفي هذا الشأن نورد وصفا لهذه الحالة من طرف الآنسة توللي وهي شقيقة القنصل الإنجليزي و التي كانت في طرابلس خلال فترة ما بين (1783-1793م) حيث تقول:" ... أمّا في الوقت الحاضر فإنّ البلاد تشكو من مجاعة مخيفة، بحيث أصبح مرعبا السير أو ركوب الخيل خارج المدينة بسبب الناس الجياع الذين يموتون باستمرار في الطرقات والأزقة...وفي ظهرها الطاعون على دخول الميناء والبقاء في البحر زمنا طويلا...[1] أمام عجز حكومة علي باشا في مواجهة هذه المحن، وما زاد من إنفلات الوضع تلك الفوضى والتناحر بين القبائل كما وشهدت البلاد صراع أبناء علي باشا الثلاثة حسن ويوسف وأحمد من أجل خلافة الذي حاول علي الخروج من هذه الأزمات بأقل الأضرار سياسيا واقتصاديا، وبقي الحال على ما هو عليه إلى غاية نهاية القرن 18م[2]. التي يطلق عليه الباحثين المرحلة الأولى من الحكم القرمانلي.

إنّ كل هذه الأزمات التي مرّت بها الإيالة[3] يرجعها بعض الباحثين إلى هيمنة الأعلاج القراصنة على الحكم، ومن بينهم "فيرو" و"ميكاكي" اللذان أشارا إلى أن علي باشا قد استسلم للإنكشارية الذين سلبوه الحكم بطريقة غير مباشرة وافسدوا العلاقات الطرابلسية الأوروبية[4].

---

[1] توللي، المصدر السابق، ص ص 258-259.

[2]محمود علي عامر ومحمد خير فارس، المرجع السابق، ص ص 215-217. وينظر: ميكاكي، المرجع السابق، ص 106. وينظر أيضا: الزاوي، **ولاة...**، المرجع السابق، ص 226.

[3] حاول الباب العالي إعادة الحكم العثماني المباشر لطرابلس الغرب مستغلة الفترة الصعبة التي كانت تمر بها الإيالة، ففي سنة 1786م قدم أسطول حربي إلى طرابلس لأجل تنحية الباشا علي القرمانلي، لكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه، ليس بسبب قوة القرمانليين، وإنما الموت المفاجئ للسلطان عبد الحميد الأول(1774-1789م)، وحاول أيضا في نفس المسعى خليفته السلطان سليم الثالث (1789-1807م) في سنة 1791م إلاّ أنّ خطته لقيت نفس المصير وباءت بالفضل لأن القرمانليين وقفوا سدا منيعا و تصدو له وعلى رأسهم يوسف القرمانلي. وللاستزادة حول هذا الموضوع ينظر: شارل فيرو، المرجع السابق، ص 348-351. توللي ريتشارد(الآنسة)، المرجع السابق، ص ص 422-426.

[4] ميكاكي، المرجع السابق، ص 90. وينظر: فيرو، المرجع السابق، ص 318.

وفي الجهة المقابلة يرى البعض الآخر في سياسة علي باشا أنّها كانت حتمية من أجل حقن الدماء والحفاظ على كيان طرابلس الغرب مقابل التضحية بالصلاحيات[1].

أمّا علاقاته مع الباب العالي، فتشير "الآنسة توللي" إلى أنّ علي باشا أرسل هدايا عظيمة إلى السلطان العثماني الذي كان ناقما وغاضبا على باشا طرابلس بسبب أنّه دبّر مكيدة لضباط الانكشارية تم فيها القضاء على ثلاثمائة فرد منهم[2]. وهذا ما يؤكد بأنّ طرابلس الغرب كانت تعترف بالسيادة للسلطان العثماني كخليفة للملسمين مثلها مثل الجزائر وتونس.

1-4- مظاهر استمرار التواصل بين الإيالات المغاربية والدولة العثمانية:

لقد نحت إيالات الدولة العثمانية في بلاد المغارب منحى خطير بانتهاجها لسياسة استقلالية تؤسس لنظام محلي في كل من تونس وطرابلس الغرب وتؤسس أيضا لنظام مستقل في الجزائر رغم أنّ السلطة بقيت للأتراك، هذه الأنظمة أصبحت تتخذ القرارات باستقلالية دون الرجوع للسلطة المركزية، ساهمت فيها عديد العوامل الداخلية والخارجية.

لاحظنا كيف أنّ السياسة الخارجية لدول المغرب الثلاث طرابلس وتونس والجزائر قد دخلت مرحلة جديدة بحلول القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر الهجري، حيث كانت مظاهر الاستقلال عن الدولة العثمانية بادية للعيان خلال مراحل متقطعة من هذه الفترة خاصة من ناحية التعامل مع الدول الأوروبية كدول مستقلة تابعة للباب العالي. ثمّ تمّ تأكيد وتعزيز هذه الاستقلالية أكثر بحلول القرن الثامن عشر الميلادي الثاني عشر الهجري عندما أوجد نظام سياسي جديد غير معروف منذ مطلع العصور الحديثة يتسم هذا النظام بالملكية الوراثية ففي تونس وجدت الأسرة الحسينية، وفي طرابلس استطاع أحمد القرمانلي أن يؤسس الأسرة القرمانلية(1711-1835م)[3].

---

[1] محمود علي عامر ومحمد خير فارس، المرجع السابق، ص 216.

[2] وللاستزادة حول هذه الأحداث ينظر: توللي، المصدر السابق، ص ص 111-112.

[3] احمد سعيد سالم الطويل، المرجع السابق، ص 76

لم يكن السلاطين العثمانيين راضين تماما عن الإجراء الذي اتخذته الإيالات المغاربية خاصة في تونس وطرابلس الغرب مقارنة بما حدث في الجزائر، لكنّهم كانوا في وضع داخلي وخارجي لا يمكنه من فرض إرادتهم السلطانية بشكل فعلي، وفي الوقت نفسه فإنّ الوضع في إيالة الجزائر أفضل من غيره، فمنذ التواجد العثماني في تلك المناطق ورغم بروز زعامات محلية تطالب بالانفصال أو بالخروج عن إرادة الباب العالي، إلاّ أنّ ذلك لم يحدث بالرغم من التحول منذ مطلع العقد الثاني من القرن الثامن عشر، فمع أنّه كانت هناك مظاهر لاستقلال الإيالة الجزائرية إلاّ أنّ الحاكم بقي على العموم من الأتراك وليس من فئة الكراغلة أو الأسر المحلية.

بالرغم من التحولات السياسية في بلاد المغارب خلال الفترة ما بين (1705-1792م) إلاّ أنّ العلاقات العثمانية المغاربية تجسدت من خلال إصدار الفرمانات وهي رسائل إدارية تعتبر أهم وسائل الاتصال بين إيالات المغارب والسلطان العثماني، ولعلّ أبرزها الفرمانات الهمايونية الصادرة عن السلطان نفسه عند تعيين الباشوات، وفي المقابل فقد كانت الهدايا المرسلة من حكام الإيالات إلى السلاطين العثمانيين بمثابة الدعامة الأساسية لاسترضاء السلطان[1]، خاصة إيالتي طرابلس الغرب و تونس هاته الأخيرة التي نشأ فيها حكم وطني لأنّ الأسرة الحسينية وقبلها المراديين ليسوا من أصول عثمانية، وكذلك الحال بالنسبة للأسرة القرمانلية في طرابلس الغرب، إذا ما علمنا بأنّ الحكم فيها أصبح وراثيا، عكس الجزائر التي لم تشهد الحكم الوراثي طيلة العهد العثماني[2].

وانسجاما مع هذه المظاهر تمّ تعيين وكلاء ومندوبين من طرف حكم إيالات الجزائر تونس وطرابس الغرب لدى استانبول، فإنّ جدية وأهمية هذا المنصب تنبع من حقيقة أنّ

---

[1] وللاستزادة حول مسألة الهدايا والدور الذي لعبته في تقريب وجهات النظر بين المغاربة والعثمانيين ينظر: خليفة حماش ، المرجع السابق، ص ص 149- 160.

[2] آيت بلقاسم فاطمة زهراء، **الحكم العثماني في الجزائر وتونس-دراسة مقارنة-**، مجلة القرطاس، ع4، جانفي 2017، تمسان ، الجزائر، ص 47.

صاحبها يعتبر المسؤول الأوّل على عملية تجنيد المتطوعين الانكشارية، وقد كانت هذه العملية في غاية الأهمية خاصة لدايات الجزائر، كونها الطريقة الوحيدة للمحافظة على الطابع الخاص للجهاز الإداري والعسكري وعلى الروابط البشرية القوية التي ظلّت تشد الجزائر للدولة العثمانية[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ عملية التجنيد لم تتأثر بشكل كبير بتغيير السلطة في الإيالة التونسية خاصة قبل سنة 1782 حين تولي حمودة باشا السلطة، فعلى الرغم من السياسة المنتهجة من طرف البايات الحسينيين والتي تعمل على جعل العنصر المحلي في كل المناصب ومحاولة التقليل من تواجد الأتراك إلاّ أنّ هذا لم يمنع في استمرار وصول دفعات من المجندين إلى تونس[2]، وكذلك الحال بالنسبة للإيالة الطرابلسية ولكن بدرجة أقل، فقد تراجعت عملية التجنيد مع بداية سيطرة القرمانليين على السلطة، فالملاحظ أنّ أغلب القادمين للإيالة كانوا من طائفة الرياس المغامرين الذي كانو يقومون بأعمال الغزو البحري[3] والتي كانت تعتبر من أهم النشاطات التي تعتمد عليها الخزينة الطرابلسية والمغاربية بشكل عام. أمّا بالنسبة لإيالة الجزائر فإنّه وعلى الرغم من سيطرة الأتراك على السلطة، إلاّ أنّ حكام الجزائر حرصوا على تدعيم الجيش من خلال تجنيد المتطوعين القادمين من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية حتى بعد الهزات العنيفة التي تعرّض لها نظام الحكم في الإيالة وما كانت لها من تداعيات خطيرة على العلاقات الجزائرية العثمانية[4].وفي أغلب الأحيان يعود هذا الإجراء إلى تخوف دايات الجزائر من أن تحذو الإيالة حذو جيرانها وتصبح أحد الأسر هي السلطة الأولى في البلاد.

---

[1] ناصر الدين سعيدوني، **تارخ الجزائر في العهد العثماني** ، دار البصائر، الجزائر، 2014، ص 93.

[2] نوري العاني، المرجع السابق، ص 36.

[3] ميكاكي، المرجع السابق، ص 94.

[4] وللمزيد ينظر: خليفة حماش، المرجع السابق، ص ص 167-172.

صحيح أنّ هؤلاء المجندين من الانكشارية وغيرهم لعبوا دورا رئيسيا في انتصارات العثمانيين في بلاد المغارب إلاّ أنهم لم يمثلوا سوى مدد إضافي بقي من الناحية العددية دائما أقلّ أهمية بالنسبة لمساهمة القوى الأهلية المحلية في إيالات الجزائر وطرابلس الغرب وتونس[1].

إنّ أغلب بايات الأسرة الحسينية واجهوا تحدّي الإثبات وفرض الشرعية حين توليهم السلطة في الإيالة التونسية، فقد أثيرت شبهات حول بعض البايات وأحقيتهم لهذا المنصب إستنادا إلى مبدأ الأهلية والتسلسل الوراثي، أمذا البعض الآخر فقد دفع التنافس بينهم لإثبات هذه الأحقية إلى تدهور الأوضاع في البلاد، أمّا في الطرابلس الغرب فقد إتضح بأنّ الشرعية القرمانلية في الداخل كانت أكثر تماسكا نتيجة ضعف الجند التركي، وهذا ما انعكس على الشرعية المركزية مع الباب العالي الذي كان مصرا على سحب الملك من القرمانليين عكس ما نجده في تونس من إطمئنان استابنول للحسينيين[2].

ومن ناحية أخرى فإنّ الإيالات المغاربية استمرت في تحالفها العسكري مع الأسطول العثماني كما كان الحال منذ إنضمامها إلى الخلافة العثمانية، ففي سنة 1769م خرج الأسطول الجزائري لصد الروس والإغريق، وكان على رأسه القبطان ابن يونس إلى جانب الأسطول التونسي، وبقيا ينافحان عن الدولة بالمشرق لمدة خمس سنوات إذ خرج الأسطول سنة 1774م وبقي ستة أشهر، وعاد لمقرّه سالما. ونظير هذه المشاركة كان العثمانيين يقتسمون الغنائم مع المغاربة، حيث أعطى السلطان هدية للجزائر تحتوي على ثلاثة مراكب حربية كمكافأة لمشاركتها الفعالة في الحرب ضد المسيحيين، كانت هذه الغنائم دائما ما تعزز القدرات بالنسبة الأسطول الجزائري[3]، وكذلك إيالة طرابلس الغرب التي أرسلت سفينتين

---

[1] مروش، المرجع السابق، ص 49.

[2] عبد القادر سوداني، **السلطة في تونس وطرابلس بين 1705-1837م: محاولة في التاريخ المقارن، ط1**، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، المانيا، 2017،ص 59.

[3] غنابزية، المرجع السابق، ص 96.

صغيرتين و أربعة زوارق في سنة 1770م[1]. هذه المساعدات الضئيلة تعبّر مرة أخرى عن الحالة الصعبة التي كانت تعيشها الإيالة الطرابلسية خلال هذه الفترة.

إنّ كل هذه المظاهر تثبت لنا بأنّ الإيالات المغاربية حافظت على بعض مظاهر التبعية للباب العالي رغم التحول الذي شهدته الأنظمة السياسية في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وما كان لها من تداعيات على العلاقات العثمانية المغاربية، ربما بسبب الظروف الداخلية والدولية خلال الفترة ما بين (1705-1792م) لتبقى تلك الأواصر والروابط بين الطرفين تعبر عن استمرار التحالف المغاربي العثماني بشكل آخر.

لم تتأثر العلاقات الثنائية بين الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بالتحولات السياسية وبقيت العلاقات تتراوح تارة تصل إلى حد القطيعة والحرب، وتارة بين السلم وحسن الجوار والوفاق، فبوصول الحسينيين إلى السلطة أصبحت العلاقات التونسية الجزائرية أكثر استقرارا في فترة ما بين (1705-1732م)، وبعدها ساءت الأحوال بين البلدين في (1735-1756م)، إلاّ أنها تحسنت في فترة ما بين (1756-1792م)[2]، أمّا فيما يخص العلاقات الطرابلسية الجزائرية كذلك لم تتأثر بوصل الكراغلة القرمانليين إلى السلطة في طرابلس الغرب فبعد المسافة وعدم وجود مشاكل متعلقة بالقبائل الحدودية في الصحراء بين الإيالتين ساعد كثيرا في عدم وجود صراعات بين البلدين خلال فترة البحث، على عكس حالة الجزائر وتونس، أو هذه الأخيرة مع طرابلس الغرب، ونجد كذلك في بعض الفترات أنّ القرمانليين استغلوا العلاقات المتوترة بين تونس والجزائر في كسب ود دايات هذه الأخيرة من أجل تشكيل التحالف وصد أطماع البايات الحسينيين في ضم طرابلس الغرب[3]. وعلى العموم فالتقارب والتحالف الذي كان يحصل بين المغرب الأقصى وتونس كان يوجه العلاقات بين هذه الأخيرة والجزائر نحو العداء والتوتر، وكان السلام بين الجزائر والمغرب الأقصى يفرغ

---

[1] ميكاكي، المرجع السابق، ص 99.

[2] بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس**، المرجع السابق، ص 277.

[3] ميكاكي، المرجع السابق، ص ص 79-80.

الأولى لمعالجة قضاياها مع تونس على النحو الذي تريده، كما كان التحالف بين الجزائر وطرابلس ضد تونس يساعد حكام الجزائر على تحقيق غرضهم في تونس[1]. ومن جهة أخرى فقد لعبت الدول الأوروبية دورا حاسما في العلاقات المغاربية، فهي محور أساسي في علاقات التلاقي والتحالف بين الجزائر وتونس والمغرب الأقصى، فكانت هذه الدول تتدخل باستمرار في الشؤون الداخلية المغاربية لبث روح التفرقة بين المغاربة وكذلك لتدعيم مصالحها وامتيازاتها في المنطقة، والعمل على عدم بروز تكتل مغاربي من شأنه تهديد مصالح أوروبا مستقبلا[2]. وهو ما سنفصل فيه لاحقا في عنصر ثنائية المغارب وأوروبا.

بالرغم من طابع الصراع السياسي والعسكري المستمر بين الإيالتين التونسية والجزائرية إلاّ أنّ حركة الجهاد البحري المشترك بين الأسطولين تواصلت خلال القرن الثامن عشر ولو أنّها ليست بنفس الوتيرة، وخلال سنة 1741م تمكن الجزائريون والتونسيون من أسر باخرتين فرنسيتين[3]، وهو ما أشار إليه الشريف الزهار، ففي سنةسنة 1181هـ/ 1769م وبدعوة من الباب العالي جهزّ الجزائريون خمسة مراكب ومثلها بالنسبة للتونسيين، وكذلك الحال في سنة 1181هـ/ 1773م، تمكنوا خلالها من احتجاز مراكب يونانية وأخذها على البوغاز(الدردانيل) وأهدوا الأسرى إلى قبطان باشان وتقاسموا باقي الغنيمة، ثم أحسن إليهم السلطان العثماني عبد الحميد وأعطاهم فرقاطة وكرفيط ومركب آخر لا يعرف إسمه[4].

والملاحظ في هذا الشأن هو أنّ الصراع بين الإيالات المغاربية لم يشهد تشكيل تحالفات في شكل حملات كما في الفترة السابقة، بل بدا هنالك توازن عام في إطار الصراع المغاربي ساهمت فيه الأحداث الداخلية، إضافة إلى التطورات الإقليمية والدولية.

---

[1] بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس...**، المرجع السابق، ص 290.

[2] هلايلي، **أوراق في تاريخ الجزائر...**، المرجع السابق، ص ص 65-66.

[3]Paul Masson, **Histoire des etablissements et du commerce Français dans L Afrique Barbaresque (1506-1793)**, librairie Hacette et Cie ,Paris, 1903, pp398-399.

[4] المدني ،**مذكرات أحمد الشريف الزهار**، المصدر السابق، ص ص 28- 31.

1-5-المغرب الأقصى:

1-5-1- فترة الاضطرابات(1727-1757م):

لم يعهد المولى إسماعيل لأحد من أولاده[1] بالولاية في حياته، وقبل وفاته إستشار وزيره وعالم حضرته الكاتب أبا العباس اليحمدي وقال له:" ... إنّي في آخر يوم من أيام الدنيا فأحببت أن تشير عليّ علي بمن أقلده هذا الأمر من ولدي لأنك اعرف بأحوالهم مني ، فقال له : يا مولانا لقد كلفتني أمرا عظيما و أنا أقول لك الحق: أنه لا ولد لك تقلده أمر المسلمين وكان لك ثلاثة المولى محرز و المولى المأمون والمولى محمد فقبضهم الله إليه فقال له السلطان جزاك الله خيرا وودعه وانصرف ولم يعهد لأحد..."[2]، فبعد وفاة المولى إسماعيل العلوي في عام 1727م تأثرت البلاد وأصبحت الفوضى والصراعات هي الحالة السائدة آنذاك، وعرف المغرب أخطر أزمة في تاريخه، فاحتدم التنافس بين أبناء السلطان إسماعيل فاستغل جند عبيد البخاري[3] الوضع وسيطروا على السلطة واستولوا على مقدرات البلاد السياسية والاقتصادية، حيث تحكم هؤلاء في قرار السلاطين وهم أبناء المولى إسماعيل الذين تعاقبوا في هذه الفترة وصارو العوبة في أيد الجند، فكان هؤلاء يقمون بتعيين وعزل الحكام وفق مصالحهم، وكان أوّل من عينوه أبو العباس الذهبي(1727-1728م)، وبالرغم

---

[1] ولتفاصيل حول معرفة أولاد السلطان إسماعيل العلوي، ينظر: الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص ص 100-102.

[2] أبو العباس الناصري ،**الاستقصا** ...،المصدر السابق، ج7 ، صص100-101.

[3] يشير الناصري صاحب الاستقصا إلى سبب تسميتهم بعبيد البخاري فيقول:" وأما سبب تسمية هذا الجيش بعبيد البخاري، فإنّ المولى إسماعيل رحمه الله لما جمعهم وظفر بمراده بعصبيتهم واستغنى بهم عن الانتصار بالقبائل بعضهم على بعض...وجمع أعيانهم وأحضر نسخة من صحيح البخاري وقال لهم:" أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل"، فعاهدوه على ذلك...". ينظرأبو العباس الناصري ،**الاستقصا** ...،المصدر نفسه، ج7 ، صص 58-59.

من الحالة السيئة التي تعيشها البلاد إلاّ أنّها ظلّت مخلصة للأسرة العلوية ولم تحاول أي جهة القضاء على الحكم العلوي نهائيا[1].

لقد تدخل الجند في شؤون الدولة وأصبح بيدهم الأمر المطلق في البلاد، وصار أساس تولية الملك يتنافى مع المصلحة العامة للبلاد، بل يجب أن يعمل على إرضاء رجال الجيش، وفي هذا الشأن يذكر الناصري: "... وإنمّا العبيد كانوا يقدمون من شاؤوا ويؤخرون من شاؤوا..."[2]، فانتشرت الفتن وعم الاضطراب والفوضى، وتعدد تولي الملوك وعزلهم من أبناء المولى إسماعيل، وعانت البلاد من جراء ذلك عمليات النهب والسلب، والقتل والفتك واستمرت هذه الحالة مدة ثلاثين سنة، تعاقب خلالها ستة سلاطين كان آخرهم السلطان عبد الله (1729-1757م) وهو يعتبر من أبرز الأمراء خلال هاته الأزمة التي مرّ بها المغرب الأقصى. لقد كان الولاة تحت رحمة هذه الطبقة المسلحة إلى غاية سنة 1757م حين تولى مولاي محمد بن عبد الله الحكم، وهو الذي نجح في إبعاد هؤلاء الجند عن التدخل في النظام السياسي[3].

ويلخص أحد الباحثين هذه الفترة ويطلق على المغرب الأقصى خلالها " دولة الفوضى والعبيد" فيقول:"... من وفاة السلطان إسماعيل سنة 1139هـ/1727م إلى ولاية حفيده السلطان محمد بن عبد الله ...تغيرت الدولة في 31 سنة تغييرا كبيرا ومفاجئا، من الاستقرار والأمن وسلطة الدولة إلى فوضى الدولة وسلطة العبيد. فقد ولى في هذه الفترة القصيرة التي لا تعدو نصف مدة ولاية إسماعيل عدد من السلاطين الإخوة من أبناء إسماعيل يحتار التاريخ في تتبع بدايو ولاياتهم ونهاياتها ، فقد تولى أحمد(الذهبي) ثم عبد الملك ثم علي

---

[1] الضعيف الرباطي، المصدر السابق، ص 137. وينظر: محمود علي عامر ومحمد خير فارس، المرجع السابق، ص ص 104-105.

[2] أبو العباس الناصري ،**الاستقصا** ...،المصدر السابق، ج7 ، ص 101.

[3] شوقي عطاالله الجمل، المرجع السابق، ص 221.

الأعرج ثم محمد (ابن عربية) ثم المستضيء ثم زين العابدين. سبعة من السلاطين لم تكن لهم جميعا أي مبادرة جدية ولا توفيق سياسي لإقامة الدولة..."[1].

1-5-2- عهد المولى محمد بن عبد الله (1757-1790م):

قبل توليه الحكم في بلاد المغرب الأقصى كان واليا على مراكش التي بدأت البيعة له فيها ثم بايعه أهل فاس، حيث قدم إليه كل أهل المغرب من العلماء والأشراف وسائر الأعيان وقبائل العرب والبربر، ولم يتخلف عنه أحد[2]، ثم عكف السلطان محمد بن عبد الله بعد ذلك على تنظيم الإدارة الحكومية فلم يعزل أحد من قواد القبائل وعمال الحواضر الذين كانوا في فترة حكم والده، كما كان إهتمامه بالجيش والأسطول عظيما لإدراكه خطورة الوضع سواء من خلال الطامعين في الوصول إلى الملك، كما قام بتأمين سواحل البلاد وثغورها حتى يحد بذلك من أطماع الأجانب[3].

لقد أعاد السلطان محمد بن عبد الله الاستقرار والبناء للمغرب الأقصى بعد أزمة ثلاثين سنة فعمل على تنظيم الإدارة واهتم بالعلم والعلماء، ونشر القضاة في مختلف مناطق البلاد بحيث عين لكل ناحية مركزا يرجع إليه في الفتوى وإصدار القوانين لتنظيم القضاء وإصلاح التعليم، كما اهتم بالعمران فأنشأ المدن مثل الصويرة وفضالة في سنة 1772م، والكثير من المدارس والمساجد والقناطر والأسوار والمستشفيات والموانئ، واهتم أيضا بالجانب الصناعي كصناعة السفن، أمّا فيما يخص تحرير الثغور فقد تمكن من تحرير البريجة[4]. كما وأجبر البرتغاليين على الخروج من مزغان آخر معاقلهم في سنة 1769م[5].

---

[1] عبد الكريم غلاب، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر**، ج3،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005، ص ص 19-20.

[2] الناصري، **الاستقصا**...،المصدر السابق، ج8، ص 4.

[3] شوقي عطا الله الجمل، **المرجع السابق**، ص223.

[4] الزياني، **الترجمانة الكبرى**...، المصدر السابق، ص ص 16-18.

[5] جوليان، المرجع السابق، ص 311.

وفي علاقاته الخارجية فإنّه كان يعلم بأنّ المغرب الأقصى مهدد من الدول الأوروبية وخاصة إسبانيا والبرتغال اللذين هما في الأساس يحتلان بعض الثغور المغربية، بالإضافة إلى دولة فرنسا التي قامت بالهجوم على العرائش، فالملاحظ على السياسة الخارجية للسلطان العلوي أنّها سارت في اتجاهين، أولهما الاستعداد العسكري وتمثل في إرسال بعثات إلى دول إنجلترا والسويد والدنمارك وكذلك إلى الدولة العثمانية، من أجل استيراد البواخر الحربية والأسلحة التي تصنعها هذه الأمم، فقد جلب منها الكثير، هذا وقد استجابت الدولة العثمانية وأرسلت سفينة عسكرية على متنها معلمين استقروا في المغرب من أجل تدريب العسكريين، أمّا الاتجاه الثاني فهو عقد معاهدات صلح وهدنة مثلما كان عليه الحال مع دول كل من الدنمارك وفرنسا وإسبانيا[1]. توفي بعد المرض الذي اشتد به في الطريق الى الرباط في ليلة الاثنين 26 رجب 1204هـ/1790م ودفن في قصره بالرباط[2].

بعد وفاة المولى محمد بن عبد الله في عام 1790م عاش المغرب الأقصى مرة أخرى فترة من الأضطربات جراء الصراع على السلطة داخل الأسرة العلوية بين أبنائه، فبويع اليزيد بيعة محلية في منطقة جبالة أواخر رجب 1204/أفريل 1790م وبعد انتقل إلى تطوان حيث تلقى بيعاة أهلها ووفود طنجة والعرائش وسائر الشما، وبايعه كذلك بيعة جماعية أهل سلا والرباط، وبعد أن استتب له الأمر دعى إلى نهب اليهود حيثما حلوا، وقام باستقبال قناصل الدول الأوروبية ليعلن أمامهم بأنّ كل من لم يفي بالتزمات بلاده تجاه المغرب الأقصى فإنّه يعتبر في حالة حرب معه، إلاّ أنّه طلب فيما بعد من ملوك أوروبا تجديد بنود الصلح التي كانت في عهدة والده[3]، ورغم قصر مدة حكمه والتي دامت قرابة السنتين إلاّ أنّها لم تخل من

[1] غلاب، المرجع السابق، ص 29.

[2] الزياني، **الترجمانة الكبرى**...، المصدر السابق، ص 24.

[3] إبراهيم حركات، المرجع السابق، ج3، ص 122.

الأزمات، حيث ثارت عليه قبائل الحوز وبايعت أخاه المولى هشام، انتهت هذه الفتنة بمقتل السلطان في سنة 1792م لتتم مبايعة أخيه المولى سليمان[1].

2- المغرب الأقصى والدولة العثمانية من المواجهة إلى التضامن :

2-1- الظروف العامة في الدولة العثمانيةوانعكاساتها:

يمثل القرن الثامن عشر في تاريخ العثمانيين والعلويين أهمية كبيرة، ويعتبر فترة حساسة وفاصلة لكلا الدولتين، فالملاحظ خلال هذه الفترة تشابه الأوضاع خاصة السياسية، فقد علمنا مسبقا حال المغرب الأقصى ولاسيما تلك التحولات التي أدّت إلى عدم الاستقرار السياسي، فقد عانت الدولة العثمانية من انتشار الفوضى والاضطرابات التي كانت لها تداعياتها على الحياة الإقتصادية والاجتماعية وحتى الثقافية، ساهمت فيها عدّة عوامل لعلّ أبرزها ضعف شخصية السلاطين العثمانيين وانغماسهم في حياة الفسق واللهو والترف، وصار جل اهتماماتهم قضاء أوقاتهم في الملذات[2].

في الحقيقة ظهرت مؤشرات الضعف والتدهور التي حاقت بالدولة العثمانية منذ نهاية القرن السابع عشر، فضعف نظام الإنكشارية من بين أسباب الضعف، بالرغم من أنّ الإصلاحات العثمانية في بداية القرن الثامن عشر مسّت الجانب العسكري، فقد مني العثمانيون بهزائم متكررة في أوروبا، وفي الشقّ الاقتصادي فقد ارتفعت نفقات المعيشة فبلغ التضحم أعلى مستوياته نتيجة سوء إدارة الميزانية حتى مع ارتفاع الضرائب على الرعية فانعكست هذه الأوضاع على ظهور الحركات الاستقلالية الانفصالية المحلية في بعض الإيالات في الوطن العربي، ومنها الإيالات المغاربية والتي كنّا قد تطرقنا إليها سلفا.

إنّ تطور الدور الأوروبي في الاقتصاد العالمي واقترانه بتطوير أساليب الصدام مع العالم الإسلامي وبالانتكاسات السياسية التي لحقت بالدولة العثمانية، فتحوّل طرق التجارة

---

[1] دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص ص 32. وينظر: شوقي عطاالله الجمل ، المرجع السابق، ص 229.

[2] ياغي، المرجع السابق، ص 94.

العالمية عن المرور داخل أراضي التي يسيطر عليه العثمانيون أدّى إلى فقدان جزء كبير من التجارة العالمية، وكذلك مسألة الامتيازات التي حصلت عليها الدول الأوروبية، حيث أصبح الأوروبيون المستفيد الأول من التجارة العثمانية، فصار من الصعب على القوى والمؤسسسات العثمانية أن توقف الآثار السلبية للامتيازات لعدم كفاءتها في المقام الأول وكذلك للاعتبارات السياسية المتصلة بدور القوى الداخلية المستفيدة من هذه الأوضاع[1].

إنّ إبتعاد السلاطين العثمانيين عن إدارة الحكم جعل من رجال السياسة والقوّاد يحلو مكانهم، بحيث احتكروا السلطة واستخدموا ذلك لتحقيق مكاسب. في حين استغلت الدول الأوروبية مثل روسيا والنمسا هذا التراجع العثماني وحققتا انتصارات كبيرة أدّت إلى إنحسار حدود الإمبراطورية العثمانية، وفي الوقت نفسه كانت أوروبا تشهد نهضة وتقدما في كل المجالات خاصة الجانب العلمي والتطور التقني. فكل هذه العوامل الداخلية والخارجية ساهمت في اختلال توازان القوى بين الطرفين، فالقرن الثامن عشر يرمز إلى البداية الحقيقة لهجوم الدول الأوروبية الكبرى على الدولة العثمانية. فقد كانت لهذه التحولات انعكاسات على العلاقات العثمانية الخارجية سواء مع حلفائها وحتى أعدائها[2]. وما يهمنا في هذا الإطار العلاقات مع المغرب الأقصى؟.

2-2- بداية تحسن العلاقات العثمانية المغربية:

مع بداية العقد الأول من القرن الثامن عشر شهدت العلاقات العثمانية المغربية بداية تحسن غير مسبوقة حين أرسل السلطان المغربي إسماعيل العلوي رسالة تهنئة بتاريخ 16 أفريل من سنة 1708م إلى السلطان العثماني أحمد الثالث يهنئه فيها على استرجاع مدينة وهران من الإسبان، يظهر هذا التحسن في العلاقات أيضا من خلال رسالى السلطان المغربي إلى ملك فرنسا حليف العثمانيين في جويلية من سنة 1709م، فقد عرض إسماعيل

---

[1] وللمزيد حول أسباب ضعف الدولة العثمانية ينظر: إبراهيم القادري بوتشيش وآخرون، المرجع السابق، ص ص 281-286.

[2] طقوش، المرجع السابق، ص ص 248-251.

المساعدة العسكرية لفرنسا والدولة العثمانية دعما لجهودهما العسكرية ضد النمسا التي تسعى إلى طرد النفوذ العثماني في منطقة البلقان[1]، ومن ضمن ما جاء في الرسالة ما يلي "... إننا نعلن عن استعدادنا لتقديم المساعدة والعون اليكم لطرد النمسا من اسبانيا ... إنكم توادّون الأتراك وتحبونهم... وإنّ حبنا نحن للأتراك نابع من كونهم حراس الحرمين الشريفين وبيت المقدس..."[2] .

بعد وفاة السلطان إسماعيل العلوي استمرت العلاقات الودية بين الحكام العلويين والباب العالي، وتؤكد ذلك رسالة السلطان العثماني محمود الأول (1730-1754م) بتاريخ عام 1731م وقدم السلطان المغربي التهاني بجلوس السلطان العثماني على عرش أجداده، ودعاه إلى الاستمرار في احترام العلاقات بين الجانبين كما كفلتها المعاهدات، وجاء في رسالته:"...إن جنودنا وخيراتنا وافرة ... وانتم حماة الحرمين الشرفين، أنتم بين الملوك كالتاج على الرأس واننا لنرجو من جنابكم حفظ ما كان بين آبائنا وأجدادنا من عهود...". وقد جاء هجوم القوات الإسبانية على وهران عام 1732م مناسبة لتأكيد التضامن الإسلامي بين الجانبين، فقد كتب السلطان العثماني محمود الأول إلى السلطان المغربي عبد الله بن إسماعيل في مطلع عام 1733م يخبره بانتكاس المجاهدين في الجزائر، وأنّهم في حاجة إلى مساعدة أخرى من أهل المغرب...[3]. ويذهب الباحث محمد علي داهش إلى أنّ هذه الرسالة دلّت على أن المغرب الأقصى تضامن مع إيالة الجزائر قبل ذلك بدون أن يتحرى من الأمر ويبحث في أي مساعدة ساهم بها العلويين، فالملاحظ على كتابات هذا الأخير أنّه في كثير من القضايا الشائكة في العلاقات العثمانية المغربية دائما ما يضع المغرب الأقصى في ثوب الضحية بدون قرائن.

---

[1] التازي، **التاريخ الديبوماسي**...، المرجع السابق، ص ص20-21.

[2] نقلا عن محمد علي داهش، المرجع السابق، ص 84.

[3] المرجع نفسه، ص 85، وينظر: التازي، **التاريخ الدبلوماسي**، المرجع السابق ، ص ص 22-23.

يبدوا أنّه وبانتهاء الفترة الإسماعلية تحولّت مظاهر العلاقات بين البلدين من حالة العداء والصراع للأسباب التي اتينا على ذكرها آنفا إلى المهادنة بل أكثر من ذلك إلى التبعية. فقد أقرّ السلطان المولى عبد الله(1727-1757م) تبعيته للباب العالي، ويتبين ذلك من خلال رسالته إلى السلطان العثماني، حيث يقول:" وأنا أخطب بك في مساجد الجمعة والأعياد كما فعل والدنا مع أسلافكم الجياد، ولولا أن الغرب صعب المرام، لاستعملت أقدام الأقدام إلى حضرة ذلك الهمام، فهو جدير أن يجعلني من أحبائه، وان يحمل على من هذا الخطب عظيم أعبائه، ولبذلت المجهود والمقصود..."[1]. هذه المرحلة الجديدة والتي تجّلت في تلك الرسائل المتبادلة بين الطرفين قد تكون حتمية لتلك الظروف الدولية الصعبة التي يتخبط فيها البلدين، فالدولة العثمانية كانت منشغلة بحروبها مع روسيا والنمسا، وكذلك فقد عانت إيالة الجزائر جرّاء الحملة التي استرجعت فيه إسبانيا مدينة وهران، بالإضافة إلى ما يحدث في إيالتي تونس وطرابلس الغرب، أمّا المغرب الأقصى فقد واجه أزمة حادة بعد وفاة السلطان القوي إسماعيل العلوي، فلم يكن أمام الحكام الجدد سوى مواجهة الاضطرابات الداخلية التي كانت أولوية قصوى وبعدها مواجهة الضغط الأوروبي[2].

2-3- مظاهر التضامن المغربي العثماني:

لقد كثر تدخل العثمانيين من جديد في الشؤون المغربية خلال الفترة ما بين (1727-1757م) بعد رحيل الرجل القوي مولاي إسماعيل وذلك بتشجيعهم العناصر الدينية من رجال الطرق الصوفية المضاديين للسلطة العلوية. وقد استمرت هذه الحالة حتى عام 1757م حينما تولى السلطان محمد بن عبد الله الحكم وفرض سلطانه على البلاد وأعاد للملك هيبته[3]. ومع ذلك سعى هذا الأخير إلى المحافظة على العلاقة الجيدة مع إستانبول خاصة وأنّها

---

[1] مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**، ط1، مكتبة مؤمن قريش، دار الإنتشار العربي، بيروت، لبنان، 2015، ص 112.

[2] المرجع نفسه، ص113.

[3] محمد علي داهش، المقال السابق، ص ص 168-169.

علاقات فتية، وفي خضم ذلك عمل على تبادل السفارات والمراسلات والهدايا مع السلاطين العثمانيين بدءا من السلطان مصطفى الثالث(1757-1774م)، وكذلك الحال مع السلطان عبد الحميد الأول(1774-1786م)،وبداية عهد السلطان العثماني سليم الثالث(1789-1807م) الذي تزامنت بدايات فترة حكمه مع نهاية عهد السلطان المغربي[1] فقد كثرت السفارات المغربية التي وفدت على الباب العالي في فترة ما بين (1757-1790م)[2] مقارنة بالسفارات العثمانية إلى المغرب الأقصى والتي كانت محدودة ومن بين أهم هذه السفارات نجد سفارة إسماعيل أفندي، سفارة أحمد عزمي أفندي وسفارة أحمد الموصلي[3].فقد أورد صاحب الاستقصا جوانب من مظاهر تبادل الهدايا والدعم العسكري بين الطرفين، بقوله:" ... سنة ثمانين ومائة وألف، بعث السلطان سيدي محمد بن عبد الله خديمه الرئيس عبد الكريم رغوان التطاوني...إلى السلطان العثماني، وأصحبه هدية نفيسة مكافأة على هديته التي كان أرسلها مع السيد الطاهر بن عبد السلام السلاوي، والسيد الطاهر بناني الرباطي... ثم لما دخلت سنة إحدى وثمانين ومائة وألف، قدم الحاج عبد الكريم المذكور من عند السلطان المذكور ومعه هدية عظيمة أعظم من الأولى، وهي مركب موسوق بالمدافع والمهاريس النحاسية، وإقامتها وإقامة المراكب القرصانية من صوار ومخاطيف وقلوع وقمن وحبال وبراميل وغير ذلك من آلات البحر، وفيها ثلاثون من مهرة المعلمين الذين لهم معرفة بأفراع المدافع والمهاريس...، وبصناعة المراكب القرصانية...، فنزلوا بمرسى العرائش"[4] التي كان واليها في هذه الفترة المؤرخ الزياني صاحب البستان فقد ذكر بأن السلطان العلوي محمد بن

---

[1] الملاحظ في هذا الشأن أنّ السلاطين العثمانيين كانوا يخاطبون السلطان محمد بن عبد الله بكل مظاهر الاحترام والتبجيل وهو ما يعكس إيجابية تلك العلاقات . وللمزيد ينظر: إبراهيم حسن شحاتة،أطوار **العلاقات المغربية العثمانية، 1510-1947**، منشاة المعارف، الاسكندرية، مصر، 1981، ص 442-450.

[2] وللإطلاع أكثر والخوض في تفاصيل هذه السفارات والعلاقات المغربية العثمانية بصفة عامة خلال هذه الفترة، ينظر: عبد الرحمان بن زيدان ، **اتحاف أعلام الناس**...،المصدر السابق، ج3، ص ص 349-359.

[3] مصطفى الغاشي، المرجع السابق، ص 114.

[4] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا**...،المصدر السابق، ج8، ص ص 31-32.وللاستزادة في الموضوع ينظر: عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس**...، ج3، المصدر السابق، ص ص349-359.

عبد الله أراد أمر بتوجيه المعلمين إلى فاس لأجل الإقامة بها إلى أن يجتمع معهم وهو ما تم في مكناسة حين فاوضهم وأراد أن يحي آثار دار الصنعة التي كانت بسلا تصنع بها المراكب الجهادية منذ عهد الموحدين، لكنه فيما بعد أعرض عن ذلك وبعث المعلمين إلى سلا وتطوان والرباط وفاس[1].

واستمر هذا التقارب إلى غاية أواخر فترة المولى محمد بن عبد الله ففي سنة 1200هـ/1786م بعث السلطان المغربي كاتبه أبا القاسم الزياني إلى السلطان عبد الحميد العثماني بهدية عظيمة، من جملتها أحمال من سبائك الذهب الخالص مثل بارات الحديد، وكان السلطان يقصد بمثل ذلك الفخر على الملوك وإظهار الغنى وكمال الثروة[2]، حيث يقول الزياني في معرض حديثه عن إقامته باستانبول: " فأقمت بالقسطنطينية ثلاثة أشهر وعشرة أيام وهي مائة يوم فقضيت الغرض ورجعت إلى السلطان، ووجه معي السلطان عبد الحميد أحد خدامه بهدية للسلطان..."[3].

ومن مظاهر التضامن المغربي العثماني في مسألة الأسرى فقد ساهم السلطان العلوي محمد بن عبد الله في تحرير عدد من الأسرى العثمانيين، وكان يطلب من السلطان العثماني التدخل في حالة حدوث أي خلاف بين الجزائر والمغرب[4]. أمّا في الجانب العسكري فقد استمر الدعم المغربي للدولة العثمانية في حروبها ضدّ القوى الأوروبية وتشكيل تحالف استراتيجي يخدم البلدين، فالمغرب الأقصى أيضا يحتاج إلى هذا التعاون خاصة في ظل الاحتلال الأوروبي لبعض المناطق كسبتة ومليلة وطنجة، فانطلاقا من التضامن الإسلامي ضد التكالب المسيحي، وهو ما أكده السفير المغربي الطاهر فنيش للصدر الأعظم العثماني

---

[1] أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا**...، المصدر السابق، ج8، ص 32. وينظر: الزياني، **البستان**...، المصدر السابق، ص 402.

[2] الناصري،**الاستقصا**، المصدر السابق،ج8، ص 60.

[3] الزياني، **البستان**...، المصدر السابق، ص 458.

[4] محمود علي عامر، المرجع السابق، ص 112.

بقوله:" إنّ تحالف إنجلترا وروسيا موجه بالأساس ضد الأمة الإسلامية فلماذا نحن القادة المسلمين لا نتحد ونتعاضد فليحاط علم حضرة الباشده ملجأ العالم أنّ المملكة المغربية تنتمي إليه وأن جيشنا وأملاكنا هي له، وأنه لشرف لنا أن تكون ثروتنا ورعيتنا وكل ما نملكه رهن إشارة الحضرة السلطانية"، والملاحظ أن المساعدات المغربية للباب العالي لم تقتصر على السلاح والعتاد الحربي والمال فقط، بل تجازته إلى الآليات البحرية والسفن والمراكب الحربية[1]، وكمثال لذلك يذكر ابن زيدان صاحب الإتحاف المساعدات المغربية للعثمانيين في سنة 1789/1203م بقوله:" وفي سنة 1203 أرسل السلطان المترجم صاحبه القائد محمد الزوين ... سفيرا للسلطان عبد الحميد مصحوبا ببعض الأسارى الذين انقذوا مما كانوا فيه، وهدية من جملتها...وفرسان من عتاق الصافنات الجياد ... وسفن أربع عدة رجالها نحو أربعمائة رجل بين رؤساء وبحرية..."[2].

ومن المؤكد أنّ علاقات المغرب الأقصى مع الدول الأوروبية شهدت بعض التحولات فقد رفض السلطان محمد بن عبد الله أن يقابل سفير روسيا في طنجة، بسبب أنّ روسيا كانت في حرب مع الدولة العثمانية[3] .

ولعلّ من النتائج الإيجابية أيضا لتحسن العلاقات المغربية العثمانية تركيز السلطان العلوي محمد بن عبد الله على توجيه كل الثقل العسكري إلى تحرير الثغور المغربية من الاحتلال الإسباني والبرتغالي، فبزوال الخطر الجزائري على الأقل في هذه الفترة مكنّ المغاربة من توحيد الجهود والتصدي للأوروبيين وإيقاف حملاتهم التوسعية، وهو ما دفع الملك الإسباني إلى توقيع معاهدة مع محمد بن عبد الله في سنة 1768م سمحت بتبادل الأسرى من الجانبين[4]. سنأتي على تفاصيلها لاحقا.

---

[1] الغاشي، المرجع السابق،ص ص 120..

[2] ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس...**، المصدر السابق، ص 359.

[3] إبراهيم شحاتة، المرجع السابق، ص 179.

[4] الجيلالي، **تارخ الجزائر**، المرجع السابق، ج3، ص 235.

على الرغم من التحولات التي شهدتها العلاقات المغربية العثمانية على المستوى المركزي في عهد المولى محمد بن عبد الله، فلا شك في أنّ هذه الصفحة من العلاقات تكاد تختلف بصورة كلية عمّا كانت عليه في الفترات السابقة سواء مع الحكام السعديين وحتى العلويين الأوائل خصوصا محمد بن الشريف والمولى رشيد والمولى إسماعيل[1]، إلاّ أنّ الحذر دائما ما غلب على طبيعة هذه العلاقات خاصة بعد وفاة السلطان المغربي وتولي ابنه المولى اليزيد الحكم، فقد ظهرت بوادر سياساته تجاه العثمانيين مع وصوله إلى السلطة في سنة 1790م، حين بعث برسالة بتاريخ 23 ربيع الأول 1205هـ / 30 نوفمبر 1790م إلى السلطان العثماني سليم الثالث يعزيه ويهنئه بتوليه الحكم في الدولة العثمانية، وكذلك يخبره بتربعه على كرسي الحكم في المغرب الأقصى. لكنّ هذه الرسالة أضافت شيئا جديدا وهو مطالبته بإعادة الأموال التي منحها والده السلطان محمد بن عبد الله للسلطان العثماني عبد الحميد، هذه الأموال تتعلق بمسألة فداء الأسرى، وكانت عبارة عن ألف سبيكة من الذهب، حيث لم تتم عملية فداء الأسرى وذلك بسبب رفض دولة مالطا[2]. في حين يرى المؤرخ حسن شحاتة بأنّ فترة المولى يزيد عرفت توافقا كبير بين الدولة العثمانية والمغرب الأقصى، بحيث وصل هذا الوفاق إلى حد التأثير سياسيا سواء في الداخل وحتى خارجيا، ويظهر ذلك من خلال تزامن عملية حصار وهران من طرف الباي محمد الكبير وحصار الجيش المغربي لسبتة، وهذا يشير إلى محاولة توحيد الجهود ضد الصليبيين الإسبان وإخراجهم من بلاد المغارب نهائيا[3].

2-4- انعكاسات العلاقات المغربية العثمانية على الإيالات المغاربية:

2-4-1-الجزائر:

---

[1] الغاشي، المرجع السابق، ص 124.

[2] التازي، **التاريخ الدبلوماسي**، المرجع السابق، ص 43. ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس...**، المصدر السابق، ص 372.

[3] إبراهيم حسن شحاتة، المرجع السابق، ص 451.

رغم بداية الإنفراج والتحسن في علاقات المغرب الأقصى مع الباب العالي انطلاقا من مبدأ التضامن الإسلامي في سنة 1708م حين أرسل السلطان إسماعيل العلوي رسالة تهنئة للسلطان العثماني بمناسبة تحرير مدينة وهران من الإسبان كما أسلفنا الذكر غير أنّ حالة التوتر بقيت ملازمة للعلاقات الجزائرية المغربية إلى غاية سنة 1725م حين أرسل السلطان المغربي رسالة إلى السلطان العثماني أحمد الثالث يشرح له فيها تحرشات دايات الجزائر تجاه المغرب الأقصى[1]. فقد جاء رد السلطان العثماني بقوله:" إعلم أيها السيد الوالي أنا قبل أن يصل إلينا كتابكم الأنمي كنا نعرف ما هم عليه أهل الجزائر ولا أنهى إلينا فعلهم أحد كما أنهيتموه لنا ولا عرفنا ما صار عندهم ولا ما هم عليه، وبالجملة أهل الجزائر ما هم على شيء لكونهم أخلاط الناس فيهم الأصلي وفيهم البراني وفيهم من لا خلاق له ولم تكن عمارتها بذوي الأحساب والأنساب، كل هذا لا يخفانا قبل، نعرفه ونتحققه منهم، وقد بلغنا انهم خرجوا من البلاد بمحلتهم وأرادوا الشر معك وإنا لا نرضى منهم ذلك، وهذه الذخائر والأموال والخزائن التي خبرتنا بها قطعا خبرنا بها غيرك والآن إن شاء الله نرد لهم البال ونشتغل بهم ولا نتركهم في حيز الإهمال. وتلك الخرجة التي خرجوا لبلادك نطلب من كمال فعلك وحسبك أن تسمح لهم لوجهنا وإن عادوا يراجعونك ولو بكلمة. نمحي جرتهم"[2]. وهكذا يتبن لنا بأنّ العلاقات الجزائرية المغربية في أواخر الفترة الإسماعلية شهدت نوعا من التوتر والسلم الحذر في الوقت نفسه، فهي تختلف عما كانت عليه سابقا من صدامات عسكرية مباشرة بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال فترة حكم إسماعيل العلوي والذي توفي في سنة 1727م.

لم تعرف العلاقات الجزائرية المغربية بعد وفاة السلطان إسماعيل العلوي أحداث تستوجب الوقوف عندها، فبعد تعرض المغرب الأقصى لفترة أزمات خلال الفترة ما بين (

[1] علي داهش، المرجع السابق، ص 84.

[2] التازي، **التاريخ الدبلوماسي...**، المرجع السابق، ص ص 22-23.

1727-1757م) كما تطرقنا إليه سابقا، فقد عرفت البلاد ازدياد نفوذ الدلائيين الموالين للدايات في الجزائر، فكانت تجمعهم علاقات طيبة بالجزائريين خاصة في المجال التجاري، وبالتحديد بيع السلاح والبارود، فالأزمة السياسية بالمغرب الأقصى من جهة، وكذلك الصراع على السلطة في إيالة الجزائر والظروف السائدة من جهة أخرى كان لها تداعيات على حركية العلاقات المغربية الجزائرية.

بوصول المولى محمد بن عبد الله إلى مقاليد الحكم في المغرب الأقصى خلال سنة 1757م واتخاذه لسياسة الانفتاح على العالم الخارجي، مع وجود التقارب والتضامن العثماني المغربي خلال الفترة ما بين (1757-1790م)، فكان من المفروض أن تتسم العلاقات المغربية الجزائرية بطابع الود والتعاون، حيث تقول الباحثة زهراء النظام في هذا الشأن:"... وعمل السلطان سيدي محمد بن عبد الله في إطار سياسته الخارجية التي تعتمد على الود والتسامح والتعاون على التقرب من الأتراك العثمانيين لكل من طرابلس وتونس والجزائر وكسب ثقتهم وودهم، لأنه كان يعتبر أن علاقته بهم استمرار لعلاقته الطيبة بالأتراك العثمانيين باستانبول، وتأكيد للروابط القديمة التي تربط المغرب ببلدان المغرب العربي والتي تقوم على عدد من المعطيات بشرية، وتاريخية وثقافية ودينية ولغوية فكانت مواقفه تعبيرا عن رغبته في استمرار علاقة الود معهم ..."[1]. إلاّ أنّ هذا لم يحدث مع الجزائر بالتحديد، ولم تتأثر العلاقات الثنائية بينهما، فإيالة الجزائر كانت تعيش فترة استقلال عن التبعية للعثمانيين رغم التبعية الإسمية، لذلك نجد أنّ علاقات داي الجزائر والسلطان العلوي في بداياتها قد مرّت بحالة من الفتور وعدم التوافق والتي تعبر عن استمرار حالة العداء بين الطرفين والذي كان على أشده في الفترة الإسماعيلية وخاصة في مسألة الحدود. وتجدر الإشارة إلاّ أنّ السلطان المغربي كان دائما حذرا في علاقاته مع الباب العالي الذي عاجلا أم

[1] زهراء النظام، **علاقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالإيالات العثمانية في شمال إفريقيا (طرابلس-الجزائر-تونس)**، ورقة علمية قدمت في : أعمال الدورة الثانية الوثائق المرجعية لعهد سيدي محمد بن عبد الله، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، م.د.ب.ع، الريصاني ،1991، ص 237.

آجلا في نظره سيدعم الجزائر ضد المغرب الأقصى للمعطيات التاريخية التي سبق التطرق إليها في الفصول السابقة، فلطالما سعى العثمانيون لضم المغرب الأقصى وتوحيد الشمال الإفريقي تحت راية الامبراطورية العثمانية. وهذا ما دفع بالملك المغربي إلى البحث عن حلفاء في المنطقة من أجل التصدي لأطماع الجزائريين، فتقرب من الفرنسيين وعقد معهم معاهدة في سنة 1767م، مع العلم أنّ فرنسا كانت خلال هذه الفترة بمثابة الحليف الاستراتيجي للجزائر[1].

دائما ما كانت الدولة العثمانية تتدخل في الصراع الجزائري المغربي خلال الفترة السابقة واستمر هذا التدخل خلال عهد السلطان محمد بن عبد الله، فتشجنج العلاقات المغربية الجزائرية دفعت الباب العالي إلى إرسال مبعوثين إلى المغرب الأقصى قصد تقريب وجهات النظر والحد من الاحتقان بين البلدين، وكذلك الحال بالنسبة للمغرب الأقصى فطالما تواصل مع الباب العالي نتيجة الصراعات مع الجزائريين، فقد أرسل السلطان المغربي أحد أعيان أهل تطوان إلى السلطان العثماني يطلب منه إيقاف التحرشات الجزائرية بالقبائل التابعة لحكومته، فقد سمح باي معسكر بلجوء أبناء أمير فاس إليه، ولهذا هرب بعض المتمردين وكبار المهربين من المغرب إلى الجزائر، كما قام باي معسكر بسلب ونهب القبائل التابعة لحكومة فاس بسبب إعتدائهم على قافلة كانت تحمل له بعض الهدايا، وبغية تأديبهم هاجم القبائل التي اتهمها بقطع الطريق وتقدم نحوهم كأنّه يغزو البلادولم يتخذ السلطان المغربي محمد بن عبد الله أي موقف معاد، وكل ما فعله تقديم شكوى إلى السلطان العثماني عبد الحميد الأول[2]، وقد جاء فيها:" إن لم ترفع ضررهم عن المسلمين فدعني وإياهم"[3]. وهو بهذه الشكوى وكأنّه يؤكد بأنّ الجزائريين يفسدون العلاقات الطيبة بين المغرب الأقصى والدولة العثمانية، ويظهر من هذا أنّ السلطان المغربي لا يزال يعتقد بتبعية إيالة الجزائر المطلقة

---

[1] شحاتة، المرجع السابق، ص 440-445.

[2] التر، المرجع السابق، ص 502.

[3] الزياني، **الترجمانة الكبرى**...، المصدر السابق، ص 84.

للسلطان العثماني. فالسلطان محمد بن عبد الله كان ينتظر بأن يقطع الديوان الهمايوني[1] علاقته بالجزائريين لأنّهم لم يلتزموا بالنظام، فالديوان الهمايوني كان يمارس الضغوط على الجزائر بعد التحريض الإنجليزي من أجل قطع علاقاتها مع فرنسا، فالديوان لم يكن راضيا عن تصرفات الجزائريين والفاسيين لإعلانهم الحرب على الفرنسيين حلفاء العثمانيين[2].

مع بداية العقد السابع من القرن الثامن عشر شهدت العلاقات الجزائرية المغربية تحسنا وعرفت استقرار نسبيا ساهمت فيه مسألة الأسرى، فقد تدخل السلطان المغربي كوسيط بين السلطات الإسبانية وداي الجزائر من أجل تحرير الأسرى، حيث يقول صاحب الاستقصا في هذا الشأن:" فلما كانت سنة 1182هـ كتب طاغية الإصبنيول إلى السلطان يقول: إنه لم يبق ببلادي أحد من أسرى إيالتكم، ولم يبق عندي إلا أسرى أهل الجزائر الذين عندهم أسرانا، وطلب منه مع ذلك ان يتوسط له عند صاحب الجزائر وكانت أسرى الإصبنيول تزيد على أسرى الجزائر، وطلب منه مع ذلك أن يتوسط له عند صاحب الجزائر في المفاداة بينه وبينه، وكانت أسرى الإصبنيول تزيد على أسرى الجزائر بكثير، وطلب أن تكون هذه المفاداة على يديه، أعني على يد السلطان (محمد بن عبد الله)، الرئيس بالرئيس والبلوط بالبلوط واليكانجي باليكانجي والبحري بالبحري والجندي بالجندين ومن فضلت عنده فضلة فالبحيري بخمسمائة ريال والرئيس بألف، فأسعفه السلطان في طلبه، وانتدب للسعي في إنقاذ المسلمين من أيدي الكفار ابتغاء مرضاة الله ورجاء ثوابه، وكان السلطان قد كتب إليه مع الغزال وصاحبيه فيمن تحت أيديهم من سائر أسرى المسلمين، فبعثوا إليه بأهل المغرب فقط، واعتذروا بأنهم حبسوا اسرى الجزائر ليفكوا بهم أسراهم". ويضيف الناصري قائلا:" ولما كاتب السلطان أهل الجزائر وعرض عليهم ما طلبه طاغية الإصبنيول امتنعوا من الفداء، فكتب السلطان إلى باي الجزائر ثانيا فامتنع، ثم أعاد إليهم الكتابة ثالثا وحضهم على فكاك أسرى

[1] كان الديوان بمثابة مجلس وزراء موسع ، وكان سلاطين الفترة الأولى يحضرون جلساته ويرأسون اجتماعاته وكان يطلق عليه الديوان الهمايوني، ينظر: ياغي، المرجع السابق، ص 81.

[2] التر، المرجع السابق، ص 502.

المسلمين ووعظهم وخوفهم عقاب الله ورغبهم في ثوابه، فأذعنوا وامتثلوا، وطلبوا منه أن يبعث إليهم رجلا من خاصته يقف على المفاداة بنفسه، ويدفعون إليه أسراهم في يده، ويتسلم مثل عددهم من إخوانهم، فلما ورد على السلطان كتاب أهل الجزائر... وينتظر هنالك ... الذي يوجهه من قبله حتى تكون المفاداة على يده، وبعث السلطان لهذا الغرض كاتبه أبا العباس الغزال وصاحبيه وعند وصولهم إلى الجزائر أرسى مركب الإصبنيول بظاهر مرساها وانزل من أسر المسلمين ألفا وستمائة ونيفا، فاخرج أهل الجزائر من أسرى النصارى مثلهم ألفا وستمائة ونيفا أيضا، وبقيت عندهم من أسرى النصارى فضله ففداها بالمال وانفصلوا، ورجع ... ومن معه إلى حضرة السلطان"[1]. ويعزوا بعض الباحثين المغاربة أنّ إسبانيا كانت ترتبط مع المغرب الأقصى بمعاهدة صلح وتجارة، و كانت القرصنة البحرية الجزائرية ضد السفن الأوروبية في السواحل المغربية تسبب حرجا للسلطان المغربي تجاه الأوروبيين عموما والإسبان خاصة وتهدد العلاقة السلمية بينهما بالرغم من أنّ داي الجزائر تراجع عن اتفاق كان قد عقده مع السلطان محمد بن عبد الله بشأن العملية العسكرية المشتركة لأجل تحرير الثغور المغربية والجزائرية المحتلة من طرف الإسبان[2].

ومن المظاهر التي تؤكد تحسن العلاقات المغربية الجزائرية في عهد المولى محمد بن عبد الله التواصل الاستخباراتي بين البلدين، ففي شهر ماي من سنة 1183م/1772م تلقى الداي محمد عثمان من السلطان المغربي خبر تجمع الأسطول المسيحي الذي كان يستعد لغزو الجزائر، وهو ما سمح للجزائريين بالإستعداد الجيد وأخذ كامل الاحتياطات لصد الحملة المسيحية[3]، وفي المقابل كذلك نجد أن المولى محمد بن عبد الله جلب للمغرب الأقصى رجالا من الجزائر مختصين في صناعة السفن وهم محمد المستغانمي وأحمد القسنطيني وأحمد بن

---

[1] الناصري، **الاستقصا**...،المصدر السابق، ج8، ص ص 38- 39. وينظر: الجيلالي، **تارخ الجزائرالعام**، المرجع السابق، ج3، ص 235.

[2] خاليد فؤاد طحطح، المقال السابق، ص 110.

[3] أحمد الشريف الأطرش السنوسي، **تاريخ الجزائر في خمسة قرون**، ج1، البصائر، الجزائر، 2013، ص 209.

قلوعة[1]، ومن انعكاسات علاقات التضامن والتعاون المغربي العثماني في الجانب الاقتصادي العسكري أيضا مساندة المغرب الأقصى الأسطول الجزائري في صراعه البحري مع الأسطول الإسباني في البحر المتوسط من خلال تقديم الخدمات والتسهيلات في موانئه في مرحلة الثمانينات من القرن الثامن عشر، وجاء ذلك واضحا في الفصل الخامس من تصريح السلطان المغربي الذي وزعه الدبلوماسي المغربي محمد القادري على أعضاء السلك الأجنبي بتاريخ 5 رمضان 1192هـ-الموافق 7 سبتمبر 1778م، حيث يضمن المغرب الحماية الكاملة للأسطول الجزائري الذي يرسو في الساحل المغربي مع تزويده بما يحتاجه ضد الأساطيل الأوروبية وخصوصا الأسطول الإسباني، بل وإنذار الدول الأوروبية التي تهدد الجزائر وتعتزم احتلالها في سنة 1785م[2].

ومن القضايا التي أثيرت فيما يخص العلاقات بين الإيالات العثمانية عموما والجزائر خصوصا و المغرب الأقصى خلال فترة حكم السلطان محمد بن عبد الله ما جاء في التقرير السري الذي رفعه "إسماعيل أفندي" مبعوث السلطان العثماني عبد الحميد الأول إلى المغرب بتاريخ 15 ربيع الأول 1201 الموافق ل 5 جانفي 1787م، حيث يقول المبعوث العثماني إسماعيل أفندي:"... وفي أثناء إقامتي بالمغرب ورد خمسة أشراف من عربان الجزائر يشكون ما انتابهم من ظلم الوجاقات(الولايات)، فأشار عليهم بالذهاب إلى الدولة العلية، فأجابوه بأن اسطنبول على مسافة ستة أشهر، فكيف نستطيع الذهاب؟، وهنا بعث بهم إلي لأسمع كلامهم، فلما استضفتهم نقلوا حالات من الظلم يندى لها الجبين واعترضني منها عارض(كذا) والحق يقول- إسماعيل - إنّ ظلم العثمانيين لما تحت أيديهم من أناس وممالك شيء يمجه العقل ويرفضه الشرع، وقد ذكر لي أن سكان الجزائر لا يرضون بما يقوم به حكامهم، وإنهم يراسلون المولى محمد ويبعثون إليه خفية ويستغيثون به... إن أحدا من الحكام

---

[1] الزياني، **الترجمانة الكبرى**...، المصدر السابق، ص 17.

[2] داهش، المرجع السابق، ص 92.

لا يتوفر على ما يملكه المولى محمد من جند وخزائن، وله من القوة والاقتدار ما ليس لغيره، ولقد استخبرت وعلمت من بعض الملاحظين أنّ باي تونس، وباشا طرابلس وأتباعهما من قبائل وعشائر عربان تلك البلاد يضمرون الحب خفية للمولى محمد، نكاية في عسكر الجزائر(كذا) وأنّ لهم معه مكاتبات ومراسلات، ولهذا فإن لم تسع الدولة العلية لدفع ظلامات هؤلاء المغاربة مما التمسه المولى محمد، فإنّه والعياذ بالله إذا استيأس الناس أخشى أن يزحف مولاي محمد على الجزائر وينتهي الأمر(كذا)"[1]. يتضح من التقرير بأنّ السلطان المغربي محمد بن عبد الله كان في استطاعته غزو الجزائر ولكنّ العلاقات الطيبة التي جمعته بالسلطان العثماني حالت دون ذلك، والأمر نفسه ينطبق على دايات الجزائر فقد كان بإمكانهم استغلال فرصة أزمة الثلاثين سنة التي مرت بها بلاد المغرب الأقصى وتوجيه حملة عسكرية، ولكنّ المؤكد هنا أنّ الظروف الداخلية في البلدين وحتى الظروف الإقليمية والدولية لم تسمح للطرفين بتجديد الصراع، وكذلك لإحساسهم بالمصير المشترك في ظل التطورات الحاصلة في الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط.

ويؤكد الباحث مكي جلول أنّ الفترة ما بين(1727-1792م) لم تشهد صراعا جزائري مغربي وذلك حين تطرق لأسباب الصراع بين الجزائر العثمانية والمغرب الأقصى العلوي من خلال أطماع الحكام العلويين التوسعية في الجزائر والاستيلاء عليها، وذكر منهم محمد والرشيد وإسماعيل، ونفى أن يكون أحد السلاطين الذين حكموا بلاد المغرب الأقصى في فترة الأزمة التي أعقبت وفاة المولى إسماعيل (1727-1757م)، وكذلك نفى أن يكون محمد بن عبد الله وكذلك الحال بالنسبة للمولى اليزيد من بينهم[2].

2-4-2- تونس:

[1] التازي ، **التاريخ الدبلوماسي**، المرجع السابق،ص 37.

[2] مكي جلول، المرجع السابق، ص 125.

لاحظنا كيف أنّ العلاقات المغربية التونسية كانت ممتازة في فترة حكم المولى إسماعيل خاصة مع مراد باي حاكم تونس ووصلت إلى حد التحالف لأكثر من مرة ضد إيالة الجزائر لإحداث التوازن في القوى مع الجزائر العدو المشترك للبلدين.

استمرت علاقات المغرب الأقصى بتونس على نفس المنوال خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر واتسمت بالود المتبادل والمجاملة بالرغم من وصول الأسرة الحسينية للسلطة في تونس واستقلالها عن الدولة العثمانية ووفاة السلطان إسماعيل العلوي في سنة 1727م، وما يثبت ذلك الرسالة المؤرخة بتاريخ 06 ذي القعدة/ 03 مارس 1770م والتي وجهها الشريف العلوي محمد بن عبد الله إلى الملك الفرنسي لويس الخامس عشر والتي تحمل احتجاج المغرب الأقصى شديد اللهجة على القصف الفرنسي للإيالة التونسية[1].كما قام المولى محمد بن عبد الله العلوي باستجلاب صناع السفن من تونس وهم: الصابونجي وابن القاسم وولد رمضان وولد المنجي ومحمد التونسي[2]. ويظهر التوافق التام بين البلدين كذلك من خلال التقرير الذي كشف عنه المبعوث إسماعيل أفندي للسلطان العثماني عبد الحميد الأول في سنة 1787/1201م، حيث يقول"...وقد استخبرت وعلمت من بعض الملاحظين أنّ باي تونس ... وما يتبعما من قبائل وعشائر عربان تلك البلاد يضمرون الحب خفية للمولى محمد نكاية في عسكر الجزائر..."[3].

ومن مظاهر التواصل ومتانة العلاقات بين المغرب الأقصى وتونس خلال هذه الفترة تبادل السفارات والزيارات بين وفود وحتى حكام البلدين أبرزهم السلطان اليزيد الذي نزل في تونس أثناء طريقه إلى تأدية مناسك الحج، حيث استقبله حمودة باي تونس أحسن استقبال، وفي هذا الشأن يقول ابن أبي الضياف:" وفي السنة 1206هـ اجتاز بالحاضرة مولانا اليزيد ابن السلطان مولانا محمد، ابن السلطان مولانا عبد الله، ابن السلطان مولانا إسماعيل العلوي،

---

[1] عبد الهادي التازي، **التاريخ الدبلوماسي**...، المرجع السابق، ص 49 .

[2] الزياني، **الترجمانة الكبرى**... ، المصدر السابق، ص 17.

[3] التازي، **التاريخ الدبلوماسي**...، المرجع السابق، ص 37.

قاصدا أداء فريضة الحج، فاهتز الباي لمقدمه، وتفنن في إكرامهن وانزله بقصره من بساتين منوبة، وأتاه مسلّما عليه، وطلب منه أن يزور محلّه ببارود فأسعفه، وبالغ في إكرامه لما بين الدولة الحسينية وهذه السلطنة الشريفة من المحبة والوصلة. وبقي أياما يأتي الحاضرة ويرجع إلى منزله بمنوبة، إلى أن يتسنى له السفر للحج"[1]. وهكذا يتضح بأنّ العلاقات المغربية التونسية استمرت جيدة خلال الفترة ما بين (1705-1792م) وبقيت كما في السابق ولم تتأثر بمظاهر العلاقات العثمانية المغربية.

2-4-3- طرابلس الغرب:

تميزت العلاقات الرسمية السياسية والعسكرية بين المغرب الأقصى والإيالة الطرابلسية قبل وصول الأسرة القرمانلية للحكم في طرابلس الغرب بالتعاون المتبادل وصل إلى حد إعلان التحالف ضد الجزائر خلال فترة أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر وذلك رغم تبعية طرابلس الغرب للدولة العثمانية وهو ما تطرقنا إليه آنفا.

ورغم انفصال الإيالة الطرابلسية عن العثمانيين إلاّ أنّ هذه العلاقات الودية بين البلدين استمرت خلال القرن الثامن عشر، وبحكم المسافة بين البلدين حيث لا توجد حدود بينهما إلاّ أنّ مظاهر التواصل بين الشخصيات من الطرفين انعكست على تميز وقوة هذه العلاقات، ومن بين المصادر التي أرّخت لهذا التواصل كتاب " أمير مغربي في طرابلس" أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي"، ويتطرق الباحث عبد الهادي التازي إلى هذه المسالة بقوله في هذا الشأن:" ... فإنّ موقف المغرب ظلّ بعد استقلال القرمانليين عن الحكومة المركزية سنة 1123-1711 يتسم بطابع المسالمة والمولاة، ذلك لأنّ الباب العالي لم يقترح على أصدقائه

---

[1] أحمد ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان**، تح: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، مج2،ج3، الدار العربية للكتاب، تونس، 2001، ص 22.

موقفا معينا ازاء الحركة الانفصالية حتى بعد أن سمحت هذه الحركة لنفسها بعقد معاهدة على حدى مع بريطانيا العظمى سنة 1164-1751 دون الرجوع إلى استامبول..."[1].

ومن مظاهر التواصل بين البلدين نزول الوفد المغربي في مدينة طرابلس وهو في طريقه إلى البقاع المقدسة بالحجاز، وكان يضم الأمير محمد بن عبد الله بن إسماعيل العلوي قبل توليه الحكم رفقة جدته في سنة (1143هـ-1730م) وذلك من أجل تأدية مناسك الحج، وفي هذا الشان يقول الوزير الإسحاقي:" كان الدخول لمدينة طرابلس عصر يوم الجمعة 29 شعبان وقد كان بالصدفة آخر يوم في شعبان فاقترنت الفترة بمقدم الركب الأميري وتعطيل البلاد استعدادا لاستقبال هلال رمضان. لقد خرجت البلاد عن بكرة أبيها رجالا ونساء إلى ظاهر المدينة. وقد هيات الأسرة الحاكمة: أسرة القره مانلي: منهاج احتفال تشريفي دقيق فلقد بعث صاحب المدينة أحمد باشا القرمانلي بولي عهده الأمير محمد ليكون في استقبال الأمير المغربي وكان محفوفا بكبار موظفي القصر، وعدد كبير من الجند والحرس... وكانت المدافع الكبيرة في هذا الوقت بالذات تتبارى في تحية الركب بطلقاتها المتوالية على العادة المتبعة بين الدول ذات السيادة على البحار . لقد كان إعجاب الناس جميعهم عظيما بالأمير سيدي محمد ... وكانت سمعغة المغرب سبقت مجيء الركب. دون بقية حكام الشمال الإفريقي أن يقف في طريق العثمانيين ويصرفهم عن الاشراف على المحيط الأطلسي. وكانوا سمعوا عن شجاعة المولى عبد الله ... لقد كانت فرصة فريدة للقاء الجيش المغربي الليبي وتعرف كل منهما على الآخر..."[2]. ويصف الرحالة الإسحاقي الإعجاب الشديد والتقدير الكبير للأمير محمد بن عبد الله بقوله :" ... لقد كان ولي العهد سيدي محمد محط أنظار الكل باعتباره أصغر أفراد القافلة الملكية وأقربها إلى القلوب وكان يزيد في تعلق القوم به مخايل السمو...التي كانت تبدو عليه في حركاته وسكناته وكان الباشا يتمنى أن يلتقي من ضيوفه

---

[1] عبد الهادي التازي، **أمير مغربي في طرابلس 1143هـ-1731م أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي**، مطبعة فضالة، المغرب، د.ت.ن ، ص 17.

[2] عبد الهادي التازي، أمير مغربي في طرابلس 1143هـ-1731م المصدر السابق ، ص ص 46-49.

اقتراحا أو مطلبا ليسعد بتلبيته وكانت الأسرة القره مانلية في أكثر الأوقات تعرب عن رغبتها في أن تملى من رؤية الأمير الصغير ومرافقته في سائر التنقلات والزيارات..."[1]. ومن جهته احتفل المولى محمد بن عبد الله لدخول مدينة طرابلس الغرب ومن معه من عبيد البخاري، وظهروا في أحسن حلّة من لباسهم ومراكبهم وما كانوا أعدوه لذلك، واندهش وتعجب كل من في طرابلس بالمغاربة من خلال فروسيتهم ولعبهم بالبارود، وبدا لهم العزم والحزم في تصرفات أهل المغرب الأقصى[2]، وعندما أصبح المولى محمد بن عبد الله ملك بلاد المغرب الأقصى لم ينسى فضل الطرابلسيين عليه، فقد بعث إعانة للطرابلسيين حين كانت بلادهم في أحلك الظروف من القحط في سنتي 1784م، تمثلت هذه الإعانات في إمدادات مالية وكذلك المواد الغذائية[3]. وفي المقابل نجد أن المغرب الأقصى استفاد من خبرة رجال طرابلس الغرب في صناعة السفن، فقدم منها إلى المغرب الرئيس يوسف الطرابلسي، وقدور بن معروف[4].

ومن بين المواقف التي تؤكد على قوة العلاقات بين الجانبين المغربي والطرابلسي حين توسط السلطان محمد بن عبد الله العلوي بين إيالة طرابلس والولايات المتحدة الأمريكية لإنهاء الصراع وتجنب الحرب بينهما، وهو ما نجحت فيه الدبلوماسية المغربية واستطاعت أن تجنب الإصطدام ردحا من الزمن بعد أن كانت نار الحرب على وشك أن تلتهب، وبعد أن تم تسوية الخلافات بينهما أرسل الباشا علي القرمانلي وفدا هاما إلى المغرب الأقصى من أجل أن يشرح للسلطان المغربي الظروف الجارية في ليبيا، وكان على رأس الوفد الحاج عبد الرحمان آغا البديري بصحبة عدة شخصيات وبعض الرؤساء البحريين الطرابلسيين، أقام على شرفهم السلطان محمد بن عبد الله على مأدبة غذاء متميزة، كان ذلك منتصف شهر رجب من سنة 1204هـ/1790م، كما وقد أهدى السلطان المغربي السفير الطرابلسي ساعة ثمينة،

---

[1]عبد الهادي التازي، أمير مغربي في طرابلس 1143هـ-1731م المصدر السابق ، ص 50.

[2] ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس...**، المصدر السابق، ج3، ص ص 29-30.

[3] ميكاكي، المرجع السابق، ص 8، وينظر أيضا: توللي، المصدر السابق،ص ص 163-164.

[4] الزياني، **الترجمانة الكبرى** ...، المصدر السابق، ص 17.

وسبعة من الجياد وسروج غالية وأسلحة مختلفة، بالإضافة إلى كميات كبيرة من شحنات القمح، كما كانت الوساطة المغربية بين طرابلس ونابولي[1].

وهكذا يتبين لنا أنّ التحالفات بين دول المغارب ضد بعضها لم تعد موجودة خلال هذه الفترة التي شهدت التحولات السياسية بسبب الظروف الداخلية والإقليمية والدولية عموما وهو ما يعبر على إحساس المغاربة بالمصير المشترك في ظلّ كل تلك الأوضاع.

3- ثنائية المغارب – أوروبا بين السلم والحرب:

تناولت المصادر المغاربية والأجنبية في العصور الحديثة من الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر الأبيض المتوسط العلاقات الأوروبية المغاربية في إطار عام وهو العلاقات المسيحية الإسلامية، فجلّ الدراسات تطرقت إلى العلاقات من زاوية واحدة، وهي زاوية الصراعات والحروب، فأكّد الكثير منهم على التناقض والتضاد بين ما عرف "بدار الحرب" و" دار الجهاد" لدى المؤرخين المسلمين، وفي المقابل أطلق المؤرخون والرحالة الأوروبيون مختلف الأوصاف الدنيئة لبلاد المغارب، كالبلاد المتوحشة أو بلاد القراصنة واللصوص ولكنّ الأحداث التي جرت بين الطرفين خاصة في فترة القرن الثامن عشر أثبتت بتراوح العلاقات بين السلم والحرب، حيث لم تخل العلاقات المغاربية الأوروبية من أزمات وصراعات تجسدت في شكل حملات عسكرية، خلّفت الكثير من الأرواح من الجانبين، في حين شهدت العلاقات مظاهر للهدنة والتعايش السلمي في الإطار السياسي الديبلوماسي[2].

تعتبر فترة القرن السابع عشر الميلادي الحادي عشر الهجري مرحلة جديدة في السياسة الخارجية للإيالات المغاربية (الجزائر وطرابلس الغرب وتونس) تمثلت في رغبة هذه الدول في التعامل مع الدول الأوروبية كدول مستقلة في قرارها السياسي، ومن المؤكد أنّها كانت تسعى إلى تعزيز هذا الاستقلال بشكل أكبر بداية من مطلع القرن الثامن عشر

---

[1] التازي، **التاريخ الدبلوماسي**، ج9، المرجع السابق، ص 51. وينظر: التازي، **أمير مغربي في طرابلس**، البمصدر السابق، ص 27.

[2] دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 311.

الميلادي الثاني عشر الهجري خاصة في ظلّ بروز نظام سياسي جديد لم يكن معهودا منذ العصر الحديث تمثل في النظام الملكي الوراثي في كل من تونس وطرابلس الغرب إضافة إلى دمج منصبي الداي والباشا في الجزائر ابتداءا من سنة 1710م في عهد الداي علي شاوش[1]، وكذلك التحول الذي شهده المغرب الأقصى في سياسته الخارجية تجاه أوروبا بعد وفاة السلطان إسماعيل العلوي في سنة 1727م.

3-1- واقع أوروبا في الفترة ما بين (1705-1792م):

شهدت أوروبا خلال العقدين الأولين من القرن الثامن عشر نهاية حرب الوراثة الإسبانية وتوقيع معاهدة " بوترخت" وما كان لها من تداعيات على الخارطة الجيوسياسية لأوروبا، فقد بدا واضحا ترجع دور فرنسا التي فقدت بعض المواقع الهامة في العالم الجديد(أمريكا) وكذلك الحال بالنسبة لإسبانيا التي فقدت كل من ميلان ونابول وسردينيا، والأراضي المنخفضة الجنوبية، واضطرت إلى التنازل عن صخرة جبل طارق و جزيرة مينورقة لإنجلترا[2].

لقد شهدت أوروبا حرب السبع سنوات بين فرنسا وانجلترا في فترة ما بين (1756-1763م) وتم عقد تحالف بين إنجلترا وبروسيا في جانفي من سنة 1756م، في حين تحالفت فرنسا مع النمسا بموجب بنود معاهدة فرساي في ماي من نفس السنة، وقد أطلق على هذا التغير في العلاقات بالثورة الدبلوماسية[3]. وفي سنة 1757م انضمت روسيا إلى الحلف الفرنسي النمساوي، وفي نفس السنة انضمت السويد إلى التحالف الإنجليزي البروسي،انتهت هذه الحرب بهزيمة فرنسا وفقدانها الكثير من المناطق في معظم مستعمراتها، وتعرضت الخزينة الفرنسية لخسائر فادحة[4].

---

[1] محمد سالم طويل، المرجع السابق، ص 76.

[2] زينب عصمت راشد، **تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، ج1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986، ص ص 251-252.

[3] عمر عبد العزيز عمر، **دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992، ص 282.

[4] وللمزيد من المعلومات ينظر: عبد الحميد البطريق و عبد العزيز نوار، المرجع السابق،ص ص 249-266.

أعلن السلام في صلح باريس في فيفري من سنة 1763م وهو صلح أكثر اعتدلا إذا قورن بما وقع في أثناء الحرب من انتصارات. ومن تداعياته سيادة إنجلترا في أمريكا وصارت إنجلترا بعد نهاية الحرب هي القوى العالمية الأولى خاصة في أواخر القرن الثامن عشر والثورة الصناعية، لذلك أصبحت بعض الدول الأوروبية بزعامة فرنسا وإسبانيا تعمل على تشكيل تحالفات لتصحيح التوازن وإعادته إلى ما قبل 1763م[1].

ومن بين أهم الأحداث في أوروبا خلال فترة آواخر القرن الثامن عشر إندلاع الثورة الفرنسية والتي تعددت دوافعها بين ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي وفكري، وحتى دولي حيث ساهمت الظروف العامة في أوروبا في نشوب الثورة الفرنسية في سنة 1789م، والتي انتهت بسقوط الملكية في فرنسا وإعلان قيام الجمهورية في 1792/09/21م[2].

3-2- ثنائية الجزائر- أوروبا:

اتسّمت العلاقات بين الجزائر والدول الأوروبية خلال فترة ما بين (1710-1792م) بمظهرين، مظهر التوتر و الحرب و كذلك بمظهر السلم والأمن بين الطرفين باستثناء اسبانيا التي كانت في حالة حرب وعداء دائمة مع إيالة الجزائر إلى غاية أواخر القرن الثامن عشر بسبب احتلال الإسبان مدينة وهران حتى عام 1792م وسنتناول هذا بالتفصيل في العنصر الموالي.

تعتبر إيالة الجزائر دولة فاعلة في عالم البحر الأبيض المتوسط منذ انضمامها للامبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر لذلك من الطبيعي أن لا تكون في معزل عن الأحداث التي تقع في هذا المسطح المائي المهم، خاصة فيما تعلق بالقرصنة وفرض الإتاوات ومسألة الأسرى والتجارة، هذا المعطى التاريخي استمر في فترة ما بين(1710-

---

[1] عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ص 285-286.وينظر: يحي بوعزيز، **علاقات الجزائر...**، المرجع السابق، ص 100.

[2] وللمزيد ينظر: عبد العزيز بن سليمان نوار و محمود محمد جمال الدين، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي، مصر ، 1999،ص ص 277-294..

1792م) بالرغم من الأوضاع الداخلية، فلم تتأثر علاقاتها مع الدول الأوروبية من الضفة الشمالية وغيرها خاصة فرنسا وإنجلترا بالتحول السياسي في سنة 1710م وبقي التواصل بينها وبين القوى الأوروبية، هاته الأخيرة التي عملت على كسب ود دايات الجزائر في هذه الفترة، ففرنسا سعت دوما إلى الاحتفاظ بالامتيازات باعتبارها حليف للعثمانيين منذ أكثر من قرن ونصف من الزمن، ويتضح ذلك من خلال تجديد المعاهدات السابقة[1]، ويذهب جون وولف إلى أنّ الجزائر وكأنّها كانت مضطرة إلى توقيع معاهدات السلم مع فرنسا وإنجلترا نظرا للفوارق العسكرية بينها وبين والقوتين الأوروبيتين، وفي نفس الوقت يشير إلى أنّ قنصلا الدولتين كانا يصران على ضروة التزام الجزائر ببنود معاهدة السلام، ويقول في هذا الشان:" خلال القرن الثامن عشر كله بقيت إنجلترا وفرنسا في حالة سلام مع الجزائر. إن القوة البحرية التي كانت لدى هاتين الدولتين قد أفهمت الجزائريين أنّه من الأفضل لهم المحافظة على السلام. نعم حافظوا عليه ولكن فقط طالما كان ذلك ضروريا لاقناع أصدقائهم الأقوياء إن الحرب مع الجزائر ستكون أبهظ ثمنا من الإبقاء على ما يسمى بالعلاقات السلمية من خلال الديبلوماسية. وكانت السفن الحربية الإنكليزية والفرنسية تزور مرسى الجزائر من وقت إلى آخر لتشعر الداي ومستشاريه بالحقيقة، وهي أنّ القوة البحرية المهيمنة كانت موجودة، بينما كان قنصلا الدولتين الكبيرتين يشرحان بانتظام بأن حكومتيهما تصران على ضرورة التزام الجزائر بنصوص معاهدة السلام"[2]. هذه العلاقات ساهم في تبلورها العامل التجاري الإقتصادي الذي لعب دور مهما في توجيه العلاقات نحو السلم خاصة العلاقات الجزائرية الفرنسية، فتخوف فرنسا منفقدان مصالحها التجارية و مؤسساتها الإقتصادية في الجزائر بسبب المنافسة من الإنجليز يبرر حالة السلام بين الفرنسيين والجزائريين طيلة القرن الثامن عشر، فقد أكدّت إحدى رسائل الداي محمد عثمان باشا إلى

[1] للمزيد ينظر Eugene(p), **Correspondanc des deys dAlger**, t2,op.cit.

[2] وولف، المرجع السابق، ص 413.

البارون كاتب الدولة للبحرية الفرنسيةعلى متانة العلاقة بين البلدين، كان ذلك في أوت من سنة 1774م رغم أنّه تخللتها بعض التوترات في فترات مختلفة، حيث يقول:" ... منذ زمن لا ينسى أن علاقتنا مبنية على الصداقة والتحالف مع قصركم... كما أتمنى لصداقتنا الصريحة الاستمرار وأن يدوم الوئام الذي بيننا طويلا، وأيضا العهود والعقود التي أبرمت بيننا في الماضي تستمر على نفس المكانة التي كانت عليها..."[1]. كما قام الطرفان بإقرار تمديد معاهدة السلم المئوي لمائة سنة أخرى في أواخر شهر مارس من سنة 1790م، وكذلك فقد قدمت الجزائر تسهيلات لمساعدة فرنسا خلال ثورة 1789م فيما يخص شراء الحبوب والعلف والمواد التموينية الأخرى التي كانت فرنسا في أشد الحاجة إليها[2]. ومن جهتها حاولت إنجلتر تعكير العلاقات الجزائرية الفرنسية، فقد كانت انجلتر تستهدف نفس الأهداف التي تسعى فرنسا لتحقيقها[3] في إطار التنافس الفرنسي الإنجليزي خاصة في أواخر القرن الثامن عشر فقد دخل التنافس مرحلة جديدة وذلك عندما فقدت الدول الأوروبية جزءا كبيرا من مستعمراتها في القارة الأمريكية. فلهذا وجهت أنظارها من جديد إلى البحر المتوسط وقد شجعها على ذلك ضعف البحرية الإسلامية بما فيها البحرية الجزائرية، فألقت إنجلترا بكل ثقلها في البحر المتوسط ساعية أخذ مواقع فرنسا في السواحل الجزائرية[4]. وحاولت الدول الأوروبية الأخرى أن تعقد معاهدات سلام مع إيالة الجزائر لضمان الحصانة من احتجاز سفنها ومن بين هذه الدول نجد الأراضي المنخفضة المتحدة، وهامبورغ، والدنمارك والبندقية[5]، ففي سنة 1729م تم عقد معاهدة صداقة وسلم مع السويد وهولندا[6] التي كانت

---

[1]Eugene(p), **Correspondanc des deys dAlger**, t2,op.cit.pp 315-316.

[2] قنان، **معاهدات الجزائر**، المرجع السابق، ص ص 181-182.

[3] شارل وليام، **مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر(1816-1824م)**، تعريب إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 134.

[4] شويتام، **دراسات...**، المرجع السابق، ص 82.

[5] وولف، المرجع السابق، ص 413.

[6] عباد، المرجع السابق، ص 155.

أول دولة تقوم بدفع الضريبة إلى الجزائر، فقد كانت سياسة الدول الشمالية تجاه الجزائر تنحصر في المحافظة على السلم بأفضل ما يمكن أن تحصل عليه من الشروط[1] بإستثناء فرنسان مالطة الذين استمروا في الاعتداء على الأساطيل والبحارة الجزائريين[2]، فالتأثير البحري لإيالة الجزائر في الحوض الغربي من المتوسط جعلها أمام حتمية الاحتكاك المباشر بالقوى البحرية الأوروبية، وجعل هذه الأخير مجبرة على التعامل مع رياس البحر الجزائريين وقبول شروطهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ الجزائر تعرضت خلال هذه الفترة إلى عديد الحملات الأوروبية كحملة الدنمارك في سنة 1770م، والحملات الإسبانية في سنوات 1775م و 1784م والتي سيتم التفصيل فيها في العنصر الموالي، فقد واجهت الجزائر الحملات الأوروبية وتمكنت من التصدي لها بالرغم من أنّها انفصلت عسكريا عن الدولة العثمانية والتي أصبحت لا ترسل مساعدات كما كان من قبل نظرا للظروف الصعبة التي تمر بها، فاعتمدت الجزائر على مقدراتها العسكرية وكذلك من خلال سياسة التوازنات مع الدول الأوروبية، بحيث أصبحت الجزائر خلال هذه الفترة سيدة في قرارها تجاه العالم الخارجي تعقد اتفاقيات مع من تشاء وتحارب من تريد دون استشارة السلطان العثماني.

3-3- ثنائية تونس – أوروبا:

لم يختلف الوضع كثيرا عن الجزائر بالنسبة لعلاقات تونس الحسينية مع دول أوروبا فقد تراوحت بين التوتر والعداء والحرب تارة والسلم تارة أخرى، فكانت القرصنة ومسألة الغنائم والأسرى والتجارة هي الموجه لمسار العلاقات التونسية الأوروبية.

---

[1] وليام شالر، المرجع السابق، ص ص 133-134.

[2] بوعزيز، **علاقات الجزائر**...، المرجع السابق، ص 97.

شهد النصف الأول من القرن الثامن عشر توتر العلاقات التونسية المالطية، حيث تبادل الطرفان الحملات البحرية، فمثلا قيام فرسان مالطا بحملة على مدينة صفاقس[1] في سنة 1747م وهو ما أشار إليه صاحب نزهة الأنظار بقوله:" لما سمع أهل مالطة بهذه الواقعة فرحوا وانتهزوا الفرصة، فخرجو لفسادهم في البحر وظنوا أن أهل صفاقس أصابهم قرح يفشلهم، مع أن أهل صفاقس نزّلوا الشهداء ودفنوهم ، والجرحى للعلاج، وخرجوا في طلب الكفار في كل جهة، فالتقوا بمركبي فرنجي سلما لأهل صفاقسن فلما فارقهم وجد سفن المالطيين فسألوه عمن لقيت، قال لقيت سفن صفاقس، فرعب المالطيون ورجعوا مذمومين مدحورين، ويإسوا من بحر صفاقس"[2]. أمّا بالنسبة لعلاقات تونس مع البندقية فقد اعتمدت هذه الأخيرة على العلاقات الجيدة مع الدولة العثمانية والتي ترجمت إلى معاهدة صلح في سنة 1717م نصت على حرية الملاحة للسفن البندقية في السواحل العثمانية، وكان العثمانيون قد طلبوا من الأوجاق المغاربية احترام تلك المعاهدة وقد بقي البنادقة يتسترون لمحاية تجارتهم ورعاية مصالحها وراء المعاهدات المبرمة بينهم وبين الباب العالي إلى غاية سنة 1720م حين عزمت البندقية على عقد اتفاق مع تونس برعاية السلطان العثماني، وفي سنة 1663م عقدت معاهدة بين الطرفين أسست لمرحلة من العلاقات السلمية في الفترة الحديثة[3]، فالمتتبع لعلاقات الحكام الحسينين مع أوروبا يجد أنهم واصلوا في السياسة التي اتخذها المراديون والتي تقوم على مبدأ توثيق الصلات بفرنسا باعتبارها كبرى القوى الأوروبية بالبحر المتوسط، وذلك بقصد إثبات استقلالهم الذاتي عن الدولة العثمانية من جهة، وكذلك للحصول على حليف قوى ضد الجزائر القوية من جهة ثانية، فمنحوا الامتيازت لفرنسا.

---

[1] مدينة صفاقس: مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط أيام كانوا يحاربون الرومان، معظم أهلها نساجون وبحارون وصيادون ، يذهب بعضهم بسفنهم ليتجروا في مصر وتركيا. ينظر: الوزان ، المصدر السابق، ج2، ص 87.

[2] محمود مقديش، المصدر السابق، مج2، ص ص 216-127.

[3] الشافعي درويش، **المعاهدة التونسية البندقية سنة 1763م** ...، المقال السابق، ص ص 2-8.

وفي سنة 1728م جدد الباي التونسي المعاهدة المبرمة مع الفرنسيين في سنة 1685م وهي التي أسست كذلك لعلاقات تونس مع دول أوروبية أخرى كهولندا والدنمارك فمنذ بدايات القرن الثامن عشر اتضح جليا الفارق بين دول المغارب والقوى الأوروبية فطلب محمد باي العون من ملك فرنسا خلال الصراع الباشي الحسني يؤكد أنّ فرنسا كان لها القدرة في تغيير المشهد السياسي التونسي الضعيف[1]، وكانتتونس قد وقّعت الكثير من المعاهدات خاصة في فترة حكم علي باشا (1735-1756م)، معاهدة مع السويد في سنة 1736م، و معاهدة مع دولة هولندا في سنة 1741م، ومعاهدة مع إنجلترا ومع دولة الدنمارك في سنة 1751م.

واستمر هذا الوضع حتى في عهد حمودة باشا الذي ورغم سياسته الحازمة في الداخل إلاّ أنه تساهل مع الفرنسيين في مسألة الامتيازات الاقتصادية[2]، فقد عرفت الفترة ما بين (1782-1792م) على العموم توسيع دائرة علاقات الخارجية من الباي حمودة باشا مع دول غرب أوروبا، فارتفاع عدد الممثلين لهذه الدول في تونس دليل واضح على هذا الاتجاه وكذلك اتخذ عقد الاتفاقيات الخاصة بالسلم والتجارة مع الأوروبيين[3] عدا البندقية التي دخلت في حرب مع الإيالة التونسة سنة 1785م[4].

إنّ إستئناف الصراع على العرش في تونس الحسينية سنة 1756م أعاد النفوذ الفرنسي لما كان عليه سابقا، فالسياسة المنتهجة من طرف الباي محمد والتي تعتمد على الدعم الخارجي في مواجهة أزمة الحكم أدّت إلى إزدياد دائرة النفوذ الغربي في القصر الحسيني وبالتالي الانصياع إلى التوجهات المملاة من الخارج، وبدأ القناصل الفرنسيين في فرض

---

[1] سويداني، المرجع السابق، ص 255.

[2] صلاح العقاد، المرجع السابق، ص ص 48-49.

[3] كمال مايدي و صالح بوسليم، **جوانب من العلاقات الخارجية لإيالة تونس مع فرنسا والدويلات الإيطالية في عهد حمودة باشا الحسيني(1782-1814م)**، مجلة عصور، مج 17، ع 2، ديسمبر 2018، ص ص 200-201.

[4] حسني عبد الوهاب، المرجع السابق، ص ص 156-157، وينظر: الهادي شريف، المرجع السابق، ص 89.

خيارات على البايات، ونجد مثلا في سنة 1764م تم عزل القنصل القديم " دي سيزيو"(Du Saizieu) وتعيين قنصل جديد " إيتين لازار"(Lazar) إيذانا ببدأ مرحلة سياسية مستجدة في العلاقات التونسية الفرنسية[1] .

رغم مظاهر السلم بين تونس الحسينية والدول الأوروبية إلاّ أنّها تخللتها بعض المناوشات بين الطرفين وتوجيه الحملات الأوروبية إلى تونس، من بينها حملة البندقية في سنة 1785 على سوسة وعلى حلق الوادي، وعلى صفاقس في سنة 1786م، وكذلك الحملة الفرنسية في سنة 1770م، وشهدت العلاقات أيضا في إطار صراع القرصنة بعض مضايقات الأوروبيين بسبب التجارة ففي سنة 1727م تمكّن الأسطول الفرنسي من الاستيلاء على مركب تونسي كان يلاحق سفينة صقلية بالقرب من المياه الفرنسية وهو ما يتنافى مع بنود وشروط اتفاقية سابقة بين تونس وفرنسا، ولذلك تم تحويل هذا المركب إلى حلق الوادي وفي السنة الموالية تجدد الصراع التونسي الفرنسي وسير الفرنسيين حملة على تونس، إلاّ أنّ موافقة الباي التونسي على شروط الفرنسيين دفعهم إلى الإنسحاب، وتوقيع معاهدة كانت جل بنودها تخدم المصالح الفرنسية في المنطقة، ففي البند الأول منها والذي يدع إلى إيفاد مبعوثين تونسيين إلى قصر فرساي الملكي بباريس لإلتماس العفو من الملك الفرنسي لويس الخامس عشر حيث جاء فيه :" يعلن باشا، وباي، وداي، وديوان، وآغاوات الانكشارية، وعسكر حاضرة ومملكة تونس بأفواهنا لصاحب الجلالة الإمبراطورية ملك فرنسا عن ندمهم على المخالفات التي اقترفوها ضد معاهدات الصلح التي تفضل جلالته فمنحها لهم، وبأنّهم يذبون ندما وحسرة عمّا اقترفه غزاتهم ورعايا الإيالة الآخرين من تعديات. كما يجهرون بتوبتهم عن اقتراف جميع المسببات المشروعة للشكوى من جانب جلالته ويتوسلون، بخضوع كامل، أن يتناساها، واعدين إياه رسميا وعلى رؤوس الأشهاد بأنّهم سيعملون مستقبلا على الالتزام الكامل ببنود وشروط المعاهدات المشار إليها، وبأن يستنفذوا كل الوسائل المناسبة

---

[1] سوداني ، المرجع السابق، ص 263.

لمنح رعاياهم من ارتكاب مخالفتها"[1]، أمّا البند السادس فكان يحث على تحرير الأسرى الفرنسيين[2]. ومنحت فرنسا من خلال البند الثاني عشر من هذه المعاهدة امتيازات جديدة للشركة الفرنسية التي كانت تصطاد المرجان قرب جزيرة طبرقة[3]. فقد حظيت فرنسا بمعاملة متميزة من التونسيين الذي فرضت عليهم الشروط في كثير من الأحيان خاصة قبل سنة 1782م[4].

ويبدوا من خلال سياسة تونس الخارجية تجاه الدول الأوروبية والتي كانت في معظمها تدعم العلاقات التجارية وعلاقات السلم والصداقة مع الأوروبيين والانفتاح أكثر على التطور الحاصل في الضفة الشمالية من المتوسط، إذ شهدت حركة البعثات الدبلوماسية نشاطا مكثفا خلال القرن الثامن عشر، فالبايات الحسنيين حرصوا على الإستفادة ماديا وإقتصاديا من علاقاتهم مع أوروبا خاصة في فترة حكم حمودة باشا عكس ما حدث مع دايات الجزائر.

3-4- ثنائية طرابلس الغرب- أوروبا:

تعتبر طرابلس الغرب من أهم المناطق التابعة للدولة العثمانية بحكم موقعها الجغرافي الهام، إذ تتمتع بشريط ساحلي متسع في جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط والمواجه للشمال الأوروبي الذي كان يعيش أهله خلال تلك الفترة الزمنية ثورة صناعية كما أسلفنا الذكر تحتاج إلى مواد أولية ومراكز لتسويق منتجاتها وقد كانت إفريقيا مصدرا لهذه المواد، فبذلت الدول الأوروبية مجهودات ضخمة من أجل ضمان وصول هذه المواد، وأخذت تعمل على تحسين علاقاتها مع دول الشمال الإفريقي، ومن بينها إيالة طرابلس الغرب حتى تكون في المستقبل قاعدة ينطلقون منها إلى أواسط القارة بحثا عن مناجم المعادن التي تحتاج إليها

---

[1] روسو، المرجع السابق، ص 175.

[2]E, Rouard de card , op.cit, p p 169-171.

[3] روسو، المرجع السابق، ص 174.

[4] سعت الدول الأوربية وعلى رأسها فرنسا من خلال إبرام هذه المعاهدات إلى إضعاف القرصنة المغاربية خلال القرن الثامن عشر دون أن تقضي عليها نهائيا لأجل استخدامها ضد منافسيها التجاريين، فنجد أن الكثير من التجار الأجانب تضرروا من تجاوزات الإيالة التونسية. للمزيد ينظر: عبد القادر سوداني، المرجع السابق، ص 249.

صناعاتهم[1]. هذه النظرة المادية الإقتصادية المربحة للأوروبيين دفعتهم للتنافس من أجل كسب ود الطرابلسيين من خلال توقيع المعاهدات الثنائية بين الطرفين في فترة القرن الثامن عشر. حيث عمل الطرابلسيون على الاتجاه أكثر نحو البحر لضمان رزقهم وتأمين وحماية سفنهم ومطارة سفن الدول الأوروبية التي كانتمشغولة بمشاكلها الداخلية وبالتنافس الاستعماري في مختلف مناطق العالم، وهو ما اضطر الأوروبيين أمام تحدي القرامنليين إلى انتهاج الطرق الدبلوماسية وعقد اتفاقيات لتنظيم العلاقات البحرية والتجارية فيما بينها وبين طرابلس الغرب من أجل تأمين سفنها، وتعهد الأوروبيون في مقابل ذلك بدفع إتاوات سنوية وهدايا قنصلية عند تعيين القناصل الجدد وهبات أخرى، وبين هذه الدول إنجلترا وفرنساوهولندا والسويد والجمهوريات الإيطالية، وإسبانيا[2] هذه الأخيرة التي سنتعرض لها في المبحث الموالي.

ومع وصول القرمانليين إلى السلطة في طرابلس الغرب شهد النشاط البحري تطورا غير مسبوق[3] رافقه نشاط دبلوماسي مكثف بصورة مطردة وخاصة فيما يتعلق بارتباطهم بإنجلترا وفرنساوما ترتب عن احتكاك البلدين وصراعهما. أوفدت إنجلترا سنة 1143هـ/1730م الأميرال "كافانديش" لتأكيد نصوص الإتفاق المبرم في المعاهدة السابق لعام 1699م مع إدخال بعض التعديلات عليها، ونجد أنّ الحكومة الإنجليزية زوّدت الليبيين بسفن متعددة من السلع التموينية كالقمح والشعير أثناء فترة الجفاف لعام 1743م في المقابل قدمت الحكومة الطرابلسية كافة المساعدات للسفن الإنجليزية التي ترغب في الرسو بالموانئ الطرابلسية

---

[1] عبد الله خليفة الخباط، **العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا 1795-1832م** ، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ، ليبيا، 1985م ، ص ص 12-13.

[2] ميكاكي، المرجع السابق، ص ص 7-8.

[3] لقد أولى الحكام القرمانليون الأوائل عنايتهم واهتمامهم بالأسطول الليبي، حيث قاموا بتجديده، وأضافوا إليه عددا كبيرا من السفن الحديثة، وهذا ما ساهم في عودة قوة الأسطول البيبي وإعادة السمعة له والتي اكتسبها أيام درغوث باشا. ينظر: محمد الهادي عبد الله أبو عجيلة، **النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835م وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية**، ط1، منشورة جامعة قاريونس، ليبيا، 1997،ص ص 131- 132.

وكانت هناك إتفاقية أخرى بين البلدين في 29 من شوال سنة 1164هـ الموافي 19 سبتمبر سنة 1751م ، وفي مجملها كانت علاقات جيدة تخللتها بعض التجاوزات الطفيفة[1]. وتجدر الإشارة إلى أن إنجلترا حاولت أن تقضي على التعاون تبث التفرقة بين طرابلس وجيرانها في الجزائر وتونس من خلال الاتفاقية الأخيرة[2]. وفيما يخص علاقاتها بهولندا فقد تميزت بعقد اتفاقيات تجارية في سنوات 1711 ، وفي 1728م كانت المعاهدة تحت ضغط المدافع فقد أرسلت هولندا أسولا من أحد عشر سفينة من أجل تجديد اتفاقيات السلام[3] وتبادل الطرفان الهدايا في 1749، وكذلك في سنة 1780مو 1785م ، وكانت علاقات جيدة في مجملها خلال القرن الثامن عشر ككل[4].

سارت طرابلس الغرب تقريبا في نفس منحى علاقات المغارب بأوروبا، فمع فرنسا حيث اتسمّت في بداية الفترة القرمانلية بالود والاتفاق تجسد ذلك في معاهدة 1720م وبعدها توترت العلاقات بين الطرفين في مقابل زاد التقارب الطرابلسي مع إنجلترا، حينها كان الأسطول الفرنسي في طريقه إلى طرابلس إذ وصل في 7/16/ 1728م والذي قصف المدينة من 20 إلى 26 من نفس الشهر، ألقيت خلالها حوالي 1800 قذيفة، 40 منها على القلعة، وترتب على هذه العمليات خسائر كبيرة في المباني[5]، إلاّ أنّ بسالة الطرابلسيين في الدفاع عن مدينتهم جنبهم سقوطها وانتهى هذا الصراع بعقد معاهدة سلام في 1729/6/9م الموافق 12 ذو القعدة 1141هـ احتوت على 39 مادة، واستمر السلام إلى غاية آواخر

---

[1] للمزيد حول العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا ينظر: عبد الله خليفة الخباط، المرجع السابق ، ص ص 23- 41.

[2] ميكاكي، المرجع السابق، ص 11.

[3] جان كلود زليتنر، المرجع السابق، ص 304.

[4] روسي، **ليبيا**...، المرجع السابق، ص ص 364-365.

[5]حسن الفقيه حسن، **اليوميات الليبية**، تح: محم الإسطى وعمار جحيدر، ج1، ط2، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2001، ص 659. ينظر: فيرو، المرجع السابق، ص ص 286-296. وينظر أيضا: روسين ليبيا...، المرجع السابق، ص 335.

القرن 18م رغم بعض التجاوزات بين الطرفين[1]. فقد عرف النصف الثاني من القرن الثامن عشر استقرار العلاقات السياسية بين طرابلس وباريس، ساعد على ازدهار المبادلات التجارية[2]، وأمّا العلاقات مع مالطة فكانت في مجملها طيبة، حيث كان الطرفان يتبادلان الهدايا والمراسلات الودية، تخللتها في بعض الفترات بعض المناوشات الخفيفة التي كانت تحل بالطرق السلمية طوال القرن الثامن عشر[3].

لقد أظهرت الأسرة القرمانلية استقلالا كبيرا تجاه الباب العالي في علاقاتها الخارجية مع دول أوروبا مقارنة بالحسينيين،ففي بداية حكمهم ولعلّ أحمد القرمانلي أبرز مثال على ذلك فقد كان يطبق سياسة مزدوجة، فمن جهة كان يعد نفسه مستقلا عن العثمانيين بحيث كان له ممثلين في الدول الأوروبية التي يعقد معها المعاهدات دون طلب موافقة السلطان العثماني، ففي 23 أكتوبر سنة 1723م وصل ممثل السلطان إلى طرابلس الغرب يحمل قرارا بعقد معاهدة سلمية مع إمبراطور النمسا وجمهورية البندقية[4]، فردّ باشا طرابلس الوساطة واعتبرها تدخلا في الشؤون الداخلية لبلده وتم رفض الطلب، ومن جهة أخرى كان يعترف بسلطة السلطان كخليفة للمسلمين فقد كان أحمد القرمنلي يعي جيد الإستفادة من مؤازرة

---

[1] شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص 286-286، وينظر أيضا: محمد الهادي عبد الله أبو عجيلة، المرجع السابق،ص 132.

[2] سالم الطويل، المرجع السابق، ص ص 88-89.

[3] روسي، **ليبيا**...، المرجع السابق، ص ص 337-338.

[4] وقبل ذلك أي في سنة 1720م استغل القنصل البندقي في استانبول تواجد مبعوث من طرابلس إلى السلطان العثماني ليخوض معه في العلاقات السياسية بين البندقية وإيالة طرابلس الغرب، فأبلغة السفير الطرابلسي بوجهة نظره بقوله: " بما أنّ الإيالات الثلاث متحدة كامل الإتحاد فيما يخص مصالحها وتبادل المشورة بينها، فإنّه لا يمكن أن يتم الإتفاق مع أحدها دون بلوغ تسوية مع الآخرين، ومن بينها الجزائر التي تظهر بمظهر صاحبة الشأن الأول وصاحبة التوجيه،ثم قال السفير الطرابلسي: أن أسلوب الباب العالي لم يكن أحسن الأساليب وهم (أي الطرابلسيون) لا يتلقون من الباب العالي شيئا وليسوا في وضع يخضعهم لإرادة الأستانة...ولذا يبدوا أنه من الأولى أن تتجهوا إلى المفاوضة المباشرة في طرابلس... "، ينظر : جورجو كابوفين، **طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر**، تع: عبد السلام مصطفى باش امام، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1988 ص ص 46-47.

الإمبراطورية العثمانية داخليا[1] وأيضا تعينه على إقامة العلاقات مع الدول الأوروبية الكبرى ففي سنة 1726 وبفضل وساطة الباب العالي أبرمت إيالة طرابلس الغرب معاهدة سلم وود مع الإمبراطورية النمساوية، والتي تم موجبها ضمان وحماية وسلامة سفن النمسا من هجمات بحارة طرابلس، وتم الإتفاق كذلك على أن يسري مفعول هذه الضمانات على سفن نابولي وصقلية ومالطة التجارية، وعين أو قنصل نمساوي في طرابلس سنة 1729م[2].

لقد اختلفت وضعية الدويلات الإيطالية(البندقية- نابولي- نوسكانا- جنوة) في علاقاتها مع المغارب عموما ومع طرابلس بصفة خاصة، فقد كانت هذه الدول متأرجحة في تبعتها للدول الأوروبية الكبرى منذ الفترة الحديثة جعلها تتردد في إقامة علاقات سياسية مع إيالات طرابلس، تونس والجزائر، خوفا من ردة فعل الدول المسيحية الكبرى اتجاهها كإسبانيا مثلا فيما لو عقدت إتفاقا أو أرسلت قنصلا إلى هذه الدول فعلى سبيل المثال: منعت الدنمارك من المتاجرة مع الموانئ الإسبانية لأنّها وصلت إلى إتفاق مع هذه الدول. وإذا ما دخلت نابولي أو البندقية في مفاوضات مباشرة مع مسلمي شمال إفريقيا فستضع نفسها في نفس الخانة، وبالتالي فستخضع لنفس الإجراء بالإضافة إلى وجود عامل آخر مهم ساعد على تأخر إقامة علاقات سياسية بين الدويلات الإيطالية وشمال إفريقيا، ألا وهو سيطرة البابا الروحية على هذه الدويلات أكثر من غيرها فهي لا تميل إلى إغضاب الكنيسةبإقامة علاقات مع هذه البلدان "الكافرة المتبربرة" في نظرها على الأقل إلى غاية فترة أواخر القرن 12هـ/18م[3].

---

[1] ومن مظاهر ذلك حصول الطرابلسيين على الأخشاب من غابات الأناضول، وبلاد الشام، والبلاد المغاربية الأخرى، التي تتبع الإمبراطورية العثمانية، بهدف تصنيع السفن، إضافة إلى السفن المهداة من العثمانيين، ينظر: محمد الهادي عبد الله أبو عجيلة، المرجع السابق، ص ص 133-134.

[2] بروشين، المرجع السابق، ص ص 115-118،وينظر أيضا: عمر علي بن إسماعيل، **إنهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1795-1835م**،ط1، مكتبة الفرجاني، طرابلس ، ليبيا، 1966، ص 40.

[3] سالم الطويل، المرجع السابق، ص ص 90-91.

انتعشت علاقات البندقية وطرابلس في العهد القرمانلي وأصبحت أكثر نشاطا خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، خاصة حين تم إبرام معاهدة في أفريل من سنة 1765م اعترفت من خلالها طرابلس بتوازي حقوق وسلطات القنصل البندقي مثل القناصل الآخرين إضافة إلى احترام سفن البندقية ورعاياها، كما تم منح إمتيازات الملح بزاورة إلى البندقية وحدها، غير أنه تم فيما بعد خرق بنود الإتفاقية حين غزى قراصنة طرابلس سفن البندقية، فسيرت هذه الأخيرة حملة على طرابلس في سنة 1766م[1].وهناك من اعتبر أنّ بنود هذه المعاهدة مجحفة في حق البنادقة، وتم الرد عليه من أحد البنادقة بقوله:" ...هناك من إتهم البندقية بالإسراف والمبالغة في الاستسلام والضعف... كل تلك التهم عن الجمهورية مؤكد أن جميع الدول الأوروبية الأخرى ارتبطت بمواثيق مع الإيالات ملتزمة باتاوات" هي بالنسبة لما وعدت به البندقية متواضعة ..."[2]، ويبرر ذلك نيكولاي بروشين بقوله :"وإذ قامت إيالة طرابلس الغرب بإجبار العديد من الدول على قبول شروطها من أجل السلام بناء على المدفوعات ومقادير الجزية فإنّ الدول الكبرى المتنافسة فيما بينها في أوروبا قد قامت بدورها، وعن طريق القوة في أن تفرض المعاهدات الجائرة على الإيالة، مرة بعد مرة"[3]. وبالرغم من هذا فقد اقتنعت الكثير من هذه الدول ومنها البندقية بأنّ طرابلس وتونس والجزائر هي دول مستقلة وأنّ سلطة السلطان العثماني روحية أكثر منها سياسية، ويجب عليها من الآن فصاعدا التعامل معها معاملة الند للند سلما أو حربا[4]. وهذا في حد ذاته يمثل نقلة نوعية في السياسة الخارجية للإيالات المغاربية.

يعزو بعض الباحثين الهيمنة الغربية في بلاد المغارب خلال القرن الثامن عشر إلى استقلالها عن الباب العالي، لذلك أصبحت كل من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس عرضة

---

[1] وللمزيد ينظر: روسي، **ليبيا**...، المرجع السابق، ص ص 353-363.

[2]جورجو كابوفين، المرجع السابق ، ص 65.

[3] بروشين، المرجع السابق، ص ص 121-122.

[4]سالم الطويل، المرجع السابق، ص 96.

للهيمنة والوقوع في السيطرة لسياسات الدول الأوروبية، فغياب السند الرمزي للسلطة المركزية كان سببا لوقوع السلطة في بلاد المغارب تحت السيطرة الغربية فكانت السياسة الخارجية لدول المغارب خلال الفترة ما بين (1705-1792م) رهينة للتنافس والنزاع الإنجليزي الفرنسي خاصة، والذي بلغ ذروته خلال هذه المرحلة وكان له تأثير كبير على الأوروبيين وعلى توازن القوى في القارة الأوروبية[1].لذلك يذهب الكثير من الباحثين في طبيعة التواجد العثماني بالمغارب إلى القول بأنّ الوجود العثماني في بلاد المغارب أخّر الإحتلال الفرنسي لها لأكثر من ثلاثة قرون. ومن جهة أخرى فالملاحظ في هذا الشأن غياب التنسيق في السياسات الخارجية لكل من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس واتخاذ موقف موحد ضد الدول الأوروبية، ولا تختلف هذه السياسة المغاربية في هذا الموقف عن دول الخصوم في الضفة الأخرى من المتوسط، فكما تعارضت السياسة الفرنسية مع السياسة الإنجليزية أو الإسبانية إزاء بلاد المغارب، فكذلك تباعدت سياسة تونس عن الجزائر تباعدا تاما[2].

رغم استقلال إيالات الجزائر وتونس وطرابلس الغرب عن الباب العالي في علاقاتهم مع الأوروبيين، إلاّ أن هذا لم يغير من الحالة العامة التي كانت سائدة في العلاقات المغاربية الأوروبية قبل هذا التحول نتيجةلقيام وتأسيس هذه الإيالات على نظام حربي فعال بواسطة حكومات عسكرية[3].

3-5- ثنائية المغرب الأقصى – أوروبا(العهد الدبلوماسي والانفتاح على أوروبا):

رغم أنّ المغرب الأقصى لم يكن تابعا للعثمانيين إلاّ أنّ سياق العلاقات بينه وبين أوروبا يكاد يكون مشابها لعلاقات تونس والجزائر وطرابلس الغرب خلال القرن الثامن عشر فقد كانت علاقاته الخارجية مع مختلف الدول الأوروبية كفرنسا وإنجلترا، البرتغال وهولندا

---

[1] سوداني، المرجع السابق، ص ص 265-266.

[2]صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 34.

[3] هلايلي، **العلاقات الجزائرية الأوروبية ونهاية الإيالة 1815-1830م**، ط1، دار الهدى ،عين مليلة، الجزائر، 2007، ص 99.

والنمسا...، متأرجحة بين السلم والحرب، وتمثلت مظاهر تلك العلاقات في قضايا القرصنة وتبادل الأسرى وكذلك الرسائل الدبلوماسية بين الطرفين وتوقيع المعاهدات السياسية والتجارية. وقد علمنا مسبقا بعض جوانبها في عهد السلطان إسماعيل العلوي وسياساته الخارجية التي تميزت بالحذر والتردد في التحالف مع الأوروبيين والإنفتاح أكثر اقتصاديا فبوفاته في سنة 1727م ودخول بلاد المغرب الأقصى في دوامة صراع استمرت بعض مظاهر العلاقات خلال الثلاثين سنة أي في فترة ما بين (1727-1757م) ولكن ليست بالتحول الكبير في العلاقات بين الطرفين مقارنة بما حدث مع المولى إسماعيل، وما كان بعد تلك الفترة في عهد المولى محمد بن عبد الله (1757-1790م).

منذ البداية سعى محمد بن عبد الله إلى الإستفادة من الجو التنافسي الذي كان يميز العلاقات الأوروبية ليقتني الأسلحة من هولندا وإنجلترا، وحاول خلق أسطول بحري وطني قادر على رفع التحديات[1] والمشاركة في النشاط الاقتصادي العالمي، ويثير القدوري المسألة من خلال مؤرخ أوروبي، وهي أن محمد بن عبد الله لم تكن له نية في الجهاد أو في إعلان الحرب على المسيحيين على عكس ما ذهبت إليه بعض الكتابات من المغاربة وبعض المؤرخين الأوروبيين. ويلخص لنا القدوري أهداف السلطان محمد بن عبد الله من السياسة الخارجية بقوله:" كان مشروع محمد بن عبد الله الهادف إلى خلق المغرب الأطلنتيكي وإشراك المغرب في التجارة العالمية، متكاملا، فلم يقتصر اهتمام السلطان بالأسطول وحده أو إصلاح وتجهيز الموانئ التي كانت تابعة للمغرب، بل قرر استرجاع " البريجة" وشيد ميناء جديدا وصار رمزا لسياسته المبنية على الانفتاح. لقد يئس الملك من إمكان استعادة الثغور

[1] وفي هذا الشأن يقول صاحب كتاب الضعيف:" ...وأعظم من هذا كله مافيه من الوجهة للجهاد وجمع آلاته وجميع ما يحتاج إليه من عدة وعدد، وقد جمع من ذلك ما لم يتفق لأحد ممن تقدمه، وسخر الله له السفن في البحر من أهل سلا ورباط الفتح وغيرهما، وسخر الله له أجناس الروم، فما يأمرهم بالإتيان بشيء من ذلك إلا بادروا لامتثاله مسرعين وقاموا بين يديه سامعين وله مطيعين، مع علمه بجميع ما هو من المصالح العامة والخاصة"، ينظر، الرباطي، المصدر السابق، ص 166.

الشمالية واعتبر الجهاد في سبيل استرجاع سبتة ومليلة وبادس والنكور حماقة وجهلا"[1]. ويتسائل القدوري عن هل الأمر يرتبط بقلة الإمكانيات العسكرية أو يرجع إلى اقتناع السلطان بأهمية المحيط الاقتصادية؟[2]. ولعلّ الإجابة عن هذا السؤال تكمن في طبيعة تحول موازين القوى لصالح الدول الأوروبية منذ فترة بعيدة، حيث أصبحت المقاومة المغربية تتجه نحو مصير غامض وغير واضح المعالم جعل بعض السلاطين أمام حتمية مراجعة سياساتهم الخارجية تجاه الأوروبيين، وهو ما اعتبر تنازلا ومهادنة أو حتى تحالف معهم فالسلطان محمد بن عبد الله استمر على اختيار المواجهة مع القوى الرأسمالية الكبرى عبر تبني حركة الجهاد البحري أو القرصنة كما يطلق عليها الأوروبيين، مما جعلها وجها لوجه مع هذه القوى التي عانت ملاحتها إثر ذلك من متاعب جمة، خاصة أنّه تمكن من إنهاء الاحتلال البرتغالي لميناء الجديدة، وأرغم البرتغاليين على الجلاء عن البلاد[3]. ولم يتأخر جواب هذه الدول، فقد دقت طبول الحرب قرب السواحل المغربية وأفرغت المدفعية الأوروبية غضب قذائفها على أهم الموانئ، فقد هاجم الأسطول الفرنسي سلا والعرائش في سنة 1765م، ثم حصار هولندا لمنطقة طنجة وأصيلا وإغراقها لبعض المراكب المغربية سنة 1776م وغيرها من الحوادث، هذه الإنذارات شديدة اللهجة دفعت السلطان محمد بن عبد الله على الفور إلى إقرار سياسة انفتاح على العالم الأوروبي، لكن بشكل حاول أن يضمن فيه نوع من التوازن مع الدول الأوروبية[4].فمن جهة استأنف الجهاد ضد الثغور المسيحية ومن جهة أخرى حاول تجديد العلاقات مع بعض الدول الأوروبي، وقد صادف عهده حرب السبع

---

[1] جاء في الترجمانة الكبرى للزياني أن السلطان محمد بن عبد الله كان يرى بأن الجهاد في سبتة ومليلة وبادس النكور لا فائدة منه بقوله:" لا ينفع فيها حرب ولا ينشأ عنها إلى السبة للإسلام، فالإعراض عنها أولى..."، ينظر: الزياني، **الترجمانة الكبرى**، المصدر السابق، ص ص 131-132.

[2] عبد المجيد القدوري، المرجع السابق، ص ص 239- 242.

[3] علي داهش، **الدولة العثمانية...**، المرجع السابق، ص 87.

[4] عبد الباسط المستعين، **أثرالسياسة الخارجية للمخزن على المدينة المغربية خلال العصر الحديث: سياسة الانفتاح في عهد محمد بن عبد الله نموذجا(1757-1790م)**، مجلة كان التارخية، ع24، جوان 2014، ص 77.

سنوات في أوروبا، وبدا أنّه كان يميل إلى الدول الشمالية البروتستانتية التي تحالفت في هذا الصراع ضد فرنسا وإسبانيا[1] اللتان شنتا هجومات عديدة على السواحل المغربية، خاصة على قواعد القراصنة في سلا والمهدية، والعرائش كما ذكرنا سلفا، وهو ما دفع السلطان المغربي إلى توقيع معاهدة صلح في آخر ذي الحجة 1180/ 28 ماي 1767م مع فرنسا تعتبر من قبل الكثير من المؤرخين النهاية الفعلية للقرصنة المغربية، وتجسدت بعدها في مرحلة جديدة من علاقات المغرب بدول أوروبا، وهي مرحلة التقارب السلمي وعقد المعاهدات ومنح الامتيازات للأجانب[2]. ومن بين معاهدات السلم والتجارة نجد:مع الدنمارك سنة 1757م، ثم في سنة (1766-1767) ومع السويد سنة 1763، ومع إنجلترا سنة 1760م، ثم البرتغال سنة 1773م، كما أجرى مفاوضات مع هولندا سنة 1777م عقب إعلانها الحصار البحري على المغرب، وفي سنة 1786م منحت حق احتكار التجارة بميناء العرائش، وسعى السلطان كذلك إلى تحسين علاقاته مع دول أخرى منها ما انتهت بتوقيع معاهدات صلح كالنمسا سنة 1784م، والبندقية سنة 1765م وتوسكانا(فلورنسا) سنة 1782م، نابولي ومالطة وغيرها. وبالموازاة مع ذلك اتخذ السلطان محمد بن عبد الله إجراء إنفراديا من جانب واحد سنة 1778م، أعلن فيه فتح أبواب الموانئ المغربية في وجه جميع الدول الصديقة. الموقعة لمعاهدة سلم وتجارة وغيرها. باستثناء روسيا نظرا لعلاقتها الحربية مع الدولة العثمانية[3] كما سبق ذكره. وبعد تولي المولى اليزيد الحكم في سنة 1790م استقبل قناصل الدول الأوروبية بطنجة في 20 أفريل 1790م، وأخبرهم أنه سيعلن الحرب على دولهم إذا لم يوفوا ببعض التزاماتهم، ولكنه سرعان ما عاد في قراره وراسل ملوك الأمم الأوروبية طالبا منهم بعث سفراء لتجديد اتفاقيات الصلح التي كانت في العهد السابق[4].

---

[1] العقاد، المرجع السابق، ص 68.

[2] دلندة الأرقش، المرجع السابق، ص 316. وينظر : حركات، المرجع السابق، ص 112.

[3] عبد الباسط المستعين، المقال السابق، ص 77.

[4] حركات، المرجع السابق، ص 122.

بالرغم من كل ما شاب علاقات الجزائر وتونس، طرابلس والمغرب الأقصى من صراعات إلاّ أنّ الباحثين على حد علمي لم يذكروا أنّ بلاد المغارب تعرضت إلى تحالفات كبيرة كانت في شكل حملات عسكريةمثلما كان عليه الحال في القرن 10هـ/16م، فالمؤرخين المغاربة لم يشيروا لأي تحالف ضد المغرب الأقصى خلال القرن 18م أو ضد تونس أو ضد طرابلس الغرب، وفي هذا الشأن يقول أحد الباحثين: " والحقيقة أنّ فكرة العمل الجماعي كان قد دعا إليها كاتب الدولة الفرنسية سنة 1783م، وكذلك أحد الكتاب الإيطاليين سنة 1787م الذي دعا الدول الأوروبية خاصة بريطانيا والسويد وهولندا والدنمارك إلى العمل ضد القرصنة"[1].إلاّ أنّ الجزائر تعرضت لتحالف مسيحي إسباني أوروبي في شكل حملة، وكذلك بلاد المغارب الأخرى كانت في صراع دائم مع إسبانيا. سنأتي على ذكره في العنصر الموالي.مع إختيار ثنائية الجزائر– إسبانيا كنموذج لهذا الصراع.

4- المغارب وإسبانيا من الصراع إلى الهدنة(ثنائية الجزائر– إسبانيا أنموذجا):

لقد كان العداء والتوتر الدائم السمة العامة والبارزة لمظاهر العلاقات المغاربية الإسبانية منذ نهاية القرن الخامس عشر، وبالتحديد من سقوط غرناطة في سنة 1492م وما لقيه المسلمون من إبادة جماعية وتهجير من الديار، وما كان له من تداعيات على بلاد المغارب سبق التطرق إليها في الفصول السابقة،تجسدت في احتلال الكاردينال خمينيس وبيدرو نفارو للموانئ الساحلية المغاربية الممتدة من سبتة إلى طرابلس الغرب وفي كثير من الأحيان اعتمدت إسبانيا على التحالفات الأوروبية الصليبية من أجل بسط السيطرة والسيادة على البحر الأبيض المتوسط، واتسعت دائرة النزاع خاصة في ظل إنضمام الجزائر وطرابلس الغرب وتونس للإمبراطورية العثمانية خلال القرن السادس عشر. استمر هذا الصراع المسيحي الإسلامي إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر أين شهدت العلاقات إنهاء سلسلة

[1] حميدة عميراوي، **دور حمدان عثمان خوجة في تطور القضية الجزائرية(1827-1840)** ،ط1، مطابع دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1987، ص 32.

الحروب بين الطرفين من خلال إبرام معاهدات بين إسبانيا وكل دول المغارب، هذه الفترة شهدت تحرير بعض المناطق كوهران وبقاء مناطق أخرى تحت الاحتلال الإسباني مثل سبتة ومليلة إلى يوم الناس هذا.

4-1-استرجاع وهران (1708م) :

ظلّت وهران والمرسى الكبير تقبعان تحت الإحتلال الإسباني إلى ما بعد الثورة الفرنسية لكنّ حكمهم خلال القرن الثامن عشر يختلف عن حكمهم السابق، حيث لم يعودوا قادرين على تنظيم الغزوات إلى أعماق البلاد وغدوا يعتمدون في تموينهم على ما يأتي من إسبانيا عن طريق البحر[1]، بحيث أصبح الأتراك يهيمنون على الأقاليم التي كانت تابعة للإسبان، بإستثناء الأراضي الواقعة في جهة السيق التي كان يزرعها أفراد حميان وسكان كريشتل والأراضي الواقعة بين سسال ووهران، والتي كان يشغلها أفراد شافع ودواوير غمرة، ظلت الوضعية كذلك إلى غاية الإنسحاب الثاني والنهائي سنة 1792م[2].

لقد تمكن الجزائريون من استعادة مدينة وهران من الصليبيين الإسبان في سنة 1708م بعد أن تم حشد عدد كبير من المجندين، وفي هذا الشأن يقول الشيخ أبو زيد عبد الرحمن في شرحه للقصيدة الحلفاوية:" فإن الناس جاءوا إليه من كل فج عميق، وانسلوا إليه من كل قبيل وفريق...حتى إن الناس وفدوا إليه بخيامهم وعيالهم واعتكفوا عليه الليالي والأيام... وكانوا بمحلة مستقلة عن غيرها، وكانت شوكتهم على الكفار أقطع من الرماح، ومرماهم أنفذ من الصفاح، وسور جندهم يشد بعضه بعضان وكل واحد منهم يرى موته قبل أخيه فرضا ...وكان عددهم يزيد تارة على الألف وينخفض عنه إلى السبعمائة... ولما أقبلت رسل البشائر وتليت صحف فتحها على الأمير، وعم الخطاب بفرح المؤمنين بلسان التبشير، أمر

---

[1] عباد ، المرجع السابق ، ص 157.

[2] المرجع نفسه، 310.

الامير الداي (محمد بكداش باشا) بصنع وليمة الفرح وعيده وبالجملة فقد عم السرور جميع المؤمنين وأرغم جميع الكافرين، والحمد لله رب العالمين..."[1].

4-2- إحتلال الإسبان لوهران والمرسى الكبير من جديد(1732م):

كانت إسبانيا خلال استرجاع الجزائريين لوهران والمرسى الكبير سنة 1708م تعيش في ظروف الحروب الأوروبية التي أخذت طابع الحرب الأهلية في اسبانيا، فلم يكونوا قادرين على استعادة الموقعين سريعا، ظلوا ينتظرون الفرصة المواتية لذلك بعد معاهدة أوتريخت الموقعة سنة 1713م بين فرنسا وإسبانيا وإنجلترا وهولندا، المعاهدة التي وضعت حدا لحرب الخلافة، بدأ الملك الإسباني فيليب الخامس[2] يحضر لإعادة إحتلال وهران والمرسى الكبير مجددا، ولما أكمل إستعداداته أصدر بيانه الشهير في 6 جوان 1732م، البيان الذي عبر فيه عن إستعداده لإعادة إحتلالهما[3].

قضت اسبانيا ثلاث سنوات في تجهيز هذه الحملة العسكرية والتي تكونت من 16 باخرة حربية، 500 مركب بحري، 28000 جندي، لأجل استرجاع المرسى الكبير ومدينة وهران وفي 15 جوان 1732م انطلقت الحملة من مدينة "أليكانتي" بقيادة الدوق "دي مونتيمار" نحو مدينة وهران[4]، وفي الجهة المقابلة كان الباي مصطفى بوشلاغم أميراً لمدينة وهران منذ سنة 1708م، يستعد للدفاع عن المدينة، فجمع أكثر من 20 ألف من المجاهدين من الأهالي و2500 جندي من الجيش، بالإضافة إلى 138 مدفعاً[5].

---

[1] المدني، **حرب الثلاثمائة...**، المرجع السابق، ص ص 455-463.

[2] فيليب الخامس: ولد في فرنسا سنة 1683م أصبح ملكا لإسبانيا في (1700م-1746م) بسببه حدثت حرب الوراثة الاسبانية، ينظر : بسام العسلي، **الجزائر والحملات الصليبية**، المرجع السابق، ص128.

[3] عباد، المرجع السابق، ص 156.

[4] الميلي، المرجع السابق، ج3، ص214.

[5] المدني، **حرب ثلاثمائة...**، مرجع سابق، ص 478.

بعد مرور عشرة أيام تمكن الجيش الإسباني من الوصول إلى المياه الإقليمية لمدينة وهران غير أنّ حالة الطقس السيئة أخّرت رسو المراكب حتى 29 جوان 1732م، حيث تمت عملية الإنزال في ساحة عين الترك (تقع 15 كلم غربي مدينة وهران)[1]. حاول مصطفى بوشلاغم رفقة حوالي 3000 من الجنود النظاميين المقاومة والتصدي للصليبيين في يوم 30 جوان 1732م، إلاّ أنّه لم ينجح في دحر القوات الإسبانية التي تمكنت من احتلال وهران والمرسى الكبير.سارع الباي بوشلاغم إلى طلب المدد من الداي في الجزائر وهو ما تم له، وأثناء ذلك ضرب حصارا على مدينة وهران، وفي 04 نوفمبر من نفس السنة هاجم الباي بوشلاغم المدينة ووصل إلى أبوابها ودخل مع الاسبان في معركة عنيفة استشهد على إثرها أحد أبنائه[2].

لم يستسلم الجزائريون بعد هذه الأحداث، ففي يوم 29[3]نوفمبر1732م التقى الجيشان مجددا، حيث انتقم فيها الباي بوشلاغم لابنه وقتل الماركيز " دي سانتا كروز" وعدد كبير من الجيش الجنود الإسبان[4]،مع تواصل حصار وهران من طرف الأتراك والأهالي، أرسل الداي وفوده وسفنه إلى أقاليم الدولة العثمانية يوم 19 ديسمبر 1732م لتجنيد مجموعات جديدة من الإنكشاريين، ولكن رغم ما جنده الأتراك من أهالي ومن جنود فإنّهم لم يحققوا تقدما ضد الإسبان الذي حاولوا فك الحصار في 10 ماي حين نظم المركيز دي فيلا دراياس خرجة لفك الحصار المضروب على الموقعين الإسبانيين، تمكن من دفع المحاصرين إلاّ أنّ بني عامر حلفاء الإسبان القدامى تحالفوا مع الأتراك ما جعل ميزان القوة في صالحه وتمكنوا من إلحاق هزيمة كبيرة بالإسبان المهاجمين فقدوا على إثرها ثمانمائة رجل فاضطرت إسبانيا

---

[1] العسلي، **الجزائر والحملات الصليبية**، المرجع السابق، ص 130.

[2] الميلي، المرجع السابق، ج3، ص ص214-215.

[3] وذكر أنها كانت في يوم 12 نوفمبر، ينظر: بسام العسلي، **الجزائر والحملات الصليبية**، المرجع السابق، ص 133.

[4] الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 215.

إلى خلع المركيز وتعويضه بآخر إسمه "فاليجوا"[1].وواصل الباي بوشلاغم الهجوم من أجل تحرير المدينة، ففي سنة 1734م قام بالهجوم على مركز العيونووصل إلى أبواب المدينة لكنّه لم يتمكن من تحريرها، واستمر الحصار الجزائري للمدينة إلى غاية سنة 1791م[2]،

4-3- الحملات الإسبانية ضد الجزائر(حملة أوريلي انموذجا):

شهدت الفترة الممتدة ما بين (1733 - 1775م) سلسلة من الحروب الأوروبية و كانت إسبانيا طرفا فعالا فيها،ومن أشهر الحروب خلال هذه الفترة حرب السبع سنوات التي جرت وقائعها في الفترة الممتدة من 1756-1763م والتي سبق التطرق إليها في العنصر السابقفقد خرجت منها إسبانيا بخسائر فادحة في مناطق شتى، دفعت بها إلى محاولة تعويض هذه الانتكاسة فاتجهت إلى بلاد المغارب من جديد وبالتحديد إلى مدينة الجزائر. والجدير بالإشارة إلى أنّ فكرة تحالف فرنسا مع إسبانيا طرحت خلال هذه الفترة، ولكن تصادم المصالح والمشاريع الفرنسية في بلاد المغارب حال دون تحقيق هذا التحالف الصليبي[3].

وجّه الإسبان ثلاث حملات عسكرسة ضدّ مدينة الجزائر خلال الفترة ما بين (1775-1784م) فكانت الحملة الأولى في سنة 1775م تحت قيادة الجنرال "أوريلي" الأرلندي الأصل الذي أعدّ قوات ضخمة تألفت من 400 سفينة و 24 ألف شخص، وفي هذا الشأن يذكر صاحب الزهرة النيرة ابن رقية التلمساني: " ... ومن كثرتهم لا يمكن إحصائهم، وذلك أن وجه البحر كله صار أبيض من قلاع الجفن..."[4].

حاول الإسبان تسريع عمليات الإنزال في خليج الجزائر إلاّ أنّ سوء الأحوال الجوية أعاقهم ، وفي هذا الصدد يذكر الأميرال " مازاريدوو": "... بعد أن تجمعت الحملة في خليج

---

[1] عباد ، المرجع السابق، ص 157.

[2] المدني،**حرب الثلاثمائة سنة**...، المرجعالسابق، ص481.

[3] وولف، المرجع السابق، ص 402.

[4] ابن رقية التلمساني، المصدر السابق، ص 144.

الجزائر في الفاتح جويلية، طلب مني " الكونت أوريلي" باعتباري قائدا للأسطول أن انزل إلى البر مباشرة مع الافواج الأولى للجيش مصحوبا باثني عشر قطعة مدفعية من عيار أربعة، يتبعها على الفور إنزال إثني عشر مدفعا من عيار ثمانية، بالإضافة إلى ثمانية مدافع من عيار إثني عشر. وكانت الرياح قوية يوم الثالث جويلية مما أعاق عملية الإنزال، التي كانت مقررة في اليوم الرابع من جويلية، ولهذا كلفت بوضع الخطة النهائية لنقل الجنود، وتعيين السفن التي تستحملهم إلى الشاطئ على أن تنزل للبر قوة قوامها سبعة آلاف وسبعمائة رجل، وتلتحق بهم بعد وقت قليل قوة أخرى مكونة من سبعة آلاف رجل..."[1]، ولأنّ الداي كان على علم بتحضيرات الحملة قبل أن تصل إلى الجزائر، فقد أمر بتدعيم التحصينات وجنّد الجميع لهذه العملية، فعسكر صالح باي قسنطينة في الضفة اليسرى من وادي الحراش برفقة قواته المتكونة أساسا من الفرسان، وخيّم باي التيطري مصطفى الوزناجي في رأس تامنفوست وعسكر خليفة باي معسكر محمد بن عثمان بالقرب من عين البيضاء مع أربعة آلاف فارس من فرسان الدواير، ورابط باي معسكر إبراهيم في مستغانم لقطع الطريق على القوات الإسبانية المتواجدة في وهران والمرسى الكبير لعلها تلتحق بالقائد أوريلي إضافة إلى قبائل البيبان وفليسة التي هرعت إلى مدينة الجزائر[2]، بدأ الإسبان بقصف بطاريات المدفعية الجزائرية في صباح يوم 7 جويلية، ولكنّ المدفعية الجزائرية تمكنّت من الرد برمايات مكثفة ومركزة استمرت طوال الليلأحدثت خسائر في سفن الإنزال الإسبانية وكانت الاشتباكات في كل جهات مدينة الجزائر[3]، حيث لم يفلح الكونت أوريلي في احتلال المدينة، مخلفا وراءه خسائر فادحة في العدة والعتاد. وفي هذا الصدد يذكر التلمساني :" وكان عدد مجاريحهم أكثر من ثلاثة آلاف، وموتاهم حين رجوعهم تزيد على ثمانية آلاف...وكان عدد موتانا لا

---

[1] Joseph de Mazarredo, **Expedition d Oreilly contre Algeer en 1775**, vol 08, R.A, Alger, 1864, p p 255-257.

[2] عباد، المرجع السابق، ص 169.

[3] العسلي، **الجزائر والحملات الصليبية**...، المرجع السابق، ص ص 144-146.

يبلغ ثلاثمائة ممن استشهد في المعركة، وممن مات ..."[1]. في حين نجد المصادر الإسبانية تقلل من شأن الهزيمة ومخلفاتها، فيقول الأمير جوزيف دي مازاريدوو المكلف بعمليات الإنزال والذي مرّ معنا آنفا:" ... وما تركناه وراءنا على الساحل أربعة مدافع مشاة، وبعض قطع مدفعية عيار 18، بالإضافة إلى 19 رطلا من رصاص البنادق، ورامي القذائف، وبعض الأدوات، وهذه الخسائر لا تعبر عن شيء لعدد الرجال الذين كنا سنتركهم قتلى لو انتظرنا إلى الصباح..."[2].

يجمع الكثير من الباحثين على أنّ حملة أوريلي على مدينة الجزائر سنة 1775م وإن فشلت فهي تماثل حملة شارلكان في القرن السادس عشر 1541م، من حيث الخطة والعدة ولا تختلف عنها إلاّ من حيث الزمان فقط، فخروج الجزائر منتصرة بعد تمكين أوريلي من احتلال مدينة الجزائر، والتصدي له والاستعدادات التي أظهرها والخطة التي نجحت في هزيمة الإسبان أخافت الدول الأوروبية فعلا ممّا جعل العديد من الدول تعقد معاهدات سلم مع الجزائر[3]. وينفي ذلك جون وولف بقوله: " إنّ الهزيمة لم تكن في الحجم الذي عاناه شارل الخامس (شارلكان سنة 1541م)، ولكنّها هزيمة مهينة يرغب الجيش الإسباني في نسيانها. فقد خسروا جميع المدافع التي أنزلوها، ومعظم البنادق والأسلحة الصغيرة التي تعود إلى المشاة..."[4].

بعد هزيمة سنة 1775م لم يتوقف الإسبان عن إعادة محاولة احتلال الجزائر فسيّروا حملة عسكرية في جويلية من سنة 1783م، تكونت هذه الحملة من القوات البرتغالية ومن

---

[1] ابن رقية، المصدر السابق، ص 153.

[2] Joseph de Mazarredo, op.cit, p 265.

[3] محمد السعيد بوبكر، **العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)**، مذكرة ماجستير، إشراف: مختار حساني، التاريخ الحديث، قس التاريخ، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، 2010-2011م،ص 100.

[4] وولف، المرجع السابق، ص 406.

نابولي، وقوات أخرى من جنوة، وجنود من فرسان القديس ستيفان، وفرسان مالطة[1]، بقيادة "دوق انطونيو باسيلو"، وكان الداي محمد عثمان باشا قد علم من ملك المغرب الأقصى بأخبار الحملة الإسبانية فأمر بتجميع كل القوات في مدينة الجزائر، فقدم 2500 رجل من بايلك الشرق و 20000 من بايلك معسكر و 5000 من بايلك التيطري، وحين وصول القوات الصليبية إلى قبالة سواحل الجزائر تم إطلاق ما بين 1000 و 1200 قذيفة على المدينة[2]، فكان رد فعل البحرية الجزائرية قويا وعنيفا، تم من خلاله دحر الجيش الصليبي الذي انسحب في النهاية. ويقول الحاج أحمد الشريف الزهار في مذكراته عن الحملة ما يلي:" لما كانت سنة 1197هـ قدم الإصبانيول للمرة الثانية، مثل المرة الأولى وأرسوا في الجون بعيدا عن مرمى الكورن وأتو بزوارق كبيرة بعضها بمدافع وبعضها بمهاريس لرمي البومبة وبعد ثلاثة أيام بعثوا الزوارق المذكورة واسمها اللنجور[3] لقرب البلاد وصاروا يرمون البومبة، وبعد ذلك اليوم تهدم جامع الذي بناه محمد باشا وهو جامع السيدة ... لما بدأ الإصبانيول الحرب بعث مولانا الباشا إلى الحاج محمد القبطان وقال له: ماذا نفعل مع هذا اللنجور الذي أوقع في البلاد هدما كبير؟ فظهر للحاج محمد القبطان، أن يعمر زوارق كبيرة كان فيها الجير المعد للبناء، ويجعل فيها مدافع وعندما يقدم العدو باللنجور يقاتله بها وأذن الباشا له بذلك. فخرج من عنده إلى باب الجهاد وعمر تلك الزوارق في الليل بالمدافع ولما أصبح الله بخير الصباح تقدم العدو كأول مرة فخرج له المسلمون من المرسى على تلك الزوارق، وقاتلوه ورزقهم الله النصر، فولى العدو الأدبار وتقدم في اليوم الثالث كذلك، ولم يحصل على طائل وذهب في

---

[1] Belhamissi ,op.cit, p34.

[2] عباد، المرجع السابق، ص 170.

[3] اللنجور: تذكر في المصادر الإسبانية أنها تلك السفن التي كانت من اختراع الضابط انطونيو راسيلو، وهي عبارة عن سفن خفيفة وسريعة الحركة، وتحمل مدافع صغيرة على متنها، وقد أطلق عليها مصطفى بن حسين خوجة اسمي" البلاء" و " المصيبة" بسبب الخسائر التي لحق مدينة الجزائر بعد استخدامها في حملة سنة 1783م، ينظر: شكيب بن حفري، **العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوط عثماني**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002م، ص 128.

اليوم الرابع. لقد سمعت ممن حضر ذلك الوقت أن الإصبانيول تكسر لهم لنجور من الذي كانوا يقاتلون به ووجده المسلمون في عين الربط في رملة هناك، وسمع بذلك القبطان المذكور فأرسل له معلم السفائن فعاينه. وأخذ قالبه، ثم ابتقى القبطان المذكور مع الأمير، واتفقوا على أن يجعلوا من ذلك الصنف نحو خمسماية لنجور فأمروا كبير الطرسنة ويقال له وكيل الحرج أن يباشر صنع ذلك ، فصنع العدد الذي أوصى به مولانا رحمه الله، وأوجدوه قبل تمام السنة ..."[1]. وبالرغم من الأزمة المالية التي كانت تعاني منها إسبانيا، إلاّ أنّ الوزير الإسباني "فلوريدا بلانكا" قرر خوض غمار الحرب مجددا ضد إيالة الجزائر. ففي سنة 1784م أعادت القوات المسيحية المتحالفة الكرة من جديد لتدمير الجزائر، بمباركة البابا بيوس السادس الذي منح براءة بابوية أقرّ بموجبها منح صكوك غفران لكل المجندين في هذه الحملة. ولمواجهة هذه الحملة الشرسة التي استمرت إلى غاية 21 جويلية من سنة 1784م[2]خرجت الزوارق الجزائرية المزودة بالمدافع إلى البحر وتمكنت من إرغام الصليبيين على الانسحاب مرة أخرى[3].

ومن الجدير بالإشارة في هذا الصدد هو أنّ الكثير من المؤرخين و الباحثين الجزائريين خاصة يتناولون الحملات الإسبانية الثلاث ضد إيالة الجزائر في سنوات 1775 و 1783 و 1784م على التوالي على أنّها حملات إسبانية محضى، أمّا بعض الباحثين فيصنفونها في خانة حملات التحالف الصليبي، ولكن الذي يبدوا هو أن هذه الحملات كانت بدرجة كبيرة حملات إسبانية وكل القرائن تدل على ذلك منها أغلبية جنود تلك الحملات كانوا من الإسبان إلاّ أنّ مشاركة بعض الجنسيات الأخرى من الجنود الأوروبيين في هذه الحملات يجعل منها حملة في ثوب تحالف، إلاّ أننا لا يمكن أن نقارنها مثلا بحملة التحالف الصليبي ضد

---

[1] الزهار، المصدر السابق، ص ص 31-32.

[2] إبراهيم سعيود، **لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني** ، مجلة دراسات، قسم التاريخ،ع 07، جامعة الجزائر، ص ص209-210.

[3] الميلي، المرجع السابق، ج3، ص 236.

الجزائر بقيادة شارلكان في سنة 1541م. وممكن أن حملتي 1783 و 1784 تبدوان الأقرب إلى التحالف المسيحي خاصة بمباركة البابا لها ضد الجزائر.

4-4- معاهدة الصلح 1786م:

بعد فشل كل المحاولات الإسبانية لإحتلال الجزائر من خلال تسيير تلك الحملات العسكريةالثلاث نحو مدينة الجزائر، اتخذت السلطات الإسبانية موقفا جديدا تجاه الجزائريين تمثل في اختيار الدبلوماسية كوسيلة لتعاملها مع الجزائر وسعت إلى عقد معاهدة صلح فوسطت السفير الفرنسي "دو كيرسي De Kercy" منذ جوان 1785م.

وقبل هذا التاريخ كانت إسبانيا قد عقدت صلحا مع الدولة العثمانية في سنة 1196هـ/1782م، فأرسلت هذه الأخيرة فرمانا إلى داي الجزائر محمد عثمان باشا تحثه على إتباع نهجها في الصلح مع الإسبان، غير أن الداي رفض الطلب لأنّه كان يدري بأخبار تحضيرات الإسبان لحملة عسكرية ضد الإيالة، ويقول في هذا الشأن:" ...إنني أعلم أن ملك إسبانيا شارل الثالث يقوم بتجهيز أسطوله، وتجنبا من أن يعتقد أنني خفت منه لذلك هرعت إلى عقد الصلح، ولهذا فلا أريد التحدث بهذا الموضوع..."[1]. ويعلق الباحث شكيب بن حفري على عدم إستجابة الجزائر لطلب العثمانيين فيما يخص عقد صلح مع إسبانيا بقوله:" ... ومن ثمة فحسب رأينا فإنّ الباب العالي لم يلجأ أبدا إلى الضغط على الجزائر من أجل دفعها إلى إبرام معادة صلح مع إسبانيا، ويرجع حسب رأينا إلى بعد استراتيجي كان لدى الباب العالي ويتمثل في جعل الجزائر توجه ضرباتها العسكرية إلى إسبانيا باستمرار حتى تدفعها إلى قبول الوقوف بصفة فعلية إلى جانب الدولة العثمانية في حربها ضد روسيا وذلك بأن تمنع السفن الروسية من المرور إلى البحر المتوسط عبر جبل طارق...وفضلت عنه موقف الحياد"[2]، ويؤكد سامح التر أنّ هذا الرفض لم يحد من إستجابة إيالة الجزائر لفرمانات الباب

---

[1] التر، المرجع السابق، ص 539.

[2] بن حفري، المقال السابق، ص 129.

العالي خاصة مسألة مشاركة الأسطول الجزائري في حروب الدولة العثمانية[1]. ويقول في هذا الشأن :" ... وكانوا ينفذون الأوامر ويؤدون واجبهم على أكمل وجه " وهو ما أشرنا إليه سابقا.ولكن هذا لا ينفي من وجهة نظري يعود بالدرجة الأولى إلى أنّ الجزائر كانت في هذه الفترة مستقلة في إتخاذ قرارها عن أوامر الباب العالي.

استمرت المفاوضات بين الجانبين لمدة عام كامل من الاتصالات ومحاولة تقريب وجهات النظر وفق شروط مرضية للطرفين إلى أن تم إعلان السلام بين البلدين في 17 شعبان 1200هـ/14 جوان 1786م وقد تضمنت المعاهدة خمسة وعشرون بندا[2] وزعت على العديد من القضايا والمسائل الشائكة بين البلدين أمنيا سياسيا واقتصاديا ومن بين بنودها ما يلي:

- إيقاف القرصنة وإمكانية دخول التجار الإسبان إلى الموانئ الجزائرية.
- دخول تجار الجزائر إلى موانئ إليكانت ومالقا وبرشلونة.
- تحديد الرسوم الجمركية.
- إيفاد قنصل إسباني إلى الجزائر يكون مسؤولا عن حل الخلافات مع الجزائر[3].

إنّ تغير السياسة الخارجية الإسبانية مع دول المغارب ظهرت بعد تولي الوزير الأول " دي فلوريدا بلانكا "(1777م-1792م). في عهد الملك كارلوس الثالث وابنه " كارلوس الرابع "، حيث كان يميل لسياسة المهادنة، فتم عقد معاهدات قبل الجزائر إبتداءا من سنة 1782م ومعاهدة السلام مع المغرب الأقصى[4] في عهد السلطان " محمد بن عبد الله " سنة

---

[1] التر ،المرجع السابق، ص 539.

[2] وللإطلاع على كل بنود الإتفاقية، ينظر : يحي بوعزيز، **الموجز**...، المرجع السابق، ص ص 88-94.

[3] عباد، المرجع السابق، ص 171.

[4] يلخص الباحث والمؤرخ المغربي إبراهيم حركات العلاقات المغربية الإسبانية خلال القرن الثامن عشر بقوله:" لقد كانت العلاقات مع هذه الدولة (إسبانيا) أقل نشاطا للعلاقة مع فرنسا وإنجلترا، فمن جهة يوجد المغرب في حالة حرب مع إسبانيا بسبب ثغوره المغتصبة (سبتة ومليلة) ومن جهة أخرى فإنّ العلاقات التجارية التي كان يفترض أن تكون أوسع نطاقا مع

1782م، ومعاهدة مع الدولة العثمانية في نفس السنة، ومع إيالة طرابلس الغرب[1] سنة 1784م، وطالب الإسبان من الجزائر بعد توقيعهم لمعاهدة 1786م توسط محمد بن عثمان باشا لإبرام الصلح مع تونس[2].

4-5-إستكمال السيادة الترابية :

رغم الاتفاق الجزائري الإسباني وإنهاء الصراع بين البلدين من خلال معاهدة جوان 1786م، إلاّ أن السلطة في الجزائر لم تتخلى عن المحاولة من أجل تحرير وهران والمرسى الكبير نهائيا من الإحتلال الإسباني،فضرب الجزائريون حصارا على مدينة وهران مرة أخرىخاصة بعد حدوث زلزال مدمر في وهرانكان ذلك في يومي 8 و 9 أكتوبر سنة 1790م وخلف خسائر كبيرة، بحيث خرّب ثلثي المدينة وقتل أزيد من ثلاثة آلاف شخص من سكانها الإسبان فأصيبت الحصون والقلاع والكنائس بأضرار بالغة، وهو مااستغله محمد بن عثمان فضيق الحصار على ما بقي من أفراد الحاميةالإسبانية والذي بلغ 1526 رجلا[3] ، وفي سنة 1791م بعد عدم التفاهم مع الإسان خلال المفاوضات بين الداي محمد عثمان باشا والملك الإسباني كارلوس الرابع حاولت القوات الجزائرية المحاصرة للمدينة تشديد الخناق على الإسبان فنشب الصراع بين الطرفين في جبل المائدة وتم خلاها حرقالبرجين الكبيرين: برج العيون والبرج الجديد ناهيك عن الخسائر المادية والبشرية في صفوف الاسبان، ولمّا استعصى الفتح عن محمد الكبير قام بتغيير القتال إلى البرج الأحمر، وخلال ذلك توفي الداي

كل من إسبانيا والبرتغال، ظلّت خاضعة للهيمنة التي فرضتها إنجلترا بمراقبتها للملاحة البحرية"، ينظر: إبراهيم حركات، ، المرجع السابق،ج3، ص 58.

[1] اختلفت العلاقات الإسبانية الطرابلسية عن علاقات إسبانيا بالجزائر مثلا فقد ساد الود ولم تصل إلى القطيعة والحرب بين الطرفين طوال القرن الثامن عشر، فبعد طرابلس ووقوع إسبانيا في اقصى مسرح العمليات البحرية الليبية ساهم في عدم الاحتكاك المباشر الذي دائما ما يؤدي إلى التوتر والقطيعة، ينظر: سالم الطويل، المرجع السابق، ص 112.

[2] يحي بوعزيز،" **إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس**"، مجلة دراسات تاريخية، ع 4،الجزائر، 1988م، ص ص 53-55. وينظر:ألفونص روسو، المرجع السابق، ص 262

[3] يحي بوعزيز، **مدينة وهران عبر التاريخ**، ط.خ، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 64، وينظر يحي بوعزيز، **علاقات**...، المرجع السابق، ص 103.

محمد بن عثمان باشا في 12 جويلية 1791 وخلفه حسن باشا[1]، واستمرت حروب الاستنزاف طوال فصلي الربيع والخريف من سنة 1791م بين الإسبان والجزائريين تخللتها معارك طاحنة في شهري ماي وجويلية.

عرفت إسبانيا أنّه بات من الصعب عليها الاحتفاظ بقاعدتي وهران والمرسى الكبير وتحولت هاتين القاعدتين إلى عبء يستنزف القدرة الإسبانيةوحاولت الحصول على شروط ملائمة للصلح وتم توقيع المعاهدة في يوم 9 ديسمبر من سنة 1791م[2] من أبرز بنودها مايلي:

- تنسحب إسبانيا من وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط.
- يدفع الإسبان للجزائر مبلغ 120.000 فرنك فرنسي.
- تستعيد الجزائر ما أخذ منها خلال احتلال وهران عام 1732م.
- تحمل سفينة اسبانية بصفة رسمية إلى استانبول مفتاحين ذهبيين رمز استسلام وهران والمرسى الكبير مع جرتين من ماء عيون وهران للخليفة السلطان العثماني، كبشرى للفتح وتأكيده للرابطة مع دولة الخلافة.

وتقبل الجزائر مقابل ذلك مايلي:

- أن يكون لإسبانيا مركز تجاري في بلدة " جامع الغزوات".
- وأن تبتاع من البلاد الجزائرية 3000 كلية من القمح سنويا
- وأن تباشر صيد المرجان في الساحل الغربي الجزائري[3].

لقد كان تحرير وهران والمرسى الكبير من أهم أحداث أواخر القرن الثامن عشر في بلاد المغارب عموما وفي الإيالة الجزائرية خصوصا لما يمثله من أبعاد على جميع المستويات

---

[1] بلبروات بن عتو،المقال السابق ، ص267.(ينظر الملحق رقم 15.)

[2] العسلي، **الجزائر والحملات** ...، المرجع السابق، ص 156.

[3] المدني، **حرب الثلاثمائة**...، المرجع السابق، ص 526.

فهو يمثل إنهاء الإحتلال الإسباني لآخر منطقة من الجزائر، وبالتالي توحيد البلاد من الشرق إلى الغرب واستكمال السيادة الترابية للجزائر.

وهكذا يبدوا بأنّ علاقات المغارب بأوروبا خلال القرن الثامن عشر عموما تميزت بالتوازن العام ففترة ما بين(1705-1792م) لا يمكن أن توصف إلاّ بتعبير ساد مؤخر هو تعبير (حالة اللاسلم واللاحرب) ولعلّ السبب الرئيسي فيها يكمن في غياب السيطرة الواضحة والكلّية على مياه المتوسط لأيّ طرف من الأطراف المطلّة على هذا المسطح المائي المهم. إذ بعد انحسار القوة البحرية الإسبانية في النصف الثاني من القرن السابع عشر والتي كانت في صراع مستمر مع القوى العثمانية تعادلت الكفة بين فرنسا وبريطانيا في الشمال، وبقيت الجزائر في الجنوب قوة بحرية لا يستهان بها استطاعت أن تجعل إسبانيا تهرع إلى طلب الصلح والسلم بينهما في أواخر هذا القرن . وإلى جانب هذه القوى الثلاث شهدت مياه البحر المتوسط حشدا كبيرا من القوى البحرية الأخرى كالإنجليز والاسكندنافيين والدويلات الإيطالية والتونسيين والليبيين والمغاربة، ومع هذا لا يمكن إنكار ونفي تفوق الدول الأوروبية البحري على دول المغارب، وهو ما دفع طرابلس الغرب وتونس والجزائر والمغرب الأقصى إلى استخدام العوامل التجارية كالامتيازات، وإقامة المراكز التجارية والوسائل الدبلوماسية كالمفاوضات والمعاهدات والتحالفات المختلفة التي لم تجسد على أرض الواقع، إلى جانب العوامل العسكرية في تعاملها مع الدول الأوروبية[1]. والملاحظ خلال فترة(1705-1792م) غياب تحالفات فعّالة كما كانت في القرن السادس عشر كان يمكنها أن تؤثر على موازين القوى البحرية في المتوسط.

---

[1] منصور أحمد أبو خمسين،"**استرقاق الأسرى وأثر ذلك في العلاقات بين دول المغرب وأوربا خلال القرن الثامن عشر**"، مجلة العصور، مج7، ج1، يناير 1992/رجب 1412هـ، دار المريخ للنشر، لندن، بريطانيا، ص ص 61-67.

الخاتمة

بعد هذا العرض لمختلف مظاهر الصراع الذي شهدته بلاد المغارب في إطار تلك التحالفات القائمة بين عديد الأطراف الداخلية والخارجية خلال الفترة ما بين (1520-1792م) وما كان لها من تداعيات على توازنات القوى إقليميا وحتى دوليا، توصلنا إلى مجموعة من الاستنتاجات و المقاربات التاريخية المهمة، وهي كما يلي:

1- شهدت بلاد المغارب قبل سنة 1520م جملة من الأحداث والتطورات السياسية والعسكرية تمثلت أساسًا في البداية بسقوط دولة الموحدين وإنقسام المغارب إلى ثلاث دول هي الدولة الزيانية بالمغرب الأوسط والدولة المرينية بالمغرب الأقصى، والدولة الحفصية بالمغرب الأدنى.

2- إنّ الغزو الإسباني والبرتغالي لبلاد المغارب وفشل الزيانيين وقبلهم الحفصيين والمرينين وبعدهم الوطاسيين في التصدي له، وميلهم إلى مهادنة الأوروبيين عجّل ببروز القوى الدينية على المسرح السياسي لقيادة المقاومة ضد المحتلين وملء الفراغ الذي أحدثه ضعف الحفصيين والزيانيين والمرينيين وتحالف تلك القوى مع طلائع العثمانيين الذين كانوا يجوبون الحوض الغربي للمتوسط ويتصلون بهم، وأدى ذلك إلى استقرارهم في المغرب الأوسط.

3-تأثرت بلاد المغارب بالصراعات الداخلية والإقليمية وأيضا بما حدث في الأندلس بعد سنة 1492م، حيث شهدت أحداثا وتطورات سياسية وعسكرية ساهمت في ظهور قوى جديدة على الساحة المغاربية سواء من الداخل، وكان أبرزها القوى الدينية التي عملت على صد الغزو الأيبيري في ظلّ ضعف السلطة الحاكمة، كما برزت قوى خارجية في المنطقة تمثلت أساسا في الأتراك العثمانيين الذين ساهموا بالتعاون والتحالف مع الأهالي بدافع الرابط الديني للحد من أطماع الأوروبيين في المنطقة وخاصة الإسبان. فكان تأسيس أول إيالة عثمانية بالمغرب الأوسط(الجزائر).

4-إنّ الوضع السياسي الحرج الذي كانت تعيشه بلاد المغارب مع مطلع القرن 10هـ/16م من حالات الفوضى والانقسام وعدم الاستقرار السياسي، قد أدّى إلى عرقلة النشاط الاقتصادي، وتردّي الوضع الاجتماعي بها، كما أنّ الاختلال في موازين القوى بين ضفتي المتوسط كان عاملا مساعدا على تنفيذ المشروع الاستعماري المسيحي الذي قادته إسبانيا بعد أن استكملت وحدتها السياسية والقومية.

5-أصبحت بلاد المغارب من حجر بادس غربا إلى طرابلس شرقا منطقة صراع متعدد الجبهات و مختلف من حيث أسبابه، فالصراع الديني كانت مظاهره جلّية تمثلت في صراع إسلامي مسيحي، ومن خلاله صراع المصالح الاقتصادية التجارية ومناطق النفوذ في ظل التحالفات الإستراتيجية الجديدة التي أوجدتها الظروف خلال النصف الأول من القرن السادس عشر.

6-التقارب الفرنسي العثماني الذي طغى عليه الجانب الاقتصادي التجاري وهو ما انعكس في قيام علاقات مغاربية فرنسية، بما أنّ جزء من بلاد المغارب يخضع لسيطرة الإمبراطورية العثمانية وهو ما استغله العثمانيين في كسر شوكة الصليبيين وتفريقهم.

7- كانت الدولة الحفصية في الغالب تتحالف مع الإسبان والصليبيين عموما لأنّ الحكام الحفصيين شغلهم الشاغل الحفاظ على السلطة وهو ما حدث في تونس ومعاهدة 1535م مع الإسبان وهو ما استغله الصليبيين أيضا في تفريق وحدة المسلمين والدفاع عن البلاد الإسلامية.

8- سلك المغرب الأقصى في الغالب سياسة الانعزال والانغلاق تجاه محيطه الإقليمي، مع وجود بعض مظاهر التعاون الوطاسي الجزائري العثماني عكس السعديين الذين دخلوا في صراع مع العثمانيين في بداية حكمهم للمغرب الأقصى ورفضوا التبعية للعثمانيين، وهو ما أدّى إلى قيام تحالفات بين بعض حكام المغرب الأقصى والإسبان.

9- يرجع الفضل إلى طرد الصليبيين الإسبان من بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) للعثمانين بعدما تحالفوا مع الجزائريين خلال النصف الأول من القرن 10هـ/16م وبروز الجزئر كقوة إقليمية خاصة بعد الانتصار على التحالف الأوروبي في سنة 1541م، وهو ما كان له تأثير في تحرير طرابلس الغرب وتونس على التوالي، حيث ساهم في هذا الإنجاز عدّة شخصيات بارزة على غرار الإخوة بربروس، درغوث رايس، سنان باشان العلج علي وغيرهم.

10- بتحرير طرابلس الغرب في سنة 1551م و تونس من الإسبان سنة 1574م لتصبحا إيالتين عثمانيتين وسقوط الدولة الحفصية نهائيا بعد سقوط الدولة الزيانية تراجعت حدّة الصراع الذي احتدم خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر بين الدولة العثمانية التي رفعت راية الجهاد والدفاع عن البلاد الإسلامية المغاربية في الحوض الغربي من المتوسط، والإمبراطورية الإسبانية التي رفعت لواء الحروب الصليبية للتوسع في الضفة الأخرى.

11- بعد عقد معاهدة الصلح بين الدولة العثمانية وإسبانيا في سنة 1580م والتي جددت في سنوات 989هـ/1581م و 992هـ/1584م، و 995هـ /1587م توّجهت اهتمامات الدولة العثمانية ومصالحها إلى منحى آخر، إذ لم تعد حروب التحالفات مع استمرار الحروب مفتوحة بين إيالة الجزائر واسبانيا في كلّ من وهران والمرسى الكبير اللذان كانا تحت وطأة الإحتلال الإسباني.

12- بيّنت الدراسة أنّ معركة ليبانت أسّست لنوع من التوازن الإسترتيجي النسبي بين أوروبا المسيحية وعالم الإسلام أي من رجحان الموقع الإسلامي إلى توازن القوى، وذلك التوازن سيبدأ من نهاية القرن السادس عشر، فمعركة ليبانت كانت مثالا للتضامن المغاربي مع العثمانيين في حروبهم خلال الفترة المدروسة ككل.

13- وضّحت الدراسة أنّه وبالرغم من الصراع المحتدم على السلطة في الأسرة السعدية إلاّ أنّ المغرب الأقصى استفاد من التوازنات الجديدة في بلاد المغارب خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر، ولعب على ثنائية الوازع الديني والمصلحة المشتركة في كثير من الأحيان ولو على حساب العامل الأول في بعض الفترات، ليظهر في آواخر القرن كقوة إقليمية يمكنها التنافس على مستويات مختلفة وبسط النفوذ في المنطقة.

14- أكدّت الدراسة أنّ بعض الدول استفادت من التوازنات الجديدة في بلاد المغارب من خلال ربط معاهدات واتفاقيات مع الفاعلين في هذه المنطقة الاستراتيجية، ولعلّ أبرزهم فرنسا المتحالفة مع الدولة العثمانية، وهو ما مكنّها من النفوذ سياسيا وتجاريا خاصة في الجزائر وتونس.

15- لقد حملت فترة القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر مجموعة من الأحداث السياسية والعسكرية في بلاد المغاربعبّرت عن تلك التوازنات التي تشكلّت خلال القرن السادس عشر، حيث لم نشهد تغيرات جذرية على مستوى الخارطة السياسية المغاربية بالرغم من كل تلك التجاذبات بين الأطراف الفاعلة في المنطقة.

16- بقي النظام العثماني في كل من إيالات الجزائر وتونس طرابلس الغرب مسيطرا على الأوضاع على الرغم من التغيرات التي شهدها نظام الحكم في هذه الإيالات التي حاول بعض حكامها الإنفراد بالسلطة والاستقلال عن الدولة العثمانية خلال فترات زمنية متفاوتة، ساهمت فيها عديد العوامل لعلّ أبرزها بعد السلطة المركزية في استانبول عن بلاد المغارب، بالإضافة على انشغال العثمانيين بالحروب في أوروبا، كما كان ضعف بعض السلاطين عاملا مهما في تمرد بعض حكام الإيالات المغاربية. ومع ذلك لم تمنع هذه الأحداث من التعاون والدعم المغاربي في حروب الدولة العثمانية.

17- لعبت مسألة الجهاد البحري أو ما عرف بالقرصنة أبرز مظاهر الصراع المغاربي الأوروبي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر والتي شهدت نشاطا مكثفا من دول

الحوض الغربي للمتوسط ومن خارجه، فكانت مراكز حركة الجهاد البحري في بلاد المغارب سدا منيعا في وجه الحملات الأوروبية التي كانت في بعض الفترات عبارة عن تحالف صليبي، إضافة إلى أنّ الأساطيل المغاربية تحالفت ضد الأوروبيين في كثير من العمليات الجهادية البحرية ردّا على الإعتداءات الأوروبية في المنطقة.

18- إنّ التنافس والصراع الذي شهدته أوروبا خلال القرن السابع عشر كان في صالح المغاربة الذين لم يستغلوا هذا الظرف من أجل إنهاء الاحتلال الأوروبي لبعض المناطق المغاربية، بل حاول بعض الحكام بالمغارب التحالف مع الأوروبيين أنفسهم ضد جيرانهم لأجل أهدافهم التوسعية ولو على حساب المصلحة العامة للمسلمين وإسماعيل العلوي أبرز النماذج.

19- عرف العقد الأخير من القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر صراعا مريرا بين دول المغارب كان في شكل تحالفات لم يستفد منها أي طرف، بل على العكس من ذلك إستنزف القدرات العسكرية المغاربية التي كان يمكن توجيهها ضد الدول الأوروبية الطامعة في السيطرة السياسية والعسكرية والاقتصادية في المنطقة.

20- رغم إستقلال الجزائر وتونس وطرابلس الغرب سياسيا عن الباب العالي إلّا أنّ التحالف العسكري بينهم استمر خلال القرن الثامن عشر.

21- إنّ استقلال الإيالات المغاربية عن الدولة العثمانية وتحسن علاقات هذه الأخيرة بالدولة العلوية بالمغرب الأقصى لم يؤثر كثيرا في التوازن الإقليمي في بلاد المغارب وكذلك الحال في انعكاساته على علاقات كل من الجزائر وطرابلس الغرب وتونس بالمغرب الأقصى الذي هو في إطار صراع التحالفات، إلاّ أننا لاحظنا تحسن العلاقات الجزائرية المغربية في مجملها واختلفت عمّا كانت عليه سابقا من صراعات مستمرة ساهمت فيه أيضا الظروف الدولية السائدة خلال تلك الفترة.

22- أثبتت استقلالية إيالات المغارب عن الباب العالي منذ مطلع القرن 11هـ/17م بأنّ علاقات الجزائر وطرابلس الغرب وتونس بالدولة العثمانية كانت علاقات تحالف وتعاون وتضامن وليس استعمار كما روّج له بعض المؤرخين الأوروبيين.

23- إنّ تدخل العثمانيين في بلاد المغارب رغم ما كان له من إيجابيات كثيرة تمثلت في إنقاذ بلاد المغارب من الاستعمار الأوروبي بشكل عام والفرنسي خاصة خلال الفترة ما بين(1520-1792م)، إلاّ أنّه أنهى فكرة توحيد دول المغارب مرة أخرى منذ سقوط الموحدين، وهو ما سينعكس على ما سيحدث في فترة الاحتلال الفرنسي بداية من سنة 1830م.

24- تأثرت بلاد المغارب بما كان يحدث في الضفة الشمالية من المتوسط بالتحالفات والصراعات، فالصراع الأوروبي من خلال تلك الحروب يجعل المغاربة في أحسن رواغ لفرض الشروط على بعض دول أوروبا مثلما حدث مع إسبانيا في أواخر القرن الثامن عشر، ومع هذا لم يستفد المغاربة من إنشغال أوروبا بحروبها.

25- مثّلت التوازنات الموجودة بين القوى البحرية في الحوض الغربي للمتوسط الحماية ضد الحملات الأوروبية التي تعرضّت لها بلاد المغاربفي كثير من الأحيان، خاصة خلال القرن الثامن عشر.

26- إنّ كلّ تلك الصراعات والتحالفات بين دول المغارب وأوروبا من جهة، ومعاهدات السلم بينهما من جهة أخرى أدّت إلى خلق توازن بين الضفتين الشمالية والجنوبية من حوض البحر الأبيض المتوسط خلال الفترة ما بين (1520-1792م).

هذه أهم الإستنتاجات التي توصلت إليها من خلال دراسة هذا الموضوع، و من المؤكد أنّ البحث في ثنايا موضوع مظاهر التحالفات والصراعات ببلاد المغارب وأثرها في توازن القوى خلال الفترة (1520-1792م) ما يزال مفتوحا للباحثين، ويحتاج إلى الغوص أكثر في جوانب متعددة منه خاصة للفترة الزمنية الطويلة وكذلك الرقعة الجغرافية الواسعة التي شملت

بلاد المغارب كلّها، وبالإمكان أيضا دراسة مظاهر التحالفات والصراعات خلال الفترة ما بعد مؤتمر فينا في سنة 1815م وتأثيراته على التوازن العام في بلاد المغارب.

الملاحق



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد

ومما كتبه بعض اهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان ابي يزيد خان العثماني رحمه الله تعالى ما نصه

سلام كريم دائم متجدد أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه قسطنطينية أكرم بها من مدينة
سلام على من وسع الله ملكه بجند وأتراك من أهل الرعية
سلام عليكم شرف الله قدركم وزادكم ملكا على كل ملة
سلام على القاضي ومن كان مثله من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى ومن كان ذا رأي من أهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس بالغرب في أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم مصاب عظيم يا لها من مصيبة
سلام عليكم من شيوخ تمزقت شيوبهم بالنتف من بعد العزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت على جملة الأعلاج من بعد ستره
سلام عليكم من بنات عواتق يسوقهم اللباط قهرا للخلوة
سلام عليكم من عجائز أكرهت على أكل خنزير ولحم جيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم وندعو لكم بالخير في كل ساعة
أدام الله ملككم وعزكم وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا وأسكنكم دار الرضى والكرامة
شكونا لكم مولاي ما قد أصابنا من الضر والبلوى وعظم المصيبة
غدرنا ونصرنا وبدل ديننا ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبي محمد نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقى أمورا في الجهاد عظيمة بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقى جموعهم فنقتل فيهم فرقة بعد فرقة
وفرسانهم تزداد في كل ساعة وفرساننا في حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ومالوا علينا بلدة بعد بلدة
وجاؤوا بأنفاط عظام كثيرة تهدم

الملحق رقم(01): رسالة مسلمي الأندلس إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني[1].

[1]مخطوط تحت رقم 1620، المكتبة الوطنية الجزائرية.

« الحضرة العلية ، وصل الله سعادتها ، وأعلى كلمتها ، ومهد أقطارها ، وأعز انصارها ، وأذل عداتها ، حضرة مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، قامع أعداء الله الكافرين ، كهف الاسلام ، وناصر دين نبينا محمد عليه السلام ، محيي العدل ، ومنصف المظلوم ممن ظلم ، ملك العرب ، والعجم ، والترك والديلم ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ، ملك البرين وسلطان البحرين ، حامي الذمار ، وقامع الكفار ، مولانا وعمدتنا ، وكهفنا وغيثنا ، مولانا أبو يزيد ، لا زال ملكه موفور الأنصار ، مقروناً بالانتصار ، مخلد المآثر والآثار ، مشهور المعالي والفخار ، مستأثراً من الحسنات بما يضاعف الله به الأجر الجزيل ، في الدار الآخرة ، والثناء الجميل ، والنصر في هذه الدار ، ولا برحت عزماته العلية مختصة بفضائل الجهاد ، ومجرد على أعداء الدين من بأسها ، ما يروي صدور السحر والصفاح ، وألسنة السلاح باذلة نفائس الذخائر في المواطن التي تألف فيها الأخاير مفارقة الأرواح للأجساد ، سالكة سبيل السابقين الفائزين برضا الله وطاعته يقوم الأشهاد . بعد ذلك سرد أبيات القصيدة يمدح فيها الدولة العثمانية والسلطان بايزيد ، وعلى كرم الله الدولة ، وأعز بها المسلمين ، ويدعو للدولة بدوام البقاء قائلاً :

سلام كريم دائم متجدد	أخص به مولاي خير خليفة
سلام على مولاي ذي المجد والعلا	ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع الله ملكه	وأيده بالنصر في كل وجهة
سلام على مولاي من دار ملكه	قسطنطنية أكرم بها من مدينة

ترجمة الملحق رقم (01)[1]

[1]نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 127.

مترجم مكتوب قاضي وخطيب وفقها وائمة وتجار واعيان وكافة رعايا وعامة برايايي مدينة جزاير

الملحق رقم(02): رسالة أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول:[1]

[1] عبد الجليل التميمي ،"أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الاول سنة **1519**،المقال السابق، ص**121**.

رسالة القاضي والخطيب والفقهاء والأئمة والتجار والأمناء وكافة سكان مدينة الجزائر العامرة

إننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية. دعاء يبلغها أقصى الأماني، فإن عبيدها بالجزائر يكتبون إلى مقامها العالي معبرين ومعترفين. وإن رسالتنا هذه لا تستطيع أن تستعرض كل الأسرار. وإن سعادة أيامكم هي قوتنا. ونحن لزمام أموركم وطاعتكم مستبشرين وعليكم لا محالة اعتمادنا. فقد أطعنا أمركم، وعبيدكم ليس لهم غير جنابكم، يرفعون إليه غاية الإجلال والتقدير وليس لهم قصد غير شريف مقامكم العالي.

لقد جرت حوادث جليلة، ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله. ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس انتقلوا منها إلى قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد. غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة وسط الدائرة. وبقينا كذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب. ولكن تمسكنا بحبل الله المتين، واتكلنا عليه. غير أن طائفة الطاغية شددت علينا الطلب هادفة إدخالنا تحت ذمته. وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وأن الضرورة تقضي بحقن دماء أنفسنا وخفوا على حريمنا وأموالنا وأولادنا من السبي

ترجمة رسالة الملحق رقم (02)[1].

[1] محمد دراج، المرجع السابق، ص 395.

والتفريق تصالحنا مع أهل التثليث، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار إلى وهران وبجاية وطرابلس. وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة.

آنذاك قدم ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهد في سبيل الله أوروج باي مع ثلة من الغزاة. فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه لأننا كنا في خوف من عدونا فخلصنا بفضل الله. وأرورج باي المشار إليه جاءنا من تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار(واتصل) بالمسلمين. فلما وصل إلى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبي العباس أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنيانها وشاهد الكفار عندما دخل المسلمون القلعة، وهاجموهم واستولوا عنوة على برج منها، اختلال بنيانهم وقرب حتفهم.

لقد حارب المسلمون الكفار آناء الليل وأطراف النهار، من طلوع الشمس إلى غروبها. وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة أروج القتال بقي المشال إليه يقاتل الكافر مع جماعة قليلة. وكان قد عزم على لقائنا غير أنه وقع شهيدا في حرب تلمسان.

وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله، أبو التقى خير الدين.وكان له خير خلف، فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف واتباع الشرع النبوي الشريف. على أن محبتنا له خالصة، ونحن معه ثاتبون. كيف لا نحبه وهو المشمر على ساعد الجدّ والإقدام.

ومفاد ما يريد عبيدكم إعلامه لمقامكم العالي هو أن خير الدين

تابع لترجمة الملحق رقم(02)[1]:

[1] محمد دراج، المرجع السابق، ص 396.

كان قد عزم قصد جنابكم العالي، إلا أن عرفاء البلد المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل ونحن على غاية الضعف والبلاء.

لهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس سي أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق في خدمة مقامكم العالي. وأن المذكور حامل المكتوب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هذه البلاد من حوادث والسلام.

أوائل ذي القعدة 925هـ

تابع لترجمة الملحق رقم (02)[1]

[1] محمد دراج، المرجع السابق، ص 397.

الملحق رقم (03): الصفحة الأخيرة من معاهدة الإسبان والملك الحفصي في سنة 1535م[1].

[1] المدني أحمد توفيق: حرب الثلاثمائة ....، المرجع السابق، ص 235.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفترى رقم 10 صحيفة 4 حكم رقم 6

كتب بتاريخ 2 / 1 / 979

حكم الى امير امراء طرابلس الغرب

ورد الى سدة سعادتنا خطابك الذى تعلم فيه بان الكفار قد
حشدوا حشودا عظيمة ، وانهم على اتصال واتحاد بالكفرة المجاورين لهم من
الجهات الاربع وبناء عليه تعلم بوجوب سرعة وصول الاسطول الهمايوني ، نظرا
لتوقع غزوهم لـ (قلعة) تونس وسائر القلاع الاخرى وجاء في خطابك ايضا
ان المدعو يوسف ، احد رجال علوج علي بك الذى كان اسيرا بيد الكفار في
مالطه قد عاد بخبر من قبودان (مجليه) الكافر المدعو دون دولت ، الذى
كان اسيرا بيده ، مفاده ان الاسطول المهور التابع للكفار اصابهم الدمار مرابط
على اهبة الاستعداد وبكامل معداته في مدينة بارقه (   ) تحت امرة
شقيق امبراسبانية الملعون وان الكفار مصرون على غزو تونس في حالة
هجوم الاسطول الهمايوني عليهم وان جميع ماورد في خطابك اصبح معلوما
لدينا ولقد ابحر الاسطول الهمايوني باتجاه تلك الاطراف ، وامرت :
ان تستعد حال وصول الحكم ، وان تجد وتسعى في حفظ وحراسة
الولاية والبلاد وان تقوم بتعمير وترميم القلاع الواجب تعميرها وترميمها و
عليك بتجهيز المدافع ، وتثبيت مواقعها ، وكذلك اعداد وتهيئة كافة الاسلحة
والباوود وسائر المعدات الاخرى وكن دائما على اهبة الاستعداد ولا تتوانى
عن ارسال الاخبار الصحيحة التي ترد عن العدو وندعو الحق سبحانه وتعالى
ان يذل الكفار ويكيدهم وان يلحق بهم الدمار وان ييسر ويهب النصر لاهل الاسلام
المظفرين .

تعريب : محمد داود التميمي

الملحق رقم (04): رسالة من السلطان العثماني سلم الثاني إلى أمير أمراء طرابلس الغرب[1]

[1]مهمة دفتري، رقم10، ص 4، حكم 6، بتاريخ 979/1/2هـ.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الامانة العامة



الجزائر في

مهمة دفتري رقم 10 صحيفة 17 حكم رقم 19

كتب بتاريخ 12 / 1 / 979

اعيد الى محمد جاووش في 3 صفر 979

حكم الى الوزير برتو باشا

حال سماع الكفار - اصابهم الدمار - بخبر توجه اسطولي الهمايوني الى جوانب كورفوس (   ) فان احتمال هجوم بعض اللعناء الاسبان - هزمهم الله - على جزائر الغرب وتونس يصبح امرا مؤكدا لذا فان حفظ وحراسة تلك الاطراف غدى من اهم الامور ولقد سبق ارسال حكمي الهمايوني بشأن التعاون لدفع مضرة الاعداء والبقاء عينا ساهرة واذنا واعية تجاه تلك الاطراف وان ذلك الامر الشريف لا يزال معتبرا كما كان عليه كذلك فقد ارسل حكمي الشريف بهذا الخصوص الى علي دام اقباله امير امراء جزائر الغرب وفي حال تجاوز بعض الكفار اصابهم الدمار على ولايتي تونس والجزائر فعليكما بالسعي البليغ لدفع مضرة وفساد الاعداء باي شكل كان كما جاء في حكمي الشريف السالف الذكر وامرت :

حال وصول الحكم ان تكونوا على بصيرة وانتباه لانه اصبح في حكم المقرر من جانب عبدهم الدين اللعين محاولة اغتنام فرصة خلو ذلك (الجانب) الجانب من سفنه والحاق الضرر والخسائر بتلك الاطراف فعليك بالتشاور بالامر مع القبودان والسردار اليه علي - دام اقباله - ولتظهروا اقدامكم واهتمامكم بالشكل الذي تراه مناسبا لدفع ورفع مضرة العدو اللئيم عن تلك الجوانب وتعلمنا عن اليوم والطريقة التي وصلت فيها هذا الحكم .

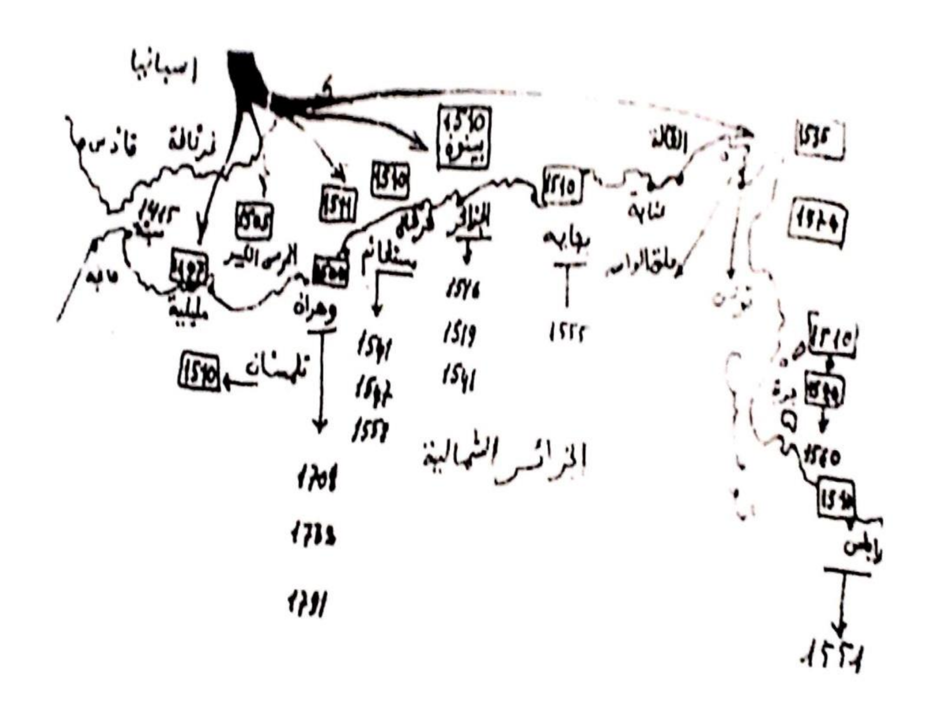
وفيما اذا اقتضى الامر فلتلحق جانبك مئة وعشرين (120) سفينة عدا بعض اللوند ولترسل ماتبقى الى الجزائر مع القبودان. اما اذا اتحد الاسبان مع البندقانيين فلا تحل الاسطول .

تعريب : محمد داود التميمي

الملحق رقم (05): رسالة من السلطان سليم الثاني إلى برتو باشا[1]

---

[1]مهمة دفتري، رقم10، ص 17، حكم رقم 19، بتاريخ 979/1/12هـ.



الملحق رقم (06): التحرشات الإسبانية على موانئ الشمال الإفريقي خلال القرن 16م[1].

---

[1] **يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية...، المرجع السابق، ص 29.**

رئـاسـة الجمهـورية

الأمـانـة العـامـة

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

الجـزائـر فى :

مهمة د فترى رقم 21 صحيفة 266 حكم رقم 637

بتاريخ في 930/12/16

اعطى الى كتخداء في 27 ذى القعدة

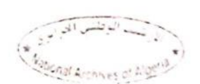
حكم الى امير امراء جزائر الغرب و الى امرائها و سائر عيانها

لقد عزمنا على تجهيز و أنزال اسطولنا الهمايوني العظيم الى البحر بهدف ارساله الى حلق الوا- و سائر القلاع الحربية هناك ، متوكلين على الله الملك المتعال و ذلك في هذه السنة الخيرة ، وقد سطرت أحكام شريفة مفصلة الى قيوداني قليج علي — دام اقباله — امير امراء الجزائر (جزائر بحر سفيد) بشأن الاماكن التي سيتجه اليها الاسطول .

وبناء على ما هو مضمور في جبليتك من حمية و غيرة على دين سيد المرسلين عليه الصلاة و السلام فالمطلوب منك هو اعداد و تجهيز الابطال من الرجال بكامل العدة والعتاد والذخيرة منذ الآن ، وبعد وضع رجال للمحافظة على الجزائر ، فان توجهك الى المكان المحدد لترقب و ملاقاة اسطولنا الهمايوني امر من واجبات الدين و الدولة و امرنا :

حال وصله ، يجب على كل واحد منكم ابراز قوته ، و عليك بالوقوف على اهبة الاستعداد انت و من معك من عساكر — دار الجهاد — الجزائر المنصوره بكامل بنادقهم و عدتهم و عتادهم و ذخيرتهم لترقب اسطولنا الهمايوني ، و فور وصول قيوداني المشار اليه الى تلك الاطراف — بمشيئة الله الاعز — ينبغي ان تصبح معه على حسن اتفاق و اتحاد و ان تواجد قلبيكما و وجهتيكما ، كي تتنكنا حال اوان الفرصة من الهجوم على مواقع اعداء الدين لتاذيبهم ، و ذلك حسبما جاء في الاحكام الشريفة الصادره للمشار اليه ، و على الوجه الذى يراه مناسبا .

فعليك بانواع السعي و الاقدام و الاهتمام بمصالح الدين المبين ، و عليكما ببذل المقدور لتحصيل ما من شانه تيسر و جهيكما ، و ان كل من سيشارك و يبذل خدماته في سبيل الجهاد ، سيحف بانواع عنايتنا و عطفنا ، و ستحقق اماله انشار الله تعالى ، و عليه ، يجب ترغيب و استمالة ابطال الجزائر الشجعان و تحريضهم على القتال .



تعريب محمد داود التميمي

الملحق رقم (07)رسالة من السلطان سليم الثاني إلى القبودان علج علي[1] .

[1]مهمة دفتري رقم 21، ص 266، حكم 637، بتاريخ 980/12/16.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفتري رقم 21 صحيفة 213 حكم رقم 509

بتاريخ في 980/11/21

اعطي الى كتخداه في الديوان في 18 / ذي القعدة

حكم الى القبودان

ارسلت خطابا تعرب فيه عن ضرورة ارسال رجل عن جانب كل من امير امراء الجزائر و تونس (جزائر مغرب و تونس) و امير امراء طرابلس الغرب (جزائر طرابلس) قصد التحاق المذكوران بسفنهما باسطولنا الهمايوني .

و بناء عليه ، فقد سطرت احكام شريفة لكل منهما كي يكونا على اهبة الاستعداد للالتحاق باسطولنا الهمايوني .

و قد راسلت هذه الاحكام الى طرفك ، و امرنا بعدم التاخر في ايصال تلك الاحكام الشريفة الى المشار اليهما مع قرصان ماهر في علم البحار ، و التنبيه عليهم بالوقوف رهن الاشارة .

تعريب : محمد داود التميمي





الملحق رقم (08) رسالة من السلطان سليم الثاني إلى القبودان علج علي[1].

[1] مهمة دفتري رقم 21، ص 213، حكم 509، بتاريخ 980/02/4.

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

الجزائر في :

مهمة دفترى رقم 24 صحيفة 91 ـ 92 حكم رقم 246

بتاريخ 981/12/14



اعطى الى اسكندر جاوش في 14 ذى الحجة

حكم الى امير امراء جزائر الغرب

لقد عقدنا النية على ارسال اسطولنا الهمايوني ـ بعناية الله تعالى الى تلك الاطراف في هذه السنة الخيرة ، و نظرا لاهمية اعداد و تواجد عساكر جزائر الغرب المنصورين في هذه المهمة ، فقد امرنا بتجهيز و اعداد ستين فارسا من لواء تتمر ، و مائة فارس من لواء محلعامة (كذا) ، و عشرين فارسا من منطقة سلسل (كذا) و ثمانين فارسا من لواء مدية ، و مائة فارس من رفقاء شومى (كــذا) الموجودين في نفس الجزائر ، و مائة فارس من اغوات المتفرقة (متفرقة غالرى) و من قادة البلوك (بلوك باشتيرى) في الجزائر ، وعشرين فارسا من بوابى (قيوجى) الجزائر ، و اربعين فارسا من جاوشيها (جاوش) ، و خمسة و ثلاثين فارسا من منطقة عمرون (كذا) و اربعماية فارسا من قسنطينة ، و ثمانين فارسا من بسكرة ، و ستين فارسا من بلد عباس (كذا) ، و لنا الف من الانكشارية الاكفاء المسلحين ببنادقهم ، مع قواد بلوكاتهم (بلوك باشيرى) ، و كذلك يجب تواجد القائد محمد ـ دام مجده ـ امير الاى (الاى بكيسر) قسنطينة ، و معه زفاقه الاكفاء التابعين له .

و بذلك يكون مجموع العساكر التي يجب خضورها الف و خمسة و تسعون فارسا و الف انكشارى ، عدا عن امير الالاى المشار اليه و زفاقه ، فيجب اعداد هذه العساكر بكامل عدتها و عتادها منذ الآن ، ووضعها على اهبة الاستعداد بانتظار اسطولنا الهمايوني و امرنا :

بعدم التوانى ـ منذ وصول هذا الحكم ـ و العمل على تهيئة الفرسان و المشاة و كافة العساكر الذين تم تعيينهم بموجب الفرمان ، كما يجب اعداد بنادقهم و سائر معداتهم و لتكن بانتظار اسطولنا الهمايوني ، عند و[illegible] وصوله ، و طلب القائد العام وزيرنا لك شخصيا ، ينبغي تحركك فورا مصطحبا تلك العساكر بشكل مرتب و بكامل العدة و العتاد ، لايصالهم الى المشار اليه ، كي يقدموا خدماتهم على اكمل وجه .

تعريب: محمد داود التميمي

الملحق رقم (09) رسالة السلطان العثماني إلى رمضان باشا[1] .

[1] مهمة دفتري رقم 24، ص 91–92، حكم رقم 246، بتاريخ 981/12/14هـ.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفترى رقم 24 صحيفة 72 حكم رقم 198

بتاريخ 981/12/5

اعطى الى اسكندر جاوش في 15 ذي الحجة 981

حكم الى الامراء و القضاة في السوحل البحر الابيض

لقد تم ارسال قدوة الاماجد و الاكارم مصي (   ) رئيس
— زيد مجدة — قيودان الرؤساء الخاصين في الجزائر الغرب بغرض جمع المتطوعين
و الراغبين في الجهاد من الرؤساء و اللوند في مناطقكم ، بهدف الحاقهم و ايصالهم
مع قاليتاتهم الى وزيرنا سنان باشا الذى عين قائدا عاما لا سطولنا الهمايوني ، و عليه
فقد امرنا :

بالعمل فور وصول الحكم على ترغيب و استمالة كل متطوع شجاع ملسلح في
حكوماتكم ممن ينوى و يرغب بالجهاد في سبيل الله تعالى ، و اذا كان ثمة رؤساء
متطوعين منهم قادرين على بناء القاليتارت ، فيجب معاونتهم و مظاهرتهم بشراء
اللوازم و المهمات لبناء القاليتات ، كي يكونوا جميعا على اهبة الاستعداد لنقلهم
بسفن المتطوعين المجهزة الى حلق الواد التي عقدنا العزم على فتحها — بعناية
الحق جل و علا — و كي يتسنى لهم تقديم خدماتهم في تلك المهمة فلا تمانعوا احدا
في سبيل و سنحف كل من سيشارك و يقدم خدماته بمزيد عنايتنا ، و سنكافىء كل منهم
بنصيبه على مدى الحياة انشاء الله تعالى ، و بناء عليه ، يجب على كل منكم
ابلاغ المذكورين بهذا الامر ، و العمل على ترغيبهم للغزو و الجهاد ، فلا تضيعوا
دقيقة واحدة لأجل ذلك .

تعريب : محمد داود التيمي

الملحق رقم (10):أوامر السلطان العثماني إلى الأمراء والقضاة في سواحل البحر الأبيض المتوسط [1].

---

[1]مهمة دفتري رقم 24، ص 72، حكم رقم 198، بتاريخ 981/12/5هـ.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

مهمة دفترى رقم 9 صحيفة 89 حكم رقم 231

بتاريخ / 24 / 10 / 977

اعطى الى خليل جاوش في 10 ذو القعدة

حكم الى اهالي الاندلس.
وصل الى استانة سعادتنا عرضحالكم الذى جاء فيه بان الكفار
اصابهم الدمار، وجعل الضلالة لهم شعار قد سلبوكم اسلحتكم و منعوكم
من تحدث العربية، وانهم تيعرضون لنسائكم، و يمارسون كل انواع الظلم
والتعدى عليكم. وتعلمون انه يوجد حاليا لديكم عشرين الف رجل مسلح
كما ان هناك مئة الف رجل قادر على حمل السلاح وعلمنا باستلامكم مقدارا
من السلاح من الجزائر وان ذلك قد ربط على قلوبكم وتمكنتم بذلك من تكبيد
الكفار العديد من الخسائر فالحمد الله ولنصير اهل الاسلام، و يكتب لهم
الفوز الدائم على الكفار جعل الضلالة لهم شعار.
وقد عرض بالتفصيل كل ما جاء في عرضحالكم من تحريرات تقريرات
علي سوير سعادتي، واحاط علمي الشريف الملوكي و شمل كل ما يتعلق
باحوالكم واخباركم وان انظارى منصرفة دائما نحوكم ولكن كفرة جزيرة قبرص
القريبة من ممالكي المحروسة والتي كانت على العهد والامان منذ زمان ... د
اجدادى العظام انار الله براهينهم الا انهم نقضوا تلك العهود، واخذوا ...
بالتعدى على التجار واهل الاسلام المسافرين بحرا لطواف بيت الله الحرام
و زيارة تربة حضرة سيد الانام، عليه افضل الصلاة والسلام نجلوص النية و صفاء
الطوية / الطوية و بذلك فانهم مصرون على العصيان والطغيان لذا، فبعد
التوكل والاعتماد على علو عناية الحق سبحانه وتعالى، والتوسل والاستناد
الى المعجزات الكثيرة البركات لفخر الموجودات صلوات الله عليه و سلامه، و
كذلك بالاستمداد بالارواح الطاهرة لسائر الصحابة الكرام عليهم رضوان الله
تعالى اجمعين فقد ستقرت نيتي الملوكية على فتح و تسخير الجزيرة المزبورة
في الربيع الخير القادم و نضرع الى عتبة حضرة الحق جل وعلا ان ييسر لنا فتح
و تسخير تلك الجزيرة وان يبسط ايدينا عليها حتى تاهل باهل الاسلام
كما كانت عليه وكي تقام فيها شعائر الشرع الشريف، وحتى يامن التجار و
يسلموا في غدوهم و رواحهم و ينصرفوا للدعاء وثبات و مجد و رفعة الدولة
وبما ان الوضع على هذا المنوال، فان ارسال الاسطول الهمايوني المظفر
لحمايتكم سيتاخر ريثما يتم ايصال المراكب للعساكر المنصورة للجزيرة
المزبورة و سيتم ذلك اثر انهاء الاسطول لمهمته بعناية الحق و قد ارسل امرى

الملحق رقم (11) رسالة السلطان العثماني سليم الثاني إلى أهالي الأندلس[1].

[1] مهمة دفتري رقم9 ، ص 89، حكم 231، تاريخ 977/10/24هـ.

الجمهورية الجزائرية
الديمقراطية الشعبية

رئاسة الجمهورية

الأمانة العامة

الجزائر في :

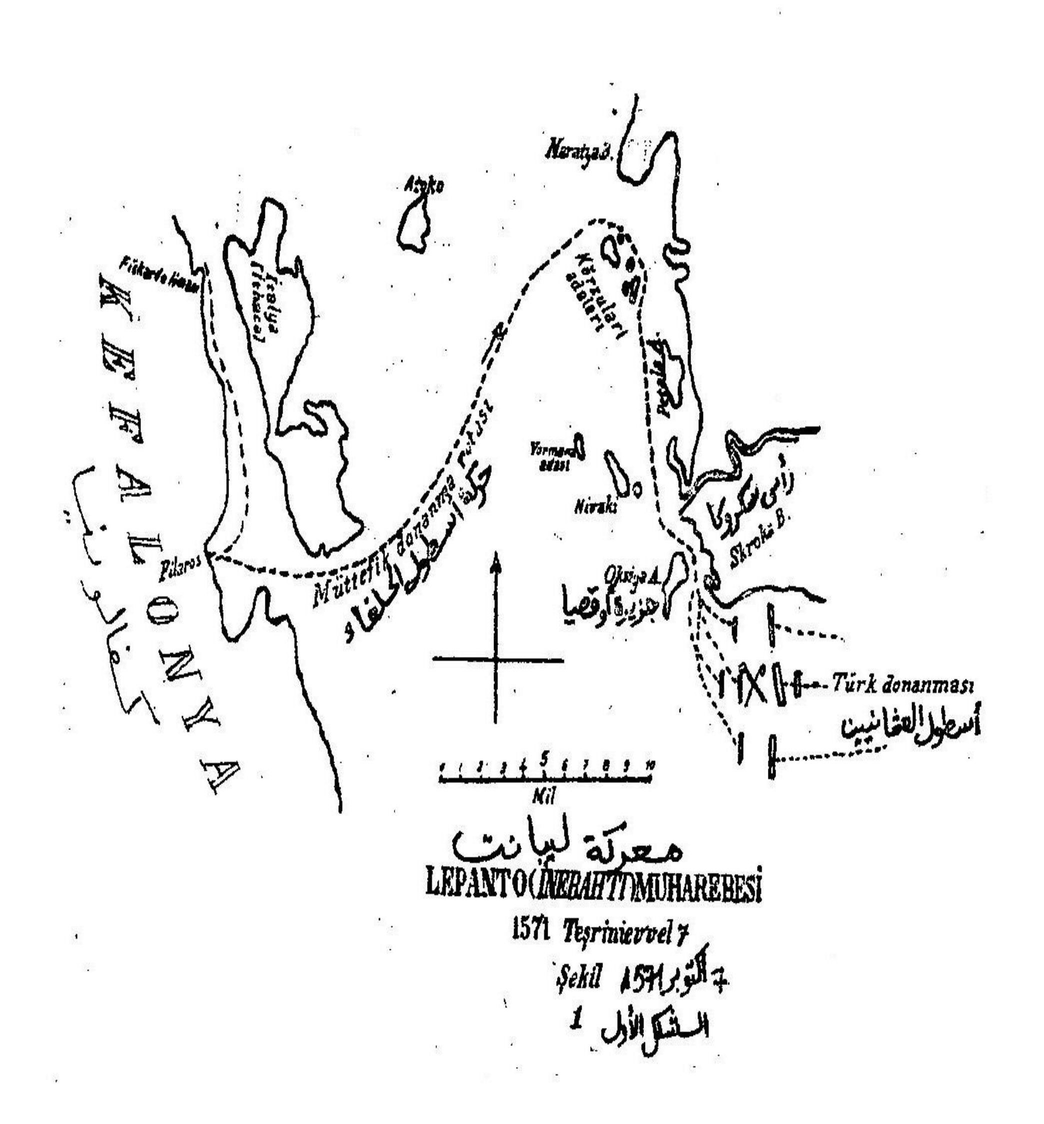
تابع

النار [illegible] اصابه الدمار وجعل منه النار ولتبذلوا قدراتكم على الوجه
الذي يقتضيه الوضع في سبيل كافة الامور لصون عرض وناموس السلطنة ولتكونوا
عينا ساهرة واذنا صاغية تجاه الجزائر وتونس وحال سماع اي خبر مؤكد
عن مهاجمة سفن الاسبان لتلك الاطراف بقصد الضرر والخسارة فلا تتوانى
عن ارسال اخبار امراء الدولة علي دام اقباله على جناح السرعة الى هناك واذا
اقتضى الامر محادثته ، فلتتشاوروا معا ولتقرروا ذلك اما بارسال قادرغات ، او
بأي وسيلة اخرى ، ولتكونوا على حسن اتحاد واتفاق ولتظهروا معا [illegible]
اسمتها واهتمامها في سبيل دفع الضرر والفساد عن تلك الجهات ، بالشكل
الذي تراه مناسبا [illegible] لذلك فلا تتوانى عن تزويد استانتنا باخبارك ، وابعث
على التوالي بالشرح والتفصيل بكل ما يصلك من الاخبار الصحيحة عن الكفار
اسبانيهم الدمار وعن القصد والسبب في تفكيرهم الفاسد وخيالهم الكاسد
والى اين تتجه انظارهم وتحركاتهم .

تعريب : محمد دود التميمي



تابع للملحق رقم (11).



الملحق رقم (12): معركة ليبانت البحرية في سنة 1571م[1]

---

[1]سي يوسف محمد، المرجع السابق، ص 112.

وثيقة عثمانية حول معركة وادي المخازن

إلى حسن باشا أمير أمراء جزاير المغرب .

وردت رسالة الى دارالسعادة جاء فيها ان ملك البرتغال يستعد منذ ثلاثة اشهر لجمع عساكره وان البابا ودوق فرنسا قاما بإرسال اربع او خمس بوارج محملة بالمحاربين والذخيرة لمعاونة البرتغال كما وصل ملك البرتغال الى حدوده واجتمع مع ملك اسبانيا ولم يعلم ما دار بينهما من مشاورات، وقد سمع انه تقرر ان يزوج ملك اسبانيا ابنته لملك البرتغال وان يقوم على وجه السرعة باعداد عشرة آلاف محارب لمساعدته كما يقدم له ستين قادرغه لمساعدته في العبور الى شاطئ الغرب لان ما لدى ملك البرتغال من السفن لا يتجاوز الثمانية، أما عن افكارهم الفاسدة فلا تعرف توجهاتها ويبدو أن ملك اسبانيا سوف يسير في الشتاء الى فلاندرة لانها شقت عصا الطاعة عليه منذ السنة الماضية ولكنه اذا توجه الى فلاندرة فسوف يترك ولايته خالية وسوف يضطر الى عقد صلح مع سدتنا.

ومن المحتمل ان يسير ملك البرتغال الى مولاي عبد الملك لأن ابن اخيه مولاي محمد التجأ الى قلعة سبتة التي تحت يد الكفار وتخابر مع ملك البرتغال وحمل رجاله عدة رسائل اليه، وبعد وصولهم الى تلك القلعة اتصلوا بملك البرتغال وحلفائهم من امراء الحدود وذلك بغية نشر افكارهم الفاسدة وقد صادفتهم اثناء سيرهم في البحر جند مولاي عبد الملك والقوا القبض عليهم، وبعد الوقوف على امرهم تَمَّ قتل اثنين منهم وسجن الثالث.

اما مولاي عبد الملك فيستعد للحرب وقد قام بإرسال اخيه مولاي احمد بصحبة ما يقرب من عشرة آلاف جندي وتوجه هو بصحبة أربعين أو خمسين الف جندي واتخذت اجراءات الحيطة في انحاء الولاية، وعليك حاليا

الملحق رقم (13) وثيقة عثمانية تتناول تفاصيل عن إمكانية تسيير حملة من ملك البرتغال ضد المغرب الأقصى[1].

[1] دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 76.

(حسن باشا) القيام بتعيين الف وخمسمائة من عسكر الجزائر واثني عشر أميراً وارسالهم الى مناطق الحدود، وتجهيز عشرين قطعة بحرية كل منها على اهبة الاستعداد للغزو والجهاد، وقد ذكرت انهم على استعداد لتقديم أرواحهم فداء للدين والدولة فلتبيض وجوههم. ومولانا هذا واحد منهم..

وعساكرنا في دار الجهاد ولاية جزاير الغرب هم عبيد الغاري وعلى استعداد دائم لتقديم انفسهم وأرواحهم في سبيل العزة والهمايونية وهم غزاة شجعان.

وقد أمرت:

حين تسلمكم اوامرنا أن تقوم بجمعهم وارضائهم كما يجب وان يكون كل منهم كما كان من قبل مجهزا ومعدا لقتال العدو ولترغيبهم في الجهاد والغزو وأن لا تغفل لحظة ان ترسل العيون الى كل ناحية لتتبع احوال العدو، وان تبذل ما عليك في سبيل الدين والدولة.

تابع للملحق رقم (13): الصفحة الثانية من الوثيقة العثمانية[1].

[1] دلندة الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 77.

الملحق رقم (14):وثيقة تتناول تفاصيل عن التحالف المغربي التونسي ضد إيالة الجزائر[1]

[1]الوثيقة رقم: 53، الملف الأول ، المجموعة 3205، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية مؤرخة عام 1206هـ.

وما قولك بين يدي الله تعالى حين يحاسبك في حق عباده ويعاتبك على
الفعال القبيحة وما جوابك له حين يعتبر [illegible] للرسل وزاد في الفساد
وصار يجعل في الفنا فين [illegible] واحد وفي القديم سنة الف ومائة وواحد
عشر تاسع يوم من ربيع الثاني وقد كان ذلك اليوم يوم الاحد فعدو الظالم
مثل هذا وهجومه على الوطن قيل له مثل هذه المقولة بعد مضيته للعباد
وجناب الباري حضرته وحضرة سلطان الانبيا صلى الله عليه وسلم همة وعناية
[illegible] الطلب نستمد عون عناية الرباني انقضاء الظالم
المذكور [illegible] بعد [illegible] ورجعوا على [illegible] وبالجملة الذي كان
[illegible] ولم يقع مناصير اليهم لما اصبناهم وتلقيناهم الى ان دخلوا الوطن
وصلناهم محلهم وهكذا ان شاء الله [illegible] يفعل بالظالم [illegible]
[illegible] وانه اعلمت سعادتك بفعلهم وهمتك [illegible]
[illegible] الشعار واجهاد صاير باخر [illegible] رحمة سلطانكم [illegible]
سنة ومائتين والف

خالص الفؤاد
حسين ابن خليل
[illegible]
[illegible]

تابع للملحق رقم (14):[1].

[1] الوثيقة رقم :53، المصد نفسه.

53 مسكن الوزارة ساكن طريق العدالة كبير جليل (كذا) رتب وزير مشير المليك خالصات لطف وكرم وجواهر كافة راحة وعناية درر السلطنة (كذا) مجراه حضرة سلطانم(كذا) عظم الله شأنه وحياه وصانه باللطف عما شانه من تراب نعل سعادتك المذنب (كذا) اما بعد أصوب الصواب عرض خالد كافي من اشتغالنا باولاد النصارى اخذ وانتقام كم من مقدار غوازي ضعيفة (كذا) (غير واضحة) بالضرورية المزبورة مجتمعة ليل ونهار في رضا الرحمان غزا و جهاد خدمتنا ودبنا في صيد الكفار) على الدوام والاستمرار وايضا لا يخل حربنا مع الاشقياء المفسدين من العربان (كذا) قدومهم لطريقنا وإذايتهم وتعطيلهم حال وطننا قرب وهران التي بيد المشركين طايفة كفار الصبنيول من حراسة حفظ المملكة وخيانة الرعايا ومن شأن ذلك قتال جوال وحرب وقتال الأكثر نال مقال الشهداء واستغراق المرحمة وأنت أفدينا رجاءنا منكم مظهر دعاؤا الخير بنصر الدين المبين لأننا باذلين أنفسنا في سبيل الله ومع هذا من طريق حاكم فاس إسماعيل به شهر بطعمه الخاوي جند جنوده الأشقياء المفسدين عموما ظلما وتعدي ودخل لوطننا وقد كان مقدار من سفننا مسافرين البحر في شأن الغزو مستعدين أراد انتهاز فرصة الغنيمة بأخذه بلاد تلمسان وحصارها وإذاية الرعية الفقراء فكّر لمحاصرتها بخيله ورجاله (كذا) وقد كان بها مقدار من العسكر لتحصينها وحفظا شؤون حراستها والمفسد المذكور قد أضر أهلها وإذاية رعاياها وبالجملة قول لنا هذه المملكة مملكته وهي بلاد العرب لا بلاد العجم فالعجم مسنهم الجبال وبالجملة مسكنهم بلاد الروم اذهبوا لأرض الرومان هذا هو جاوبه من هذه الناحية وأما من طرف ناحية الشرق شيء آخر متفقان عليه حاكم تونس مراد باي عين اثني عشر ألف من العساكر التي هي مستعدين بالسلاح الكامل واثني وثلاثين مدفع نحاس مع أربعة آلاف فارس وألف وخمسمائة فارس أمدهم بها باي طرابلس إمداد وعناية ما عدى العربان الأشقياء التي اجتمعت صحبتهم والحالة أنهم عبروا باجمعهم ودخلوا لوطننا ليأكلوه وماكان من ناحيتنا الستين خباء المعدة لحفظ حراسة قسنطينة وقصبتها ولم تتقدم عداوة بيننا لقدوم هذا القايم بجمهور عساكره لوطننا ومحاصرته للبلاد المذكورة والحاصل ضيق عليها الحصار والستين خباء ثلاثمائة شخص(كذ) السيف والبرج الذي قرب القصبة هدم وصار خاليا وأخذت مدافعه النحاس جميعا وبعث ثلاثمائة رأس إلى تونس ووضعت على أصوارها وثلاثة أيام مهرجان عظيم ببلد تونس وهذا القائم المذكور فعل فعال الفساد في تسعين يوما محاصرته القصبة من الجوانب الأربع ولما بلغ الخبر الجزائر الجهادية علماء كرام ومشايخ عظام وأكابر (كذا) غزاة المجاهدين وحضور جميع عساكرنا بسائر سواحلنا يجب على العلماء الكرام والمشايخ العظام تتبع نص القرآن العظيم على إعلان خبر فمن اعتدى فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى (فراغ) مائة وخمسين خباء غازيين لعدونا الذي يخلص بوطننا (كذا) فنزلوا بموضع الجامع الصغير (كذا) وبعث الرسل للشيطان القائم في شأن الفساد الصادر منه بوطننا ونحن وإياكم قبل هذا اليوم كإخوات أشقاء الأوجاقات الثلاثة الآخر منكم على صاحبه وقتالنا للكفار مشهور معقول وما حدا بك وما قولك بين يدي الله تعالى حين يخاطبك في حق عباده ويعاتبك على الفعال القبيحة وما جوابك له فلم يعتبر للقول ولا للرسل وزاد في الفساد وصار يجعل في القناقين قناق واحد وفي القديم سنة ألف ومائة واحدى عشر تاسع يوم ربيع الثاني وقد كان ذلك اليوم يوم الأحدقدوم ظالم مثل هذا وهجومه على الوطن قيل له مثل هذه المقولة بعد مضرته للعباد وجناب الباري حضرته وحضرة سلطان الأنبياء صلى الله عليه وسلم همة وعناية (كذا) الطلب سعينه عون عناية الرباني انهزامالقائم المذكور وفراره بدل قراره ورجعوا على متن طريقهم وبالجملة الذي كان أخ صار أخ ولم يقع منا ضرر إليهم لما أصبناهم وتلطفنا بهم إلى أن دخلوا لوطنهم ووصلناهم محلهم وهكذا إن شاء الله يفعل بالقائمان المزبوران من شأن ظلمهم

وتعديهم وأنني أعلمت سعادتك بفعلهم وفهمتك بأمرهم وشأنهم (كذا) إشعار وإفهام صاير باقي أمر وفرمان دولة رحمة سلطانم سنة ستة ومائتين وألف.

خالص الفؤاد حسين ابن خليل في محروسة جزائر غرب حالا [1].

[1]الوثيقة رقم 53 ، المصدر السابق.

المصادر والمراجع

❖ **القرآن الكريم**

أولا:الوثائق الأرشيفية:

- **دفتر مهم:**

1- الأرشيف الوطني الجزائري، مهمة دفتري رقم 10، صحيفة1، حكم رقم10، 979/01/02هـ.

2- مهمة دفتري رقم 16، صحيفة 24، حكم رقم 40 ،979هـ.

3- مهمة دفتري رقم 24، صحيفة 59، حكم رقم 166، بتاريخ 981/12/5هـ

4- مهمة دفتري رقم 24، صحيفة 59، حكم رقم 167، بتاريخ 981/12/5هـ.

5- مهمة دفتري رقم 24، صحيفة60 ، حكم رقم 168، بتاريخ 981/12/5هـ.

6- مهمة دفتري رقم 24، صحيفة 91-92 حكم رقم 246. بتاريخ 981/12/14هـ.

7- مهمة دفتري رقم 24، صحيفة60، حكم رقم 168، بتاريخ 981/12/5هـ.

8- مهمة دفتري رقم 24، صحيفة 72، حكم رقم 198، بتاريخ 981/12/5هـ .

9- مهمة دفتري رقم6 ،صحيفة266 ، حكم 565، تاريخ 972/5/25هـ.

10- مهمة دفتريرقم9 ، ص 89، حكم 231، تاريخ 977/10/24هـ.

11- مهمة دفتري رقم4 ، ص 175، حكم 1824، تاريخ 968/5/3هـ.

12- مهمة دفتري رقم 35، حكم رقم 314، ص 122 ،تاريخ 986/06/02هـ.

13- مهمة دفتري رقم 10، صحيفة17، حكم رقم19، 979/01/12هـ.

14- مهمة دفتري رقم 10، صحيفة4، حكم رقم6، 979/01/2هـ.

15- مهمة دفتري رقم 21، صحيفة 266، حكم رقم637، 980/12/16هـ.

16- مهمة دفتري رقم 21، صحيفة 213، حكم رقم509، 980/11/21هـ.

17- مهمة دفتري رقم4 ، ص 175، حكم 1824، تاريخ 968/5/3هـ.

18- مهمة دفتري رقم 35، حكم رقم 314، ص 122 ،تاريخ 986/06/02هـ.

- **المجموعات:**

1-أرشيف المكتبة الوطنية الجزائرية، المجموعة 3205، الملف الأول،ورقة 53.

- **المخطوطات:**

1-أبو القاسم الزياني، **الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب** ، مخطوط ، الخزانة العامة، عدد الأوراق 53، رقم 1c19.

2- رسالة من مسلمي الأندلس إلى السلطان العثماني، تحت رقم 1620، قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

ثانيا- المصادر المطبوعةالعربية والمعربة:

1- ابن أبي الضياف أحمد ، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان** ، ج2، الدار التونسية للنشر، تونس، 1974.

2- ، **إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان**، تحقيق: لجنة من وزارة الشؤون الثقافية، مج2،ج3، الدار العربية للكتاب، تونس، 2001.

3- ابن الأحمر، **تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان**، تقديم و تعليق و تحقيق: هاني سلامة،ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر ، 2001.

4- ابن الشماع أبو عبد الله بن أحمد ، **الأدلة البينة النورانية من فاخر الدولة الحفصية** ، تحقيق وتقديم:الطاهر محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1984م.

5- ابن العنتري محمد صالح، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلدة قسنطينة واستلائهم على أوطنها أو (تاريخ قسنطينة)** ، مراجعة وتقديم وتعليق: بوعزيز يحي ، ط. خ، دار عالم المعرفة، الجزائر ، 2009.

6- ابن زيدان عبد الرحمن، **إتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس**، تحقيق: علي عمر، ج3، ط1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة، مصر، 2008.

7- ،**المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل ابن الشريف** ، تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي ، ط1، مطبعة إديال، الدار البيضاء، المغرب، 1993.

8- ابن عبد العزيز الحاج حمودة بن محمد ، **الكتاب الباشي**، تحقيق: محمد ماضور، ج1، الدار التونسية للنشر، تونس، 1970.

9- الآغا بن عودة المزاري ، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، تحقيق ودراسة: يحي بوعزيز، ج1، دار الغرب الإسلامي .

10- بربروس خير الدين ، **مذكرات خير الدين بربروس**، ترجمة: محمد دراج، ط1، دار الأصالة، الجزائر، 2010.

11- بن المفتي حسين بن رجب شاوش ، **تقييدات بن المفتي في تاريخ باشوات الجزائر وعلمائها** ، دراسة وتحقيق: فارس كعوان،ط1، دار بيت الحكمة، الجزائر ،2009.

12- بن خلدون عبد الرحمن، **تاريخ بن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، مراجعة : سهيل زكار ، ج7، دار الفكر،بيروت، لبنان، 2000.

13- ، **تاريخ بن خلدون ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (1336-1407)**،ج6، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ،2000م .

14- ، **تاريخ بن خلدون ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، (1336-1407)**،ج1، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ،2000م .

15- بن ميمون محمد الجزائري، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم و تحقيق: محمد بن عبد الكريم، ط2، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

16- التازي عبد الهادي ، **أمير مغربي في طرابلس 1143هـ-1731م أو ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي**، مطبعة فضالة، المغرب، د.ت.ن .

17- التطواني أبي عبد الله محمد الكراسي ،**عروسة المسائل فيما لبني وطاس من الوسائل** ، مخطوط دون بيانات المؤسسة والتاريخ .

18- التلمساني ابن رقية ، **الزهرة النيرة فيما جرى في الجزائر حيث أغارت جنود الكفرة** ، ط1،ضبط وتعليق: خير الدين سعيدي الجزائري،أوراق ثقافية للنشر والتوزيع،جيجل، الجزائر، 2017

19- التمقروتي أبو الحسن علي بن محمد ، **النفحة المسكية في السفارة التركية** ، تحقيق و تقديم: عبد اللطيف الشاذلي ، المطبعة الملكية ، المغرب ، 2002.

20- الجزائري المشرفي عبد القادر ، **بهجة الناظر في اخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر** ، تحقيق: محمد بن عبد الكريم ، منشورات مكتبة الحياة ، بيروت ، لبنان ، د.ت.ن.

21- دي طوريس دييكو، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة: محمد حجي و محمد الأخضر، د. ط، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، 1989م.

22- الراشدي أحمد بن عبد الرحمان الشقراني، **القول الأوسط في أخبار بعض ما حل بالمغرب الأوسط** ، تحقيق وتقديم: ناصر الدين سعيدوني ، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013.

23- الراشدي أحمد بن محمد بن علي بن سحنون ،**الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تحقيق و تقديم: المهدي البوعبدلي، ط1، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2013.

24- الرباطي محمد الضعيف ، **تاريخ الضعيف**، تحقيق: أحمد العماري، ط1، دار المأثورات ،المغرب، 1986.

25- الزركشي عبد الله ، **تاريخ الدولتين الموحدية الحفصية**، الطبعة الثانية، مكتبة عتيقة ،تونس ، 1966م .

26- الزهار أحمد الشريف ، **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر1168-1246هـ/1754-1830م**، تحقيق: أحمد توفيق المدني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974

27- الزياني أبو القاسم ، **البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف القسم الأول (من النشاة إلى نهاية عهد سيدي محمد بن عبد الله)**،دراسة و تحقيق: رشيد الزاوية، ط1، مطبعة المعارف الجديد، المملكة المغربية، 1992.

-28 ، **تحفة الحادي المطرب في رفع نسب شرفاء المغرب** ، تحقيق: رشيد زاوية ، منشورات وزارة الأوقاف ، الرباط ،المغرب، 2008. معاود

-29 ، **الترجمان المعرب عن ملوك دول المشرق والمغرب** ، مخطوط ، الخزانة العامة ، الرباط ،د.ت.ن.

30- الزياني محمد، **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ، تقديم و تعليق : المهدي البوعبدلي، اعتنى به: عبد الرحمان دويب ،ط1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2013.

31- شارل وليام، **مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر(1816-1824م)**، تعريب: إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

32- الطرابلسي أبو عبد الله محمد ابن غلبون ، **تاريخ طرابلس الغرب المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار**، نشر وتصحيح وتعليق: أحمد الزاوي ،المطبعة السلفية ، القاهرة ،1349هـ.

33- الغساني محمد بن عبد الوهاب ،**رحلة الوزير في افتكاك الأسير 1690-1691**، تق: نوري الجراح ، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات ، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، لبنان ، 2002.

34- الفاسي ابن زاكور محمد ، **رحلة ابن زاكور الفاسي المتوفى (1120هـ/1708م) المسماة: نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان**، تحقيق: مصطفى ضيف و محفوظ بوكراع، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

35- الفشتالي أبي فارس عبد العزيز ، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء**، دراسة وتحقيق:عبد الكريم كريم، د.ط، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، د.ت.ن.

36- الفهري أبو حامد محمد العربي ، **مرآة المحاسن من اخبار الشيخ أبي المحاسن** ، دراسة و تحقيق: الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني ، منشورات رابطة أبي المحاسن ، د.ت.ن.

37- القرماني أحمد بن يوسف ، **أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ**، دراسة و تحقيق : أحمد حطيط و فهمي سعد، مج2،ط1،دار عالم الكتب،1996.

38- القيرواني محمد بن أبي القاسم المعروف بابن ابي دينار ، **المونس في أخبار افريقيه وتونس** ، ط1، مطبعة الدولة التونسية ، تونس ، 1286.

39- كربخال مارمول ،**إفريقيا**،ترجمة: محمد حجي وآخرون، ج2، دار المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط ، المغرب الأقصى،1989.

40- مجهول ،**سيرة المجاهد خير الدين في الجزائر** ،تحقيق و تقديم و تعليق: عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، 2009.

41- مجهول ،**تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية** ، تحقيق و تقديم : عبد الرحيم بنحادة ، ط1،دار تينمل ، مراكش، المغرب 1994.

42- مجهول، **الذخيرة السنية في تأريخ الدولة المرينية** ، اعتنى به: محمد بن ابي شنب ، مطبعة جول كربونل ، الجزائر، 1960.

43- المراكشي عبد الواحد ، **المعجب في تلخيص اخبار المغرب** ، تقديم وتحقيق وتعليق:محمد زينهم و محمد عزب ، دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1994.

44- المشرقي حمد بن محمد بن مصطفى ، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المنسية**، دراسة وتحقيق: إدريس بوهليلة ،ج1، ط1، دار ابي رقراق للطباعة، الرباط، المغرب، 2005م.

45- مقديش محمود ، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق: علي الزاوي و محمد محفوظ، مج2، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988.

46- ،**نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار** ، تحقيق: علي الزاوي و محمد محفوظ ، مج1،ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1988.

47- المكناسي أبي العباس بن أحمد بن محمد (أحمد بن القاضي)،**درة الحجال في أسماء الرجال**، مج2، ط1، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، 1971.

48- الناصري أبو العباس أحمد بن خالد ، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصاالدولة العلوية**،ج7،تحقيق و تعليق:جعفر و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ،1997.

49- ، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصاالدولة السعدية**،ج6،تحقيق و تعليق:جعفر و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ،1997.

50- ،**الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة المرينية**، تحقيق وتعليق: جعفر الناصري، محمد الناصري، ج4،دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997.

51- ،**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصاالدولة العلوية**،ج8،تحقيق و تعليق:جعفر و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ،1997.

52- ،**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصاالدولة السعدية**،ج5،تحقيق و تعليق:جعفر و محمد الناصري ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، المغرب ،1997.

53- النائب أحمد بن الحسين الأنصاري، **نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان**، تقديم و تعريب: محمد زينهم و محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع ،ليبيا، 1994.

54- هابنسترايت.ج.آو ، **رحلة إلى الجزائر وتونس وطرابلس 1732م** ، ترجمة و تقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني ،ط1، دار الغرب الإسلامي ،تونس، 2008.

55- الوزان حسن بن محمد ، **وصف إفريقيا** ، ترجمة : محمد حجي ، ج2،ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1983.

56- ، **وصف إفريقيا** ،ترجمة : محمد حجي و محمد الأخضر، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1983.

57- الوفراني محمد الصغير بن عبد الله، **روضة التعريف بمفاخر مولانا إسماعيل بن الشريف** ، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، ط2، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1995.

58- ،**نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي** ، صحح عبارته التاريخية: هوادس ، مطبعة بردين ، باريس ، 1888.

ثالثا- المراجع العربية والمعربة:

1- أبو خليل شوقي ،**وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة- القصر الكبير**، ط1، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ،1988

2- أبو عجيلة محمد الهادي عبد الله ، **النشاط الليبي في البحر المتوسط في عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835م وأثره على علاقاتها بالدول الأجنبية**، ط1، منشورة جامعة قاريونس، ليبيا، 1997.

3- أرسلان شكيب ، **تاريخ الدولة العثمانية** ، تحقيق وتعليق: حسن السماحي سويدان ،ط1، دار ابن كثير ، دمشق، سوريا ،2011.

4- الأرقش دلندة وآخرون، **المغرب العربي الحديث من خلال المصادر**، مركز النشر الجامعي ميديا كوم ، تونس ، 2003.

5- أندرسون ماتيوس ، **تاريخ القرن الثامن عشر في أوربا**، تعريب: نور الدين حاطوم، ط1، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1988.

6- أوزتونا يلماز ، **تاريخ الدولة العثمانية** ،ترجمة و مراجعة: عدنان محمود سليمان و محمود الأنصاري ، مج 1، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، تركيا ، 1988.

7- اوغلي خليل ساحلي ، **من تاريخ الأقطار العربية في العهد العثماني، بحوث ووثائق وقوانين**، مركز الأبحاث والفنون الإسلامية ، استنبول، 2000.

8- ايفانوف نيقولاي ، **الفتح العثماني للأقطار العربية (1516-1574م)**، ترجمة : يوسف عطالله ،ط1،دار الفارابي ،بيروت ، 1988.

9- الباروني عمر، **الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس** ، مطبعة ماجي ، طرابلس 1952م.

10- برنيا كوستا نزيو ، **طرابلس من 1510 إلى 1850، تعريب: خليفة محمد التليسي**، ط1،الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، ليبيا، 1985م.

11- بروديل فرنان ، **المتوسط والعالم المتوسطي**،تع: مروان أبي سمرا ، ط1، دار المنتخب العربي، بيروت، لبنان، 1993.

12- بروشين نيكولاي إيبلتش ، **تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين**، ترجمة و تقديم: عماد حاتم، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان ، 2001.

13- البطريق عبد الحميد و نوار عبد العزيز ،**التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر**، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1995.

14- البلوشي علي مسعود ، **تاريخ معمار المسجد في ليبيا في العهدين العثماني والقرمانلي 1551-1911 نشأة ونمو وتطور انماط المساجد الليبية**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس ، ليبيا، 2007.

15- بن إسماعيل عمر علي ، **إنهيار حكم الأسرة القرمانلية في ليبيا 1795-1835م**،ط1، مكتبة الفرجاني، طرابلس ، ليبيا، 1966.

16- بن أشنهو عبد الحميد بن زيان ،**دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر** ، مطبعة الجيش الوطني الشعبي ، الجزائر ، 1982م.

17- بن الخوجة محمد ، **صفحات من تاريخ تونس**، تقديم: حمادي الساحلي و الجيلاني بن الحاج يحي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986 .

18- بن خروف عمار ،**العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري /السادس عشر الميلادي** ، ج1،ط 2 ،دار الأمل ، الجزائر ، 2016م.

19- ، **العلاقات السياسية بين الجزائر وتونس في القرن 18م/12هـ** ،ط1، دار الأمل ،تيزي وزو، الجزائر، 2017.

20- بن عامر أحمد ،**الدولة الحفصية** ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، 1974م.

21- بوحوش عمار، **التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م**،ط1، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997.

22- البوزيدي أحمد ،**التاريخ الاجتماعي لدرعة. دراسة في الحياة السياسية الاجتماعية و الاقتصادية من خلال الوثائق المحلية**، دار آفاق ، الدار البيضاء ، 1994م.

23- بوعزيز يحي ، **علاقات الجزائر الخارجيةمع دول وممالك أوروبا 1500-1830**، دار البصائر للنشر والتوزيع،الجزائر، 2008.

24- ، **الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر الحديثة)**، ج 2 ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ، 2009.

25- ، **مدينة وهران عبر التاريخ**، ط.خ، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

26- بيات فاضل ،**دارسات في تاريخ العرب في العهد العثماني** ، دار الهدى الإسلامي ، بيروت ، 2005م.

27- ،**الدولة العثمانية في المجال العربي، دراسة تاريخية في الأوضاع الإدارية في ضوء الوثائق والمصادر العثمانية حصرا(مطلع العهد العثماني- اواسط القرن التاسع عشر)**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت،2007.

28- التازي عبد الهادي ، **الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب** ،مج2،ط1،دار نشر المعرفة،الرباط ، 2001.

29- ، **الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب**،مج3، ط1، دار نشر المعرفة، الرباط ، المغرب، 2001م.

30- ، **التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم**، مج9، الهيئة العامة المكتبة الأسكندرية، المملكة المغربية، 1988م.

31- الترعزيز سامح ، **الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية** ، ترجمة: عبد السلام أدهم،ج1، ط1،دار لبنان،بيروت، لبنان 1969.

32- ،**الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا** ،تر : محمد علي عامر،ط1، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ،1989.

33- التليسي محمد خليفة ، **حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب**، ط3، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1997.

34- التميمي عبد الجليل ، **دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر** ، السلسلة رقم (04) ، الولايات العربية أثناء العهد العثماني، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات ، زغوان ، تونس ، 2009.

35- الثقفي يوسف علي رابع ،**معاهدة الامتيازات العثمانية لعام 941هـ/1535م** ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، مكة ، 1411هـ.

36- الجزائري الحسن محمد بن عبد القادر ،**تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر** ، ج1،الطبعة التجارية الإسكندرية ،مصر ، 1903.

37- جلال يحي ،**التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر حتى الحرب العالمية الأولى**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر،د. ت .ن.

38- الجمل شوقي عطا الله ، **المغرب العربي الكبير في العصر الحديث**،ط1، مكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ، 1977.

39- جوليان شارل أندري ، **تاريخ إفريقيا الشمالية تونس –الجزائر–المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830**، تعريب: محمد مزالي و البشير بن سلامة، ج2، الدار التونسية للنشر ، 1983.

40- الجيلالي عبد الرحمان، **تاريخ الجزائر العام** ، ج2، ط2 ، دار مكتبة الحياة ، بيروت، لبنان ،1965.

41- ، **تاريخ المدن الثلاث** ، **الجزائر** ، **المدية** ، **مليانة** ، دار الامة ، ط1 ، 2007.

42- ، **تاريخ الجزائر العام** ، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ط7، 1994.

43- حجي محمد، **الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسيمن تاريخ المغرب في القرن 17**، طبعة موسعة ومنقحة، مطبعة النجاح الجديدة ، الرباط،المغرب، 1988.

44- حركات إبراهيم ،**المغرب عبر التاريخ** ، مج 2 ، دار الرشاد الحديثة ، ط1،الدار البيضاء ،المغرب،2000م.

45- حساني مختار ، **تاريخ الدولة الزيانية (الأحوال السياسية)، ج1**، منشورات الحضارة ، الجزائر،2009.

46- حسن حسن الفقيه ، **اليوميات الليبية**، تحقيق: محمد الإسطى وعمار جحيدر، ج1، ط2، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 2001.

47- حليم إبرهيم بك ،**تاريخ الدولة العثمانية العلية** ، مؤسسة الكتاب الثقافية ، بيروت ، 1988م.

48- حنظل فالح ،**العرب والبرتغال (93هـ-1134هـ/711-1720م)**، ط1، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، الإمارات العربية المتحدة ، 1418هـ-1997م.

49- الخياط عبد الله خليفة ، **العلاقات السياسية بين إيالة طرابلس الغرب وإنجلترا 1795-1832م** ، ط1، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس ، ليبيا، 1985م .

50- داهش محمد علي ، **الدولة العثمانية والمغرب إشكالية الصراع والتحالف** ،ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان،2011م.

51- دراج محمد ، **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1553م**،ط1،شركة الأصالة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 2012.

52- راشد زينب عصمت،**تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر**، ج1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986.

53- رائسي إدريس ناصر ، **العلاقات العثمانية الأوربية في القرن السادس عشر** ، دار الهادي للطبع والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2007.

54- رزوق محمد ، **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16 و 17م** ، ط3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب ،1998.

55- ، **دراسات في تاريخ المغرب**، ط1،إفريقيا الشرق،الدار البيضاء،المغرب،1991.

56- رضوان نبيل عبد الحي ،**جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس في مطلع العصر الحديث** ، ط1،مكتبة الطالب الجامعي ، السعودية ، 1988.

57- روسو ألفونص ، **الحوليات التونسية منذ الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر** ، ترجمة: محمد عبد الكريم الوافي ، منشورات قار يونس ، بنغازي ،د.ت.ن.

58- روسي أتوري ، **طرابلس تحت الإسبان وفرسان مالطا** ، تعريب وتقديم: خليفة محمد التليسي ، ط1، مؤسسة الثقافة الليبية للتأليف والترجمة والنشر ، طرابلس، 1969م.

59- ، **ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911**، ترجمة و تقديم: خليفة التليسي ، ط2،مكتبة الإسكندرية ، 1991.

60- الزاوي الطاهر أحمد ، **ولاة طرابس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي**، ط1، دار الفتح للطباعة والنشر، بيروت، 1970.

61- زليتنر جان كلود ، **طرابلس ملتقى أوروبا وبلدان وسط إفريقيا 1500-1795م**، ترجمة: جاد الله عزوز الطلحي، ط1، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، مصراته، ليبيا، 2001.

62- سبنسر وليام ، **الجزائر في عهد رياس البحر**، تعريب: عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2006.

63- سعد الله أبو القاسم ، **أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر**، ج2، ط. خ، دار البصائر، الجزائر، 2007.

64- ، **تاريخ الجزائر الثقافي 1500-1830**، ج1،ط1،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، 1998.

65- سعيدوني ناصر الدين ، **تارخ الجزائر في العهد العثماني**، دار البصائر، الجزائر، 2014.

66- ، **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**،ط2، دار البصائر، الجزائر، 2008.

67- السنوسي أحمد الشريف الأطرش ، **تاريخ الجزائر في خمسة قرون**، ج1، البصائر، الجزائر، 2013.

68- سوداني عبد القادر ، **السلطة في تونس وطرابلس بين 1705-1837م: محاولة في التاريخ المقارن، ط1**، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، المانيا، 2017.

69- شاكر محمود ،**التاريخ الإسلامي - العهد العثماني** -، ط4، دار المكتب الإسلامي ، بيروت ، 2000.

70- شحاتة إبراهيم حسن، **أطوارالعلاقات المغربية العثمانية، 1510-1947**، منشاة المعارف، الاسكندرية، مصر، 1981.

71- شريف محمد الهادي ، **ما يجب أن تعرفه عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال** ، تعريب: محمد الشاوش و محمد عجينة ، ط3، دار ساراس للنشر ، تونس ، 1993.

72- شكري محمد عزيز ، **الأحلاف و التكتلات في السياسة العالمية** ، عالم المعرفة ، سلسة كتب ثقافية ، الكويت، 1978 .

73- الشناوي عبد العزيز ، **الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها** ، ج2 ، د ط ، المكتبة الأنجلو مصرية ، القاهرة ،1980م.

74- شويتام أرزقي، **دراسات ووثائق في تاريخ الجزائر العسكري والسياسي الفترة العثمانية 1519-1830**،ط2 ،دار الكتاب العربي، الجزائر ، 2016.

75- ، **نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م**، ط1، دار الكتاب العربي ، الجزائر،2011.

76- صادق محمد الحاج ، **مليانة ووليها سيدي أحمد بن يوسف** ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1989.

77- الصباغ ليلى ،**الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس عشر والسابع عشر، العاشر والحادي عشر هجري** ،ج1،ط1، مؤسسة الرسالة بيروت، لبنان.

78- الصلابي محمد علي ، **الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط**، دار النشر والتوزيع الإسلامي، ط1، مصر،2001.

79- طقوش محمد سهيل ،**تاريخ العثمانيين من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة** ،ط3، دار النفائس ، بيروت ،لبنان ، 2013.

80- عامر محمود علي وفارس محمد خير ،**تاريخ المغرب العربي الحديث** (المغرب الأقصى – ليبية)، منشورات جامعة دمشق ، سوريا ، 1999-2000.

81- عباد صالح ، **الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830**، دار هومه،الجزائر ،2012.

82- عبد القادر نور الدين ،**صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم العصور إلى انتهاء العهد التركي**، د.ط، دار الحضارة، الجزائر،2006م.

83- عبد الوهاب حسن حسني ،**خلاصة تاريخ تونس** ، ط3، دار الكتب العربية الشرقية، تونس.د.ت.ن.

84- العبيدي علي ، **الجزائر وتوازنات القوى البحرية غرب المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي – دراسات تاريخية**- دار النشر الجامعي الجديد ،2017.

85- العروسي المطوي محمد ، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ،1986.

86- العزاوي قيس جواد ، **الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط** ، ط2، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، لبنان ، 2003.

87- العسلي بسام،**خير الدين بربروس والجهاد البحري (1470-1547م)**،ط1، دار النفائس ، بيروت ، 1980.

88- ، **الجزائر والحملات الصليبية(1547-1791م)** ،ط3، دار النفائس، بيروت، 1986.
89- العقاد صلاح،**المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر الجزائر**.تونس.المغرب الأقصى، ط6، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1993،
90- عمر عبد العزيز عمر، **دراسات في التاريخ الأوربي والأمريكي الحديث**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992.
91- ، **تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر (1815-1919)**، دار المعرفة الجامعية ، 2000، مصر .
92- عمورة عمار ، **موجز في تاريخ الحزائر** ، ط1، دار ريحانة ، 2002.
93- عميراوي حميدة، **دور حمدان عثمان خوجة في تطور القضية الجزائرية(1827-1840)** ،ط1، مطابع دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1987.
94- عنان محمد عبد الله ،**نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين** ، ط4، مطبعة المدني ، القاهرة ، 1987.
95- الغاشي مصطفى ، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**، ط1، مكتبة مؤمن قريش، دار الإنتشار العربي، بيروت، لبنان، 2015.
96- غطاس عائشة و أخريات، **الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها**، منشورات المركزالوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر،2007.
97- غلاب عبد الكريم ، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر**،ج2 ، ط1، دار الغرب الإسلامي،بيروت، لبنان، 2005.
98- ، **قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر**، ج3،ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2005.
99- غنابزية علي ، **تاريخ العلاقات العثمانية المغاربية وأثرها الجيو استراتيجي على ضفتي البحر المتوسط 1492-1911م**، دار رؤى حضارية ، الجزائر.

100- الغنيمي عبد الفتاح، **موسوعة تاريخ المغرب العربي بني وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين**، ج6، دراسة في التاريخ الإسلامي ، ط1،مكتبة مدبولي ، القاهرة ، مصر ، 1994.

101- فارس محمد خير الدين ، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح الاسلامي إلى الاحتلال الفرنسي**،الطبعة الأولى،دار العصر الحديث ،بيروت،لبنان ،1969م.

102- فيرو شارل،**الحوليات الليبية من الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي** ، تعريب وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي ، ط3، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي ، ليبيا، 1994.

103- فيلالي كمال ، **تاريخ المغرب الحديث من فتح القسطنطينية إلى سقوط قسنطينة (1453-1837) أساطير مؤسسة،هجرات، مؤسسات وثورات**، ط3، دار ألكسندر للطباعة والنشر، قسنطينة ، الجزائر،2018.

104- قاري محمود ، **دور الامتيازات الأجنبية في سقوط الدولة العثمانية** ، أطروحة دكتوراه ، ج1، إشراف يوسف بن علي الثقفي ، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية،2001.

105- القبج عامر أحمد عبد الله ، **السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب الإسلامي (1492-1574م-897-982هـ)**، ط1، دار دجلة ،عمان ، الأردن ،2018.

106- القدوري عبد المجيد ، **المغرب وأوروبا ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر(مسألة التجاوز)**، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب،2012.

107- قشتيلوا محمد ، **حياة الموريسكوس الأخيرة بإسبانيا ودورهم خارجها**، الطبعة الأولى،مطابع الشيوخ، تطوان ،المغرب، 2001.

108- قنان جمال، **نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث (1500-1830م)** ،طبعة خاصة ، وزارة المجاهدين ، الجزائر ، 1987.

109- ، **العلاقات الفرنسية الجزائرية**، طبعة خاصة، المؤسسة الوطنية للإتصال والنشر والإشهار،الرويبة، الجزائر، 2005.

110- ، **معاهدات الجزائر مع فرنسا (1619-1830م)**، طبعة خاصة، المؤسسة الوطنية للنشر والإشهار، الجزائر ،2007.

111- كابوفين جورجو ، **طرابلس والبندقية في القرن الثامن عشر**، تعريب: عبد السلام مصطفى باش امام، منشورات مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس، 1988.

112- كريم عبد الكريم ،**المغرب في عهد الدولة السعدية** ، ط3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة ، الرباط ، المغرب ، 2006.

113- كواندرو روجي ، **قراصنة سلا**، ترجمة: محمد حمود ، مطبعة ومكتبة الأمنية، المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، المغرب، 1991م.

114- كوثراني وجيه ، **تاريخ التأريخ (اتجاهات ، مدارس ، مناهج)** ، ط2، المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات ، بيروت ، 2013م.

115- كوران أرجمنت ، **السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي**، ترجمة: عبد الجليل التميمي، منشورات الجامعة التونسية، تونس، 1970.

116- الكيلاني شمس الدين، **الإسلام وأوربا المسيحية من القرن الحادي عشر إلى نهاية القرن السادس عشر الحرب والسياسة .التجارة والثقافة**، مكتبة المهتدين، دمشق، 2007.

117- لوغوف جاك ، **التاريخ الجديد** ، ترجمة وتقديم: محمد الطاهر المنصوري ، مراجعة: عبد الحميد هنية ، ط1، المنظمة العربية للترجمة ، مركز الدراسات الوحدة العربية ، بيروت ، 2007م.

118- ماساي بول ، **الوضع الدولي لطرابلس الغرب(المعاهدات الليبية الفرنسية 1685-1830)**، تعريب: محمد مفتاح العلاقي، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، ليبيا، 1991.

119- المحامي محمد فريد بك ، **تاريخ الدولة العلية العثمانية** ، تح : احسان حقي ، ط1، دار النفائس ، بيروت ، لبنان ، 1981.

120- محرز أمين، **الجزائر في عهد الاغوات 1659-1671م**،دار البصائر الجديدة، الجزائر، 2013م.

121- المدني أحمد توفيق ، **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر واسبانيا 1492-1792م**، الطبعة الثانية منقحة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر،1976م.

122- ،**كتاب الجزائر** ،المطبعة العربية ، الجزائر.د.ت.ن

123- ، **محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766-1791م**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، د.ت.ن.

124- مروش المنور،**دراسات عن تاريخ الجزائر في العهد العثماني القرصنة، الأساطير والواقع** ، ج2 ، دار القصبة ، الجزائر ، 2006م.

125- مصطفى محمود نادية ، **العصر العثماني من القوة والهيمنة إلى بداية المسألة الشرقية** ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، القاهرة ، 1996م.

126- المطوي محمد العروسي ، **السلطنة الحفصية تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي**،دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان ، 1986.

127- ميكاكي رودلفو ، **طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي**، تعريب: طه فوزي، دار الفرجاني، ليبيا،1988.

128- الميلي مبارك بن محمد ،**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، تقديم: محمد الميلي ، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان.

129- ، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث** ، ج3،مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر ،1964م.

130- ناجي محمود ، **تاريخ طرابلس الغرب**، ترجمة: عبد السلام ادهم ومحمد الإسطى، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، ليبيا، 1970م.

131- نايت بلقاسم مولود قاسم ، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م**،ج1، الطبعة الثانية،دار الأمة ، الجزائر ، 2007.

132- ، **شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م**،ج2، الطبعة الثانية،دار الأمة ، الجزائر ، 2007.

133- النظام زهراء ،**العلاقات المغربية الجزائريةمقاربة سياسية ثقافية خلال القرن 10هـ/16م**، منشورات دار الأمان ، الرباط ، 2015.

134- نوار عبد العزيز بن سليمان و جمال الدين محمود محمد ،**التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي، مصر ، 1999.

135- هلايلي حنيفي ، **العلاقات الجزائرية الأوربية ونهاية الإيالة 1815-1830م**، ط1، دار الهدى ،عين مليلة، الجزائر، 2007.

136- ، **أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط1، دار الهدى ، الجزائر ، 2008.

137- ، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني** ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 2007م.

138- هنية عبد الحميد ، **تونس العثمانية بناء الدولة والمجال من القرن السادس عشر إلى منتصف القرن الثامن عشر**، منشورات تبر الزمان، تونس، 2012.

139- وولف جوون ب ، **الجزائر وأوربا** ، ترجمة: أبو القاسم سعد الله ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،1986.

140- ياغي إسماعيل أحمد ، **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي** ، ط2،مكتبة العبيكان ، الرياض ، المملكة العربية السعودية ،1998.

ثانيا- المصادر والمراجع الأجنبية:

أ-الوثائق المنشورة:

1- De Castries Henry,**Les sources inedites del histoire du Maroc(1530-1845), dynastie saadienne** ,Archive et bibliotheques de France , T1, paris, 1905.

2- ,**les sources inédits de histoire du Maroc**.Archives et bibliothèques d Espagne,t2,PARIS, 1956.

3- ,**Les Sources inedites de lhistoire du Maroc**, Archives et bibliotheque d Espagne,t1,Paris et Madrid 1921.

4- E.Rauad de Card,**Traites de la France avec les pays de lAfrique du Nord (Algerie,Tunisie, Tripolitaine, Maroc)**, A-Pedone, edition, Paris , 1906.

5- EugenePlante, **corrspondance des Beys De Tunis est des consuls de France avec la cour 1577-1830**,T1,paris , 1893.

6- , **corrspondance des Deys D Alder avec la cour de France**, T1,(1579-1700),paris,1889.

ب-المصادر والمراجع الأجنبية:

1- A.Masmoudi et M. Smida, **Tunis au XVI de la chute des Hafsides a Linstllation des turcs**, societe tunisienne de diffusion, Tunis, 1983.

2- Belhamissi (M), **Marine et Marins d Alger(1518-1830),**T2, B.N.A. Alger. 1996.

3- Cour Auguste, **Letablisment des dynasties des cherifs au maroc leur rivalite avec les turces de la regence d Alger (1509-1830)**, paris, 1904.

4- Dan pierre**, Histoire debarbarie et de ses Corsaires(des royames d Alger, de Tunis , de Tripoli et de sale)**, Seconde edition, 1646.

5- DE Grammont, **Histoire d'Alger sousladominationturque(1515 -1830)**leroux,éditeur , Paris, 1887.

6- Devoulx Albert, **Tachrifat, Recueil De Notes Historiques**, Alger, imprimerie du Goversment, 1852.

7- Charriere Ernest, **Negociations de la France dans le levant**,T3, imprimerie imperiale, paris.

8- Fernand Braudel, **La Mediterranee et le monde Mediterraneen a L epoque de Philippe** II,t3,2 ed , Armande Colin, paris, 1966.

9- GARROT Henri ,**Histoire general de l Algerie , Livre XI ,periodeTurque**,Alger,imp.p.croscenzo,1910.

10- A.Guellouz et d autre, **Histoire Genrale De La Tunisie,Les Temps Modernes(941-1247 H./ 1534-1881)**, t3, Sud Edition, Tunis, 2010.

11- HaedoDiege **,Histoire des rois d Alger**.traduit par: DE GrammontH.d,adolphejourdan,editeur,Alger,1881.

12- Venture de paradis **,Algerau 18em siècle** ,imprimeur libraire,Alger,1898.

13- Lougier De Tassy, **Histoire du royaume dAlger**, Edition loysel , paris,1990.

14- Maggil(M,Thomas), **nouveau voyage a Tunis**, publie en 1811, paris, editeur de dictionnair des scinces medicales, 1981.

15- Mercier (Ernest) **,Histoire De l 'Afrique Septentrionale (Berberie)** ,Erneste Leroux, Editeur , Paris , 1887.

16- Paul Masson, **Histoire des etablissements et du commerce Français dans L Afrique Barbaresque (1506-1793)**, librairie Hacette et Cie , Paris, 1903.

17- Raimond thomassy, **le maroc, relation de la France avec cet empire**, ed 03, librairie de charle douniol, paris, 1859.

18- Turbet Delof, " **La presse periodique francaise et L Afriique barbaresque au XVIIe sicle (1661-1715)**, Librairie Droz. Geneve, 1973.

ثالثا:المجلات وأعمال الملتقيات باللغة العربية:

1- أبو خمسين منصور أحمد ،" **استرقاق الأسرى وأثر ذلك في العلاقات بين دول المغرب وأوربا خلال القرن الثامن عشر**"، مجلة العصور، مج7، ج1 ، دار المريخ للنشر، لندن، بريطانيا،1992.

2- اجقو علي ،**" الدولة الجزائرية الأولى (PAE)دراسة مؤسساتية "** ،مجلة العلوم الاجتماعية و الانسانية ،العدد 2 ، جامعة باتنة ،الجزائر ،1994 .

3- إخوان زهراء ، **بدايات إستقرار أليات التدخل الأوروبي في المغرب**، في مجلة مكناسة، العدد 11، جامعة مكناس، 1997.

4- أمين محمد: **القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان بالجزائر في القرن الثامن عشر**، المجلة التاريخية العربي للدراسات العثمانية، العدد21، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، سبتمبر، 2000م.

5- آيت بلقاسم فاطمة زهراء، **الحكم العثماني في الجزائر وتونس-دراسة مقارنة-**، مجلة القرطاس، العدد4، جانفي 2017، تمسان ، الجزائر.

6- بلبراوات بن عتو، **بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني (1510-1555م)**،عصور جديدة ، العدد7-8، جامعة وهران ، الجزائر ، 2013/2012.

7- بلحميسي مولاي ، "**غارة شارلكان على مدينة الجزائر (1541م-948هـ) بين المصادر الإسلامية والمصادر الغربية**"، مجلة الأصالة ، العدد8، الجزائر، 1972.

8- ، **نهاية دولة بني زيان** ، الأصالة ، ع 26، جويلية –أوت 1975.

9- بن تاويت محمد ، "**وثيقتان هامتان عن معركة وادي المخازن**"، مجلة دعوة الحق، العدد 8، المغرب،1978م.

10- بن حفري شكيب ، **العلاقات الإسبانية الجزائرية في القرن الثامن عشر الميلادي من خلال مخطوط عثماني**، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع1، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، 2002م.

11- بن قايد عمر ، **أضواء على علاقات الجزائر مع المغرب الأقصى خلال القرن(11م/17م)**، مجلة الواحات للبحوث و الدارسات، العدد17، 2012م.

12- بوشرب أحمد، "**معركة وادي المخازن من خلال كتاب حملة دون سبستيان على إفريقيا لمؤلف برتغالي مجهول**"، مجلة المناهل، العدد 28،السنة العاشرة ، دجنبر 1983.

13- بوعزيز يحي ،" **إسبانيا توسط الجزائر لإبرام صلح مع تونس**"، مجلة دراسات تاريخية، العدد 4،الجزائر، 1988م.

14- التميمي عبد الجليل، " **الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر الميلادي** ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد 10-11، تونس ، 1985.

15- ،"**أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الاول سنة 1519** "، المجلة التاريخية المغربية ، العدد6، يوليو، تونس،1976.

16- درويش الشافعي، **المعاهدة التونسية البندقية سنة 1763م أول معاهدة للسلم بين تونس وجمهورية البندقية في العصر الحديث(دراسة وثيقة)**، مجلة الواحات والدراسات ، مج 12، ع2(2019)، جامعة غرداية.

17- ، **العلاقات التونسية الفرنسية ما بين 1577 و 1685 (التميز والتنوع)** ، مجلة روافد للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والانسانية ، مج 4 ، العدد 2، ديسمبر 2020.

18- الدوري رائد سامي ، **معاهدة الامتيازات العثمانية الانجيلزية 1580،أسباب عقدها -بنودها - نتائجها ، (دراسة تحليلة تاريخية)**، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية ، جامعة بغداد ، مج 4 ، العدد 13 ، حزيران 2012.

19- الساحلي خليل ، **الصراع بين قراصنة تونس والجزائر والبندقية في القرن 17م**، المجلة التاريخية المغربية، العدد 4، زغوان، تونس، 1975م.

20- ،"**تقليد صالح باشا ولاية الجزائر الغرب سنة 1552م**"، المجلة التاريخية المغربية ، تونس،جويلية 1974م.

21- سعيود إبراهيم، **القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية انموذجا**"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، قسم التاريخ ، المركز الجامعي غرداية، العدد 11، 2011.

22- ، **لمحة عن الصراع الجزائري الإيطالي خلال العهد العثماني** ، مجلة دراسات، قسم التاريخ،العدد 07، جامعة الجزائر.

23- سهيل جمال الدين ، **ملامح من شخصية الجزائر خلال القرن 11هـ/17م**، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، العدد 13، 2011، جامعة غرداية ، الجزائر.

24- السويكت فهد بن محمد ،"**موقف الأشراف السعديين من مسألة الخلافة**"، مجلة جامعة الملك سعود، كلية الآداب، الرياض، 2006، ع 19.

25- شاشية حسام الدين " **مراجعة مؤلف جماعي" تونس 1535 أصوات من حملة أوربية** " ، الكراسات التونسية ، العدد 218-219، تونس ، 2014.

26- الصباغ ليلى، **ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ وآخر عام 1568م والدولة العثمانية** ،الأصالة،العدد 27، سبتمبر-أكتوبر ، الجزائر، 1975.

27- صحراوي عبد القادر و عطية محمد، " **مشروع توحيد الإيالات المغاربية في عهد الداي شعبان 1688-1695م**"، مجلة الحوار المتوسطي، العدد 15-16،مارس 2017.

28- طحطح خاليد فؤاد ، "**العلاقات المغربية العثمانية خلال العصر الحديث القرن السادس عشر-اواخر القرن الثامن عشر**"، مجلة كان، العدد 14،السنة الرابعة، ديسمبر 2011.

29- عقيب محمد السعيد ، **دور خير الدين بربروسا في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر** ، مجلة البحوث والدراسات ، العدد 13، 2012.

30- علاوي نسيبة عبد العزيز الحاج ، **البحار العثماني محيي الدين بيري ريس حياته وجهادة البحري 1465-1554**،مجلة التربية والعلم ، مج 16، العدد 4، 2009، قسم التاريخ، جامعة الموصل، العراق، ص ص 75-91.

31- علي أحمد سالم ،"**العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن السادس عشر**" ، مجلة كان ، العدد 13، السنة الرابعة ، 2011.

32- غيلاني السبتي ، "**قراءة في تاريخ العلاقات السياسية الجزائرية المغربية(1516-1912)**" ،مجلة الإحياء، العدد14، جامعة باتنة.

33- الكيلاني شمس الدين ، "**العثمانيون والأوربيون في القرن السادس عشر**" ، مجلة الإجتهاد ، العدد 43، دار الإجتهاد ، بيروت ، 1999.

34- لعبيدي سمير عبد الرسول ،" **حركة الجهاد البحري ونشوء الحكم العثماني في المغرب العربي** "، مجلة الحوار المتوسطي ، منشورات البحوث والدراسات الإستشراقية ، جامعة الجيلالي ليابس ، سيدي بلعباس ، العدد9-10، سبتمبر 2015.

35- لكحل سمية و كروم بومدين ، **ظهور المصطلح الموريسكي ومحاولة اجتثاث الهوية الإسلامية في الأندلس،** مجلة أنثروبولوجية الأديان، العدد 21،أفريل 2018، ص 118.

36- مايدي كمال و بوسليم صالح ، **جوانب من العلاقات الخارجية لإيالة تونس مع فرنسا والدويلات الإيطالية في عهد حمودة باشا الحسيني(1782-1814م)**، مجلة عصور، مج 17، العدد2، ديسمبر 2018.

37- المدني أحمد توفيق ، "**تلمسان بين الزيانيين والعثمانيين 1530-1554م**"، الأصالة ، العدد 26، جويلية –أوت 1975.

38- المستعين عبد الباسط ، **أثرالسياسة الخارجية للمخزن على المدينة المغربية خلال العصر الحديث: سياسة الانفتاح في عهد محمد بن عبد الله نموذجا(1757-1790م)**، مجلة كان التارخية، ع24، جوان 2014.

39- نايت قاسي لياس و بلقاضي مليكة ، **نظام توازن القوى في أوروبا بعد مؤتمر وستفاليا 1648**، مجلة الباحث، العدد01، مج13، ص 08-29، المدرسة العليا للأساتذة الشيخ مبارك الميلي، بوزريعة، الجزائر، 2021.

40- النظام زهراء ، **علاقة السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالإيالات العثمانية في شمال إفريقيا (طرابلس-الجزائر-تونس)**، ورقة علمية قدمت في : أعمال الدورة الثانية الوثائق المرجعية لمعهد سيدي محمد بن عبد الله، جامعة مولاي علي الشريف الخريفية، ،1991.

رابعا: المقالات والدوريات باللغة الأجنبية:

1-De la praimaudaie, **Documents relation du Frere Juan de Iribes sur les evenements deTunis,4janvier1535**,t19,1875.

2- , **Documents**, **mémoire de Luis Presenda Envoye en Mission A Tunis Madrid,7 November 1534**.R.A,t19,1875.

3- ,**Documents inédits…Loccupation Espagnole En Afrique (1506-1574)**,in R.A,T19, Alger,1875.

4- , **document inedits…<< lettre ecrite d Alger par un espion juif**>> in R.A,T19,Alger, 1875.

5- ,**Documents inedits.Lettredefranciscoperezdeidiacayzasa MajesteLimpertrice , Bougie,29 mars 1536**.in R.A ,T21, Alger ,1877.

6-Fernand Braudel **,**" **Les Espagnols et L Afrique du Nord de 1494-1577**"**,** R.A ,t 69,1928.

7-Francisco De Tovar **,Relation adressee au compte d Alcaudete par Migule de Le Ziano ,sur les negociayion avec le cherif Malaga 22 Juillet 1555**,arch de simancas , estado,logjo R.A,t21 , 1877.

8-Fray diego de Haedo,**Histoire des Rois d Alge**r ,Trad par H.D.Grammont,R.A,t24,1880.

9-Joseph de Mazarredo, **Expedition d Oreilly contre Algeer en 1775**, t 08, R.A, Alger, 1864.

10- Watbeld Ernest, **Expediton du duc de Beaufort contre Djidjeli 1664**,R.A, t17, 1873.

خامسا:الرسائل الجامعية:

1- الإمام رشاد ، **سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م**، رسالة قدمت إلى دائرة التاريخ في الجامعة الأمريكية في بيروت، دكتوراه في الفلسفة، لبنان،د.ت.ن

2- بن خروف عمار ، **العلاقات بين الجزائر والمغرب 923-1069هـ/1518-1659م**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة دمشق، 1983 .

3- بن عمار مصطفى ، **التحول السياسي في الجزائر العثمانية(1710-1830م)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: فلة موساوي القشاعي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، 2015-2016.

4- بن قومار جلول ، **معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا : البرتغال – إسبانيا – فرنسا، (986هـ- 1578م/1012هـ- 1603م)**، رسالة ماجستير، إشراف: عمار بن خروف، معهد العلوم اجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ،غرداية، الجزائر 2010-2011.

5- بوبكر محمد السعيد ، **العلاقات السياسية الجزائرية الإسبانية خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي (1119-1206هـ/1708-1792م)**، مذكرة ماجستير، إشراف: مختار حساني، التاريخ الحديث، قس التاريخ، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، 2010-2011م.

6- تومي طاهر ، **العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر على ضوء المصادر المحلية**، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عبد القادر صحراوي، قسم العلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، 2014.

7- جمال سهيل ، **البعثات الديبلوماسية المغربية إلى البلاط الفرنسي خلال القرن 11هـ/17م**، رسالة ماجستير، تاريخ حديث، إشراف: عمار بن خروف، قسم التاريخ، المركز الجامعي غرداية، الجزائر، 2010-2011م.

8- حماش خليفة إبراهيم ، **العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830**،إشراف: خليل عبد الحميد عبد العال، رسالة ماجستير تاريخ والآثار، قسم التاريخ والآثار، جامعة الإسكندرية،القاهرة،مصر، 1998.

9- حمودة سمية مجد ، **حركة الفتح العثماني في القرن (11هـ/17م) دراسة تاريخية حضارية**، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى ، المملكة العربية السعودية، 2006م.

10- حيمر صالح، **التحالف الأوروبي ضد الجزائر عام 1541 وتأثيراته الإقليمية والدولية**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: آجقو علي ، جامعة الحاج لخضر،باتنة، الجزائر، 2007/2006.

11- دكاني نجيب، **الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العشر هجري 10هـ السادس عشر ميلادي 16م**، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: سعيدوني ناصر الدين ، جامعة الجزائر، 2001-2002.

12- دهان بركاهم، **دور القناصل الفرنسيين في العلاقات الجزائرية الفرنسية 1689-1789**،إشراف: براهيم سعيود، إشراف: إبراهيم سعيود،ماجستر في التاريخ الحديث، قسم التاريخ ، جامعة غرداية، 2012-2013.

13- سعيود إبراهيم ، **الأسرى المغاربة في "إيطاليا" خلال العهد العثماني** ، أطروحة دكتوراه ، إشراف: عائشة غطاس ، قسم التاريخ ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر2 ،2009-2010.

14- سي يوسف مجد، **قيلج علي باشا ودوره في البحرية العثمانية** ،رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر الجزائر، 1988.

15- الشمري فاضل حميد رشيد ، **العلاقات التونسية العثمانية في عهد الأسرة الحسينية**، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: نوري عبد الحميد العاني، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، بغداد، العراق، 2020.

16- الطويل امجد سعيد سالم ، **العلاقات السياسية والتجارية بين ليبيا ودول غرب أوربا المتوسطية (1765-1832م/1210-1248هـ)** ، أطروحة دكتوراه في

التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف :الأستاذ الدكتور: عمر بن خروف، قسم التاريخ ، الجزائر ، 2007-2008.

17- كليل صالح، **سياسة خير الدين في مواجهة المشروع الإسباني لاحتلال المغرب الأوسط**، رسالة ماجستير، إشراف: علي اجقو، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007.

18- المكي جلول، **مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من 1234-1847م**، إشراف: مولاي بلحميسي، رسالة ماجستير، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1993.

سادسا: المعاجم والموسوعات:

1-بن منصور عبد الوهاب ،**أعلام المغرب العربي** ، ج1 ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1979م .

2-صابان سهيل ،**المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية** ، مطبوعات الملك فهد الوطنية ، الرياض،2000.

3-عبد الكريم مصطفى ،**معجم المصطلحات والألقاب التاريخية** ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1996م .

4-غربال محمد شفيق وآخرون، **الموسوعة العربية الميسرة**، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة، 1965.

5- ،**الموسوعة العربية الميسرة** ،مج5،ط3،المكتبة العصرية.بيروت 2009.

6-الكيالي عبد الوهاب ،**موسوعة السياسة** ، ج1 ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، د ط ، بيروت،لبنان ، د.ت.ن.

7- المصري حسين مجيب ، **معجم الدولة العثمانية** ،ط1،الدار الثقافية للنشر،القاهرة، مصر ،2004.

الفهارس العامة

فهرس الأعلام.

فهرس الأماكن.

فهرس المحتويات.

1- فهرس الأعلام

2- فهرس الأماكن:

فهرس المحتويات:

الفصل الثاني: تأثير التوازن الجديد ببلاد المغارب داخليا وخارجيا خلال (1551-1587م)

الفصل الثالث: مصير التوازنات ببلاد المغارب خلال الفترة (1587-1705م)- الثوابت والمتغيرات-

الفصل الرابع: مظاهر التحالفات والصراعات في ظل التحولات السياسية في بلاد المغارب خلال الفترة ما بين (1705-1792م)

الملخص:

تتضمن هذه الدراسة موضوع مظاهر التحالفات والصراعات ببلاد المغارب وأثرها في توازن القوى خلال الفترة (1520–1792م)، فهي تركز على الجانب السياسي والعسكري من خلال تلك التحالفات القائمة في ظل الصراعات بين القوى المغاربية من جهة وبينها وبين دول الضفة الشمالية للحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى.

تهدف هذه الدراسة إلى تتبع أهم التحالفات السياسية والعسكرية في إطار الصراع بين مختلف القوى الداخلية(الجزائر، المغرب الأقصى، تونس، طرابلس الغرب) والخارجية(الدولة العثمانية، الدول الأوروبية) خلال تلك الحقبة في بلاد المغارب، وإبراز مدى تأثيرها على توازنات القوى.

الكلمات المفتاحة:

التحالفات، الصراعات، بلاد المغارب، البحر الأبيض المتوسط، الدولة العثمانية، دول أوروبا، توازنات القوى.

Résumé

Cette étude intègre la question des manifestations dàlliances et de confilits au Magheb et leur impact sur les rapports de force au cours de la période(1520-1792 après JC) Il se concentre sur le versant politique et militaire à travers ces alliances existantes à la lumière des confilitis entre les puissances maghrébines d'une part, et entre celles-ci et les pays de la rive nord du bassin marocain de la Méditerranée .

Cette étude vise à retraceer les alliances politiques et militaires dance le cadre du confilit entre les différntes puissances internes (Algérie,Al-Aqsa Maroc, Tunisie, Tripoli, Maroc) et externes (Etat ottman, pays eroupéens) à cette époque dance le Maghreb, et de mettre en évidencel'ampleur de leur impact sur les rapports de force.

Mots clés:

Alliances, conflits, pays du Maghreb , Méditerranée, Empire ottman, pays rurpéens, Équilibres de pouvoir.